رواية



جيرالدين بروكس

أهل الكتاب



ترجمة: حنان علي

رواية

اسم المؤلف: جيرالدين بروكس
عنوان الكتاب: أهل الكتاب
ترجمة: حنان علي
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: 2019

Author: **Geraldine Brooks**
Title: **People of the Book**
Translated by: **Hanan Ali**
Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**
P.C.: **Al-Mada**
First Edition: **2019**



للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت، الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

جيرالدين بروكس

أهل الكتاب

ترجمة : حنان علي



مقتطفات من مقالات حول الكتاب

«حققت رواية جيرالدين بروكس «أهل الكتاب» التوقعات الكبيرة المرجوة منها. إذ يقوم بائعو الكتب بمقارنة مبيعاتها الهائلة بمبيعات كتاب شيفرة دافنشي، إلا أنهم يعتبرونها الإنجاز الأدبي الأهم لعام 2008.

هل أوفت بروكس بوعدها؟ نعم، مع قدر أقل من الضوء الذي ألقي على دافنشي... لو أصبحت بروكس القديسة الجديدة لبائعي الكتب، فهي تستحق ذلك. حيث تثير قصص هاجادا سرايفو، الواقعية والخيالية، شواهد على أهل العديد من الديانات الذين خاطروا جميعاً، لإنقاذ هذه التحفة التي لا تقدر بثمن».

- الولايات المتحدة الأمريكية اليوم- USA Today

* * *

«معقدة وحركية».

- ذا نيو يوركر- The New Yorker

* * *

«في كتاب أهل الكتاب، قامت بروكس ببناء رواية محبوكة بشكل رائع. حيث تناغمت الخيوط المرتبطة بالعالم المعاصر مع مسارات تقودنا نحو التاريخ الأوروبي، إلى الحروب ومحاكم التفتيش والمآسي العائلية، كل هذا يشكل رواية حية، وتنقيباً عاطفياً قوياً».

- دالاس مورنينغ نيوز - The Dallas Morning News

«أنجزت بروكس رواية بارزة، حيث أبدعت قصة جذابة وممتعة، حتى مع محافظتها على مكنونات سريرتها وغرضها الجاد».

- ذا نيويورك سن - The New York Sun

***

«في أعماق رواية جيرالدين بروكس المبهجة - الكتاب الذي لعله يضع المعايير التي يُقاس وفقاً لها الخيال في عام 2008 - لا يزال الجانب المثير للاهتمام كامناً في أسرنا - سنقع في حفرة أرنب ليختفي العالم بأسره، يتعامل أهل الكتاب مع ستة قرون من الخبرة العالمية، بهذا المعنى... تدمج رواية بروكس بدقة ومحبة الغموض والتاريخ، مع القصة الشخصية لبطلتها خبيرة الكتب النادرة المختصة في حفظ الكتب حنا هيث... النابضة بالحياة».

- هيوستن كرونيكل - Houston Chronicle

***

«هل سبق لك أن التقطت كتاباً من أحد متاجر الكتب المستعملة، وحصلتَ منه على إيصال ما، أو اكتشفت رقم هاتف مكتوباً على ورقة غافية بين طياته، أو قرأت نقشاً عن مشاعر دافئة لشخص لم تصله؟ هل جعلك تتساءل عن حياة أولئك الذين قلبوا تلك الصفحات قبلك؟ يعبر أهل الكتاب عن هذه الدسائس بالذات».

- شيكاغو سن تايم - Chicago Sun-Time

***

«ممتازة... حبكة مقنعة. تنتقل بروكس بسلاسة من - «البقع الصغيرة» - لدراسة الأحداث العائدة للقرن الثالث عشر، وصولاً للقرن الحادي والعشرين، التي تحمل المعاني الإنسانية، التساؤلات، صعود معاداة السامية والنازية، المحرقة، الحروب الدينية والنفي القسري في

البوسنة والبندقية وبرشلونة وإشبيلية. قامت بذلك مستخدمة توصيفاً لا تشوبه شائبة مضاء، مثل الهاجادا نفسها».

- ميامي هيرالد The Miami Herald-

***

«بروكس... مهيأة بشكل جيد لمعالجة هذه القصة المبهمة. إن معرفتها بالفن وعينها المقتنصة للتفاصيل، أحيت أجزاء هامة من التاريخ».

- شارلوت أوبزرفر The Charlotte Observer-

***

«ستصبح هذه الرواية الضليعة، المثيرة واحداً من أكثر الأعمال الواقعية الخيالية نجاحاً في العام الجديد».

- آلان شوز – NPR's All Things Considered

***

«كل الأشياء التي أمعنت بها بروكس في أهل الكتاب... تجتاحنا بعيداً بشكل لا يقاوم. رواية ممتعة إلى حد كبير».

- إيل – Elle

***

«مكثفة، تقبض على رواية مختلفة. «أهل الكتاب»، مثل روايتها السابقة (آذار) الحائزة على جائزة بوليتزر، ليست سوى رحلة قوة توفر درساً مدهشاً مستمداً من التاريخ... أما الصياغة فرائعة مدهشة ومثيرة. سمحت لبروكس إظهار قدرتها على استيعاب الأبحاث، ونقل بيئات عديدة. إضافة إلى شعورها الحماسي بالوتيرة الدراماتيكية».

- سان فرانسيسكو كرونيكل San Francisco Chronicle

***

«تقدم بروكس هدية، تحقق التوازن بين البحث مع سرعة وتخطيط».

- لوس أنجلوس تايم - Los Angeles Times

* * *

«جيرالدين بروكس - ألفت روايتين رائعتين، سنة العجائب وآذار الحائزة على جائزة بوليتزر - حيث تفوقت على نفسها... إنها أفضل رواية تاريخية تمكنتْ من تسليط الضوء على الماضي، بينما تعلق على العصر الحالي.

طرح الكتاب تساؤلات قديمة معاصرة... نجح ببراعة في تقديم الخيال التاريخي... أغرقنا بشكل معقول في الماضي البعيد الغريب مثيراً المخاوف التي لا تزال هائلة حتى اليوم».

المسيحية اليوم - Christianity Today

* * *

«مثل بطلاتها الخياليّات، تُظهر بروكس قوتها الخيالية عبر حلم عائد إلى خمسة قرون غنية بالشخصيات، المرتبطة بسحر وجمال هاجادا ساريڤو».

- دستور أتلانتا جورنال - The Atlanta Journal-Constitution

* * *

«لافت للنظر... أهل الكتاب، كتاب جيد للغاية ومليء بالمفاجآت من الناحيتين الأدبية والتشويقية. المشكلة الأكبر التي واجهتني هي تهدئة حماسي. لم أود أن أبدو متهوراً أثناء القراءة. لكني عجزت عن التقاط أنفاسي؛ هذا ببساطة أحد أفضل الكتب التي قرأتها ولا أعرف منذ متى».

- صحيفة ميلوكي سيتنل - Milwaukee Journal Sentinel

* * *

«رواية جيرالدين بروكس الثالثة تتمتع بالجاذبية القوية ذاتها، كروايتيها الأكثر مبيعاً: عام العجائب وآذار... أهل الكتاب منحت

المؤلفة الفرصة لدخول أوقات عصيبة ومحورية في التاريخ، عبر سرد قصة حميمة ونفسية للغاية، لدرجة أننا نشعر بأنفسنا هناك».

- مور - More

* * *

«رواية متعددة الطبقات تتحول عبر القرون والقارات... في كتاب أهل الكتاب تمسك بروكس بحبكتها بفكي كماشة، بقبضة قوية».

- تايم آوت نيويورك - Time Out New York

* * *

«عمل تاريخي مترامي الأطراف - يعتمد على نص عبري قديم - يتم تخيله بشكل غني، مثير إلى حد لا يطاق في بعض الأحيان... كتاب طموح، وناجح كلياً في محاولته إعطاء فكرة المعجزة، إنه يحزم جوهر التاريخ».

- ستار تريبيون مينوبوليز - (Minneapolis) Star Tribune

* * *

«هو جهد طموح مليء بالعديد من التفاصيل والشخصيات والقصص التاريخية الرائعة، قادر بمكان على إلقاء تعويذة في الصفحات».

- أخبار روكي موانتين - Rocky Mountain News

* * *

«تمهد بروكس بمهارة، الطريق لكل ما يتبع فصلها الافتتاحي المكتظ بالمعلومات الذي يمكن التمتع به بشكل كبير».

-شيكاغو تريبيون - Chicago Tribune

* * *

«رواية مبهرة جديدة... تظهر بروكس بأفضل حالاتها... لحسن الحظ، لا تتوقف عطاياها الروائية».

- الناشرون الأسبوعية- Publishers Weekly

«مع براعة توازي رواياتها السـابقة، رحلة للوراء في الوقت الحالي، مثيرة للإعجاب».

- بوكليسـت - Booklist

* * *

«رواية رائعة، مزيجٌ مدهش من الغموض والتاريخ، فوق كل شيء، إنها أكثر الكتب مبيعاً مع «دافنشي». بعد القيام برحلة بروكس التي لا تقاوم عبر الزمن برفقة كتاب قديم رائع، قد تتمنى أن تتمكن من الصعود إلى الطائرة التالية إلى سـرايـيفو لتحيا القصة الحقيقية».

- بوك بيج- BookPage

* * *

«كل قصة في الرواية، نسجت بذكاء سردي».

- مجلة المكتبة - Library Journal

* * *

«سرّ الغموض التاريخي... تشويق غني يستند إلى لغز حقيقي من الأدب».

- مراجعات كيركوس - Kirkus Reviews

* * *

«لدي شعور بأن هذا الكتاب سيُخلد».

- Gather.com

* * *

«إن قدرة جيرالدين بروكس، مراسلة الحرب السابقة لصحيفة وول ستريت جورنال، في البوسـنة أثناء حصار سرايـيفو، على تكريس اللحظات المؤلمة والمفصلة من المعاناة والفقد الرهيب حاضرة في كل مكان في هذه الرواية... إن استكشاف بروكس وخلقها لأحداث تخص

الهاجادا، هما جوهر المسألة هنا، أما القصص التي تحكي عن الحفاظ عليها فمذهلة، وتستحق بالتأكيد النشر».

- بطرسبورغ بوست كازيت - Pittsburgh Post-Gazette

حيثما يُحرق الكتاب، يُحرق لاحقاً الإنسـان.

• هاينريش هاينة

حنا

سراييفو، ربيع 1996

اكتسبتُ على مدار الزمن شهرة امرأة قادرة على العمل بفعالية خارج المختبر حين يتعين عليها. هذا ما يحدث عادة، حين لا توافق المتاحف على دفع تأمين السفر لمحفوظاتها لفترة قصيرة، أو أن جامعي الآثار يرغبون بالحفاظ على سرية ما يمتلكونه من قطع أثرية. إلا أن العمل بمفردي في مختبري النظيف الهادئ، بنوره الوضاء، وجوّه الملائم، بينما تحتشد أدوات البحث جميعها في متناول يدي، لم يمنعني من اجتياز مسافات طويلة حول العالم لإشباع شغفي بعمل مثير للاهتمام، لكنني لم أتوقع يوماً أن أنوء بمختبر بحثٍ كهذا؛ بمهمة لا يبدو أنها ستثير شغفي كسابقاتها، في مكان ليس سوى غرفة اجتماعات في قبو أحد البنوك وسط المدينة، حيث صمتَ إطلاق النار بين المتحاربين، قبل خمس دقائق فقط.

في مختبري الأساس، لا يوجد حراس يحلقون فوق رأسي. أعني، يتواجد في المتحف عدد قليل من رجال الأمن المهنيين يبحرون في المكان، لكن لا يحلم أي منهم بالتطفل على مساحة عملي. الأمر هنا مختلف؛ الطاقم مكون من ستة عناصر، اثنان منهم حارسا أمن بنكين، اثنان من الشرطة البوسنية مكلفان بمراقبة الأمن المصرفي، أما الأخيران فمن قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة يقومان الآن بمراقبة الشرطة البوسنية. ليتشارك الجميع بصخب المحادثات البوسنية أو

الدنماركية عبر أجهزتهم اللاسلكية. كأن هذا الحشد ليس بكاف فأضيف إليه المراقب الرسمي للأمم المتحدة المدعو هاميش ساجان، سيخي إسكتلندي، رجلٌ أنيق جداً بثيابٍ من هاريس تويد وعمامة نيلية اللون. إنه الرجل الذي طلبت منه أن يشير إلى البوسنيين بأن التدخين ممنوع في غرفة تستعد لاستقبال مخطوطة تعود للقرن الخامس عشر. من يومها والتوتر عابق بالمكان.

انتظار بدأ يشعرني بالضيق، ساعتان حاولت خلالهما ملء الوقت قدر استطاعتي. أزحتُ، بالتعاون مع الحراس، طاولة المؤتمرات الكبيرة قرب النافذة للاستفادة من الضوء. جهزتُ المجهر ورتبتُ أدواتي؛ كاميرات التوثيق، المجسات والمشارط. الجيلاتين المتموضع داخل دورقه فوق لوحه الحراري، معجون القمح والخيوط الكتانية والورق الذهبي بجوار الظروف الزجاجية. هذا كله في حال كنتُ محظوظة كفاية للعثور على أي آثار متبقية في غلاف المخطوطة.

إنه لأمر مدهش ما يمكن معرفته عن كتاب ما عبر الكيمياء! معجون القمح، عينات متنوعة من جلد العجل، لفائف من الورق المصنوع يدوياً بقوام وألوان مختلفة وزبد داخل قالبه... استعداد تام لاستقبال الكتاب. في حال أحضروا لي الكتاب!!

سألت ساجان: «ألديك أي فكرة كم من الوقت سنضطر إلى الانتظار؟» هز كتفيه مجيباً:

«أعتقد أن السبب ناجم عن تأخير مندوب المتحف الوطني. بما أن الكتاب ملك المتحف، فليس من صلاحية البنك إخراجه من الخزنة إلا إذا كان المندوب حاضراً».

مشيت بمشقة نحو النافذة المطلة من الطابق العلوي للمصرف، المبني على نمط كعكة زفافٍ نمساوية مجرية بواجهة مغطاة بالجبس، مرقطة بقواطع مثل أي مبنى آخر في المدينة. لمستُ الزجاج بيدي فتسرب البرد لاذعاً، من المفترض أننا في فصل الربيع، إلا أن أغصان

الزعفران المزهرة في الحديقة المجاورة لمدخل البنك، سرعان ما تجمدت في وقت مبكر من صباح اليوم، مكللة في أعلاها برغوة من رقائق الثلج، لتبدو مثل كوب صغير من الكابتشينو. الثلج الذي أشرق بالضوء في أنحاء الغرفة، جعل منها مكاناً مثالياً للعمل، آه هذا لو تمكنت فقط من الحصول على مبتغاي المنتظر لأبدأ العمل!

لا بد أن أستهل الوقت بنشاط ما، نثرت ببساطة بعضاً من أوراقي المصنوعة من الكتان الفرنسي الخشن. مررت بمسطرة معدنية فوق كل ورقة في محاولة تمليسها. كان صوت عبور الحافة المعدنية فوق الورقة الكبرى مماثلاً لصوت الأمواج التي تسرب بهديرها إلى شقتي في سيدني.

لاحظت أن يديّ ترتعشان، إنه مؤشر ليس بجيد إن أردت المتابعة بمهتي هذه. يداي هاتان ليستا إحدى ميزاتي الأفضل. إنهما متشققتان، متجعدتان. لطالما حلمتُ بهما نحيلتين ناعمتين كبقية أجزاء جسدي، إلا أنهما مختلفتان وكأنهما لا تنتميان لهذين المعصمين.

«لا تختلفان كثيراً عن يدي الخادمة» هكذا نعتهما أمي في جدالنا الأخير. أمي التي دفعتني كلما اضطررت لمقابلتها في كوزموبوليتان لتناول القهوة، لارتداء زوج قفازين من سالفوس على سبيل الدعابة. لقاءٌ يجمع امرأتين هشتين كندفتي ثلج، على أي حال، ربما تعتبر كوزموبوليتان المكان الوحيد في سيدني حيث قد تساهم إيماءة بفكاهة ما. هذا ما فعلته والدتي حين أخبرتني عن ضرورة الحصول على قبعة تماشى مع القفازين!

بدت يداي أسوأ من المعتاد في ضوء الثلج الساطع، تقشرٌ واحمرارٌ ناجمان عن العملية المتكررة لتجريف الدهون من أمعاء البقر بحجرٍ من الخفان. لا توفر لك المعيشة في سيدني سهولة في الحصول على متر من أمعاء العجل. خاصة حين قاموا بنقل المسلخ من هومبوش، في

خطوة لتهيئة المكان لدورة الألعاب الأولمبية لعام 2000، وعليه توجب قيادة السيارة لنهاية المعمورة لنيل هذا المبتغى. الكثير من رجال الأمن المجندين لحماية الحيوانات، تلقاهم في الدرب المؤدي إلى البوابة الرئيسية التي بالكاد تصل إليها. لا أتذمر من نظراتهم تلك التي تصفني بغريبة الأطوار، ولا ألوم من يلقيها علي، إذ من الصعب عليهم إدراك ماهية الحاجة إلى متر واحد من أمعاء عجل!

يقول أستاذي فيرنر هاينريش: «إن كنت تتعامل مع مواد عمرها خمسمئة عام، فعليك أن تعرف كيف تم صنعها قبل خمسمئة عام». هذا ما يعتقده: «بإمكانك أن تقرأ ما تشاء عن سحق الأصباغ وخلطها بالجبس، لكن الطريقة الوحيدة لفهم العملية هي القيام فعلياً بذلك». بالنسبة إلي إن وددتُ التعرف على ما تصفه كلمات مثل: الهدوء والدقة في العمل، يتوجب علي أن أقوم بصناعة ورق الذهب بنفسي: طرقها وطيها ثم طرقها وهي متكئة على أرضية رخوة لا تلصق بها كأمعاء العجل المصقولة. لأحصل في نهاية المطاف على حزمة صغيرة من الأوراق الذهبية، بثخانة تقل عن جزء من ألف جزء من المليمتر، ويدين مروعتين!

إن محاولة تمليس تجاعيد يدي، أمر سأنظر بشأنه لاحقاً. أما عن ارتعاشهما، فالأمر أشد صعوبة خاصة أن أعراض الرعدةِ بدأت منذ غيرتُ طائرتي المتجهة إلى فيينا قبل يوم من الموعد. أسافر كثيراً؛ السفر واجبٌ عليك فعله إن كنت تعيش في أستراليا وتريد الانخراط في أكثر المشاريع إثارة للاهتمام: الحفاظ على مخطوطات القرون الوسطى. مع هذا أتجنب السفر إلى أماكن يقصدها مراسلو الحرب. أعلمُ أن هناك أشخاصاً كثيرين ينجذبون لمثل هذه البلدان، ويخطون كتباً رائعة عنها، لا بد أن لديهم الكثير من التفاؤل بما يجعل من السفر حدثاً مثيراً. أما عني فأنا امرأة متشائمة، وإن عاد الأمر لي لراهنتُ أن أيّ قناص في مكان ما في البلد الذي سأقوم بزيارته، لن يرى سواي هدفاً سهلاً في مرماه.

الحرب في الأسفل مرئية من شباك الطائرة، تظهر السحب الرمادية

وكأنها الحالة المستديمة للسماء الأوروبية. أما البيوت الصغيرة المزينة بالرخام والمعانقة للبحر الأدرياتيكي فتبدو مألوفة في البداية، تماماً كما اعتادت أن تكون في سيدني، أسطح حمراء تنحدر نحو شاطئ بوندي الأزرق العميق. إلا أن نصف المنازل لم تعد هناك الآن. أضحت ركاماً من الحجارة الملتصقة في صفوف خشنة كالأسنان المتعفنة.

معركة في الجبال جال بصري عليها، أثناء عبورنا إلى البوسنة، بما فاق احتمالي فسارعتُ بإسدال ستارة النافذة. من الواضح أن الشاب الجالس جواري - العامل في مجال المساعدات كما أظن - بوشاحه الكمبودي ونظرته الباهتة، كان يريد أن يشاهد ما يحدث، لكنني تجاهلت لغة جسده وحاولت أن أشتت انتباهه بسؤال:

- حسناً، ما الذي أتى بك إلى هنا؟

- إزالة الألغام.

كم كان يغريني أن أسأله عن أمور ضمن السياق الطبيعي لراكبين متجاوري المقاعد في طائرة، عن ازدهار الأعمال؟ مثلاً لكنني ضبطتُ نفسي وانكفأت. هبطنا، ثم قمنا من مقاعدنا، لنحتشد جميعاً في الممر، فتشنا عن أغراضنا في الصناديق العلوية. كان يحمل حقيبة ضخمة كادت تكسر أنف الرجل الواقف في الممر خلفه. رحالة قاتل كهذا الرجل، بدرجة دوران تبلغ 90 درجة، قد تراه على متن الحافلة في بوندي طوال الوقت.

فُتح باب الكابينة أخيراً، تسرب الركاب إلى الأمام كما لو أنهم ملتصقون معاً. كنت الوحيدة التي لا تزال في مقعدها، كما لو أنني ابتلعتُ حجراً ثبتني في مكاني.

«دكتورة هيث؟». خاطبتني مضيفة الطيران أثناء تجوالها في الممر الخاوي.

كنت على وشك القول، «لا، لستُ أنا بل والدتي»، أدركت أنها تقصدني. أستراليا البلد الوحيد الذي تتباهى به بدرجات الدكتوراه فعلياً، أما هنا فلا أعتقد أنها تتفقدني بصفة ما بخلاف صفة سيدة:

«إن مرافقتَك التابعة للأمم المتحدة تنتظرك على المدرج». لاحظت بالفعل، في الفترة التي سبقت قبول هذه المهمة أن الأمم المتحدة ترغب في منح الجميع المعاملة الأكثر رقياً.

«مرافقة؟» كررتُ بغباء. «اعتقدتُ أنني سألتقي سائق سيارة أجرة مملاً، يحمل لافتة باسمي مكتوبة بأخطاء إملائية عدة». رسمتْ مضيفة الطيران على وجهها ابتسامة ألمانية عريضة ثم انحنت صوب النافذة، لتزيح الستار المغلق. نظرتُ إلى الخارج فلمحتُ ثلاث شاحنات ضخمة بنوافذ مظللة، مغطاة بالدروع واقفة أمام الطائرة، مركبات من النوع الذي يرافق الرئيس الأمريكي في تنقلاته، مشهدٌ من المفترض أن يزرع الطمأنينة، لكنه أثقل الحجر في أحشائي أكثر فأكثر.

بعيداً عنها، وسط العشب الطويل، وُضعت منشورات تحذير من الألغام بلغات مختلفة، تمكنت من رؤية هيكل طائرة شحن ضخمة، يبدو أنها غابت عن مدرجها بفعل أحداث سيئة. عدت إلى وجه الآنسة الألمانية المبتسم، وقلت:

- أظن أن وقف إطلاق النار أمر تجري متابعته.

- «إنه كذلك، أغلب الأيام»، قالت بحيوية. هل تحتاجين أي مساعدة لحمل حقيبة يدك؟

هززت رأسي، وانحنيت لأرفع الحقيبة الثقيلة المثبتة بإحكام تحت المقعد أمامي، لا تفضل شركات الطيران بشكل عام نقل أدواتٍ معدنية حادة على متنها، ولكن الألمان يحترمون المهنية. حتى أن المعني بتسجيل الدخول للطائرة تفهم شرحي له عن امتعاضي من عملية البحث عن أدواتي في حال انتهى بها المطاف بجولة في أوروبا من دوني، بينما أجلس في الناحية البعيدة غير قادرة على القيام بعملي.

أحب عملي. هذا هو الأمر. هذا هو السبب. بالرغم من كوني جبانة من طراز عالمي، فإنني وافقتُ على تولي هذه المهمة. كي أكون أكثر شفافية؛ ما كنتُ لأرفض مهمة كهذه! لا يُعرِضُ المرء عن فرصة عمل مع مخطوطة هي الأندر والأكثر غموضاً في العالم.

مكالمة تلقيتها عند الساعة الثانية صباحاً، شأنها شأن العديد من المكالمات التي يتلقاها قاطنو سيدني. اتصالاتٌ ليلية تدفعني أحياناً إلى التساؤل، كيف يمكن لأذكى الأشخاص كمديري المتاحف أو مديرين تنفيذيين مشهورين دولياً، أولئك الذين يمكنهم إخبارك عن لحظة تواجد هانغ سنغ بأي زمن من الأزمان، ليفشلوا بتذكر حقيقة بسيطة مفادها أن سيدني تسبق لندن بتسع ساعات، بتوقيتٍ يتقدم أربع عشرة ساعة عن نيويورك. أعتقد أن أمياتي يومتوف رجل حدق، بل إنه الأكثر ذكاء في هذا المجال، لكن ألا يمكنه تحديد فارق التوقيت بين القدس وسيدني؟

«شالوم، تشانّا» بلهجته السابراوية[1] متقدماً اسمي بصوتِ «تش» الحلقي كعادته.

«آمل ألا اكون أيقظتك؟».

قلت له: «لا، أمياتي». «الساعة الثانية صباحاً، التوقيت الأفضل لي من أوقات اليوم».

«آه، حسناً، آسف، ولكني أعتقد أنك مهتمة بمعرفة أن هاجادا[2] سرايفو قد ظهرت».

«لا!» غمرني صحو كامل، أمم، يا لها من أخبار رائعة».

خبرٌ رائع حقاً، لكن يمكنني قراءته بسهولة عبر رسالة إلكترونية في ساعة حضارية. لم أفهم ما الذي أوحى لأمياتي ضرورة الاتصال بي.

1- سابرا؛ يَهُودِيٌّ مَوْلُودٌ في فِلَسْطِين «Sabra Jewish».

2- كتاب هاجادا سرايفو: من الكنوز العرقية التي يحتفظ بها المتحف الوطني في البوسنة و يضم منمنمات مضاءة عن طقوس عيد الفصح اليهودي. الكتاب عائد للقرن الرابع عشر

أميتاي، مثله كمثل معظم اليهود الصابرا بشخصياتهم اللطيفة المتحفظة، لا بد أن هذا الخبر جعله متحمساً:

«كنتُ على يقين أن هذا الكتاب سيصمد في وجه القنابل، كنتُ واثقاً أنه سينجو».

هاجادا سرايفو؛ مخطوطة عبرية شهيرة نادرة نُقشت في إسبانيا منذ العصور الوسطى، في زمن كان الاعتقاد اليهودي فيه يتعارض بشدة مع التمثيل التصويري، حيث إن الوصية الثانية[3] في سفر الخروج: «لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة أو شبيهاً ما من أي شيء» عملتْ على قمع الفن التشكيلي من قبل يهود العصور الوسطى. واستمر هذا الاعتقاد حتى ظهور المخطوطة في سرايفو عام 1894، بصفحاتها المكتظة بالمنمنمات الملونة المُضاءة التي قلبت هذه الفكرة رأساً على عقب وصار لزاماً إعادة خطّ تاريخ الفن من جديد.

إبان فترة الحصار في سرايفو عام 1992، حين أضحت المتاحف والمكتبات في مرمى المعارك، اختفت المخطوطة.

تقول إحدى الإشاعات إن الحكومة البوسنية المسلمة قد باعتها بغية شراء الأسلحة. إشاعة أخرى تشي بتهريبها عبر نفق تحت مطار سرايفو من قبل عملاء الموساد. لكنني لا أصدق السيناريوهين كليهما.

أعتقد أن هذه المخطوطة الجميلة ليست سوى جزء من إعصار أوراق أججته الحرب، وثائق الأراضي العثمانية من ضمنها، المصاحف القديمة والمخطوطات السلفية التي تناثرت مع ألسنة القنابل الفوسفورية الحارة.

«لكن، أميتاي، أين كانت هذه المخطوطة طيلة السنوات الأربع الماضية؟ كيف ظهرت؟ يصادف اليوم عيد الفصح اليهودي! أليس

3- تقول الوصية الثانية في سفر الخروج: «لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت، مما في الماء من تحت الأرض».

كذلك؟» أذكر أنني ثملت في فصح يهودي مضى، في الواقع ما زلت ثملة بقطرات النبيذ الأحمر الأخيرة التي ارتشفتها أثناء مشاركتي في ذاك العيد الصاخب، غير التقليدي الذي استضافني فيه أحد زملائي على الشاطئ. لا يغيب عن ذاكرتي فطير الـ «سيدر» الذي تناولته ليلتها، «سيدر» كلمة عبرية تعني «نظام»، في ليلة كانت من أكثر الليالي فوضوية في تاريخي الحديث.

«حسناً، الليلة الماضية كانت الجالية اليهودية في سراييفو تتناول السيدر، وبشكل مثير للغاية خلال السهرة تم الإعلان عن ظهور الهاجادا. ألقى بعدها رئيس المجمع خطاباً أوضح فيه أن نجاة المخطوطة ما هو إلا رمز لديمومة التنوع العرقي في سراييفو. هل تعرفين من أنقذها؟ إنه شخص يدعى أوزرين كارامان أمين مكتبة المتحف، ماضياً بها تحت ستار من القصف المكثف». بدا صوت أميتاي أجشّ أكثر: «هل تصدقين تشانا... رجل مسلمٌ خاطر بحياته لحماية مخطوطة يهودية».

لا أظن أن رجلاً كأميتاي ستثيره روايات البسالة والجسارة، خاصة أن أميتاي، بناء على وشاية زميله الكثير الكلام، أمضى خدمته العسكرية الإلزامية في فرقة كوماندوس بسرية شديدة، لدرجة أن الإسرائيليين كانوا يشيرون إليها باسم «الوحدة» فقط. الأمر انتهى منذ زمن طويل، إلا أنني حين قابلته أول مرة، فاجأني ببنية جسده وأسلوب حديثه. عضلات مشدودة لقامة رجلٍ رافعٍ للأثقال، بعبارات فائقة الحذر. يحدق بك مباشرة أثناء حديثه، بينما تَمسح عيناه المكان بقية الوقت، ليترك انطباعاً لديك أنه ضليعٌ بكل شيء.

بدا غاضباً حينما سألته عن «الوحدة» وقاطعني قائلاً: «لن أؤكد لك الأمر البتة» لكنني أعتقد أنه من المذهل أن تقابل عنصر كوماندوس سابقاً في أمر يخص حماية مخطوطة.

«إذاً... ما الذي فعله الرجل ذاك مع المخطوطة حين وصلت إلى يديه؟».

«أودعها في صندوقٍ آمنٍ في قبو البنك المركزي. أيمكنكِ تخيل ما كان سيحدث للورق النفيس!» كل شخص في سراييفو افتقد الدفء لشتاءين سالفين على الأقل... إنها في صندوق نقد معدني... معدني أو غيره... إنها هناك الآن. آه لا يمكنني احتمال التفكير في الأمر. على أي حال، تريد الأمم المتحدة أن يتفحص أحد ما حالة المخطوطة، سيدفعون مقابل أي عمل ضروري لدراستها. إنهم يرغبون بعرضها في أقرب وقت ممكن، بهدف رفع معنويات المدينة كما تعلمين. حين رأيت اسمك في برنامج المؤتمر الذي سيعقد في تيت الشهر القادم، وبما أنك قادمة لهذا الجانب من العالم، فكرت أن هذه المهمة تليق بك».

«أنا!!!»... صحيح أنني بارعة في مجال عملي، لكن صرختي لم تكن أبداً تظاهراً بالتواضع. إن مهمةً كهذه فرصة تجيء مرة في العمر، عدا عن تواجد ما لا يقل عن اثني عشر مختصاً في هذا المجال لسنوات أكثر، وعلى مدار الساعة وبسهولةٍ ناحية الاتصالات في أوروبا.

«لماذا أنا ولستَ أنت؟» سألت.

كان أميتاي العارف الأكبر بهاجادا سراييفو أكثر من أي شخص حي، والباحث الذي قام بالكثير من الدراسات حولها. أعرف أنه يتوق إلى فرصة كهذه يتعامل فيها مع المخطوطة الفعلية. إلا أنه رد بحسرة عميقة:

«أمضى الصرب السنوات الثلاث الماضية مصرين على أن عدداً كبيراً من البوسنيين المسلمين متطرفون. حتى بدأ عدد قليل من البوسنيين بتصديقهم أخيراً. يبدو أن العرب ذوو يد التبرع الكبرى هناك الآن، وعليه زادت المعارضة بتكليف إسرائيليين بالعمل في هذا الشأن».

«أوه أميتاي... للأسف!».

«لا بأس تشانا، كل شيء على ما يرام. الشركة التي أعمل بها جيدة. في الواقع اقترحت فيرنر أولاً - لا أقصد التقليل من شأنك- لكن هير دكتور فيرنر ماريا هاينريش أكثر من مجرد معلم لي، لكنهم لا يريدون أن يبحث في المخطوطة ألماني أيضاً».

لكن رغم هذا وبعد أميتاي نفسه، الرجل العبري المختص بالمخطوطات البارز حول العالم، لم يكن من المحتمل أن أقوم أنا بهذا الدور! أوضح أميتاي:

لا يزال البوسنيون يحملون الضغينة ضد ألمانيا بالمقام الأول نتيجة إشعالها الحرب في بلادهم، بعد اعترافها بسلوفينيا وكرواتيا. من جهة ثانية لا ترغب الأمم المتحدة بأن يكون الباحث أمريكياً، إذ إن الكونغرس الأمريكي دائم التذمر في اليونسكو. لذا ظننتُ أنه من الجيد أن تكوني أنت القائمة بالمهمة... لا يحملُ أحدٌ وجهة نظر سيئة تجاه الأستراليين. كما أنني أخبرتهم بالمهارات الفنية الجيدة التي تمتلكين.

«أشكرك على تصويتك هذا»، ومن ثم قلت له بصدق أعمق، «أميتاي، لن أنسى ذلك أبداً. ممتنة حقاً».

«يمكنك رد الجميل بالتوثيق المتقن للمخطوطة، يمكننا على الأقل طباعة نسخ جميلة عنها. هلا أرسلتِ لنا الصور ومسودات تقريركم في أقرب وقت ممكن!» بدا صوته حزيناً لدرجة أنني شعرت بالذنب حيال اختياري شخصياً.

بقي أمر واحد كان عليّ أن أسأل عنه.

«أميتاي، هل هناك أي مشاكل في أصالة المخطوطة؟ أنت تعرف مدى الإشاعات، خلال الحرب».

«لا، ليس هناك أي مخاوف. أمين المكتبة كارامان ورئيسه مدير المتحف صادقا عليها من دون أدنى شك. تنحصر مهمتك في هذه المرحلة بالجانب التقني فحسب».

«تقني... سنرى» قلت لنفسي. الكثير مما أقوم به هو عمل تقني؛ عادة ما تكون العلوم والحرفية بالعمل مهارات يمكن تعليمها لشخص ذكي يمتلك براعة حركية دقيقة. إلا أن هناك إضافة لا يمكن إغفالها، ملكةٌ متعلقة بالماضي، حين يربط الباحث بين بحثه والخيال. لطالما وجدتُ

نفسي في رؤوس أولئك الأشخاص الذين أبدعوا المخطوطات. وصلتُ إليهم، تعرفتُ عليهم، على أسلوب عملهم، على أسرار حرفتهم... إنها طريقتي في إضفاء حبة رمل على شاطئ رمال المعرفة البشرية.

هذا جلّ ما أحب فعله. الكثير من الاستفسارات حول هاجادا سرايفو تدور في رأسي، هذا إن كان بإمكاني الإجابة عن واحد منها فقط.

لم أستطع العودة إلى السرير، ألقيت عني ثياب النوم وخرجت. لا تزال تعكّر صفو الشوارع الليلية رائحة الجعة المحتساة الممزوجة بعبق الدهون المقلية، أثيرٌ نتن رافقني وصولاً إلى الشاطئ حيث بدأ البحر ينفث عبيره نقياً مالحاً. أكثر من نصف سكان هذا الكوكب عاجزون عن إيقاف هدير المحيط، كيف يفعلون ذلك في فصل خريف بليلة منتصف الأسبوع، حيث لا أحد في الأنحاء عدا بعض السكارى الشاردين. عبرتُ باسترخاء قرب جدار نادٍ للأمواج، لمحتُ عاشقَين على الشاطئ متشابكين ملتحفين بمنشفة... لم يكن ليلاحظني أحد.

بدأتُ بالمشي على طول حافة الزبد المتلألئ عبر الرمال المطلية بالظلام. ما كنتُ لأدرك أنني بلحظة ما، سأركضُ وأقفزُ وأراوغ الموجات المتكسرة كطفل شغوف كما فعلتُ تلك الليلة.

هذا كله كان قبل أسبوع. إلا أن شعور الابتهاج خبا في الأيام التالية، ثم دُفن تدريجياً بتأثير إجراءات التأشيرة، وإعادة إصدار تذاكر الخطوط الجوية، إضافة إلى القواعد الصارمة للأمم المتحدة، والجرعة الزائدة من توتر الأعصاب. حينما كنت أترنح بفعل ثقل حالتي نزولاً على درج الطائرة متوجهة نحو المدرج، حاولتُ أن أذكر نفسي بأن هذا العمل بالضبط هو ما يشغفني.

بالكاد حظيتُ بثانية، أرمق خلالها الجبال المتعالية في كل مكان حولنا، التي بدت كحافة وعاء عملاق. سرعان ما وثب جندي بخوذة زرقاء، طويل القامة إسكندنافي المظهر مستولياً على حقيبتي، رامياً إياها في الجزء الخلفي من الشاحنة.

«على رسلك! معدات دقيقة هناك»، أما رد المجند الوحيد فكان الإمساك بذراعي ودفعي صوب المقعد الخلفي، صفع الباب بعدها وقفز إلى جوار السائق. نقرٌ تلقائيٌ لأقفالِ الأبواب ومن ثم قام السائق بإطلاق محرك سيارته.

«حسناً، إنها المرة الأولى بالنسبة إلي...» قلتُ، في محاولة إضفاء هَزلٍ فاتر: «لا يحتاج الباحثون في المخطوطات، عادةً، إلى دعوات سفر في سيارات مدرعة». لم يكن هناك رد من الجندي أو من المدني الهزيل الذي ألقى نظرة سريعة على عجلة السيارة الضخمة، وسرعان ما سحب رأسه بين كتفيه مثل السلحفاة.

رمقتُ عبر زجاج السيارة المظلل، المدينة المدمرة بأبنية مطموسة المعالم بددتها الشظايا المتناثرة. عرباتٌ مسرعة تجنحُ بعيداً عن الحفر الغائرة بفعل قذائف الهاون، لترتطم بالإسفلت الذي مزقته مسارات العربات المدرعة. لم يكن هناك ازدحام. معظم الناس يتنقلون مشياً على الأقدام؛ أشخاصٌ هزيلون منهكون، يرتدون معاطف ضيقة تقيهم برودة لم يمسحها الربيع بعد. مررنا بمبنى سكني يشبه بيت دميتي حين كنتُ صغيرة، حيث أُزيل الجدار الأمامي بالكامل ليكشف عن اصطفاف الغرف في الداخل. يبدو أن الجدار انفصل عن المبنى بفعل انفجار ما، لكن كبيت دميتي تم تأثيث الغرف المكشوفة. أذهلني عبر تنقلي بين مبانٍ مشابهة، أن الناس ما زالوا يعيشون بطريقة ما هناك، مغلفين تلك الفجوات ببضع أوراق من البلاستيك المترنح في مهب الريح. بإمكانك أن تلحظ ملابسهم المغسولة ترفرف فوق الحبال المعلقة بين القضبان الحديدية، التي برزت ملتوية خارج جدران الإسمنت المدمرة.

ظننت أنهم سيأخذونني مباشرة لرؤية المخطوطة. إلا أنهم بدلاً من ذلك، استهلكوا نهاري في اجتماعات مملة لا نهاية لها. كان أولها مع عدة موظفين في الأمم المتحدة أدلوا بأفكارهم الخاصة حول بعض المسائل

الثقافية. التقيت بعدها بمدير المتحف البوسني، ثم قابلتُ مجموعة من المسؤولين الحكوميين. بكل الأحوال أشك أن القدر الكافي من النوم الذي لم أحظَ به لم يكن بسبب البدايات المرهقة تلك، إنما بتأثير كؤوس القهوة التركية المكثفة، التي تم تقديمها لي على مدار اليوم. أعتقد أنني عرفت الأسباب الكامنة خلف ارتجاف يدي.

ضجيج من التشويش صدح من الأجهزة اللاسلكية التابعة للشرطة، بما جعل الحاضرين جميعهم يثبون على أقدامهم بمن فيهم الشرطة، الحراس وساجان.

سارع مسؤول البنك إلى إغلاق أغلال البوابات بعد دخول عدد كبير من الحراس مشكلين حشداً مثلثاً يحيط بشاب يقف في مركز تجمعهم، نحيلٌ يرتدي بنطال جينز أزرق باهتاً. إنه على الأرجح الكسول الغادي من المتحف، الرجل الذي انتظرناه جميعاً. لا أعتقد أن الوقت مناسب لإزعاجه، إذ إنه يحتضن صندوقاً معدنياً. حين وضع الصندوق على المنضدة لاحظتُ أنه كان مختوماً بالشمع في أماكن عدة، مغلفاً بأوراق لاصقة، ناولته المشرط، كسر الأختام وحرر الغطاء. أزال شرائط الحرير، ثم سلمني المخطوطة.

-2-

كما هو الحال في مرات عديدة تعاملتُ فيها مع مواد نادرة وأخاذة، لا بد أن اللمسة الأولى ستومض الفؤاد بإحساس غريب وقوي. إنه مزيج بين الشعور المفرط بالحيوية حين تمس بحرص متناهٍ مؤخرة رأس طفل حديث الولادة. لم يتعامل أي حافظ للآثار مع هذه المخطوطة منذ ما يقارب قرناً من الزمن. كل الأدوات لدي في أهبة الاستعداد. ترددت لثانية إنه - كتاب عبري، وعليه أدرت الكتاب لليمين - ووضعته في مهد إسفنجي.

قبل أن تقوم بفتحه، لا يمكن لهذا الكتاب أن يستأثر بعينيك فترنو إليه مرتين. صغير الحجم، مصمم لتتم تلاوته بشكل مريح على مائدة العشاء أثناء عيد الفصح. أما غلافه فهو من النمط الدارج في القرن التاسع عشر، لكنه مخدوش وملطخ. المخطوطات البديعة المزخرفة كهذه، لا بد أنه لها في الأصل غلاف مدروس التفاصيل. لا يمكن للمرء طهو سمك الفيليه اللذيذ ليتم تقديمه على طبق ورقي. لا بد أن صانع الغلاف قد نسجه بأوراق مذهبة أو زخرفات فضية، ربما طعّمه بالعاج أو بأصداف اللآلئ. ربما شهد هذا الكتاب فتراتٍ ناصعةً توالت مرات عدة في حياته الطويلة. إلا أن الحقيقة المؤكدة الوحيدة التي عرفناها عنه، أن توثيقه كان آخر مرة في فيينا في تسعينات القرن التاسع عشر. لقد أُسيء التعامل مع الكتاب بشكل رهيب حينها، لسوء الحظ. يبدو أن الموثق النمساوي اقتطع الرق بشكل جائر، متخلصاً من الغلاف القديم - شيءٌ لم يكن أحد ليفعله

على الإطلاق، ولا سيما إن كان موثقاً احترافياً عاملاً في متحف ضخم. من المستحيل التكهن الآن بماهية المعلومات التي قد فُقدت في ذلك الوقت. لقد قام بجمع الرقوق في أغطية كرتونية بسيطة بزخارف تركية مزهرة غير ملائمة، أضحت الآن باهتة مشوهة الملامح. وحدها زوايا وظهر الكتاب تمت صناعتها من جلد العجل، بلون بني داكن الدرجة متقشر، كاشف عن حافة اللوحة الرمادية الموجودة تحته. مررتُ إصبعي الوسطى بخفة على طول الزوايا المتصدعة. التصدعات التي سأدغمها في الأيام القادمة. باتباع إصبعي لمسار حواف اللوحة، لاحظت شيئاً لم أكن أتوقعه أبداً. قام الموثق بحفر زوج من القنوات وبأرَ مجموعة من الثقوب الصغيرة في حافة اللوحة لوضع زوج من المشابك. من المعتاد أن تحتوي كتب الرقوق على إبزيمات، لتحافظ على الصفحات مسطحة. ومع ذلك لم تكن هناك أي مشابك على سطح الغلاف. احتفظت بهذه الملاحظة لنفسي لأحقق بالأمر فيما بعد. بعد إحضار المكونات التي ستدعم ظهر الكتاب، كشفت الغلاف وانحنيت على مقربة منه لفحص نهايات الورق الممزقة. أود أن أصلحها باستخدام معجون القمح وأجزاء من ورق الكتان المناسب. أدركتُ بنظرة على الفور أن خيوط الكتان التي استخدمها الموثق الفييني متهالكة، لا تكاد تحمله. هذا يعني أنه علي أن آخذ رزمة الأوراق، كل واحدة على حدة، وأعيد لفقها معاً. تنفست بعدها بعمق وقلبت الصفحة إلى رق المخطوطة ذاتها. هنا يكمن العمل الأكثر أهمية. هنا سيتم الكشف عما أنجزته سنوات أربع عصيبة لناجٍ عبرَ خمسة قرون من الزمن. إن توهج الثلج فوق الصفحة عظيم السطوع. أما الأزرق فكثيف كقيظ سماء صيفية. أزرقُ استُحضر من لازورد ثمين مجروش، محمول على ظهور قوافل الجمال على طول الطريق من جبال أفغانستان. أما الأبيض: نقي، قشدي، أكمد اللون، أقل بريقاً وأكثر تعقيداً من اللون الأزرق. في ذلك الوقت كان الأبيض يصنع وفقاً للطريقة التي اكتشفها المصريون القدماء. حيث يمكنك تغطية قضبان الرصاص بتفل النبيذ القديم وختمها في سقيفة مليئة بروث

الحيوانات. قمت بذلك لمرة واحدة في دفيئة زراعية تمتلكها والدتي في ضاحية بلفيو هيل. كان لديها كمية من السماد العضوي، ولم أستطع مقاومة فعل ذلك. يحول الحامض المتواجد في النبيذ الخلي الرصاص إلى أسيتات، التي بدورها تتحد مع ثاني أكسيد الكربون المنبعث من الروث مساهمة بتصنيع الرصاص الأساسي الأبيض، PbCO3. أثار هذا بالطبع استياء أمي. قالت إنها لن تصبر على عدم ذهابها إلى بساتين الفاكهة اللعينة الخاصة بها لأسابيع. قلبتُ صفحة أخرى، كانت أكثر فتنة تشع بأنوار خلابة، لكنني لم أسمح لنفسي بتأملها كفن من الفنون. ليس بعد. عليّ أولاً معاينتها كمواد كيميائية. الأصفر المتناثر بضيء، مصنوع من الزعفران. الزهرة الخريفية الساحرة، تحتوي الزعفران؛ علمياً على ثلاثة مياسم ثمينة للغاية، زهرة تومئ لترفٍ قيّم فيما مضى، ما تزال تحتفظ بقيمتها الثمينة حتى الآن. رغم معرفتنا المعاصرة أن اللون الغني يأتي من الكاروتين، والكروسين[4] ما زلنا غير قادرين أن نشكل بديلًا معقداً وجميلاً. كذلك لدينا الملاكيت الأخضر، والأحمر. ويعرف الأحمر الشديد باللغة العبرية - باسم «worm scarlettola'at shan». وهو مستخرج من الحشرات المقيمة في الأشجار، حيث يتم سحقها وغليها مع نبات الغار. رغم أن الكيميائيين في وقت لاحق، تعلموا كيفية صنع لون أحمر مشابه من الكبريت والزئبق، إلا أنهم لا يزالوا يطلقون على اللون «الدودة الصغيرة - الحلزون الدقيق» بعض الأشياء لا تتغير مسمياتها: نطلق عليه الزنجفر حتى اليوم.

التغيير... هنا يكمن الخطر. على الكتب أن تحافظ على جودتها حين تتعرض في محيطها لدرجة حرارة أو رطوبة ما. يمكنك بالكاد أن تحصل على تغييرات أكثر دراماتيكية مما تعرض له هذا الكتاب حين جال في ظل عقبات حادة، من دون تأهيل أو احتياطات، مواجهاً تقلبات

4- الكروسين: هو المكون الكيميائي الأساسي المسؤول عن لون الزعفران بصيغة جزيئية مكونة من 44 كربون، و64 هيدروجين، و24 أكسجين.

حرارية جامحة. أرّقتني فكرة أن الرق ربما أصيب بتقلص في الحجم، أو أن الأصباغ طُمست أو تلاشت. لكن من الواضح أن الألوان متشبثة بالصفحات بقوة، نقية وحية كما اليوم الذي طُليت فيه. كان الذهب القشيب للزخرفات، بعكس الورقة الجاثمة المتشققة فوق ظهر الكتاب، طازجاً ومتوهجاً. لا بد أن المُذَهبين قبل خمسمئة سنة حظوا بحرفية عالية أكثر من مجلدي الكتب الأكثر حداثة في فينا. هناك ورقة فضية أيضاً، تأكسدت وبهتت نحو اللون الرمادي الداكن، كما كان متوقعاً.

«هل أنتِ قادرة على إزالة هذا؟» قال الشاب الصغير النحيل القادم من المتحف. مشيراً لبقعة محددة نالها تلطخ ما. كان يقف قريباً جداً مما أربكني، فالمخطوطة النفيسة المصنوعة من الجلد قد تستقطب البكتيريا البشرية بسهولة. حركت كتفي بما اضطره لسحب يده والرجوع بخطوة نحو الوراء.

«لا، قلت، لا على الإطلاق، لا أرمي لهذا».

«لكنك مرمّمة على ما أعتقد».

«أمينة»، قلت مصححة. كان الخوض في مناقشة طويلة حول فلسفة الحفاظ على الكتاب آخر ما كنت أبغيه في ذلك الوقت. تابعت:

«انظر! أنت هنا؛ لأنني أردتك أن تكون معي، لكنني سأقدر وجودك أكثر، إذا لم تقاطع عملي».

«أتفهم ذلك» أردف بلهجة لطيفة بعد ردي الفظ. «ولكن يجب عليكِ أن تعرفي أنني أمين متحف أيضاً»... قالها بلغة كرواتية؛ «لعلكِ تعلمين أن الكتاب كان في رعايتي».

.«Kustos!!»

استغرق الأمر دقيقة واحدة لأفهم ما يقصد. التفتُّ بعد ذلك، وحدقت في وجهه.

«لا يمكن أن يكون أوزرين كارامان؟ الشخص الذي أنقذ الكتاب؟».

أطلق ممثل الأمم المتحدة، ساجان، جميع الاعتذارات قائلاً:

«أنا آسف، فاتني أن أعلمك ببعض التعريفات. لكنكِ كنتِ متلهفة جداً للحصول على العمل. د. حنا هيث، أعرفك على الدكتور أوزرين كارامان، أمين مكتبة المتحف الوطني وأستاذ علم المكتبات في الجامعة الوطنية في البوسنة».

«أنا آسفة، كان تصرفي غير مهذب» قلتُ له: «لكنك تبدو أصغر سناً، من أن تكون الوصي الأهم عن هذه المجموعة القيمة».

إلا أنني في الواقع، لم أتوقع من شخص في هذه المكانة أن يظهر أشعث بهذا الشكل. كان يرتدي سترة جلدية بالية فوق قميص أبيض مجعد مع سروال جينز مهترئ. أما شعره فخشن، مجعد، غير ممشط أو مشذب – ينسدل فوق نظارات تم تثبيتها في المنتصف بقليل من شريط لاصق.

رفع حاجبه:

«من حقك، بالطبع، بعد التقدم الذي أحرزته طوال سنين، أن تكون لديك الأسباب جميعاً للتفكير في ذلك».

حافظ على ملامح ثابتة حين قال جملته تلك. خمنتُ أنه بعمر الثلاثين، مثلي.

«لكنني سأكون مسروراً جداً، دكتورة هيث، لو خصصتِ لي بعض الوقت لتخبريني عما يدور في ذهنك». قال رامقاً ساجان بنظرة مكتني من استيعاب ما يعنيه. بينما تعتقد الأمم المتحدة أنها تسدي للبوسنة خدمة تمويل البحث بحيث يمكن إبراز الهاجادا بشكل صحيح. إلا أن الأمر حين يتعلق بالكنوز الوطنية، لا أحد يريد من الغرباء أن يتخذوا موقع صاحب القرار. من الواضح أن أوزرين كارامان على علم بأنه قد تم تهميشه، وهذا ما لا أتمنى التورط بتأكيده. أنا هنا لرعاية كتاب، وليس لأحظى بمكانة أمين متحف متضخم الأنا. مع ذلك، فمن حقه أن يعرف لماذا اختارت الأمم المتحدة شخصاً مثلي.

«لن أتمكن من تحديد مدى ما يتوجب علي فعله لإنجاز مهمتي، حتى أنتهي من تفحص المخطوطة بشكل تام، لكن هنا تكمن المسألة:

لا أعتقد أن أحداً أوكلني بالقيام بعمليات تنقيةٍ كيميائية، أو ترميمٍ كثيفة. كتبتُ الكثير من المقالات التي تتبع هذا النهج، إذ إن بعث مخطوطة قديمة، للحالة التي كانت عليها، حين خُطت، ليس سوى إساءة فادحة لتاريخها. أعتقد أنه عليك قبول الكتاب، كما كان عليه حين سلمتك إياه الأجيال السابقة، للحد ذاته الذي يعكس الضرر والتلف، اللذين أصيب بهما على مر الزمن. أعتقد أن المسؤولية الملقاة على عاتقي تنحصر في توفير بيئة آمنة تحفظ المخطوطة على حالها أثناء دراستها وتفحصها، أما الإصلاح فلا يتم إلا عند الضرورة القصوى فقط. هذا، هنا». قلت، مشيرة إلى صفحة تطفو فيها بقعة خمرية اللون، فوق خط اليد القرمزي العبري. «يمكنني أخذ عينة مجهرية من تلك الألياف، ثم تحليلها، وربما معرفة سبب تلك البقعة - النبيذ كان تخميني الأول. لكن التحليل الكامل، قد يقدم أدلة أشد كفاءة، حول المكان الذي كان فيه الكتاب أثناء وقوع الحدث. إن لم أتمكن من معرفة التفاصيل الآن، فلا بد أن يتمكن زملائي، في الخمسين أو المئة سنة القادمة مع تقدم التقنيات المختبرية، من القبض على الحقيقة كاملة. لكن إن مُحيت الآن كيميائياً -تلك البقعة - المسماة بالضرر - فسوف نفقد فرصة المعرفة تلك إلى الأبد». أخذتُ نفساً عميقاً.

أصابتني نظرات أوزرين كارامان، المروعة، بحرج فجائي. «عذراً، أنت تعرف، بالطبع، كل هذه الاحتياطات. لكن الأمر يتعلق بمسحة من الهوس، وبمجرد أن أبدأ...» شعرتُ أنني أوسع الهوة أكثر فأكثر، لذلك توقفت. «المشكلة أنني مقيدة بالزمن المحدد لي للتعامل مع الكتاب، الذي لا يتجاوز الأسبوع، لذلك فأنا أحتاج كل دقيقة بشدة. أود البدء... سآخذ المخطوطة في الساعة السادسة من هذا المساء، أتوافقني؟» في الحقيقة، ليس عند السادسة تماماً. سأحتاج عشر دقائق مسبقة، لضمان الحصول عليها قبل تبدل حراس البنك.

«حسناً»، قلت، أزحتُ كرسياً حتى اقتربت أكثر منه. أومأتُ برأسي

تجاه الطرف الآخر من الطاولة الطويلة، حيث جلس رجال الأمن. «هل هناك أي فرصة تمكننا من التخلص من القليل منهم؟».

هز رأسه الأشعث. «أخشى أننا سنبقى جميعاً هنا».

لم أتمكن من إخفاء الحسرة التي أفلتت مني. إن عملي يتعلق بالأشياء وليس بالأشخاص. إذ بطبعي أفضل التعامل مع المادة، الألياف، والبنية الطبيعية للمواد المتنوعة المستخدمة في صناعة المخطوطات. كما أنني على دراية بالمتن، بأنسجة الصفحات، بالأغبرة الوضاءة، بمادة الذيفان السامة المشوهة للأصباغ القديمة. أما عن معجون القمح - فلا ريب أنني قادرة على إثارة سأم أي شخص، بكثرة الشرح عن المادة، حيث قضيت ستة أشهر في اليابان، وتعلمت كيفية مزجها لتكوين الكمية اللازمة للتثبيت.

يتميز الرّق، الذي أعشق على نحو استثنائي، بمتانة يمكن لها أن تدوم لقرون عدة. لكنه، بذات الوقت، يواجه خطر التلف في لحظة إهمال. أنا متأكدة من أن أحد الأسباب الداعمة، لتوكيلي بهذه المهمة، مضمرٌ في اطلاع الجهة المسؤولة، على مقالاتي الصحفية العديدة التي حررتها حول الرق. إذ يمكنني بسهولة، عبر ملاحظة حجم وتوزع الفجوات والمسامات، أن أحدد أيّ الرقوق أمامي- إنها مصنوعة من جلد سلالة منقرضة، من الأغنام الإسبانية ذات الشعر الكثيف- في الواقع، يمكن تحديد تاريخ المخطوطات العائدة لعهد مملكتي أراغون وقشتالة منذ مئة عام أو أكثر، إذا كنت على دراية بالزمن الذي كان فيه صناع الرق يستخدمون، على الدوام، جلود السلالة المعينة تلك.

الرّق هو قطعة جلد بشكل أساسي، لكنه بمظهر وملمس مختلفين، حيث إن الأنسجة الجلدية الموجودة في الجلد تمت إعادة تنظيمها عبر تعريضها لعملية التمدد. ضعها في بيئة رطبة، سرعان ما ستعود الأنسجة إلى شبكتها الأصلية الثلاثية الأبعاد. كنت قلقة بشأن حدوث التكاثف داخل الصندوق المعدني، أو التعرض لعناصر الرق أثناء النقل. لكن

هناك القليل جداً من العلامات التي تؤكد مخاوفي من الخطرين. تكشف بعض الصفحات عن علامات تشي بتعرضها لتلف سببه ماء قديم. بالتدقيق تحت المجهر رأيتُ قشرة من بلورات مكعبة الشكل، تشير إلى كلور الصوديوم، المعروف أيضا باسم ملح طعام المائدة. ربما كان الماء الذي أضر بهذا الكتاب، هو مياه مالحة مستخدمة في طاولة سيدر- الممثلة لدموع العبيد في مصر.

ليس الكتاب، بالطبع، ملفاً تعرّف عنه مجموعة عناصره فحسب، بل هو قطعة أثرية، مكونة من العقل واليد البشرية. إن كلاً من ضاربي الذهب، الجارشين بالطاحونة الحجرية، الخطاطين، المجلدين، هؤلاء هم الأشخاص الذين أشعر براحة أكبر معهم. لطالما تحدث هؤلاء الناس، في أوقات السكينة والهدوء، معي. سمحوا لي أن أكشف عن نواياهم، بما يساعدني في إنجاز عملي، كنت قلقة من أن يعمل كوستوس، بتفحصه حسن النية. أو أن يقوم رجال الشرطة، عبر اللغو الخفيض لأجهزة الاتصالات الخاصة بهم، بمنع أشباحي الودية من البقاء. بينما أترقب، بحاجة ماسة، مساعدتهم، وأجوبتهم، في حضور الكثير من التساؤلات.

كبداية، فإن معظم الكتب مثل هذا، الغنية بأصباغ باهظة الثمن، تُصنع وتُخط لمصلحة القصور أو الكاتدرائيات. لكن الهاجادا بالذات، يستخدم فقط في المنزل. إن الكلمة مأخوذة من جذر «ngd» العبري المقصود به: «الإخبار»، وهو عائد للدعوة التوراتية، التي توعز إلى الآباء أن يخبروا أطفالهم بقصة السِفر. هذا «الإخبار» تنوع على مستوى واسع. حيث طور كل مجتمع يهودي، على مر القرون، اختلافاته الخاصة، التي تخص هذا الاحتفال الديني المنزلي.

لكن لا أحد يعلم، لماذا تمت زخرفة هذه الهاجادا بالعديد من التصاوير المنمنمة الوفيرة الألوان والإضاءة، في وقت كان فيه معظم اليهود يعتبرون أن الفن التشكيلي خرقاً للوصايا. من غير المحتمل في

ذلك الزمن، أن ترى يهودياً، في وضع يمكِّنه من تعلم تقنيات الرسم الماهرة البادية هنا. لم يكن النمط، في الواقع، مختلفاً عن أعمال مزخرفي المخطوطات المسيحيين. مع ذلك، فإن معظم المنمنمات في المخطوطة، توضح رموزاً توراتية، كما هي مفسرة في المدراش، أو التفسير التوراتي اليهودي.

قلبتُ الرق، وجدتُ نفسي فجأة، أتأمل الرسم التصويري، الذي أثار تكهنات عالمية أكثر مما أثارته التصاوير الأخرى. كان مشهداً منزلياً. لعائلة يهودية - إسبانيّة، بأزيائها التقليدية - تجلس حول مائدة عيد الفصح اليهودي. يمكننا رؤية الأطعمة الطقسية، الماتسوت (الخبز غير المختمر)، في إحياء لذكرى الفطير الذي خبزه بنو إسرائيل إبان خروجهم من مصر. هناك عظمة ساق ترمز لدم خروف الفصح، المدهون على العضادة وعوارض الأبواب، كي تكون علامة لملاك الموت كي يبتعد عن بيوتهم، في الضربات العتيدة الآتية.

أما الأب، فمتكئ حسب العادة، لإظهار أنه رجل حر وليس عبداً، يرتشف النبيذ من كأس ذهبية بينما يرفع ابنه الصغير، بجانبه، فنجاناً. تجلس الأم بصفاء، مرتدية ثوباً فاخراً وغطاء للرأس مرصعاً بالجواهر. من المحتمل أن المشهد هو منمنمة للعائلة المفوضة بهذه الهاجادا بالتحديد. لكن هناك امرأة أخرى على الطاولة، ذات بشرة حالكة، بثوب زعفراني اللون. تحمل قطعة من الماتسوت. بدا مظهر المرأة اكثر أناقة من أن تكون خادمة، بينما تشارك بالكامل في الطقوس اليهودية، حيرت هوية هذه المرأة بالثوب الزعفراني، العلماء الباحثين حول الكتاب، لقرن كامل.

قمت بالفحص، بتأن متعمد، ثم سجلت ملاحظات عن حالة كل صفحة. في كل مرة أقلبُ رقًّا، أتحقق وأحدد مكان النماذج الداعمة. لا تغلو أبداً في الكتاب - وفق ذِمام ولي الأوصياء. لكن الأشخاص الذين امتلكوا هذا الكتاب تعرضوا لضغوط لا يمكن تحملها: من مذابح، محاكم التفتيش، المنفى، الإبادة الجماعية، والحروب.

عندما وصلت إلى نهاية النص العبري، توقفت عند سطر من النص مخطوط بلغة أخرى، بيد مختلفة:.«Revisto per mi» جيو دومينيكو فيستوريني، 1609. باللغة اللاتينية، مكتوبة بأسلوب فينيسي، أما ترجمتها فهي: «تم الاطلاع عليها». لو لم تخط هذه الكلمات الثلاث، التي وضعها رقيب رسمي من محاكم التفتيش، لكان من المحتمل إتلاف الكتاب تلك السنة في مدينة البندقية. ولن يتمكن حينها، من عبور البحر الأدرياتيكي صوب البلقان.

«لماذا قمت بحمايته، يا جيوفاني؟».

نظرتُ لأعلى مقطبة الحاجبين. رفع الدكتور كارامان، أمين المكتبة كتفيه، بإيماءة تبريرية. ربما ظن أني غاضبة من مقاطعته لي، لكن ما فاجأني، في الواقع، أنه عبّر عن التساؤل ذاته المتقد في ذهني. لا أحد يعرف التفسير. إن أكثر ما كانوا يعرفونه كيف أو لماذا – أو حتى متى – وصل الكتاب إلى هذه المدينة. لا دليل سوى فاتورة بيع عائدة لعام 1948، أوضحت أن شخصاً يدعى كوهين باعها إلى المكتبة. لكن حينها، لم يفكر أحد في استجواب البائع. حدث ذلك أثناء الحرب العالمية الثانية، إبان ذبح ثلثي اليهود في سراييفو، أما بعد نهب الحي اليهودي في المدينة، فلم يعد هناك أي كوهين في المدينة، كي يُسأل عن المخطوطة. أنقذ أمين المكتبة المسلم الكتاب من النازيين آنذاك، لكن التفاصيل المتعلقة بكيفية حمايته للمخطوطة، فلا تزال متفرقة ومتضاربة.

بعد الانتهاء من تسجيل الملاحظات التي أثارها الفحص الأولي، قمتُ بضبط إعدادات الكاميرا لتصبح بدقة تبلغ ثمانية في عشرة ميغا بكسل. ثم أعدتُ الفحص منذ البداية. قمت بتصوير المخطوطة صفحة بعد صفحة، تمهيداً لتسجيلٍ دقيقٍ لحالة الكتاب قبل إجراء أيّ فعل يخص الترميم. ثم يتوجب عليّ، بعد إنجاز أعمال الصيانة، وقبل إعادة ربط الصفحات، أن أقوم بتصوير كل صفحة من جديد. ثم إرسال الصور الفوتوغرافية السالبة إلى أميتاي في القدس. سيدير بدوره العمليات

الخاصة بطباعتها بدقة عالية الجودة، كي يتم عرضها في متاحف العالم. إن طباعة نسخ طبق الأصل من المخطوطة، تمكن الأشخاص العاديين في كل مكان من الاستمتاع بمشاهدتها. يقوم عادةً بمهمة التقاط هذه الصور أحد المتخصصين بالتصوير. لكن الأمم المتحدة لا ترغب في القفز خارج الطوق، في بيروقراطية البحث عن خبير آخر، عليه اجتياز حشدٍ من الدوائر الحكومية في المدينة، ليقوم بهذه المهمة، لذلك وافقتُ على القيام بذلك بنفسي.

انحنيتُ بكتفي، في محاولة الوصول للمبضع. جلست، أرحتُ ذقني بباطن كفي، بينما تأرجحت يدي الأخرى فوق الغلاف. إنها لحظة الشك الذاتي، اللحظة الأبدية التي تراودك قبل أن تبدأ. قادني توهج الضوء فوق الفولاذ النقي، للتفكير في والدتي. لو أنها ترددت في البدء، مثلما أفعل الآن، لنزَفَ المريض حتى الموتِ في سريره. لكن أمي، أول امرأة ترأست قسم جراحة الأعصاب في تاريخ أستراليا، لم تتعرف يوماً على ما يسمى الشك الذاتي. لم تكن ترتاب، تلك المرأة، في حقها المتعلق بالتنازل عن كل الأعراف والتقاليد التي تخص عصرها، حين اتخذت قرار الحمل بطفلة، من دون أدنى اضطراب لغياب الزوج، أو حتى تسمية الأب للمجتمع أو لطفلته. ليس لدي، حتى هذا اليوم، أدنى فكرة عن الرجل، عن الشخص الذي كانت تحبه؟ الشخص الذي أنجبت منه؟ يا لها من مزحة! أمي التي أرادت تنشئتي، على الأرجح، على صورتها الخاصة. أمي البهية، المتطورة على الدوام؛ بينما أنا المكفهرة، والشاحبة كوجه قوطي. أمي التي تفضل احتساء الشمبانيا، بينما تشرب ابنتها البيرة من علبتها المعدنية.

أدركت منذ وقت طويل، أنها لن تقدِّر مطلقاً اختياري لاختصاص ترميم الكتب بدل ترميم الأجساد. بالنسبة لها، كان حصولي على درجتي الشرف في الكيمياء وعلوم اللغة الشرقية القديمة، مماثلاً لجلب مجموعة من المناديل الورقية. لم تقتنع كذلك، بأهمية درجتي الماجستير

في الكيمياء، والدكتوراه في الحفاظ على الفنون الجميلة، اللتين نلتهما فيما بعد...

بعد عودتي من اليابان، راحتْ تدعو مجموعة أوراقي والصبغات والمعاجين بـ «أدوات الروضة»، بينما، لم أحظَ منها، بعد انتهاء فترة دراستي الجامعية في جامعة هارفارد، إلا على جملة مقتضبة: «كنت في مثل عمركِ طبيبة مقيمة، بينما أراكِ تقضين فترة تدريبك الآن».

أشعر، في بعض الأحيان كأنني شخصية في إحدى المنمنمات الفارسية التي أرممها. شخصية صغيرة، تراقبها وجوه ساكنة إلى الأبد، تحدق بها العيون في صالات عرض مترفة. أو تتلصص عليها من خلف ستار يشف عنها. لكن في حالتي، لا تمثل هذه الوجوه كلها، إلا وجهاً واحداً، إنه وجه أمي، بفمها المزموم، ونظرتها الساخطة.

أنا هنا، بسنواتي الثلاثين، ما أزال عاجزة عن تجاهلها، ها هي أمي تحول بيني وبين عملي، كما كل مرة. لكن، أخيراً، أعتقني إحساسي المفرط بنفاد صبرها، وموقفها الحانق. زلقتُ المشرط تحت الخيط، حُلَّ تضافر المخطوطات، محرراً أوراقها الثمينة. رفعت الأولى. شذرة بالغة الصغر، رفرفت هابطة من الغلاف. قمتُ بنقلها بعناية إلى شريحة، مستخدمة فرشاة داكنة، من ثم تمريرها تحت المجهر. وجدتها! إنها شظية صغيرة من جناح حشري، شفافة، مجزّعة. نحن نحيا في عالم من المفصليات، ربما فُصل الجناح من حشرة عادية، ولن يفضي إلى أي شيء. هناك احتمال، كذلك، أن يكون عائداً لحشرة من فصيلة نادرة، تعيش في نطاق جغرافي محدود. أو أنها تنحدر من سلالة منقرضة الآن. من الوارد جداً، أن يضيف معلومة ما عن تاريخ الكتاب. وضعته في مظروف زجاجي، وصنفته مع ملاحظة المكان الذي وجد فيه.

قبل بضع سنوات، تسببت شظية صغيرة من قشرة - قلم ريشة - معلقة في غلاف، بحدوث ضجة عارمة. كان العمل عبارة عن مجموعة قليلة من الصلوات القصيرة التي يرتلها القديسون فرادى، المفترض أنه

جزء من كتاب الساعات المفقود[5]، الذي كان مملوكاً من قبل جامع آثار فرنسي ذي نفوذ عظيم. سحر الكتاب القائمين على متحف «غيتي» الأمريكي، فقادهم للتفكير بدفع مبلغ ضخم للحصول عليه، خاصة، حين أشار الجامعُ لأصل المستندات العتيق، ناسباً إياه للسيد بيدفورد، مدعياً أنه أنجزه، في باريس حوالي عام 1425. لكني، وبعد الفحص الدقيق للكتاب، لم أقتنع تماماً بما ادعاه.

بشكل عام، لن تخبرك قشرة قلم الريشة بالكثير. فأنت لست بحاجة إلى ريشة نادرة لصناعة قلم صالح للكتابة. الأمر يتم، بمجرد الحصول على أي ريشة طائر قوية جيدة. تضحكني كثيراً مشاهد الأفلام العائدة إلى أحداث الزمن الغابر، التي يخربش فيها الممثلون بريش النعام الوضاء. ليس انتقاصاً من مصداقية الأعمال السينمائية، وإنما لسببين الأول وجود القليل من النعام في أوروبا إبان العصور الوسطى. أما الآخر فمتعلق بالكتبة الذين اعتادوا على تقطيع الريش، ليصبح منتصباً مماثلاً للعصا إلى حد كبير، وبالتالي لن تنجو القطع المتعرجة بالريشة من الجرف أثناء صناعة القلم. مع هذا أصررت على التحقق من أصل القشرة مع مختص بعالم الطيور، ماذا تعرف عنها؟ إنها قشرة من ريشة بطة الموسكوفي. تعد بطات الموسكوفي شائعة في معظم البلدان هذه الأيام. إلا أن تواجدها، إبان القرن الرابع عشر، كان محصوراً في المكسيك والبرازيل فحسب. ولم يتم جلبها إلى أوروبا، حتى أوائل القرن السابع عشر. بالعودة إلى جامع الآثار الفرنسي، تبين أنه واظب على تزوير المخطوطات لسنوات عديدة.

رفعتُ برفق الورقة المطوية الثانية من الهاجادا، ثم نسلتُ الخيط المتهالك المُحزّمة به، لاحظت أن شعرة بيضاء ناعمة، يبلغ طولها

5- كتاب الساعات: كتاب صلوات لعامة الناس، وُضع أواخر العصور الوسطى في أوروبا. مضاء بلوحات مصغرة تصور حياة السيد المسيح، ومريم العذراء والقديسين الأفراد. يتضمن النص جدولاً زمنياً لطقوس أيام الأعياد، وسلسلة من الصلوات التي يتوجب تلاوتها ثماني مرات في اليوم.

حوالي السنتيمتر الواحد، متشابكة مع ألياف الخيط. فحصتها تحت التكبير، لاحظتُ أن الشعرة، بالقرب من غلاف الكتاب، تسببت بثُلمة طفيفة جداً على الصفحة التي تصور احتفال الأسرة الإسبانية بعيد الفصح. قمت بفكها بلطف، باستخدام ملقط جراحي؛ ثم وضعتها في غلافها الخاص. يبدو أنه لا داعي للقلق حيال الأشخاص في القاعة. حتى أنني لم ألاحظ وجودهم هناك. جاء الناس وذهبوا، ولم أرفع رأسي، إلا عندما بدأ الضوء بالتلاشي، شعرت فجأة بجسدي متخشباً من شدة الإجهاد، بينما كنتُ أتضور جوعاً، لدرجة أدركت فيها أنني عملت طوال اليوم دونما استراحة. وقفتُ، وقف كارامان الجاثم بجواري على الفور، أما صندوقه المعدني الرهيب فكان جاهزاً. وضعت الكتاب مع أوراقه المنفصلة بعناية في الداخل.

«يجب علينا تغيير هذا الصندوق على الفور». قلت. «يعد المعدن أسوأ ناقل لدرجات الحرارة الخارجية المختلفة، المرتفعة أو المنخفضة». وضعت لوحاً زجاجياً أعلى المخطوطة، وثقلته بأكياس رمل مخملية صغيرة، للحفاظ عليها مسطحة. كان أوزرين مشغولاً بشمعه وطوابعه وخيوطه، بينما كنتُ أنظف وأجهز أدواتي.

«كيف وجدتِ كنزنا؟»، قال، مائلاً برأسه نحو الكتاب.

أجبته: «تحدد قيمته وفقاً لعمره الزمني». «لا يوجد أي ضرر واضح ناجم عن النقل الفظ، أو التعامل غير الملائم مع المخطوطة. سأجري الاختبارات اللازمة على بعض العينات المجهرية، لنرى بماذا سيخبروننا. خلافاً لذلك، فالمسألة مجرد توثيق للمخطوطة، وترميم للغلاف. كما تعلم، إن غلافاً مثله، يعود إلى زمن متأخر من القرن التاسع عشر، لا بد أنه متضرر فيزيائياً بشكل ما، كما تتوقع».

انحنى كارامان بصرامة نحو الصندوق، ضغط على ختم المكتبة بالشمع المذاب. ثم وقف جانباً، بينما أنهى مسؤول البنك القيام بفعل الشيء نفسه مع ختم البنك. إن الحبك المدروس للخيوط، وأختام

الشمع تفيد في فضح أي وصول غير مرخص إلى محتويات الصندوق، بحيث يكون التسلل غير الشرعي، واضحاً على الفور.

«سمعت أنكِ أسترالية الجنسية». قال كارامان. كبتُّ تنهيدة، فأنا لا أزال غارقة بتفاصيل العمل الذي أنجزته خلال اليوم، كما أنني لستُ في مزاج جيد، يسمح لي بتداول حديث جانبي.

«ألا يبدو الأمر مشابهاً لاحتلال أجنبي، يقوم به أحد مواطني هذا البلد الشاب، حين يهتم شخص بالعناية بالكنوز القديمة العائدة لأشخاص آخرين؟». لم أعقب بأي شيء. ثم أضاف: «أفترض أنك في حالة شغف لبعض الثقافات الجديدة، هل نشأتِ هناك؟».

بما أنني تصرفت معه بوقاحة مسبقاً، لا ضير أن أبذل بعض الجهد للتحدث بلباقة الآن... جهداً بسيطاً. ربما لا يعلم أن ذلك البلد الشاب، المتخم بالثقافات الناشئة، ليس سوى بلد موغل بالقدم. إذ تشهد أستراليا أقدم تقاليد فنية متواصلة في العالم - حيث كان السكان الأصليون ينقشون فناً متطوراً على جدران مساكنهم قبل ثلاثين ألف عام، قبل أن يفكر الناس في لاسكو ملياً بكيفية إنهاء رسماتهم الأولى. لكنني قررت أن أوفر على الرجل سماع المحاضرة كاملة. فقلت له: «حسناً، يجب أن تعرف أن الهجرة إلى أستراليا، جعلت من الدولة الأسترالية أكثر دول العالم تنوعاً عرقياً. إن جذور الأستراليين عميقة وعريضة. بما يمنح المواطن الأسترالي حصة في تراث العالم الثقافي بأكمله... حتى من تراثكم أنتم».

لم أخبره عن أحداث علقت بذاكرتي، عبرت في مراهقتي عن يوغوسلافيا، التي اشتهرتْ باعتبارها المجموعة المهاجرة الوحيدة التي داومت على استيراد ضيم العالم القديم. فيما عداها، سرعان ما استسلم جميع المهاجرين إلى نوع من اللامبالاة. داوم الصرب والكروات على تبني مشاعر البغض إلى الأبد، لا أنسى كيف كانوا يتعاركون في نوادي كرة القدم. لم يترددوا عبر الزمن، في قتل بعضهم بعضاً في أرض تخص آخر المعمورة، في أكثر الأماكن وحشة في العالم، كمدينة كوبر بيدي.

بالتالي حظي الرجل على تعليق دبلوماسي لبق. ابتسم لي، من خلف الصندوق. الحق يقال، لديه ابتسامة لطيفة جداً. ابتسامة تتخذ شكلاً مميزاً فوق وجهه، كأنها تخص إحدى رسومات الفنان تشارلز شولز[6]. وقف الحراس لمرافقة كارامان والكتاب. تبعتُهم عبر الممرات الطويلة المزخرفة، حتى هبطوا مستقلين السلالم الرخامية وصولاً إلى القبو. وقفتُ أنتظر شخصاً ما لفتح الأبواب الرئيسة، حين استدار كارامان منادياً لي.

«هلا سمحتِ لي، بدعوتك لتناول العشاء؟ أعرف مكاناً في المدينة القديمة. تم افتتاحه حديثاً الشهر الماضي. كي أكون صريحاً وصادقاً، ليس بإمكاني ضمان جودة الطعام، لكن على الأقل متأكد أنه بوسني التحضير».

كنت على وشك الرفض، في ردة فعل لا إرادية تصيبني بين الحين والحين. ثم فكرت، لم لا؟ ربما يكون الطعام أفضل من طبق اللحم، المجهول المصدر الذي تقدمه خدمة الغرف، في جناح فندقي ضيق معتم. قلت لنفسي، ستكون الجلسة معه جزءاً من مشروع بحثي. لا بد أن نجاة أوزرين كارامان تجعل منه فصلاً من تاريخ الكتاب، أمر وددتُ معرفة المزيد عنه.

انتظرته في أعلى الدرج، أصغيتُ إلى همهمة الأثير الصاعد من القبو، تلاها صدى إغلاق القضبان المعدنية المحيطة. كان الصوت نهائياً ومطمئناً. ها هو الكتاب ينعم بالأمان لليلة، على الأقل.

6- تشارلز مونرو شولز، لقبه سباركي، كان رساماً كاريكاتيرياً أمريكياً، تعد سلسلة الرسوم الهزلية الفول السوداني التي ألفها، من أكثر القصص الفكاهية شعبيةً وتأثيراً في تاريخ الإعلام.

-3-

تجولنا في شوارع المدينة المظلمة، حيث لا مصابيح تومض على الإطلاق. حتى القمر اختار الاعتكاف خجولاً في ظل الغيوم المتكاثفة. اختفت معظم ثلوج النهار، لتتوالى درجات الحرارة بانخفاضها من جديد هذا المساء. راودني شعور بالارتعاش، بارتعاد الفرائص، إنه ذاك الحجر الملقى في الامعاء يثقلني من جديد، يا له من اقتراح لكارامان بالسير صوب المدينة القديمة!

«هل أنت متأكد، كما تعلم، حسناً؟ لماذا لا يرافقنا رجال أمن الأمم المتحدة؟».

أظهر ملامح ممتعضة، كما لو أنه اشتم عبقاً غير محبب.

«إن المدرعات المخصصة لتوصيلنا، كبيرة الحجم، لن تتمكن من العبور في الأزقة الضيقة لشارع باسكارسيا» ثم أضاف: «لا داعي للقلق، توقف القنص هنا، لأكثر من أسبوع حتى الآن».

«عظيم... هائل...» سمحتُ له بإدارة الحوار مع فايكنغ الأمم المتحدة، على أمل أنه سيفشلُ بإقناعهم بالسماح لي بالذهاب من دون مرافقة. لكن لسوء الحظ، يبدو أنه زميل مقنعٌ وعنيدٌ جداً، على أي حال بدأنا أخيراً برحلتنا المقررة سيراً على الأقدام. مشى بخطى واسعة، بما اضطرني إلى تسريع خطاي لمواكبته، حاولتُ التركيز على المونولوج الذي قدمه كارامان، والذي كان مناهضاً للسياحة، أو أنه بمنزلة دليل جهنمي، ما انفك يصف هياكل المدينة المهشمة المختلفة.

«هذا هو مبنى الرئاسة، المبني بأسلوب عصري يواكب النهضة الجديدة، الهدف المفضل للصرب».

تراءت بضع كتل إسمنتية في البعيد: «تلك أنقاض المتحف الأولمبي. ذلك ما كان مكتب البريد، في وقت ما. هذه هي الكاتدرائية القوطية الحديثة. أقيم فيها قداس رأس ليلة عيد الميلاد الأخير، عند الظهيرة لأنه بالطبع، لن يتجرأ أحد على الخروج أثناء الليل لتأدية الطقوس، إلا إذا كان انتحارياً. على يسارك يمكنك ملاحظة الكنيس والمسجد. أما الكنيسة الأرثوذكسية، فتقبع على اليمين. جميع الأماكن المقدسة تلك، التي لا يقصدها أي منا بنية العبادة، ترينها جاثمة في مكان ملائم للغاية، على بعد يقارب مئة متر بعضها من بعض».

حاولت أن أتخيل ماهية شعوري، إن دمرت سيدني وتناثرت مبانيها مهدمة! ماذا لو تصدعتْ معالم طفولتي أو انهارت بهذا الشكل؟! أو أنني استيقظتُ ذات يوم، واكتشفت أن الناس في شمال سيدني أقاموا المتاريس على جسر هاربور، وبدأوا في قصف دار الأوبرا؟

«أعتقد أن التجول في المدينة مشياً على الأقدام لا يزال يشكل نوعاً من الترف» قلتُ: «خاصة بعد مرور أربع سنوات من تحاشي العبور، فراراً من القناصين». كان يسبقني ببضع خطوات، ثم توقف فجأة.

«نعم» قال. «إلى حد كبير». أحسستُ أن رده المقتضب دلَقَ دلواً يفيض بالتهكم، فوق رأسي!

تدفقت طرق سرايفو النمساوية المجرية الواسعة، تدريجياً نحو أزقة مشاة ضيقة مرصوفة بالحصى في المدينة العثمانية. انتصبت الأبنية متلاصقة على جانبي الدروب، بحيث يتمكن المرء من مد ذراعيه وملامستها. بيوتٌ صغيرة الحجم مضغوطة معاً، كأنها مبنية للأقزام، كأنها قامات أصدقاء مقربين، تشابكت أذرعهم في طرق عودتهم من الحانة نحو بيوتهم.

أماكن كثيرة نجت في هذه المنطقة، من قنابل المدافع الصربية، بالتالي ظهر الضرر بصورة أقل وضوحاً مما هو عليه في المدينة الحديثة. صدح

صوتُ المؤذن عبر المأذنة، داعياً المؤمنين إلى صلاة المغرب. كان أذاناً يناسب مدناً حيوية دافئة كالقاهرة ودمشق - صوتٌ لا يتوافق مع مدينة ينسحق بها الجليد تحت الأقدام، مع جوامع تتراكم الثلوج المتجمدة في أروقتها، تحتشد فوق قبيها وجدرانها الحجرية.

كان لا بد، في هذه الأثناء، أن أستحضر لنفسي كيف امتد الإسلام شمالاً وصولاً إلى بوابات فيينا. تذكرتُ كيف سطعت إمبراطورية المسلمين الشاسعة، فأضاءت العصور المظلمة. لتغدو حينها القبلة الوحيدة لطالبي العلم والأدب والشعر. الامبراطورية التي حظي في ظلها اليهود، المضطهدون، على سلامهم المنشود.

بدا جلياً أن مؤذن هذا المسجد الصغير رجلٌ عجوز، لكن صوته الصادح، القوي الثابت، سرى بطمأنينة في أثير الليل البارد. ثلة من الرجال المسنين تجمعوا تلبية لدعوة الصلاة في فناء الجامع المرصوف بالحصى، يغسلون أيديهم ووجوههم بالماء الجليدي المتدفق من النافورة. توقفتُ للحظة لمراقبتهم. استدار كارامان الماضي أمامي، عاد متتبعاً نظراتي، ثم قال:

«هؤلاء هم»... «الإرهابيون المسلمون العنيفون في الخيال الصربي».

كان المطعم الذي اختاره دافئاً وصاخباً، فواحاً بعبق شهي للحوم المشوية على الفحم. بدت صورة كبيرة للمالك معلقة قرب البوابة، مرتدياً فيها زياً عسكرياً، ملوحاً ببازوكا[7] ضخمة.

طلبتُ طبق سيفابسيسي[8] «ćevapčići» مع سلطة الملفوف وطبق من اللبن.

«اللحم قاس قليلاً...»، قلتُ. ابتسم. «أنا نباتي منذ طفولتي، وهو

7- البازوكا: سلاح أمريكي قاذف للصواريخ يحمله الأفراد كمضاد للدبابات. أخذ اسمه من آلة موسيقية تشبهه في الشكل.

8- Ćevapčići طبق مشوي من اللحم المفروم، نوع من الكباب، يعتبر الطبق الوطني في البوسنة والهرسك.

أمر ساعدني أثناء الحصار، حيث لا وجود للحم في المدينة على الإطلاق. أما الخضروات التي يمكنكِ الحصول عليها، فما كانت في معظم الأوقات، سوى سيقان من الأعشاب. بالنسبة إلي، أجيد إعداد حساء العشب، إنه من اختصاصي!» طلب علبتين من الجعة. «يمكنكِ الحصول على الجعة، حتى أثناء الحصار. إذ إن معمل الجعة المكان الأوحد في المدينة الذي لم يغلق أبداً».

«سيوافق الأستراليون على ذلك» قلت.

«كنت أفكر فيما قلته في وقت سابق، عن أهل هذا البلد الذين هاجروا إلى أستراليا. في الواقع، لدينا عدد غير قليل من الأستراليين الذين زاروا مكتبة المتحف، قبل الحرب مباشرة».

«أوه؟» قلت بذهول، بينما ارتشفت البيرة، التي علي القول إنها برغوة قليلة.

«قدموا بثياب أنيقة، يتحدثون بلغة بوسنية رهيبة. جاء أشخاص مثلهم، أيضاً، قادمون من الولايات المتحدة الأمريكية. كنا نستقبل حوالي خمسة زوار في اليوم، يبحثون عن تاريخ عائلتهم في المكتبة. منحناهم لقباً، يحمله ذاك الرجل الأسود في البرنامج التلفزيوني الأمريكي «كينتا كونتي».

«كونتا كينتي»[9]، صححتُ الاسم.

«نعم، إنه هو، لقبناهم بـ«كونتا كينتيز» باعتبار أنهم يبحثون عن جذورهم. أرادوا الاطلاع على الجريدة الرسمية بأعدادها الصادرة بدءاً من عام 1941 حتى 1945. في حين أحجموا عن البحث عن جذورهم العائدة إلى البارتيزان[10] في شجرة العائلة».

9- كونتا كينتي: الشخصية الرئيسية في رواية جذور، التي تحكي عن نضال رجل أفريقي مسلم من دولة غاميا بعد استعباده، طلباً للحرية. الرواية للمؤلف الأمريكي أليكس هيلي. تم تحويلها إلى مسلسل تلفزيوني.

10- البارتيزان: يُقصد بها أحد الأفراد المنتمين لأي قوة عسكرية غير نظامية يتم تشكيلها للدفاع عن الأرض ضد الاحتلال الخارجي، من خلال تشكيل فرق للمقاومة الشعبية.

«لا بد أنهم لا يودون المجاهرة بأنهم أحفاد للشيوعيين. لطالما تم تصنيف المتعصبين القوميين المنتمين- للحركة الثورية الكرواتية المعروفة باسم أوستاشا- من فئة القتلة إبان الحرب العالمية الثانية. تخيل الرغبة في أن تكون ذا صلة بمثل أولئك الناس. كم تمنيتُ لو أنني على علم بهوية غربان العاصفة هؤلاء. لكننا لا نصدق أن مثل هذا الجنون سيجيء إلى هنا».

قلت له: «أتعاطف مع السرايفيين، إذ إن الحرب تباغتهم على الدوام». بدا لي ما قلته الرد المنطقي الأنسب. يا لها من حالة مستدامة لإنكار الآخر! خاصة، حينما يطرق الباب جارك في البيت المجاور، ليبدأ بإطلاق النار عليك، ببساطة ومن دون ندم، كأنه يراك فرداً من سلالة ضارة غير مرغوب باستمرارها، يذكرني هذا بالأسلوب الذي يتبعه المزارعون لإبادة الأرانب، بحجة إلحاق الأضرار بالنباتات.

«هذا صحيح»، قال. «قبل سنوات، شهدنا كيف شطرت الحروب الطائفية لبنان، قلنا، هذا حال الشرق الأوسط، لا تزال الشعوب هناك تتبع فطرتها الأولى! لكن حين اشتعلت دوبروفنيك أمام أعيننا، بررنا بأننا شعب مختلف في سراييفو. هذا ما ظنناه جميعاً. إذ كيف ستتقد حرب عرقية هنا، في هذه المدينة، حين يكون كل شخص فيها، نتاجاً لزواج مختلط؟ كيف ستشتعل حرب دينية، في مدينة لا يلتزم أحد فيها بالمضي إلى الكنيسة؟ أما المسجد، بالنسبة لي، فليس أكثر من متحف، مبنى بطراز عتيق خلاب كما تعلمين، يسلبنا نحو الأجداد. كنا نذهب، في أكثر الأحوال، لحضور ما يدعى جلسات «الذكر» في المساجد، لمرة في السنة، حيث يرقص الدراويش، ويطوفون حول أنفسهم، في حلقة تشبه التمثيل المسرحي - تشبه... ماذا تسمينها؟ فن التمثيل الإيمائي!».

«خذي مثلاً، دانيلو، يهودي الديانة، صديقي المفضل، حتى أنه ليس مختوناً. رحل المطهرون جميعهم بعد نشوب الحرب. ولم يتبق سوى الحلاقين المحليين ليقوموا بإجراء هذه العملية. لكن آباءنا، على أي

حال، الشيوعيين جميعهم، لا يعيرون أي أهمية لهذه الطقوس، باعتبارها تقاليد بالية». تراجع بتثاقل، احتسى الجعة على جرعتين، ثم ألحقها بطلب لعلبتين إضافيتين.

«أردت أن أسألك عن اليوم الذي أنقذتَ فيه الهاجادا».

تجهم وجهه، أطرق برأسه، محدقاً بيديه الممدودتين فوق اللامينكس[11] المرقط لطاولة المقهى. لديه أصابع طويلة وناعمة. من المثير للضحك أنني لم ألاحظها في وقت سابق، منذ أن تعاملت بفظاظة معه، حين أقلقني أن يجسّ بكفه المحرم، مخطوطتي الثمينة.

«أرجو أن تعلمي. كما كنت أقول منذ قليل. لم نكن نوقن بإمكانية اتقاد الحرب. داوم قائدنا على القول إن الأمر يحتاج إلى طرفين لشن حرب، لن نقاتل. ليس هنا، في بلدتنا الغالية سراييفو، المدينة الأولمبية المثالية. إننا أشد حكمة وأكثر حرصاً منَ أن نقع في فخ الحرب. بالطبع، ليس عليك أن تكون غبياً ومتخلفاً، كي تموت ميتة غبية ومتخلفة. هذا ما أدركناه مؤخراً. إلا أننا في تلك الأيام القليلة الأولى، قمنا جميعاً بأفعالٍ، موصومة بالجنون بعض الشيء. حين انطلقنا أطفالاً وكباراً للتظاهر ضد الحرب، رافعين الرايات، عازفين الموسيقى، كما لو أننا ذاهبون في نزهة».

«حتى بعد إطلاق القناصين النار على اثني عشر شخصاً من المتظاهرين، زاد إصرارنا على إحلال السلام. اعتقدنا أن المجتمع الدولي سيدعمنا، ويضع حداً لما يحدث. هذا ما توقعته. راودني الاضطراب لبضعة أيام بعدها، بأمل أن تُحل المسألة. بينما في الحقيقة، قام المجتمع الدولي – ما الذي علي قوله؟ – بسكب الزيت على النار!».

كان يتحدث بنبرة هادئة جداً، لدرجة أنني، بالكاد، تمكنت من سماعه، عبر موجات ضحكٍ غص المطعم بها.

11- اللامينكس: مادة صلبة من البلاستيك المتين، تستخدم لتغطية أسطح المكاتب والطاولات.

«تم قصف المتحف، في وقتٍ لم نكن متأهبين كفاية لذلك. كل شيء معروض في الأنحاء. أما تجمعات الكتب، فامتدت إلى مسافة بلغت الكيلومترين على طول المتحف، المتحف الذي لا يبعد أكثر من عشرين متراً فقط عن بنادق ميليشيات شيتنيك. لا بد أن قنبلة فوسفورية واحدة كفيلة بحرق كل النفائس حتى الرماد. أو أن هذه... هذه... الكلمة البوسنية بابزي، أوه لا يمكنني ترجمتها!».

لف أصابع يده في هيئة القبضة، ومررها فوق الطاولة. «ماذا تدعون قدم الحيوان؟ قدم البقرة أو الحصان؟».

«حافر؟» أجبته.

«نعم هذه الكلمة. «حوافر» السمة التي أطلقناها على العدو - شيء ما يذكرُ بالحظيرة. خشيتُ، لو أنهم وصلوا إلى المتحف، من أنهم سيمرغون المكان بحثاً عن الذهب، لن يتوانوا عن تدمير كنوز يجهلون حتى تخمين قيمتها النفيسة. بطريقة ما، شققت طريقي إلى مركز الشرطة. كان معظم رجال الشرطة مستنفرين، للدفاع عن المدينة بأفضل السبل. سألني الموظف المسؤول متعجباً: «هل هناك من يرغب بوضع رأسه تحت النصال، لإنقاذ بعض الأشياء القديمة؟» إلا أنه حين أدرك أنني ماض وحدي، مهما كانت الحال عليه، قام بتجنيد اثنين من «المتطوعين» لمساعدتي. لم يكن يود، كما قال، أن يعلم الناس أن أمين المتحف المغبر، لديه جرأة تفوق جرأة الشرطة».

«نقلوا بعض التحف الضخمة إلى القاعات الداخلية. أما القطع الصغيرة الحجم، العظيمة القيمة، فخبؤوها في أمكنة بعيدة عن أعين اللصوص، كما أُخفي بعضها في غرفة المعدات الخاصة بالبواب».

تماوجت أذرع أوزرين الطويلة في الهواء، حين بدأ بوصف الآثار التي أنقذها- كالهياكل العظمية لملوك وملكات البوسنة القدامى، وهي عينات طبيعية نادرة من التاريخ البوسني.

«بعدها حاولتُ العثور على الهاجادا. في عام 1950، تورط أحد

موظفي المتحف بمؤامرة لسرقة الهاجادا، لذلك تقرر منذ ذلك الحين، أن يحتفظ مدير المتحف وحده بسرية رمز القفل التوافقي[12] للمكان الذي تتواجد فيه المخطوطة. لكن المدير يقطن مجاوراً لضفة النهر، حيث القتال في أشده». عرف أوزرين أنه لن يقدر على الوصول إلى المتحف، وتحرير المخطوطة.

تابع أوزرين حديثه بهدوء، مستخدماً جملاً قصيرة، غير دراماتيكية. لا ضوء هناك. أنبوب مكسور. فيضان المياه. قذائف تضرب الجدران. موعزاً إليّ بمتابعة ملء الفراغات. قضيتُ عمراً في قاعات المتاحف بما يمكنني من تخيل ما جرى. كيف لكل قذيفة تقصف المبنى أن تسكب أمطاراً من الجص فوق الأشياء الثمينة، فوق أوزرين، داخل عينيه، بينما يربض جاثياً في الظلام، بيدين مرتعشتين، يقدح عود ثقاب بعد عود، ليضيء ما كان يفعله. كان ينتظر بين الفينة والأخرى، توقف القصف، عساه يتمكن من سماع فتح الأقفال، بينما ينتقل في البحث من رمز إلى آخر. أعتقد أنه فشل في الإصغاء، بكل الأحوال، نبض الدم في رأسه، أشدُّ صخباً.

«كيف تمكنت بحق السماء من فتح القفل؟».

رفع يديه، مس راحة يد منهما. «كانت حافظة قديمة، أقل تعقيداً بكثير...».

«رغم هذا، ماذا عن الاحتمالات!».

«أنا لست رجل دين، كما أخبرتك، لكن إذا كنتُ على يقين بالمعجزات... فالحقيقة أنني حصلت على هذا الكتاب، في تلك الظروف».

«معجزة!» قلتُ، «أكنتَ من...».

لم يدعني أختم بـ«... من فضلك»، قاطعني راسماً على ملامحه مسحة من النفور. «لا تنسبي إلي صفة البطولة، لا أشعر بزهو البطل أبداً.

12- القفل التوافقي: قفل ذو أرقام وحروف متحركة، لا يفتح إلا إذا ألف منها رقم أو لفظ سري معين.

بل على العكس، بصراحة، أشعر بأن اللعنة واقعة علي، لعجزي عن إنقاذ مخطوطات المتحف جميعها...»، نظر بعيداً.

أعتقد أن ما جذبني هذا المظهر. هذا التحفظ. ربما، لأنني أتعارض مع الشجعان، لدي ارتياب دائم، بما يخص الأبطال أنفسهم. حيث أميل للاعتقاد بأنهم يفتقرون إلى الخيال، أو أن الطريقة التي تمكنهم من القيام بأفعال جريئة، غير موجودة في الأصل. لكن هنا، تختلف المسألة... إنه شخص كاد يختنق في سبيل الكتب الضائعة، الرجل الذي يُمضي أيامه بجزع، جريرة ما عجز عن إتمام فعله. أظن أن إعجابي به بدأ يزداد قليلاً.

وصل الطعام أخيراً، العصير، القليل من فطائر اللحم، الفلفل والزعتر العطري. كنتُ أتضور جوعاً فما لبثتُ أن غرقت في الطبق، التهمتُ اللحم مع قطع الخبز التركي اللين الساخن. انهمكت بتناول الطعام، بما استغرقني بعض الوقت، لأدرك أن أوزرين لا يأكل، وإنما يحدق بي. كانت لديه عينان خضراوان. بلون طحلبي عميق، مرقش ببريق النحاس والبرونز.

«أعتذر»، قلتُ. «لم يكن علي الاستفسار عن التفاصيل تلك. أفقدتك الشهية لطعامك».

ابتسم ابتسامة عريضة – تلك الابتسامة الجذابة الملتوية للأعلى نفسها. «ليس كذلك».

«ما الأمر إذاً؟».

«حسناً، لاحظت بينما كنت مستغرقة في عملكِ اليوم، ما انفك وجهك هادئاً وصافياً، ذكرتني بمادونا في أيقونات الأرثوذكس. من الممتع جداً بالنسبة لي أن يحمل وجه سماوي كل هذه الشهية البشرية».

لا أحتمل فكرة أنني ما زلت حمقاء مثل تلميذة أمام شاب، خاصة حينما شعرتُ بالدم يتدفق إلى أنحائي كلها. لذلك حاولت أن أستبعد منه أي مجاملة. فقلت ضاحكة: «وهذا أسلوب للإشارة أنني آكل مثل خنزير».

وصل إلى أكثر من ذلك، ليمسح بقايا الشحم العالق بخدي. توقفت عن الضحك. وصلتُ إلى يده قبل أن يتمكن من سحبها، ثم أدرتها فوق كفي. إنها يد باحث، بالتأكيد، بأظافر نظيفة، ومصقولة بشكل جيد. لكن كان هناك بعض الندب الغليظة أيضاً. أفترض، حتى العلماء، يضطرون إلى تقطيع الخشب، في حال حالفهم الحظ وعثروا عليه إبان الحصار. تلألأت رؤوس أصابعه بشحم الضأن، الذي أزاله عن خدي. قربت أصابعه من شفتي، وبدأتُ بلعقها، ببطء، إصبعاً تلو الأخرى. تعلقتْ عيناه الخضراوان بي، تسألانني سؤالاً، بإمكان الجميع تخمينه.

كانت شقته قريبة في الأنحاء، مجرد عليّة فوق محل للحلويات يقع على مفترق تقاطع يدعى سويت كورنر. حين دخلنا عبر باب المحل المشبع بالبخار، سرعان ما أصابتنا موجات الدفء المتدفقة من الداخل. رفع المالك يداً ممرغة بالطحين مُرحّباً. لوح أوزرين رداً للتحية، ثم قادني عبر المقهى المكتظ بالسلالم إلى العلية، بينما تبعتنا رائحة المعجنات المقرمشة والسكر المحروق.

تمكن أوزرين من الوقوف تحت حواف الإفريز في العلية. مست نهايات شعره المجعدة الجامحة العوارض المنخفضة. خلع عنه معطفه، والتفت إلي، ليأخذ معطفي، ثم مسّت أصابعه رقبتي بخفة. قام بتمرير أصبعه الوسطى فوق قوس العظام الصغير في مؤخرة رقبتي، أسفل شعري المرفوع المعقوص. تتبع خط العظام على كتفي نزولاً إلى أسفل، فوق سترتي. وصولاً إلى الوركين، انزلق بيديه تحت الكشمير، ثم رفع القماش إلى الأعلى محاولاً خلعه عني. علق الصوف بمشبك شعري، سقط المشبك مرتطماً بالأرض، لتنسدل خصلات شعري فوق كتفي العاريتين. ارتعشت، لف ذراعيه حولي.

استلقينا، بعدها، بين كومة من الأغطية والملابس. يحيا أوزرين حياة الطالب. كان فراشه مرتبةً رفيعةً تم دفعها صوب الجدار، بينما تكدست تلال من الكتب والصحف بعشوائية في الزوايا. له جسد ممشوق كخيل

السباق، بعظام طويلة وعضلات مشدودة. أما الدهون فلم تستقر بغرام واحد عليه. مس خصلة من شعري وقال «ناعم ومسط، كشعر اليابانيات».

«تبدو خبيراً، ألستَ كذلك؟» قلتُ مازحة. ابتسم ابتسامة عريضة، ثم نهض ليسكب كأسين صغيرين من مشروب الراكيا الكحولي[13] لم يكن قد أشعل الضوء منذ دخولنا، لكنه أضاء فيما بعد زوجاً من الشموع تمكنتُ عبر الشعلات الوضاءة، من لمح لوحة تصويرية ضخمة تغطي جدار العلية البعيد، تمثل صورة لامرأة ورضيعها، مكتظة بالألوان الكثيفة. كان الطفل مخفياً جزئياً بمنحنى جسد المرأة، الذي بدا كقوس يحمي الطفل اللاجئ إليه. ابتعدت المرأة بنظرها عنا نحو طفلها، مع هذا، تسللت بعينها نحو الرسام - نحونا - بنظرة ثابتة، مثيرة وجميلة.

«يا لها من لوحة رائعة»، قلت.

«نعم، صديقي دانيلو - الذي أخبرتك عنه - رسمها».

«من هي؟».

قطب حاجبيه، تنهد. ثم رفع كأسه كأنه يشرب نخبها:

«زوجتي».

13- مشروب الراكيا الكحولي: يعرف باسم ركيجا أو رافيا أو العرق، مشروب روحي يصنع محلياً في العديد من الدول كاليونان وتركيا وصربيا والبوسنة والهرسك وبعض البلاد العربية غالباً ما يكون حاضراً في موائد الاحتفالات الشعبية.

-4-

«أن تنجزي عملاً قيماً، عليكِ أن تتجردي من ذاتك، أن تفقدي أي أثر لما قمتِ به بشأن مادة البحث...»، هذا ما علمني إياه أستاذي فيرنر هاينريش. «يا آنسة هيث، تحاشي الخطأ كفنانة. عليك السعي، على الدوام، خلف هدفك».

لا أعتقد بوجود عشرة أشخاص في العالم، يعلمون على وجه اليقين، أنني فككت صفحات هذه المخطوطة، ثم أعدت شبكها معاً، في نهاية الأسبوع الأول. الحدثُ التالي الذي اضطررت للقيام به هو المضي لزيارة عدد قليل من الأصدقاء القدامى، الذين سيكون بمقدورهم إعلامي ما تعنيه العينات الصغيرة التي استخرجتها من المجلدات، إن وجد لها معنى ما.

لست طموحة، بطبعي، بالمعنى التقليدي للكلمة. فأنا لا أريد منزلاً ضخماً، أو حساباً مصرفياً كبيراً؛ لستُ في هوس للحصول على ثروة مادية أبداً. كما أنني بالمقابل لا أحلم أن أكون رئيسة أحد، أو أن أدير أي أمر غير نفسي. لكنني أشعر بمتعة هائلة، خاصة بعد طلب الأمم المتحدة المفضي إلى المساهمة في كتابة مقال، سيتم تضمينه في الفهرس المرفق مع المخطوطة، بعد عرضها في المتحف. يسعدني إلى أقصى حد مفاجأة زملائي القدامى في العمل بمقالة بحثية عن جديد لم يتعرفوا عليه بعد. لا ينفك هوسي الحقيقي بتحريك الكرة نحو الأمام، ولو بضع ميليمترات فقط، في سعي الإنسان العظيم إلى اكتشاف كل شيء.

وقفت بعيداً عن الطاولة وتمطيّتُ. «إذن أيها الأمين «- kustos -» قلتها باللغة البوسنية أعتقد أنه يمكنني الآن إعادة الهاجادا إلى عهدتك». لم يتبسم أوزرين، أو حتى ينظر إليَّ، انتصب فوراً، ثم ذهب ليحصل على الصندوق الجديد، الذي تم صنعه بالمواصفات التي أوصيتُ بها: فترينة أرشيفية مصممة على نحو ملائم لحفظ الكتاب بأمان. في حين أنجزت الأمم المتحدة العمل في قاعة العرض في المتحف بمناخ مناسب. كان من المقرر أن تمسي المخطوطة مزاراً يمثل تراث سرايفو الأبدي، المتعدد الأعراق. إذ إن وجود الهاجادا في أي مكان، حدث يثير الفخر والزهو، لكن بالمقابل فإن عرض المخطوطات الإسلامية والأيقونات الأرثوذكسية، بدورها، له شأن عظيم في إظهار كيفية نشوء البشر مع فنونهم من الجذور ذاتها. كيف ألهم بعضهم بعضاً، كيف ساهموا في التأثير في الغير.

حين أخذ أوزرين الكتاب، وضعتُ يديّ على يده. «تمت دعوتي لحضور حفل الافتتاح. كان من المفترض أن أقدم ورقة في متحف تيت[14] منذ أسبوع مضى. لذا يتوجب علي السفر إلى لندن بأسرع وقت، إن عدت من هناك، فهل سأراك حينئذ؟».

تحرك بعيداً، بحيث أسقط يدي عن يديه. «أثناء المراسم... ما رأيك؟».

«وبعد ذلك؟» قال مستهجناً.

قضينا ثلاث ليالٍ معاً في سويت كورنر، لكنه لم يقل كلمة واحدة تخص الزوجة التي ما انفكتْ تحدق بنا عبر اللوحة. في الليلة الرابعة، استيقظت قبل الفجر بقليل، بفعل الضجة التي أحدثها خبّاز المعجنات حول المكان، يحضر التنور لخَبز حلوياته. انزلقتُ نحو أوزرين، فوجدته مستيقظاً تماماً، يحدق في اللوحة، بنظرة شاحبة، وحزن شديد. لمست وجهه برفق.

14- متحف تيت مودرن، (Tate Modern)، معرض الفن الحديث في لندن. يضم مجموعة من الأعمال الفنية الدولية الحديثة والمعاصرة، يعود تاريخها إلى عام 1900.

«أخبرني» سألت.

التفتَ ونظر إلي، ثم احتضن وجهي بكلتا يديه. نهض من الفراش، أمسك سرواله، ألقى بملابسِ الليلة الماضية إلي. ارتدينا ثيابنا، ثم تبعته نزولاً إلى الطابق السفلي. تحدث إلى شيف المعجنات لبضع دقائق، أعطاه الرجل مجموعة من مفاتيح سيارات.

عثرنا على سيارة سيتروين قديمة، أصابتها قذيفة ما، في نهاية زقاق ضيق. قاد السيارة بصمت تام خارج المدينة صاعداً نحو أعالي الجبال. يا لجمال المرتفعات هناك! هطلت الشمس بأشعتها الأولى نحو الثلج فأحالته ذهبي الملامح وردياً وأرجواني اللون. طرحت الرياح القوية أشجار الصنوبر في المحيط، بينما أتاح العبق المتناثر منها السبيل لولادة ذكريات غير متجانسة: بدءاً من الأريج الشفيف لأشجار عيد الميلاد، وصولاً إلى شذى نسغها الكثيف، حين تتمادى موجات الحر في سيدني، منتصف ديسمبر من أواسط فصل الصيف.

«هذا جبل تريبيفيتش»، نطق أخيراً «من هنا كانت تنطلق المزاليج خلال دورة الألعاب الأولمبية الشتوية، قبل أن يتنقل الصربيون ببنادقهم القوية ومواقعهم التلسكوبية، فيحولونه إلى حفر لقناصيهم»، سارع بيده ليمسك بي، حين حاولتُ الاقتراب من إحدى الحفر. «لا تزال ألغام أرضية مزورعة في كل مكان هنا. عليكِ الالتزام بخطواتك فوق الطريق».

كان المشهد، حيث وقفنا، يحمل إطلالة مثالية للمدينة في الأسفل. كانت في مضمار هدفهم، من هنا، من هذا المكان. حيث «حملت ابنها الرضيع قرب المنطقة التابعة للأمم المتحدة. مزقت الرصاصة الأولى شريانها الفخذي. زحفت بعدها، جرّت الطفل إلى أقرب جدار، ثم ألقت بجسدها فوقه متراساً لحمايته. لم يجرؤ أحد على مساعدتها، حتى جنود الأمم المتحدة، حدقوا بها تنزف حتى الموت، أما المدنيون المذعورون فتبددوا، مكرهين، بحثاً عن أي أماكن مخفية تعيسة يمكنها إغاثتهم».

«شعب سراييفو البطل». تحدث أوزرين بصوتٍ منهك وبمرارة. أما كلماته فكان من الصعب سماعها، بينما يلقي بها بين أسنان الريح.

«هذه التسمية التي كانت CNN تطلقها علينا على الدوام. لكن معظمنا لم يكن بطلاً، صدقيني. كلما بدأ إطلاق النار، يجري الجميع بالسرعة نفسها، التي تصيب بالعدوى الشخص التالي وهكذا... عايدة، الجريحة، النازفة كانت هدفاً لا يقاوم لقاتل مجرم في جبل إيغمان. اخترقت الرصاصة الثانية كتفها وهشمت العظام ثم تفجرت. شظية صغيرة من المعدن، شظية فقط، خرجت من كتف الأم وأصابت جمجمة الطفل. إليا... اسمه» همس أوزرين في أنين وحسرة.

الأذية الأولية - هو المصطلح العصبي المستخدم من قبل الاختصاصيين. جملة، لطالما سمعتها مصادفة في فترة مراهقتي، حين كانت أمي تتناقلها عبر الهاتف، الجملة التي غالباً ما كانت بمنزلة قطع مرحب به للجدالات بيننا على طاولة العشاء. أذية غير خطرة تخص أحد المصابين الشباب، في غرفة الإسعاف. لطالما ظننت أن مصطلح «أذية» ما هو إلا كلمة ملائمة لإصابة في الرأس، أو ضربة على الجمجمة بخشبة تبلغ اثنتين في أربع بوصات. لم أعتقد، يوماً، أن هناك أذية أشد وطأة من تلك. لكن في حالة إليا، تفاقمت الأذية الأولية، إلى حقيقة مرة، أن سراييفو تفتقد في مشافيها جراحي الأعصاب، ناهيك عن اختصاصيين في طب الأطفال.

«بذل الجراح العام قصارى جهده، لكن الوقت فات، إذ أصيب الدماغ بتورم والتهاب أو ما يدعوه الأخصائيون- «أذية ثانوية» - بما أدّى بالصبي الصغير للدخول في غيبوبة. بعد أشهر، حين وصل جراح الأعصاب إلى المدينة، أعلن أنه لا يمكن القيام بأي علاج آخر».

نزلنا من الجبل، سألني أوزرين إذا كنت أود الذهاب إلى المستشفى، لرؤية ولده. لم أرد الذهاب، فأنا لا أحب المستشفيات. بل لطالما كرهتها.

في بعض الأحيان، في عطلة نهاية الأسبوع، مع غياب مدبرة المنزل، داومت أمي على اصطحابي في جولاتها الطبية. أضواء ساطعة، جدران خضراء، ضوضاء المعدن على المعدن، والبؤس الدامي المرير في القاعات مثل الكفن، أمقتهم جميعاً. سيطر الجبن في داخلي، على خيالي الكامل بما يخص المستشفيات. فأنا أرى نفسي في كل سرير، فوق جهاز الجر الطبي. يمكنني مشاهدة جسدي فاقداً للوعي على النقالة، أنز الدم في أكياس التفريغ، مكبلة بالقسطرة البولية. كل وجه هو وجهي. حالة تشبه كتب الأطفال، تلك التي تحتفظ بالرأس نفسه، بينما تتابع تغيير الأجساد تحته. إنه أمر محزنٌ، أعلم هذا. لكني عاجزة عن التخلص منه. بينما لا تزال أمي ترنو للسبب الذي يجعلني أرفض أن أصبح طبيبة.

لكنّ مع أوزرين، فالوضع مختلف. بدا وهو يرمقني، مثل جرو لطيف للغاية، يميل برأسه، متوقعاً اللطف والقبول. لا يمكنني رفض دعوته. أخبرني أنه كان يذهب كل يوم، قبل العمل. حتى أنني لم أدرك، في الصباحات القليلة الماضية، أنه كان يوصلني إلى الفندق لاستحم - إذا كان هناك مياه جارية - وأقوم بتغيير ملابسي. بينما لم أعلم أنه يذهب إلى المستشفى بعد ذلك، لقضاء ساعة مع ابنه.

حاولت ألا أنظر إلى اليمين أو اليسار، أو داخل الأجنحة، بينما كنا نسير في البهو. ثم دخلنا غرفة إليا، ليس من شيء تحدق به، أكثر جاذبية من الطفل الراقد. وجه جميل، لا يزال منتفخاً قليلاً بفعل السوائل التي ضخت بجسده لإبقائه حياً. مجموعة خيوط مترابطة مع أنابيب بلاستيكية. صوت جهاز نبض القلب، يقيس دقائق حياته المحدودة القصيرة. أخبرني أوزرين أن زوجته قد توفيت قبل عام، لذا لم يكن من الممكن أن يكون عمر إليا أكثر من ثلاث سنوات. من الصعب معرفة ذلك. يشير جسمه الهزيل غير النامي إلى رضيع أصغر سناً، لكن التعابير التي ارتسمت فوق وجهه بدت وكأنها تعكس ملامح رجل عجوز.

نحى أوزرين الشعر البني عن الحاجب الصغير. جلس على السرير، ثم همس بهدوء بلغته البوسنية، وبسط بلطف الأيدي الصغيرة المتصلبة.

«أوزرين». قلت بهدوء: «هل فكرت في الحصول على رأي طبي آخر؟ يمكنني أخذ صور الأشعة الخاصة به معي و-».

«لا»، قال، مقاطعاً جملتي قبل إتمامها.

«لكن لم لا؟ الأطباء ليسوا سوى أشخاص مثلنا، قد يخطئون». لا أستطيع أن أعد المرات التي سمعت فيها أمي ترفض آراء زميل بارز لها: «هو! لن ألجأ إليه، من أجل أظافر مغروزة باللحم».

لكن أوزرين لم يهتم، ولم يرد علي.

«هل لديك صورة رنين مغناطيسي للرأس، أو مجرد تصوير مقطعي محوسب؟ تظهر أجهزة التصوير بالرنين المغناطيسي التفاصيل بشكل أوضح».

«حنا، اسكتي، من فضلك. قلت لا».

«هذا مضحك»، قلتُ. «لم أكن أتوقع أبداً أنك مؤمن بمثل هذه الترهات، هل ما زلت توقن بالمشيئة السماوية، وتسلم للقضاء والقدر».

نهض عن طرف السرير واتجه بخطوة نحوي. أمسك وجهي بين يديه، ثم دنا بوجهه بالقرب مني، لدرجة تلاشت معها ملامحه الغاضبة.

«أنتم»، قال، خفيض الصوت، بلهجة هامسة:

«أنتم الذين تستنزفهم الترهات».

أخافتني ضراوته الفجائية. تراجعتُ للخلف.

«أنتم»، تابع، قابضاً على معصمي. «جميعكم، قاطنو العالم الآمن، أهل الوسائد الهوائية والتعليب الصحي، والنظم الغذائية الخالية من الدهون. أنتم من يؤمن بالخرافات لا نحن. أنتم تحاولون إقناع أنفسكم بقدرتكم على خداع الموت، ثم تصابون باستياء عظيم، حينما تكتشفون أنكم عاجزون عن ذلك. لقد أقمتِ في مسكني الصغير الجميل طوال حربنا، وشاهدتنا، ننزف في جميع نشراتِ أخبار المحطات التلفزيونية.

فكرتِ ربما، «كم هذا مروعاً!» لكنك قمتِ بعدها، وحضرتِ لنفسك كأساً أخرى من القهوة اللذيذة». كان وصفه دقيقاً للغاية بما أجفلني تماماً. لكن غضبه ذهب بالمعنى الحقيقي المؤثر، كان يبصق في الواقع، أكثر مما يتكلم.

«لا بد أن الأشياء السيئة تحدث. بالنسبة لي، تعرضتُ لكثير من الأحداث المروعة في حياتي. لا أختلف في هذا، عن آلاف الآباء الآخرين في المدينة، ممن لديهم أطفال يعانون. أنا أعيش معهم. لا تنتهي كل حكاية بنهاية سعيدة. انضجي، يا حنا، تعلمي التسليم بالقدر».

ألقى معصمي. كنتُ أرتعش كلياً. لم أرغب إلا بالخروج. بالخروج بعيداً من هنا. عاد إلى إليا، ثم جلس على طرف السرير مرة أخرى، مستديراً بوجهه بعيداً عني. مضيتُ نحو الباب، مروراً أمامه. لحظتُ كتاباً للأطفال، باللغة البوسنية، يحمله بين يديه. تمكنت من خلال الرسوم التوضيحية المألوفة، أن أعرف أنها قصة مترجمة عن ويني ذا بو. وضع الكتاب جانباً، فرك وجهه براحتي يديه. نظر إلى وجهي، تلاشت تعابير ملامحه الغاضبة. ثم قال: «أقرأ له. كل يوم. لا يمكن أن يعبر سنين طفولته من دون هذه القصص».

التفتَ إلى صفحة وضع إشارة مرجعية لها. وضعتُ يدي على مقبض الباب للرحيل، لكن صدى قراءته منعني. كان يبحث في الصفحات، بين الفينة والأخرى، ثم يتحدث مع إليا. ربما أراد تفسير معنى بعض الكلمات الصعبة، أو تقاسم بعض الجوانب المرحة الخاصة بفكاهة ميلن الإنكليزية. لم أحظ مسبقاً، بالتعرف إلى مثل هذه العلاقة اللطيفة بين أب وولده. أدركتُ أنني لن أحتمل رؤيتها مجدداً.

تلك الليلة، بعد الانتهاء من العمل، بدأ أوزرين يعتذر عن ثورته. لم أكن متأكدة، إن كان مجرد مقدمة لدعوتي لقضاء الليلة في شقته، لكنني لن أسمح له بالوصول إلى هذا الحد. تحججتُ ببعض الأعذار غير المقنعة، كإجابة عن أسباب عودتي إلى غرفتي في الفندق. اتبعتُ ذات الأسلوب

في الليلة التالية. ثم توقف عن الاستفسار في الليلة الثالثة. على أي حال، بالنسبة لي، حان الوقت للرحيل.

قيل لي مرة، من قبل عالم نبات وسيم جداً ومجروح جداً، أن موقفي من ممارسة الجنس أشبه بشيء قرأعنه في كتاب علم اجتماع يتحدث عن فترة الستينيات. أخبرني أنني أتصرف، تماماً كما يصف الكتاب سلوك الرجل ما قبل الحركة النسوية، الرجل الذي يكتسب شريكات لممارسة الجنس بشكل عرضي، ثم يلقي بهن بمجرد إحساسه أن العلاقة بدأت تورط القلب عاطفياً.

افترضَ أن هذه السمة مغروزة في شخصيتي، بفعل فقدان الأب، والغياب العاطفي للأم. حتى أنه لم يكن لرجل في حياتي أيّ دور في الإعداد لعلاقة صحية ومتبادلة أبداً.

أخبرته حينها، لو أنني في حاجة لسماع نصيحة نفسية، بإمكاني القيام بزيارة استشارية غير مكلفة لشركة ميديبانك[15]. لستُ عفوية في التعامل بما يخص ممارسة الجنس، كما لا أزال بعيدة عنه. ربما أكون امرأة من الصعب إرضاؤها. لكني أفضل القليلَ الملائم من الكثير من دون المستوى. لستُ بارعة في اقتناص إعجاب الآخرين والحفاظ عليهم، أما إن رغبتُ بشريك، فسأتبع حينها نظاماً صارماً في تعاملي معه. إن اخترت أن أكون مع شخص ما، أريد من العلاقة أن تحافظ على متعتها وإشراقها. لن يسعدني على الإطلاق أن أساهم بأذية مشاعر الرجل الذي اخترت أن أكون معه، لا سيما إن كان يعاني من أحداث مأساوية مثل أوزرين. أوزرين، الذي بدا واضحاً أنه إنسان مذهل وشجاع وذكي ويحمل قيماً أخلاقية رائعة. إضافة إلى كونه رجلاً وسيماً، هذا إن كان الرجل الأشعث لافتاً لنظر امرأة ما - مثلي. شعرت بالسوء حيال عالم النبات أيضاً. لكن، بمجرد بدء حديثه عن التنزه بين الجبال والتخييم مع الأطفال. اضطررت للسماح له بالرحيل. لم أكن قد بلغت الخامسة

15- Medibank: شركة تأمين صحي وطنية خاصة مقرها في أستراليا

والعشرين في ذلك الوقت. إلا أنني أعتقد أن الحصول على أطفال في منتصف العمر، ترفٌ عظيم، هذا رأيي.

أما بالنسبة لما يدعى - عائلتي التي تعاني من خلل اجتماعي، فقد ورثت عنها اعتقاداً أساسياً، ألا وهو: لا تعتمد على مزارع الآخرين، للحصول على قوتك العاطفي. ابحث عن شيء ممتع جداً، أمر مبهج لدرجة يغرقك فيها تماماً، فلا تملك الوقت الكافي للتركيز على الأحداث المؤسفة والويلات التي تمر عليكَ. أمي تحب عملها، وأنا أعشق عملي. لذلك كانت حقيقة أننا لا نحب بعضنا بعضاً... حسناً، بالكاد أفكر فيها.

بعد انتهاء أوزرين من عمله الخاص بالختم والسلاسل، انتظرتُ مرافقته على درج مبنى البنك للمرة التي كان يُفترض أن تكون الأخيرة. إن عدت إلى سراييفو من أجل الافتتاح، فإن المخطوطة ستكون قد عادت إلى المكان الذي تنتمي إليه، في مكان عرضها الجديد والجميل والحديث المحاط بحراسة آمنة تامة في المتحف.

انتظرت أن يضع أوزرين الكتاب في القبو، لكنه حين عاد، كان مشغولاً في محادثة مع الحراس البوسنيين، فلم يلتفت.

فتح الحارس الباب الأمامي لنا. «ليلة سعيدة». قلت له: «وداعاً. شكراً لكم».

وضع يده على مقبض الباب الفضي المزخرف. نظر إلى الوراء، أومأ برأسه. ثم غادر تاركاً الباب مفتوحاً وخرج إلى الظلام. عدتُ وحدي إلى الطابق العلوي، لحزم أدواتي وجمع المظاريف الزجاجية الحاوية على شظية جناح الحشرة والشعرة البيضاء التي وجدتها فوق المجلد. العينات الدقيقة، التي لا يتجاوز حجم كل منها النقطة في نهاية الجملة، تلك التي التقطتها بواسطة طرف المشرط عن الصفحات الملطخة. وضعت هذه الأشياء بعناية في صندوق الوثائق. ثم تصفحتُ دفتر ملاحظاتي، للتأكد من أنني لم أنس أي تفصيل. قرأت لمرة ثانية، الملاحظات التي كتبتها في اليوم الأول، حين فككت المجلد. كما اطلعتُ على المذكرات التي

خربشتها على عجل، حول الأخاديد في حواف اللوح، واستفساري الذاتي عن المشابك المفقودة.

يتوجب عليك تغيير الطائرات في فيينا، لأجل الوصول إلى لندن من سراييفو. بدأت أخطط لاستخدام هذا التوقف الضروري لإنجاز أمرين اثنين. أولهما متعلق بأحد معارفي القدامى، عالم الحشرات، وهو باحثٌ وأمين متحف- Naturhistorisches[16] - أو متحف التاريخ الطبيعي. حيث يمكنه مساعدتي في توصيف شظية جناح الحشرة. كما أردت زيارة معلمي العجوز أيضاً، فيرنر هاينريش. إنه رجل عزيز، لطيف ودمث، أعتبره بمنزلة جد لي، الجد الذي لم أتعرف عليه أبداً. كنت أعرف أنه حريص على الإصغاء لخطوات بحثي فيما يخص الهاجادا، أردت بدوري الحصول على نصيحته القيمة. ربما يسمح لي نفوذه، أيضاً، باختراق الإجراءات الشكلية الفيينية المتبعة في المتحف، والمعمول بها منذ عام 1894. إن تمكنتُ من الوصول إلى الأرشيف، فهي فرصة للعثور على بعض السجلات القديمة، التي توضح الحال التي كانت عليها المخطوطة، لحظة وصولها إلى المتحف. وضعت دفتر الملاحظات في محفظتي. ثم زلقت مظروف مانيلا[17] كبيراً، يتضمن أوراقاً من المستشفى. مهرتُ الطلب باسم أمي وجعلت جمله مبهمة بعض الشيء: «... طلب استشارة بناء على طلب الزميل الدكتور كارامان في حالة ابنه...» سرعان ما تعرفوا على اسمها، يا لصيتها الذائع حتى هنا! لا بد أن السبب كامن في البحث الذي شاركتْ بتأليفه حول تمدد الأوعية الدموية، والذي لا يزال مرجعاً معيارياً في هذا المجال. لا علاقة لتكرار الخدمات التي اعتدتُ طلبها منها، لكنها كانت في طريقها إلى بوسطن لتقديم ورقة في المؤتمر الأمريكي السنوي لطب الأعصاب. تذكرت...

16- متحف التاريخ الطبيعي: يضم المتحف معروضات شهيرة وفريدة من نوعها على مستوى العالم، ويعتبر من أكبر المؤسسات البحثية غير الجامعية في النمسا.

17- مجلد مانيلا: مجلد ملفات مصمم لاحتواء الوثائق والمستندات، يتكون عادةً من ورقة كبيرة قابلة للطي إلى النصف، البرتقالي هو لونه السائد غالباً.

لديّ موكّل هناك في بوسطن، مستثمر ملياردير وجامع مخطوطات رهيب، داوم لفترة على ملاحقتي لتوكيلي بفحص مخطوطة. كان يفكر في ابتياعها من مكتبة هوغتون في مزاد تم الإعلان عنه في المتحف.

لا يضني السفر الأستراليين بشكل عام. إن نشأتَ في أستراليا، فأنت بشكل تلقائي تتلقى تدريباتٍ على التنقل وخوض الرحلات الطويلة، التي قد تستغرق حوالي - خمس عشرة أو أربع وعشرين ساعة -هذا ما اعتدنا عليه منذ الصغر. بالنسبة لنا، يبدو السفر لثماني ساعات عبر المحيط الأطلنطي، بمنزلة رحلة اعتيادية. حين عرض موظف الحجوزات أن أحجز تذكرة من الدرجة الأولى، وافقت على الفور، إذ إنني لم أعتد الجلوس في نهايات الطائرات المدببة. ظننت أن الأمور ستجري كما خمنت فيما يتعلق بتفاصيل السفر، أنني سأجني أتعاباً جيدة، أنني سأصلُ لندن في الوقت المناسب لتقديم ورقتي في التيت. لا أنفك أحاول ترتيب مسار رحلتي، حتى أفوِّتَ وأمي صحبة بعضنا لبعض. فيقتصر اللقاء على مكالمة هاتفية قصيرة: «يا للأسف!»... «نعم، هل يمكنكِ تصديق ذلك؟» بحيث تتفوق كل واحدة منا على الأخرى في النفاق. حين اقترحتُ في الليلة الماضية أن ألتقي وإياها بالفعل في بوسطن. صمتٌ ثقيل لدقيقة مسّ سماعة الهاتف. احتدام سرايفو جال صوب سيدني الهادئة. ثم، بصوت جاف بارد أجابتْ: «أتوق لهذا. سأحاول العثور على بعض الوقت».

لم أسأل نفسي لماذا كنت أقحم نفسي بهذه المسألة بالتحديد؟ لماذا أعاند هكذا؟ لمَ أغزو خصوصية رجل كأوزرين، وأستهين برغباته، التي لم يكن بإمكانه التعبير عنها بوضوح أكبر. افترضتُ أن الإجابة كامنة في شيء يتوجب معرفته، إن وجد فعلاً، فلن أتوانى عن محاولة الكشف عنه. أعتقد أن الأمر يماثل ما أقوم به إلى حد كبير، كانت فحوصات إليا الدماغية تشبه إلى حد كبير أجزاء الألياف الموجودة في المظاريف الزجاجية، ما هي إلا رسائل مشفرة، يمكن لأعين الخبراء فحسب، تفسيرها لي.

-5-

من الواضح أن فيـنا استفادت إلى حد كبير من سقوط الشيوعيين. بدت المدينة بأكملها وكأنها في حالة تحول جذري، كامرأة كهلة وقورة اختارت الإغفاءة تحت مشرط جراح التجميل. حين علقتْ سيارة الأجرة التي تقلني في الازدحام المروري على طول شارع رينجستراس[18] لاحظتُ أن رافعات البناء تعمل في كل مكان، منحنية فوق الأفق المحيط بكعكة زفافِ المدينة. انبعث الضوء من أفاريز هوفبورغ المطلية حديثاً، بينما نظفتْ آلاتُ السفع الرملي عشراتٍ من واجهات مباني عصر النهضة الحديثة، لتكشف عن الحجر الكريمي الدافئ الذي حجبته قرون من القذارة. من الواضح أن الرأسماليين الغربيين أرادوا من المكان مقراً متقناً لمشاريعهم المشتركة الجديدة جميعها، مع الدول المجاورة كالمجر وجمهورية التشيك. بعد حصولهم على عمالة رخيصة قادمة من الشرق للقيام بهذا العمل.

في أوائل الثمانينيات من القرن الماضي، حين زرتُ مدينة فيينا في رحلة بحثية، كان المكان رمادياً وقذراً. المباني كلها وسخة، بالرغم من أنني لم ألحظ هذا في ذلك الوقت. إذ اعتقدت أن الأسود هو لون المبنى الأساسي. بما أصابني بشعور يفضي إلى أنه مكان محزون ومروع بعض

18- رينجستراس: طريق بطول يزيد على 5 كم (3 أميال)، يدور حول مدينة فيينا الداخلية، تم بناء المكان من قبل الإمبراطور فرانز جوزيف في منتصف القرن التاسع عشر، تقع على جانبي هذا الشارع العديد من المباني الهامة في مدينة فيينا منها القصور والمتاحف والمنازل الفخمة.

الشيء. إن موقع فيينا، المترنح في أقصى غرب أوروبا، جعل منها مكاناً غارقاً في حرب باردة. في هذه الأجواء، حيث السيدات البدينات، والرجال بمعاطفهم الأنيقة، بملامحهم البورجوازية الحادة، التي بدت متأثرة بالجو متقلبة، مشحونة، كالأثير ما بعد الصاعقة. لكنني أحببت فن الروكوكو[19] المذهل، المقاهي والموسيقى، التي تخفق في كل مكان - نبضاً للمدينة ودقاتٍ لفؤادها. تكمن النكتة في أن أي شخص في فيينا، لا يحمل آلة موسيقية، ليس سوى عازف بيانو، أو عازف قيثارة أو جاسوس أجنبي!

قد لا يعتقد المرء أن مدينة فيينا تشكل إلى حد ما مركزاً للعلوم، ومع ذلك كان لها نصيبها من أعمال التكنولوجيا المتطورة والمختبرات المبتكرة. ترأستْ زميلتي القديمة أمالي سوتر، عالمة الحشرات، أحد هذه المختبرات - أمالي التي قابلتها قبل ذلك بسنوات عندما كانت تعمل في أبحاث ما بعد الدكتوراه - على مقربة من الطرقات التي تأخذك نحو مقاهي الروكوكو المذهبة. صادفتها عند أطراف أحد الجبال في ولاية كوينزلاند الشمالية النائية. كانت تقطن بمنزل يشبه خزان مياه مبنياً من حديد مموج. كنتُ رحالة في ذلك الوقت. بعد أن تسربتُ من مدرسة الفتيات النخبوية الباهظة الثمن، في سن السادسة عشرة، لتمسي هذه أول لحظة ممكنة حظيت فيها بانعتاق حقيقي. حاولت إجبار إدارة المدرسة على طردي في وقت سابق، لكن الإدارة كانت خائفة للغاية من رد فعل أمي إزاء الطرد. متجاهلة على الدوام المحرمات التي انتهكتها، وقواعد الاحتشام التي كسرتها. من ثم رحلتُ من منزلنا الفخم، وانضممت إلى تلك الفرقة الجوالة- المكونة من الأولاد الإسكندنافيين الأصحاء العاملين في أيام العطل، المتسربين من المدارس، المدمنين الهزيلين، الذين كانوا ينجرفون شمالاً نحو خليج بايرون، ثم إلى الساحل، بعد

19- الروكوكو: كلمة معناها الصدفة أو المحارة غير المنتظمة الشكل ذات الخطوط المنحنية، التي استمدت منها زخارف فن التزيين الداخلي. ظهر هذا الطراز من الفن في القرن الثامن عشر، ويعد امتداداً للباروك ولكن بمقاييس جمالية تتسم بالسلاسة والرقة.

كيرنز، إلى كوكتاون، حيث تقودهم الطرقات إلى نهاياتها. سافرتُ على بعد آلاف الخطوات، طلباً للهرب من والدتي، حتى انتهى بي المطاف إلى العثور على شخص يشبهها تماماً. على امرأة تعيش في عالم مثيل لعالمها، نظير لأسلوب حياتها.

أمالي لم تكن سوى أمي، المجردة من الادعـاءات الاجتماعية والطموحات المادية. لكنها كانت مُقادة بما تقوم به، مهووسة بالبحث والتمحيص عنه: دراسة كيفية اعتماد نوع معين من الفراشات على النمل للحفاظ على سلامة اليرقات من الافتراس والتخريب. سمحتْ لي الباحثة، بالبقاء في خزانها المعدني، علمتني كل شيء عن الحمامات والسخانات الشمـسية. بالرغم من إدراكي الهزيل، آنذاك، لما يجري حولي، إلا أنني أفكر الآن في تلك الأسابيع الرائعة التي أمضيتها على الجبل، بينما أراقب الطريقة التي تنظر بها أمالي إلى العالم، عبر الاهتمام الوثيق والعاطفي والاسلوب الفريد الذي بذلت به قصارى جهدها في محاولة الحصول على فرصة معرفة شيء جديد، حول «كيفية سير العالم»، الأمر الذي تأثرتُ به، ثم غيرني كثيراً، وقادني لأحمل أحمالي، وأعود إلى سيدني من جديد، لبدء حياة حقيقية.

بعد سنوات عديدة، عندما جئت إلى فيينا بهدف التدرب على يد الباحث فيرنر هاينريش، هرعتُ إليها مرة أخرى. طلب مني فيرنر التحري عن الحمض النووي لحشرة الكتب التي استخرجها من أحد الأغلفة. مختبر الحمض النووي في متحف ناتورهيستوريشس[20] كان المختبر الأفضل في المدينة - بناء على مقولة أحدهم- بدا هذا مثيراً بالنسبة لي في ذلك الوقت. متحف التاريخ الطبيعي في فيينا الذي يحتوي الآثار المختلفة الخاصة بالتاريخ الطبيعي، ومن ضمنها أحفورات لحيوانات

20- متحف التاريخ الطبيعي: يحتوي على نحو 30 مليون قطعة من الآثار المختلفة الخاصة بالتاريخ الطبيعي، يعد المتحف واحداً من أكبر متاحف العالم للتاريخ الطبيعي، وأحد أكبر متاحف النمسا.

قديمة منقرضة وديناصورات وأحفورات عن تاريخ الإنسان وتطوره. كنت أحب التجوال فيه فلا يمكن لك أن تتوقع ما الذي ستجده أمام ناظريك. كنتُ كتلة متوقدة مكتظة بالفضول. بينما أكلت إشاعة غريبة رأسي، بالرغم من أنني لم أكشف عن صحتها أبداً: إشاعة تشي أن المتحف يحتفظ برأس مقطوع للوزير التركي الذي خسر الحرب أثناء حصار فينا عام 1623. ويفترض أنهم أبقوه في القبو!

كان مختبر أمالي سوتر صرحاً حديثاً تم تحضيره، من أجل إعادة البحث في علم الأحياء التطوري. أتذكر الأمور الغريبة التي صادفتني في الطريق إلى مكتبها: خذي المصعد للطابق الثالث، اتبعي الهيكل العظمي لديبلودوكس[21]. عندما تصلين إلى عظم فكه، ستجدين بابها على يساره. أخبرني مساعد أنها في غرفة التجميعات وسار بي على طول الممر. فتحت الباب فانفجرت في وجهي روائح النفتلين اللاذعة. أمالي تقف هناك، بقامتها ذاتها، كما غادرتها إلى حد كبير، غارقة بدرج ممتلئ بوميض أزرق فضي.

سُرّت الباحثة برؤيتي، لكن مقابلتها أسعدتني أكثر بكثير. «ظننت أنكِ جلبت لي حشرة كتب جديدة». في المرة الماضية، توجب عليها سحقها لاستخراج الحمض النووي، تكبيره، ثم الانتظار أياماً للقيام بالتحليل. ولكن «هذا»، قالت، قابضة على المغلف بعناية «هذا، إن لم أكن مخطئة، سيكون الأمر أسهل بكثير. أظن أن ما حصلت عليه هنا ليس سوى صديق قديم لي».

«فراشة؟».

«لا، ليس فراشة».

«لا يمكن أن يكون جزءاً من فراشة؟».

21- ديبلودوكس- diplodocus - ديناصور ضخم آكل النباتات ينتمي إلى الصوربوديات، عاش في العصر الجوراسي في أمريكا الشمالية منذ حوالي 150 مليون سنة، يبلغ طوله 26 متراً، ووزنه 10000 كغ.

لا تتسلل أجزاء الفراشة عموماً إلى الكتب. العث يفعل عادة، لأنه يعيش في الداخل، حيث يتم الاحتفاظ بالكتب. لكن الفراشات مخلوقات تعيش في الهواء الطلق.

«أعتقد أنها قد تكون كذلك». وقفت وأغلقت غرفة التجميعات. عدنا إلى مكتبها، حيث تفحصت رفوف الكتب الممتدة من الأرض إلى السقف، ثم جذبت مجلداً كبيراً عن عروق الجناح. ثم فتحت باباً طويلاً امتدت على طوله صورة لها، بالحجم الطبيعي كطالبة جامعية في الغابة الماليزية المطرية، ملوحة بشبكة فراشات يبلغ ارتفاعها أربعة أمتار. من المثير للاهتمام أن العمر الذي مر عليها منذ ذلك الوقت، حتى الآن لم يترك آثاره عليها. أعتقد أن حماستها المطلقة لعملها تؤدي دور المادة الحافظة على جسدها فلا تقربها التجاعيد. في الجانب الآخر من الباب، بان مختبر لامع، حيث كان باحثو ما بعد الدكتوراه يستخدمون الماصات ويحدقون النظر في الرسوم البيانية للحمض النووي على شاشات الكمبيوتر. رفعتْ أمالي بلطف قطعة من الجناح، على شريحة ثم وضعتها تحت مجهر قوي.

«مرحبا، يا جميلة» قالت. «إنها أنت». نظرت إلى أعلى وابتسمتْ في وجهي. لم تكن قد لمحت حتى مخططات العروق البيانية: إنها من نوع: بارناسيوس ميموسين ليونهارديان(Parnassius Mnemosyne leonhardiana) أو ما تسمى فراشة أبولو الثلج، الفراشة المألوفة في جميع أنحاء أوروبا».

اللعنة... غار قلبي، لا بد أن وجهي طفا بذلك الشعور. فلا معلومات جديدة هناك. اتسعت ابتسامة أمالي. «لم أقدم من المساعدة الكثير...؟» ثم أشارت أن أتبعها في الممر نحو الغرفة المليئة بخزائن التجميعات. توقفت أمام واحدة منها، ثم فتحت الباب المعدني الطويل الذي صدح بدوره بالرنين. زلقت دُرجاً خشبياً. احتشدت صفوف من فراشات بارناسيوس بأجنحتها المثبتة الجامدة، مشرعة إلى الأبد بعناية فوق حروف أسمائها.

اصطفت الفراشات بطريقة بالغة الرقة والخفة والسكون. لها أجنحة بيضاء كريمية اللون، موشومة بنقط سوداء. الأجنحة الخلفية شبه شفافة تقريباً، مثل الكريستال، مقسمة إلى أنواع من الزخارف المتميزة رسمتها الأوردة السوداء. قالت أمالي: «ليست الفراشة، بأي شكل من الأشكال، الأكثر خطفاً للأنظار حول العالم». «لكن الباحثين يحبونها. ربما لأنه عليك تسلق جبل لتحصلي على واحدة منها». أغلقت الدرج والتفتت إلي. «صحيح أنها فراشة شائعة في جميع أنحاء أوروبا، نعم... لكنها حبيسة مناطق جبال الألب العالية، عموماً، على ارتفاع ما يقارب الألفي متر. تتغذى يرقات البارناسيوس فقط على نبات العاتق المتواجد في مجموعة جبال الألب، النبات العشبي الذي ينمو في البيئات المنحدرة الصخرية.

هل كانت مخطوطتك يا عزيزتي حنا، في رحلة حول جبال الألب؟

جناح الحشرة

سرايفو، 1940

هنا القبر.
ابق،
لفترة من الوقت، حين تصغي الغابة.
اخلع قبعتك!
هنا تغفو أزهار الناس الذين أتقنوا الموت.

• نقش، العريضة التذكارية للحرب العالمية الثانية، البوسنة.

هبت الرياح عبر نهر ميلجاكا[22] بقسوة وشدة، كأنها تصفع في وجه الأفق. ركضت لولا بمعطفها الرقيق غير الواقي عبر الجسر الضيق، دفعت بيديها عميقاً داخل جيوبها. ارتفعت مجموعة من السلالم الحجرية المنحوتة القصيرة، على الضفة الأخرى من النهر، التي تقود نحو حارات مكتظة، بممرات مقفرة ضيقة، ومبانٍ سكنية رثة. صعدتْ لولا درجتين معاً في كل مرة، وصولاً إلى الزقاق الثاني، الذي عزلها أخيراً عن العواصف القارصة.

22- ـ نهر ميلجاكا: يعد النهر واحداً من المواقع الجغرافية الرئيسية في جمهورية البوسنة والهرسك، يخترق مدينة سرايفو من الشرق مروراً بالوسط إلى الجزء الغربي، حيث يلتقي في النهاية مع نهر البوسنة.

لم يكن الليل قد انتصف بعد، وبالتالي لم يتم إغلاق الباب الخارجي للمبنى الذي تقطن فيه. أما الجو في الداخل فليس أكثر دفئاً من الشارع. استغرقت لحظة لالتقاط أنفاسها، استعادتْ توازنها. تسللت لأنفها، رائحة الملفوف المسلوق النافذة، ممزوجة مع عبق بول قطط حديث معلق على جدران البهو. تسلقت لولا الدرج، ثم أزاحت مزلاج شقة العائلة برفق. بالرغم من أن يدها اليمنى سارعت بشكل غريزي للمس المزوزا [23] على الباب وتقبيل يدها، قبل أن تتسلل إلى الداخل، فإن لولا لم تكن لتعرّف عن السبب الكامن لهذا الفعل. خلعت معطفها، غيرت حذاءها، وحملته، بينما كانت تتسلل بهدوء عبر مكان نوم أمها وأبيها، في الشقة التي لم تكن سوى غرفة واحدة، مع ستارة فاصلة، تستخدم لأجل الخصوصية.

بدتْ أختها الصغيرة مجرد تورم جاثم تحت اللحاف. رفعت لولا الغطاء وانزلقت إلى جوارها. تكورت دورا مثل حيوان صغير يشع بحرارة غامرة. التصقت لولا بظهر شقيقتها الدافئ. احتجت الطفلة أثناء نومها، أطلقت صرخة صغيرة ثم ابتعدت. حشرتْ لولا يدها المتجمدة في إبطها. بالرغم من الصقيع الذي اجتاح جسدها، إلا أن وجهها لا يزال متوهجاً، أما جبينها فتقطر عرقاً نجم عن ساعات من الرقص، لا بد لوالدها، إن استيقظ، أن يلاحظ ذلك.

تعشق لولا الرقص. هذا ما يغويها للالتحاق باجتماعات الأوصياء الشباب. تحب المشي أيضاً لمسافات طويلة وشاقة خاصة في الجبال وصولاً إلى بحيرة معلقة أو إلى أنقاض قلعة قديمة. لا يعنيها كثيراً الآثار المتبقية. كما تضجرها المناقشات غير المنتهية في مواضيع السياسة. أما عن اللغة العبرية - فلم تكن على ولعٍ بالمطالعة، حتى لو كانت بلغتها

23- مزوزا: كلمة عبرية، ومعناها عضادة، وهي رق مستطيل الشكل تُكتب عليه جمل ملائمة من الكتاب المقدس، وعلى الجانب الآخر من الرق تظهر كلمة «شدّاي»، وهي أحد أسماء الرب. يتم لفّ الرق لفّاً شديداً ثم يوضع في شق صغير ضيق يُنحت في عضادة الباب ويُغطي بالزجاج، أو في غمد. تعتبر في المجتمع اليهودي أداة مقدسة تحمي المكان وأصحابه. وهناك من يمس المزوزا ثم يقبّل أصابعه.

الخاصة، ناهيك عن كفاحها لفك تشفير الأحرف السوداء غير المنتظمة الغريبة التي كان موردخاي يحاول دائماً أن يساعدها بتعلمها.

ما زال يراود فكرها ذراعه الملتوية خلف كتفها، في حلقة الرقص. يالخفة ذاك المزارع القوي العضلات! رفع أكمامه، فبدا ساعده بني اللون قاسياً كالبندق. ارتبكت لجهلها بترتيب خطوات الرقص، إلا أنها تابعت الرقص معه بسهولة، خاصة مع تشجيع من ملامحه المبتسمة. سراجان - حتى لو كان فقيراً مثل لولا - فلن يلقي نظرة، أي نظرة على الفلاح البوسني. لا يهم إن كان المزارع حسن الأحوال أو ثرياً، لا بد أن يشعر ابن المدينة بالتفوق. إلا أن موردخاي كان شخصاً آخر تماماً. لقد نشأ في مدينة ترافنيك، لم تكن تشبه سراييفو، لكنها مدينة راقية رغم ذلك. شاب متعلمٌ. يداوم على ممارسة الرياضة في صالة الألعاب الرياضية. سافر قبل عامين، في سن السابعة عشرة، على متن قارب إلى فلسطين للعمل في مزرعة. لم يصفها بأنها مزرعة معطاءة، على حد تعبيره. فكانت قطعة أرض جافة قاحلة مغبرة، تضطرك لكسر ظهرك لتجني منها محصولاً. لا تهبك ربحاً أيضاً، محصولٌ يغطي فقط، مصاريف الطعام في فمك، وملابس العمل فوق جسدك. لا تعتقد أن هناك أسوأ من مهنة الفلاح، حقاً؟ لكنه حين تحدث عن تجربته، بدا الأمر كما لو أنها مهنة رائعة، أكثر المهن نبلاً في العالم فلا يفوق الفلاحة والحراثة والري ومواعيد الحصاد أي عمل آخر على الإطلاق.

أحبت لولا الإصغاء إلى موردخاي أثناء حديثه عن الأشياء العملية التي كان على الرياديّ أن يعرفها، بدءاً من التعامل مع لدغة العقرب أو معالجة الجروح؛ إلى كيفية الحفاظ على مرحاض صحي أو ارتجال مأوى. أدركت لولا أنها لن تطمئن أبداً للعيش في فلسطين، لكن الطرق المتبعة لمثل هذا النوع من المعيشة تثير فضولها. كذلك حال المغامرة المزدانة بمثل هذه المهارات. يغويها التفكير بموردخاي، وتَذَكرُ أسلوبه في الحديث. الأسلوب ذاته المتبعُ في أغاني لادينو القديمة،

التي لطالما تغنى جدها بها، حين كانت فتاة صغيرة. جدها الذي امتلك حامل بذور في متجر في الهواء الطلق، بينما تغادرها أمها عنده، في بعض الأحيان، لتأدية أعمالها. جدها الذي اكتنزت جعبته بحكايات الفرسان والهيدلج[24]، والقصائد القادمة من ذاك المكان الساحر الذي يدعى سفارد [25]، حيث عاش أسلافهم منذ زمن بعيد، كما قال. تحدث موردخاي عن أرضه الجديدة، كما لو كانت سفارد. أخبر المجموعة أنه لا يطيق الانتظار للعودة إلى هناك، إلى «أرض إسرائيل». «أغار من كل إطلالة شمس، لا أشهدها هناك، فأراقب الحجارة البيضاء من وادي الأردن، وقد استدارت ذهباً».

لم تشارك لولا في مناقشات المجموعة. شعرت بالغباء بالمقارنة مع الآخرين. كثير منهم كانوا من عصبة السفابو جيجوس، اليهود المتحدثين باليدية[26]، إنهم اليهود المهاجرون إلى المدينة مع الاحتلال النمساوي في أواخر القرن التاسع عشر. أما العائلات الناطقة بالإسباعبرية [27] كعائلة لولا، فهي متواجدة في المدينة منذ عام 1565، منذ كانت سراييفو لا تزال جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، حيث وفر السلطان المسلم لليهود ملاذاً من الاضطهاد المسيحي آنذاك. خاصة، أن معظم الذين تهجروا منذ طردهم من إسبانيا في عام 1492، كانوا عاجزين عن العثور على وطن آمن. حتى وجدوا السلام في سراييفو، وحظوا بالقبول من سكانها. مع الزمن، استطاعت بعض العائلات تحقيق الازدهار والنمو

24- الهيدلج: الإسبان المنتمون لطبقة النبلاء الدنيا.

25- سفارد: (بالعبرية: ספרד) اسم مدينة في آسيا الصغرى تم ربطها بإسبانيا عن طريق الخطأ، لتصبح منذ القرن الثامن الميلادي، كلمة «سفارد» هي الكلمة العبرية المستخدمة للإشارة إلى إسبانيا. وتُستخدَم الكلمة في الوقت الحاضر للإشارة إلى اليهود الذين عاشوا أصلاً في إسبانيا والبرتغال، مقابل الإشكناز الذين كانوا يعيشون في ألمانيا وفرنسا ومعظم أوروبا.

26- اليدية: لهجة من لهجات اللغة الألمانية، تكثر فيها الكلمات العبرية والسلافية، وتكتب بحروف عبرية.

27- الإسباعبرية: لهجة تتكون من مزيج من الإسبانية والعبرية.

في أعمالها. بينما ظل معظم التجار اليهود يعملون في نطاق ضيق، كحال أجدادهم. أو أنهم ما زالوا من الحرفيين ذوي المهارات البسيطة. كان السفابو جيجوس، اليهود الأكثر تعليماً، والأقرب للأوروبيين في رؤاهم. سرعان ما حصلوا على وظائف أفضل بكثير، واندمجوا مع السرايفيين ذوي المراتب العليا في المجتمع. انضم أطفالهم لصالات الألعاب الرياضية، واستطاع شبانهم التقدم للجامعات. إنهم القادة الرائدون، بشكل طبيعي، لجماعة الأوصياء الشباب.

ابنة أحد أعضاء مجلس المدينة، واحدة منهم. آخر، هو ابن الصيدلي، الأرمل، الذي تقوم والدة لولا بتنظيف ثيابه وكيها. والد فتاة أخرى، يعمل محاسباً في وزارة المالية، حيث يعمل والد لولا، كحارس في الوزارة. لكن موردخاي يعامل الجميع على قدم المساواة، بما أدى بلولا إلى تجميع شجاعتها بشكل كافٍ، ثم تطرح سؤالها:

«لكن موردخاي»، سألت بخجل «ألا تشعر بالسعادة بأن تكون في وطنك، متحدثاً لغتك، فلا تضطر إلى هذا العمل الشاق كله؟».

استدار موردخاي نحوها بابتسامة وقال «هذا ليس وطني».

ثم تابع برقة «وهو ليس بوطن لك أيضاً. الوطن الحقيقي الوحيد لليهود هو أرض إسرائيل. هذا هو سبب وجودي هنا، لأخبركم بكل شيء عن الحياة التي تنتظركم هناك، لإعدادكم، ولإعادتكم معي، لبناء وطننا اليهودي».

رفع ذراعيه، كما لو كان يضم لولا إليه في احتضان ديني. «إذا صح التعبير، فهذا ليس حلماً»، توقف مؤقتاً، ليترك الكلمات معلقة في الهواء. «رجل عظيم قال ذلك، وأنا أوقن بما قاله. ماذا عنك، يا لولا، هل ستصنعين أحلامك، وتجعلينها حقيقية؟» احمر وجهها ارتباكاً، غير معتادة على مثل هذا الاهتمام، ابتسم موردخاي برفق. ثم جال بيديه لتشملا المجموعة بأكملها. «لكن فكروا في الأمر. ماذا ستفعلون؟ التماهي برقصة الحمام، العمل الشاق لجني فتات الآخرين، أم تختارون أن تصيروا صقوراً صحراويين، وتحلقوا لخلق أقداركم؟ كان إسحق،

ابن الصيدلي، فتى هزيلاً مولعاً بالدراسة، مع قلم بيده ذي حافة رفيعة. كثيراً ما كانت والدة لولا تظن أن الصيدلي لم يكن لديه، رغم كل ما أوتي من علم، أدنى فكرة حول كيفية تغذية طفل وتنشئته بالشكل الصحيح. مع ذلك، كان إسحق، من بين جميع الشباب في القاعة، الوحيد الذي يتململ فاقداً للصبر، في خضم رحلة موردخاي البلاغية. لاحظ موردخاي ذلك، وتحول بأقصى طاقة للدفء نحوه مستفسراً: «ما هذا، يا إسحق؟ هل لديك وجهة نظر لمشاركتها معنا؟».

دفع إسحق نظارته ذات الإطار السلكي إلى أعلى جسر أنفه. وأجاب: «ربما كان ما تقوله صحيحاً بالنسبة لليهود في ألمانيا. كلنا نسمع الأخبار المقلقة القادمة من هناك. لكن ليس الأمر مماثلاً هنا. لم تكن معاداة السامية يوماً جزءاً من حياتنا في سرايفو. انظر إلى الكنيس، كيف ينتصبُ بين المسجد والكنيسة الأرثوذكسية. أنا آسف، لكن فلسطين هي وطن للعرب. ليست ملكاً لك. بالتأكيد ليست لي أيضاً. نحن أوروبيون. لماذا ندير ظهرنا لبلد قدم لنا الرخاء والتعليم، كي نصبح فلاحين بين أناس لا يريدوننا؟

«إذن، أنت سعيد بأن تبقى حمامة؟» علّق موردخاي مرفقاً الجملة بابتسامة، لكن عزمه على التقليل من شأن إسحق كان واضحاً، حتى بالنسبة للولا. قام إسحق بقرص جسر أنفه، ثم حك رأسه.

«ربما يكون الأمر كذلك. ولكن على الأقل الحمامة لا تضر أحداً. بينما يعيش الصقر على حساب المخلوقات الأخرى في الصحراء».

أصغت لولا إلى جدال الرجلين حتى أصيب رأسها بالصداع. لم تكن لديها أي فكرة عمن منهما كان ذا الرأي الصائب. استلقت فوق فراشها الرقيق، في محاولة لتهدئة أفكارها. كان عليها أن تغفو، وإلا فإنها لن تتمكن من إنهاء مهامها في اليوم التالي، بما يثير انتباه والدها لمعرفة السبب. تعمل لولا في الغسيل مع والدتها راشيلا. إن كانت متعبة، فالمهمة الروتينية تنحصر بالمشي في شوارع المدينة حاملة سلالها

الثقيلة، لتوصيل البياضات الفواحة المنشّاة للزبائن، وجمع الملابس المتسخة. سيزيد البخار الدافئ الرطب من نعاسها أثناء مراقبتها للمرجل. لتجدها والدتها بعد حين، مسترخية في زاوية بعيدة، بينما يكون الماء قد برد، متسبباً بتجمد الزبد الدهني فوق سطح المرجل.

لم يكن والدها لوجو، رجلاً قاسياً، لكنه صارم وعملي في الحياة. سمح لها منذ البداية، بالذهاب إلى اجتماع الأوصياء الشباب أو هشومير هزاير، كما يدعى باللغة العبرية، بعد الانتهاء من إنجاز عملها. خاصة بعد أن تحدث صديقه موسى، الأمين في مركز الجالية اليهودية، لمصلحة المجموعة، قائلاً إنها منظمة غير مؤذية ومتكاملة، تماثل تجمعات شباب الكشافة. لكن بعد ذلك، غفت لولا تاركة النار التي تسخن المرجل. وبّختها والدتها، ثم استفسر والدها عن السبب. ومع علمه برقصة الهورا[28]، التي يؤديها الفتيان والفتيات معاً، منعها من حضور المزيد من الاجتماعات.

«أنت يا ابنتي، لم تتجاوزي الخمسة عشر عاماً، عندما تبلغين سناً أكبر بقليل، سنجد لك خطيباً جميلاً يشاركك الحياة والرقص». توسلت إليه واعدة أنها ستجلس خلال فترة الرقصات. ثم أضافت: «أشياء كثيرة يمكنني تعلمها هناك».

«أشياء!» قال لوجو بازدراء. «هل ستساعدكِ هذه «الأشياء» على كسب قوتِ عائلتك؟ هل تفعل؟ لا؟ لا أعتقد ذلك. أفكار مسعورة... أفكار شيوعية، كما سمعت عنها. أفكار محظورة في بلادنا، ستقودك لمواجهة مشاكل تضرك كثيراً. ثم ماذا عن تلك اللغة الميتة التي لا يتكلمها أحد، باستثناء ثلة من كبار السن في الكنيس. لا أعرف، حقاً، ما الذي كان موسى يفكر به. سآخذ بعين الاعتبار إجلالك هذا، حتى لو نسي الآخرون قيمة هذه الأشياء. يمكنكِ التجول، يوم الأحد،لا أمانع

28- الهورا - hora- من أشهر الرقصات الشعبية اليهودية الرائدة، الرقصة رومانية الأصل، لتأدية هذه الرقصة، يقوم المشاركون بشبك أذرعهم خلف ظهورهم أو على أكتافهم، ثم اتخاذ خطوات معينة في حلقة دائرية.

أبداً، إن لم يكن لأمك حاجة في مساعدتها بأعمال المنزل. لكن من الآن فصاعداً، عليكِ أن تقضي أمسياتك في المنزل».

منذ ذلك الحين، بدأت لولا، في الواقع، بممارسة حياة مزدوجة مضنية. يصادف ملتقى هشومير ليلتين في الأسبوع. تذهب للفراش في هذه الليالي، في وقت مبكر، مصطحبة أختها الصغيرة. إن أمضتْ، في بعض الأحيان، نهاراً شاقاً، فالأمر سيكلف إرادتها جهداً هائلاً لتبقى مستيقظة، أو حتى تصغي لأنفاس صدر دورا الصغير المستلقي بجوارها. لكنها في غالب الأحيان، تعمل على التظاهر بالنوم إلى أن يخبرها شخير أبويها بأن الوضع آمن وبإمكانها المغادرة. تتسلل بعدها خارج الشقة، لتلقي عليها ملابسها على السلم، متأملة ألا يخرج أحد الجيران من بابه فيلاحظ ما تفعله.

في المساء الذي أخبر موردخاي به المجموعة أنه سيغادر، لم تفهمه لولا في البداية.

«أنا ذاهب إلى الوطن»، قال. اعتقدت لولا أنه يقصد مدينة ترافنيك. ثم أدركت أنه سيستقل سفينة شحن إلى فلسطين، وأنها لن تراه من جديد. دعا الجميع للقدوم إلى محطة القطار، في يوم رحيله، لوداعه. ثم أعلن أن أفرام، عامل الطباعة، قرر الذهاب معه.

«إنه المهاجر الأول. آمل أن يتبعه العديد منكم». ثم حدق في لولا، بدا لها أن نظرته أقامت لوهلة في عينيها، ثم قال داعياً: «متى ما رغبتِ بالعودة إلى وطنك، سنكون هناك للترحيب بكِ».

في اليوم الذي غادر فيه موردخاي وأفرام، داهم التوق لولا للذهاب إلى محطة القطار، لكن والدتها انشغلتْ بكمية هائلة من الثياب لغسلها. راشيلا تكدح مع الحديد الثقيل، بينما أخذت لولا مكانها المعتاد بين المرجل والمكواة. في الوقت الذي كان فيه قطار موردخاي يتجه نحو الساحل، نظرت لولا إلى الجدران الرمادية لغرفة الغسيل، تحدق في البخار المتكاثف متقطراً فوق الحجارة الباردة. ملأت رائحة العفن أنفها.

حاولت تخيل أشعة الشمس البيضاء الحارة التي وصفها موردخاي، حين تسطع فوق أوراق أشجار الزيتون، بينما تعبق أزهار البرتقال المتفتحة في حدائق القدس ذات الجدران الحجرية.

القائد الذي أخذ مكان موردخاي، كان شاباً يدعى صمويل من نوفي ساد، وهو مدرس كفؤ للمهارات في الهواء الطلق، لكنه مفتقر للكاريزما التي أبقت لولا مستيقظة لليال عديدة لحضور الاجتماع. حيث تتهاوى الآن غافية في أغلب الأحيان، تنتظر والديها المنهكين أن يناما. قد تستيقظ على أذان المؤذن داعياً لصلاة الفجر باكراً، حيث يهرع جيرانهم المسلمون إلى الصلاة. تدرك حينها أنه فاتها الاجتماع، ثم يصيبها إحساس بندم بسيط.

تبع الأولاد والبنات الآخرون، بعد فترة، أفرام وموردخاي إلى فلسطين، في كل مرة مع طرود كبيرة في محطة السكة الحديدية. حرص من غادر، من حين لآخر، على مراسلة المجموعة. إلا أن التقارير المكتوبة تشابهت بتفاصيلها. متحدثة عن العمل الشاق. لكن هذه الأرض تستحق كل الجهد، أن تكون يهودياً يعمر مبنى يهودياً فوق أرضٍ يهودية، هو الغرض الأكثر سمواً في العالم. تساءلت، لولا، في بعض الأحيان حول هذه الرسائل. من المؤكد أن البعض يعاني حنيناً هائلاً للوطن؟ بالتأكيد هذا الأسلوب من الحياة لا يمكن أن يتوافق مع كل من حاول الانخراط فيه؟ بدا وكأن أولئك الذين تركوا الكل، أصبحوا شخصاً واحداً، يتكلمون بصوت واحد رتيب.

ارتفعت وتيرة الهجرة اليهودية، مع تدفق الأخبار السيئة من ألمانيا. تسبب التحاق النمسا بالرايخ[29] بتعسر الحياة في المناطق الحدودية فقط. بينما استمرت المعيشة في الداخل المجتمعي كالعادة، فلا يزال كبار السن يجتمعون لتناول القهوة مصطحبين معهم القيل والقال. كما أنهم

29- الرايخ - التسمية الرسمية باللغة الألمانية، لدولة ألمانيا القائمة بين عامي 1871 - 1945.

يمارسون طقوسهم الدينية في ليلة الجمعة، استعداداً ليوم السبت، يوم الراحة المقدس. لم يكن هناك أي إحساس بالخطر، حتى عندما غضت الحكومة الطرف عن العصابات الفاشيّة التي بدأت تجوب الشوارع، مضايقة أي شخص يحمل الهوية اليهودية، في محاولة إقحامهم في الدخول بمعارك مع الغجر.

«إنهم مجرد مغفلين». اقترح لوجو. «كل مجتمع لديه جهلته، حتى مجتمعنا. لا يعني هذا أي شيء».

كلما قامت لولا، في بعض الأحيان، بمهمة جمع الغسيل المتسخ من الشقق التابعة للحارات الثرية في المدينة، كانت تختلس النظر إلى إسحق، فتراه على الدوام، حاملاً حقيبة كتب ثقيلة يعلقها على كتفه. إنه في الجامعة الآن، يدرس الكيمياء كما فعل والده. لطالما أرادت لولا أن تسأله عما يفكر به إزاء المستقبل، خاصة بعد سقوط فرنسا في الحرب، هل تنامى قلقه تجاه الحدث؟ لكنها شعرت بالحرج من تلة الملابس التي تحملها. كما أنها لم تكن متأكدة من أنها تجيد طرح الأسئلة بطريقة لا تكشف أنها حمقاء.

عندما سمعت ستيلا كمال طرقاً خفيفاً على باب شقتها، سارعتْ لإسدال الخمار الدانتيل فوق وجهها قبل أن تذهب لترى من الطارق. رغم أنها تقيم في سراييفو لأكثر من عام حتى الآن، لكنها ما زالت متمسكة بالتقاليد الأكثر محافظة في بريشتينا[30]، التي لا تسمح من خلالها، أي عائلة مسلمة تقليدية لنسائها بإظهار وجوههن لرجل غريب.

لم يكن طارق الباب بعد ظهر ذلك اليوم، رجلاً، وإنما عاملة الغسيل التي دعاها زوجها في وقت سابق. شعرت ستيلا بالأسف على الفتاة الصغيرة. التي كانت تحمل على ظهرها حقيبة قماشية كبيرة محشوة بالملابس المضغوطة. معلقة الكيس بأحزمة فوق كتفها، لتظهر أطراف الثياب المتسخة جلية للعيان. بدت متعبة، مرتعشة من البرد. عرضت ستيلا عليها شراباً ساخناً.

30- بريشتينا: عاصمة كوسوفو وأكبر مدنها ومركزها الثقافي.

لم تتمكن لولا من فهم اللكنة الألبانية في البداية. رفعت المرأة قطعة الدانتيل الناعم التي غطت وجهها، ثم كررت عرضها، بإيماءة تقلد فيها فعل صب القهوة من الركوة. قبلت لولا بسرور، خاصة بعد الأميال التي مشتها في ذاك الطقس الشديد البرودة في الخارج. دعتها ستيلا إلى داخل الشقة، ثم اتجهت صوب الكانون، حيث لا تزال الجمرات حارة. صبت القهوة في الركوة، ثم راقبتها تغلي لمرة، لمرتين.

فاح عبق القهوة الغني بما أسال لعاب لولا. حدقت حولها. لم تر مثل هذا العدد من الكتب من قبل. تسطّرت جدران المكان بكتب لا تحصى. لم تكن شقة كبيرة، لكن كل ركن فيها مرتب بأناقة، كما لو كان أصيلاً منذ الأزل. طاولات خشبية منخفضة، مطعمة بالصدف على الطراز التركي، يعلوها مزيد من الكتب المفتوحة. نشر الكانون بألوانه المطفأة الدفء بين الرفوف الشمعية اللامعة. كان قديماً للغاية، بغطاء نحاسي مصقول نصف كروي مزين بالأهلّة والنجوم.

استدارت ستيلا، وقدمت للولا فنجاناً من الخزف الرقيق. منقوشاً بدوره بنجمة وهلال يلمعان في قعره. رفعت الركوة وصبت القهوة الساخنة من الأعلى، فانسكبت على شكل خيط طويل داكن. لفّت لولا أصابعها حول فنجان القهوة المخروطي عديم اليدين، اندفع البخار الشذي عابقاً في وجهها. أثناء ارتشافها القهوة اللاذعة، نظرت لولا عبر حافة الفنجان، نحو المرأة المسلمة الشابة. تعقصُ ستيلا شعرها تحت الحرير الأبيض الناعم حتى داخل المنزل، الذي يلفه الحجاب الدانتيل باستدارة جميلة، بحيث يكون في أهبة الاستعداد للانسدال فوق وجهها إذا تطلب الحياء ذلك. الشابة جميلة جداً، لها عيون داكنة دافئة، وبشرة كريمية اللون. لاحظت لولا مندهشة أن الفتاتين كانتا بنفس العمر تقريباً. أصابتها طعنة من الحسد. حين رمقت يد ستيلا الحاملة ركوة القهوة، ناعمة نضرة، وليست حمراء ومتقشرة مثل يدها. كم من الممتع أن تصير هذه الحياة سهلة، أن تقضيها في شقة جميلة، يقوم شخص آخر عنك بالأعمال المضجرة كلها. ثم

وقعت عينا لولا على امرأة شابة، تتوسط صورة ذات إطار فضي، يبدو أنها التقطت في يوم زفافها. تبدو تعابير الفتاة تعكس الجدية أكثر من البهجة. أما الرجل الواقف بجوارها فكان طويل القامة، قديراً. يرتدي طربوشاً وعباءة طويلة يعلوها معطف. لكنه بدا بعمر يفوق ضعف عمرها. على الأرجح أنه زواج مرتب. لطالما سمعت لولا عن التقاليد الألبانية التي تتطلب من العرائس في يوم زفافهن أن يجلسن في كراسيهن المخصصة من الفجر حتى الغروب، حيث يحظر عليهن المشاركة في الاحتفال. حتى الابتسامة تعتبر محرمة تستحق التوبيخ. لا يمكن للولا، التي اعتادت الابتهاج الجامح حتى في حفلات الزفاف اليهودية الأكثر تحفظاً، أن تتخيل مثل هذا الشيء. راودها شك في أن هذه التقاليد جنح من الخيال، أو أنها مجرد واحدة من الإشاعات التي تصيب المجتمعات المختلفة، التي يطلقونها بعضهم على بعض. حدقت ملياً في الصورة، تضاءل الحسد داخلها إلى حد كبير. لا بد أنها على الأقل، ستتزوج، بشاب صغير وقوي. مثل موردخاي.

لاحظت ستيلا لولا تمعن النظر في الصورة. ثم قالت مع ابتسامة فوق وجهها: «إنه زوجي، شريف كمال أفندي». تورد وجهها: «هل تعرفينه؟ معظم الناس في سرايفو يعرفونه». هزّت لولا رأسها بالنفي. لم يكن هناك أي تقاطع بين عائلتها الفقيرة الأمية وعائلة كمال، العشيرة الضخمة، ذات النفوذ في أوساط المسلمين، أو بين المثقفين. قدمت عائلة كمال للبوسنة العديد من العلماء، والمفتين حيث للإفتاء المنصب الديني الأعلى في المقاطعة.

درس شريف كمال اللاهوت في جامعة اسطنبول، كما تعلم اللغات الشرقية في جامعة السوربون في باريس. كان أستاذاً ومسؤولاً كبيراً في وزارة الشؤون الدينية قبل أن يصبح أمين المكتبات في المتحف الوطني. يتحدث لغات عشراً، وله مؤلفات علمية عن التاريخ والهندسة المعمارية، بالرغم من أن تخصصه الأساسي ينصب في دراسة المخطوطات القديمة. لكن شغفه الفكري هو الأدب الذي تطور

بين مفترقات طرق سرايفو الثقافية، وخاصة الشعر الغنائي الذي كتبه السلافيون المسلمون باللغة العربية الفصحى، حيث اتبع قوالب موسيقية تنتمي للبتراركان[31]، تم جلبها إلى داخل البلاد من بلاط ديوكلتيانوس[32] على الساحل الدلماسي.

أرجأ «شريف» الزواج طيلة فترة متابعته للدراسة، حتى اتخذ أخيراً قراره بالزواج من ستيلا، بغية إسكات من في دائرته جميعاً الذين داوموا على مطالبته بالقيام بذلك. والد ستيلا كان من علمه اللغة الألبانية. حيث بدأ هذا الأستاذ المسن بكثرة توبيخه حول عزوبيته التي طال أمدها. بهدوء، أخبره شريف حينها، إنه لن يتزوج، إلا إن زوجه الصديق والأستاذ ذاك إحدى بناته. أما ما حدث فيما بعد وأذهل شريف أنه استطاع الحصول على عروس جميلة. لا يزال الرجل، بعد أكثر من عام، يشعر بالدهشة من السعادة الغامرة، التي أضفاها هذا الوجود الشاب النضر على حياته. خاصة بعد تأكيدها له أنها حامل.

طوت ستيلا بعناية الأغطية والملابس القذرة. وسلمتها إلى لولا واحداً تلو الآخر. لا بد أنها من كانت تقوم بمهمة غسل الملابس. لكن مع قدوم الطفل، أصرّ شريف على التقليل من أعمالها المنزلية. التقطت لولا الكيس القماشي، شكرت ستيلا على القهوة، ثم ذهبت في طريقها.

في صباح نيساني مشرق، حين جاءت سواقي الثلوج السائلة، بعبق أعشاب الجبال البعيدة، أرسلت قوات «لوفتفاف»[33] القنابل، موجة

31- بتراركان Petrarchan: تدل على القوالب الموسيقية التي تنتمي للنوع الذي يستخدمها الشاعر بترارك الإيطالي.

32- ديوكلتيانوس: إمبراطور روماني حكم في الفترة من 20 نوفمبر 284 حتى 1 مايو 305. سُمِّي على اسمه قصر ديوكلتيانوس في كرواتيا، وحمّامات ديوكلتيانوس في روما.

33- لوفتفاف Luftwaffe: من أقوى قوات القرن العشرين، وأكثرها تقدماً من ناحية التنظيم والتدريب. كُشف النقاب عنها رسمياً في عام 1935، في انتهاك معاهدة فرساي، وكان الغرض منها دعم أدولف هتلر في «الحرب الخاطفة» في جميع أنحاء أوروبا.

بعد موجة من قاذفات ستوكا[34] لمداهمة بلغراد. جيوش من دول أربع معادية، تدفقت عبر الحدود. استغرق الأمر أقل من أسبوعين لاستسلام الجيش اليوغوسلافي. حتى قبل ذلك، أعلنت ألمانيا سرايفو جزءاً من دولة جديدة. «هذه دولة الأوستاش الآن ودولة كرواتيا المستقلة»، إضافة إلى إعلان الزعيم المُعيّن من قبل النازيين. «يجب تطهير الدولة من الصرب واليهود. لا مجال لاحتواء أي منهم هنا. لن نبقي على حجر فوق حجر كان يخصهم فيما مضى».

تقدم الألمان نحو سرايفو في 16 نيسان أبريل، وخلال اليومين التاليين، عصفوا بالحي اليهودي كله. تم نهب كل شيء ذي قيمة. ثم أضرمت الحرائق بجنون في الكُنس القديمة. ساهمت القوانين المعادية لليهود القاضية بـ«حماية الدم الآري وشرف الشعب الكرواتي» في الإساءة لوالد لولا، لوجو، وأدت إلى خسارته لوظيفته في وزارة المالية. إضافة إلى ذلك فقد أُجبر على العمل القسري مع رجال يهود آخرين، حتى المحترفين منهم، كوالد إسحق، الصيدلي. كما تم إلزام الجميع بارتداء نجمات صفراء. طردت شقيقة لولا الصغيرة، دورا، من المدرسة. وهكذا توجب على العائلة، الممعنة في الفقر، الاعتماد على العملات القليلة التي يمكن للولا وراشيلا جنيها.

ازداد شعور ستيلا كمال بالاضطراب يوماً بعد يوم. فلم يعد زوجها، الشديد اللباقة كعادته، قلقاً بشأن حالتها وطفلها، كما أنه لم يتبادل معها أكثر من ستِ كلمات خلال يومين. عاد إلى المنزل متأخراً من المتحف، بالكاد تذوق طعامه، أغلق على نفسه في غرفة مكتبه. تحدث في الصباح، بكلمات معدودات أثناء وجبة الإفطار، ثم غادر في وقت مبكر. حين ذهبت ستيلا إلى ترتيب الغرفة، وجدت الصفحات متناثرة فوق مكتبه،

34- طائرة يونكرز يو 87 أو ستوكا: طائرة صنعتها ألمانيا النازية في بداية الحرب العالمية الثانية. كانت طائرة فعالة تفوقت على طائرات الحلفاء، حيث استخدمت للاشتباك الجوي ولقصف الأهداف الأرضية.

سُطر في بعضها كثير من الجمل الاعتراضية، أما بعضها الآخر فمجعدٌ، ومرمي على الأرض.

يعمل شريف بهدوء عادة، في مكتبه الذي يبدو أنيقاً ومنظماً على الدوام. التقطت ستيلا، يرافقها شعور بالذنب، إحدى الأوراق المهملة. قرأت: «ألمانيا النازية هي حكومة كليبتوقراطية».[35]

لم تكن تعرف ما تعنيه الكلمة. تابعتِ القراءة: «يتوجب على المتاحف مقاومة نهب التراث الثقافي. كان من الممكن أن تكون الخسائر في فرنسا وبولندا قد خضعت للإيقاف، إن لم يقدم مديرو المتاحف مهاراتهم وخبراتهم لتسهيل النهب الألماني. بدلاً من ذلك، يا للعار، فقد أصبحنا من أكثر النازيين في أوروبا...» هذا كل ما كُتب في الورقة. التقطت كرة ورقية مجعدة عن الأرض. عنوانٌ عريض كتب فيها، موشوم بخط للتوكيد: المعاداة للسامية، دخيلة على مسلمي البوسنة والهرسك». يبدو أن هذه الصفحة مقالة، أو نوع من الرسائل المفتوحة، تشجب تطبيق القوانين المعادية لليهود. كان هناك الكثير من التقاطعات والشطب، لكن ستيلا تمكنت من قراءة أجزاء من الجمل: «... استخدام قضيب الصواعق، وحده الذي يلفت انتباه الناس بعيداً عن مشاكلهم الحقيقية»... «تقديم المساعدة للفقراء من السكان اليهود، الذين يفوق عددهم أكثر بكثير من التقديرات الشائعة...».

جعدت ستيلا الورقة ورمتها في حاوية القمامة. ضغطت على مفاصل أسفل ظهرها، كانت تؤلمها قليلاً. لم تشك يوماً أن زوجها، من أحكم الرجال. لا تزال بوجهة النظر ذاتها تجاهه الآن. لكن ماذا عن صمته، الصفحات المتجعدة، والجمل المُنذرة...؟ فكرت في التحدث إليه عن هذه الأمور. تدربت على ما ستقوله طوال اليوم. لكنه حين عاد إلى المنزل، صبت له قهوته الساخنة من الركوة ولم تقل شيئاً.

35- الكليبتوقراطية: مصطلح يعني نظام حكم اللصوص. وهو نمط الحكومة الذي يراكم الثروة الشخصية والسلطة السياسية للمسؤولين الحكوميين والقلة الحاكمة، وذلك على حساب الجماعة، اللفظ مركب من مقطعين يونانيين؛ أولهما «كلبتو» بمعنى لص، وثانيهما «قراط» بمعنى حُكم.

بضعة أسابيع مضت، تلتها حملة الاعتقالات. بعدها، في أوائل الصيف تم طلب لوجو للالتحاق بمحتشدات السخرة[36]. بكت راشيلا وطلبت من زوجها التخلف عن الاستدعاء، والهروب من المدينة، لكن لوجو أخبرها أنه رجل قوي، وعامل جيد، سيتدبر أمره. أمسك ذقن زوجته بيده. وقال: «الالتحاق أفضل من أي سبيل آخر. فالحرب لا يمكن لها أن تستمر إلى الأبد. إذا هربت، فإنهم لن يدعوكن وشأنكن». الرجل الذي لم يسبق له أن عبّر عن مشاعره بهذا القدر، قبل زوجته طويلاً وبحنان. ثم صعد على متن الشاحنة.

لم يكن لوجو يعلم أن محتشدات السخرة ليست للعمل بمعظم الأحيان، بل كانت أماكن للتجويع والتعذيب. قادوه، قبل نهاية العام، تجاه تلال الهرسك، حيث تآكلت الأحجار الكلسية وتعرت وتفتتت. أما أنهار المكان فتلاشت، حيث غارت عبر الكهوف في قلب الأرض، لتتدفق مرة أخرى على بعد أميال كثيرة. وقف لوجو، بصحبة رجال آخرين مكدومين ومهزومين - من يهود وغجر وصرب - أطلوا جميعاً على شفير كهف عميق لم يعثروا في العمق على قعره. مزق الحارس الأوستاشي أوتار مأبض لوجو، دفعه نحو الهاوية.

داهم الجنود منزل راشيلا، بينما كانت لولا تقوم بتوصيل الغسيل النظيف لأصحابه. يتواجد لديهم قوائم بجميع النساء اليهوديات، الذين تم ترحيل أزواجهم وأبنائهم بالفعل. اعتقلوهن، ثم قاموا بجمعهن في شاحنات، واحتجزوهن في الكنيس المُدّمر. عادت لولا لتجد أمها وأختها معتقلتين. كان الباب مفتوحاً على مصراعيه، ألقيت ممتلكاتهم القليلة، أثناء بحثٍ بلا جدوى عن شيء ذي قيمة. ركضت إلى شقة

36- محتشدات السخرة: معسكرات السخرة التي فرض النازيون فيها الأعمال الشاقة على المدنيين اليهود، داخل المحتشدات وخارجها، حتى قبل الحرب. فبدءاً من عام 1937، زاد استغلال النازيين للسخرة من «أعداء الدولة» لتحقيق الكسب الاقتصادي وللإيفاء بحالات النقص الماس للعمالة. وبنهاية عام 1938، تم إلزام معظم اليهود الذكور المقيمين في ألمانيا بتنفيذ السخرة لسلطات الرايخ المختلفة.

خالتها، على بعد بضعة شوارع، طرقت حتى تألمت أصابع يدها. فتحت جارتها المسلمة الباب، امرأة لطيفة أطلت بعباءة تقليدية، ثم دعت لولا إلى الداخل. ناولتها كوباً من الماء البارد، ثم أخبرتها بما جرى.

حاولت لولا مكافحة الهلع الذي أفرغ عقلها. كان عليها أن تفكر. ماذا تفعل؟ ماذا يمكنها أن تفعل؟ الفكرة الوحيدة التي دارت في دماغها والتي شقت عباب ارتباكها، كانت عن الحاجة الماسة للعثور عليهما. استدارت في طلب الرحيل. وضعت الجارة يدها على ذراعها، وقالت: «سيتم التعرف عليك هناك. خذي هذا». ثم أعطت لولا شادوراً. لفت لولا العباءة حولها وانطلقت صوب الكنيس. كان الباب الخلفي مهشماً بالفأس، بينما تعلق ما تبقى منه مهلهلاً، بمفصلات مكسورة. انتشر الحراس بكل مكان، حاولت لولا التسلل من جانب المبنى، متجهة نحو الحجرة الصغيرة، حيث تم الاحتفاظ بالسيدور.[37]

تحطمت نافذة الحجرة. نزعت لولا الشادور عنها ولفته حول يدها. أزالت قطعة من الزجاج المتداعي من محيطها الرصاصي، أدخلت يدها وزلقت المزلاج، سحبت الإطار، المفرغ من الزجاج، إلى الخارج. ثم حدقت بحذر عبر النافذة. كانت الغرفة الصغيرة في حالة من الفوضى، أسقطت جميع الرفوف، بينما تناثرت المزق الطولية لكتب الصلاة فوق الأرض بكل مكان. رائحة كريهة هناك. شخص ما قام بالتبرز على الصفحات.

بذراعين قويتين ساهم بشد عضلاتهما حمل الغسيل الرطب، رفعت لولا جسدها حتى استقرت أضلاع صدرها على العتبة. دفعت جسدها بركلة متسلقة الجدار، ثم تمطت نحو الحافة الأمامية التي كشطت

37- السيدور: تُعتبر هذه المجموعة من المخطوطات أحد الكتب المقدسة اليهودية للصلوات اليومية الأصلية الباقية من العصور الإسبانية المتوسطة، ومن المرجح أنها تعود إلى أوائل القرن الرابع عشر.

ملابسها، تلوت بحيث عبرت النافذة بأمان، ثم قفزت بهدوء بقدر استطاعتها على الأرض. فتحت الباب الخشبي الثقيل المصقول. فاحت رائحة حادة ممزوجة بالخوف وبالعرق، بدخان الورق المحترق، بنتانة البول، التي عبقت بالحرم المقدس المُنتهك.

تصدع «تابوت العهد»[38] الذي كان يحتضن توراة العهد القديم، التي تم نقلها بسلام من إسبانيا قبل عدة قرون، ثم أضرمت فيه النار. عجّت المقصورات المدمرة والممرات المطلية بالرماد، بالنساء المضطربات، بالعجزة، وبصغار السن، بعضهن كن يحاولن تهدئة الأطفال والرضع الذين تضخمت صرخاتهم المرتدة من القبة الحجرية العالية في المقصورة. احدودبت آخريات بأيد متشابكة فوق رؤوسهن. تسللت لولا ببطء، محاولة اختراق الحشد بحيث لا تلفت الانتباه إليها. لمحت أمها وأختها الصغيرة وخالتها مجتمعاتٍ بأسى، في إحدى الزوايا. اقتربت من ظهر أمها ووضعت يدها برفق على كتفها.

حين رمقت راشيلا ابنتها، تصدع قلبها، ظناً منها أنه تم القبض على الفتاة، ثم انتحبت بالبكاء. هدأت لولا من روعها، ثم تحدثت معها على وجه السرعة: «هناك منفذ للخروج أمي، عبر نافذة سرية، دخلت من خلالها، ما زال بإمكاننا النجاة».

رفعت خالة لولا رينا ذراعيها السمينتين، أومأت بملامح مهزومة، ارتعش معها جسدها البدين. «ليس أنا يا فتاتي الحبيبة. قلبي ليس قوياً بما يكفي لأهرب، كما أنني بالكاد أتنفس. لن أذهب إلى أي مكان».

أدركت لولا، الشديدة الاهتياج، أن أمها لن تتخلى عن أختها الكبرى المحببة. «يمكنني مساعدتك خالتي»، تضرعت «من فضلكِ، دعينا نحاول على الأقل».

بدا وجه والدتها، الذي ما انفك محملاً بالهموم والشقاء، كأنه غار في

38- تابوت العهد: الصندوق الذي يحفظ التوراة، كما يطلق عليه اليهود.

تجاعيد عميقة مطوية في وجه امرأة أكبر سناً بكثير. هزت راشيلا رأسها. «لولا، لديهم قوائم بالأسماء. سوف يفتقدوننا عندما يقومون بتحميل النسوة في الشاحنات. على أي حال، إلى أين سنذهب؟».

«يمكننا الرحيل إلى الجبال». أجابت لولا: «أنا أعرف الطرق، كهوف كثيرة هناك، حيث يمكننا توفير المأوى. نسير صوب القرى المسلمة. لا بد أنهم سيساعدوننا، أو... سنرى ماذا بإمكاننا فعله، إن رفضوا ذلك...».

«لولا، مسلمون جاؤوا هنا إلى الكنيس، أيضاً. أحرقوا وكسروا ونهبوا وهللوا مثلهم مثل الأوستاشيين».

«القلة القليلة منهم فعلوا، الجهلة منهم فقط».

«لولا، يا عزيزتي، أعرف أنكِ على صواب، لكن رينا مريضة، أما دورا فصغيرة جداً».

«لكن يمكننا أن نفعل ذلك. صدقوني، أنا أعرف الجبال...».

وضعت والدتها يدها على ذراع لولا وشدتْ عليها.

«أعلم أنك تعرفين. آمل أن تلك الليالي التي أمضيتها في هشومير، قد علمتك الكثير» حدقت لولا بأمها مستغربة «هل تعتقدين أنني كنت نائمة حقاً؟ لا، لطالما دعمتُ فكرة ذهابك لحضور الاجتماعات. لستُ مثل والدك قلقة بشأن سمعتك، أدرك يا ابنتي أنك فتاة محتشمة. لكني الآن أريدك أن تذهبي بعيداً، عن هذا المكان. «نعم» قالت بحزم، هزّت لولا رأسها بالرفض. «أنا أمك، يتوجب عليك إطاعتي في هذا الأمر. اذهبي أنت. أما مكاني فهو هنا مع دورا وأختي».

«أرجوك، أمي، أرجوكِ، دعيني أصطحب دورا معي على الأقل».

غصت الأم بـ«لا»، محاولة احتواء الدموع فلا تنسكب، مما تسبب بتلطخ بشرتها ببقع قرمزية. «وحدك، من لديه الفرصة الأفضل للخلاص. لن تتحمل قدماها الصغيرتان المشي معك أبداً».

«يمكنني حملها...».

تشبثت دورا بأمها، بعد أن جالت ببصرها بين الاثنتين، من أحب الناس إلى قلبها، إلى أكثرهم قرباً إليه، حتى أدركت أن حصيلة النقاش بينهما، ستنتهي بخسارة إحداهن، فانهالت بالنحيب.

احتضنت راشيلا الطفلة، متلفتة حولها، مع رجاء ألا يستقطب هذا البكاء انتباه أحد الحراس.

«بعد الحرب، سنعثر بعضنا على بعض». مدت كفيها نحو وجه لولا، ربتت على خديها بحنان. «اذهبي الآن. ابقي على قيد الحياة».

شدت لولا على كفي أمها، رفعت شعرها المتدلي للخلف، ثم حررت أصابعها من الخصلات المتشابكة بقسوة، بما أذاها. ألقت ذراعيها حول أمها وأختها واحتضنتهما بقوة. قبلت خالتها. ثم التفتت وقامت. تعثرت بالقامات المترهلة المحتشدة في طريقها، فركت عينيها الدامعتين بباطن كفها، حتى وصلت إلى باب المخزن، انتظرت حتى حدقت عيون الحراس بمكان آخر، فتحت الباب وتوارت في الداخل. ألقت بظهرها في باطن الباب المغلق، ثم مسحت أنفها بطرف كمها. في اللحظة التي أنزلت بها ذراعها، امتدت يد بيضاء صغيرة والتقطتها. إنها يد لفتاة بوجه فاتن آخاذ، بعينين واسعتين وراء نظارات سميكة. أشارت بحزم بأصبع عمودية فوق الشفاه، ثم سحبت لولا بصعوبة إلى الأسفل. مومئة صوب النافذة. لمحتْ لولا ما يشبه الخوذة الألمانية، مع فوهة بندقية، يعبران خلف النافذة المكسورة.

«أعرف من أنت»، همست الفتاة، التي بدت في التاسعة أو العاشرة من عمرها. «كنت تذهبين إلى هشومير مع أخي إسحق. وددتُ الذهاب هذا العام».

«أين إسحق؟»، عرفتْ لولا أنه طُرد من الجامعة. «هل طُلب للعمل القسري؟».

ضربت الفتاة رأسها. «لقد ساقوا أبي إلى هناك، لكن إسحق انضم إلى الأحزاب. هناك آخرون من مجموعتك انضموا إليها أيضاً. ماكس،

زلاتا، أوسكار... ربما هم أكثر بكثير الآن. لم يقبل إسحق أن يأخذني معهم لأنني صغيرة جداً. أخبرته أنه بإمكاني توصيل الرسائل، أو التجسس. لكنه لم يصغِ إلي. أخبرني أنني سأحظى بأمان أكبر إن بقيتُ مع الجيران. لكنه لم يكن مصيباً. عليه أن يأخذني الآن من هنا. لا يقطن في المكان سوى الموت».

جفلت لولا، فلا ينبغي لطفلة في سنها، أن تتحدث بكلام مرير من هذا القبيل. لكن، للأسف، الطفلة كانت محقة. فلا شيء هنا سوى الموت. رأته يتقطر شاحباً من وجوه أحبائها، الذين أصروا على البقاء فيه.

حدقت لولا في وجه شقيقة إسحق. هذه المتشردة الصغيرة، ليست أكبر سناً بكثير من دورا. مع ذلك فإن ملامحها صرّحت باضطراب شديد، إنه القلق ذاته الذي عبر عنه وجه أخيها يوماً. «لا أعرف» قالت لولا. «لا بد أن التجوال والخروج من المدينة أمر صعب وخطير جداً... أعتقد أن أخاك».

«إن كنتِ تريدين أن تعرفي أين هو، فعليك اصطحابي معك.

وإلا لن أخبرك عن مكانه. على أي حال، لدي هذا».

مدت الطفلة يدها تحت مئزرها، استلت مسدس لوغر ألمانياً[39].

بما أدهش لولا. «من أين لك هذا؟».

«سرقته».

«كيف؟».

«عندما حاولوا جرنا خارج المنزل، تقيأت على الجندي الذي كان يحملني إلى الشاحنة.

كنتُ أتناول حساء السمك المثير للاشمئزاز، فأخرجت ما في جوفي على ثيابه. شتمني وأسقطني على الأرض. بينما كان يحاول تنظيف

39- مسدس لوغر أو مسدس بي80-، مسدس ألماني، صنع سنة 1900م، استعمل هذا المسدس في الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية، وانتهت صناعته سنة 1945.

القيء عنه، خطفت المسدس من الحافظة وركضت. اختبأتُ في المبنى الذي تعيش فيه خالتكِ. لمحتك، فتبعتك حتى هنا. أعرف مكان أخي، لكنني لا أعرف كيفية الوصول إليه. قولي، هل ستأخذينني أم لا؟».

أدركت لولا أنها عاجزة عن خداع هذه الطفلة العنيدة الماكرة، أو إجبارها على إعلامها بمكان إسحق والآخرين. شاءت أم أبت، كانتا بعضهما بحاجة إلى بعض. انتظرتا حتى بدأ ضوء النهار بالانحسار عن المكان، سارعتا بالخروج من النافذة، ثم تلاشتا في أزقة المدينة الخلفية.

قضت لولا وإينا ليلتين نامتا فيهما داخل الكهوف، لتتخفيا نهاراً في الحظائر، يسرقن البيض وتتجرعنه نيئاً كبحاً للجوع. قادتهما الدرب أخيراً إلى المقاطعة حيث تجمع الأحزاب. كان إسحق قد وشى لإينا باسم أحد المزارعين، وهو رجل مسن ذو يدين ضخمتين ووجه ملظى بالشمس.

لم يسألهما أي سؤال. فتح باب الكوخ بصمت وأدخلهما. أثار شعرهما الأشعث، ووجهاهما القذران، استهجان وقلق زوجته. غلت المرأة الماء، في غلاية كبيرة سوداء وسكبته في وعاء لكل منهما لتغتسلا. قدمت بعدها طاجناً غنياً بلحم الضأن مطبوخاً مع البطاطا والجزر، فكانت أول وجبة حقيقية تناولتاها منذ مغادرتهما المدينة. قامت بعدها بمعالجة أقدامهما المتقرحة بالمراهم، ثم أودعتهما في السرير معاً، ليومين متتاليين قبل أن تسمح لزوجها أن يقودهما إلى المعسكر الجبلي للحزب.

بعد يومين من الراحة والطعام والطمأنينة، وجدت لولا صعود الجبال بالغ الصعوبة، مضنياً خاصة أن وجوه الصخور كانت شبه عمودية. تسلقت، وفكرها يجول حول المأزق الحقيقي الذي أغرقت نفسها به. كان الخروج من المدينة، كل ما كانت تأمله. إلا أنها لا تتمتع بشجاعة كافية كي تتحول إلى مقاتلة مقاومة. ما الذي يمكن لغرفة الغسيل أن تقدمه لفتاة مثلها؟ فكرتْ بالإشاعات السائدة عن هجمات حزبية على خطوط السكك الحديدية والجسور، استحضرت التقارير الرهيبة التي

تتحدث عن الجرحى الذين أسرهم النازيون. أخبرت إحدى القصص، كيف صفدوا الرجال الجرحى على الطريق، بينما قاد الألمان شاحنة فوق أجسادهم ذهاباً وإياباً. قبضت لولا على حصاة، وسحلت جسدها متكئة على وجه صخرة كبيرة، بينما تشوش عقلها بفعل هذه القصص المروعة.

حين وصلوا إلى قمة الجبل الواسعة، حيث انبسطت الأرض وتنامت الأعشاب والطحالب فوقها، كأنها وسائد سندسية. ألقت لولا بجسدها، نحو الأسفل، بإرهاق شديد.

ظهر شخص رمادي، قادم من أيكة الشجيرات المنخفضة، بشكل مفاجئ، أمامهما، مرتدياً الزيّ الألماني. انبطح المزارع على الأرض وصوب بندقية الصيد نحوه. ضحك، قام على قدميه، واحتضن الشاب.

«ماكس!» بكتْ إينا. ثم سارت نحو الشاب الذي ضمها بمحبة بين ذراعيه. كان ماكس أفضل أصدقاء إسحق. أشارت إينا إلى المكان الذي انتزعت منه شارة النازيين في الزي الرسمي. بينما استبدلت بنجمة خماسية مخيّطة بفجاجة مكانها، كشعار للمقاومة.

مرحبا، شقيقة إسحق الصغيرة. أهلا بك يا لولا. إذاً أنتِ العضوة الجديدة في حزبنا؟ انتظر ماكس، حتى انتهت الفتاتان من شكر الفلاح ووداعه. ثم قادهما على طول خط القمة المستوي باتجاه مبنى مكون من طابق واحد بجانب عدد من العوارض الثقيلة والجص ومخرطة. تعرفت لولا على أوسكار، الذي كان جالساً فوق العشب الدافئ مسنداً ظهره إلى الحائط. صبيان متكئان بجواره، لا تعرفهما. جميعهم كانوا مشغولين في التقاط القمل من ستراتهم، سترتان منها كانتا من الزي الألماني، أما الأخرى فمصنوعة من قماش البطانيات الرمادي.

قاد ماكس، لولا وإينا عبر الشباب الجالسين، في الممر القذر الذي شكّل المدخل إلى باب المبنى الوحيد. كان الباب مفتوحاً مباشرة نحو المطبخ.

امتد سقف طويل من القش في الجزء الأمامي أعلى المنزل، مشكلاً

مساحة لطابق علوي يتم الوصول إليه بواسطة سلم. «مكان جيد للنوم»، قال ماكس، مضيفاً: «دافئ... قليل الدخان». كانت أرضية المطبخ تعج بالأوساخ وآثار الأقدام القذرة. مغطاة بأجزاء من الطوب، الذي أُضرمت فوقه نار جانبية. انجرف الدخان مباشرة نحو العوارض الخشبية عابراً سقف القش. إذ لم يكن هناك مدخنة. بينما علقت سلسلة حديدية ثقيلة أواني الطهي فوق النار. لاحظت لولا عدداً من أحواض المياه بالقرب من الباب. غرفتان بعدها بدت أرضيتهما الخشبية، إحداهما تحتوي على فرن إسمنتي. وقعت عينا لولا على قطبين لتجفيف الملابس إن علقت فوقهما، ثم أومأت بالموافقة. سيكون من الممكن الحصول على ثياب جافة حتى في الأيام الماطرة والثلجية، حين يتعذر تجفيفها في الهواء الطلق.

«أهلاً بكما في المكتب الرئيسي لفصيلتنا أودرد»، قال ماكس. «نحن ستة عشر فقط... ثمانية عشر الآن، بوجودكما، هذا إن وافق القائد على انضمامكما. تسعة منا كما تعلمين من هاشومر. الباقون هم من الفلاحين المحليين. فتيان وفتيات جيدون، من الجيل الشّاب. إلا أنهم بالطبع ليسوا صغاراً جداً بعمر إينا» أومأ ممازحاً إينا، التي ضحكت بدورها. إنها المرة الأولى التي رأت فيها لولا ابتسامة الطفلة منذ التقت بها. «سوف يفاجأ أخوك. إنه القيادي الثاني للفصيل. أما قائدنا العام فيدعى برانكو، من بلغراد. كان القائد السري للحزب الشيوعي الطلابي هناك».

«أين هم؟» سألت لولا. بالرغم من أسلوب ماكس اللطيف بالحديث، فإن جملته: «إذا قبل القائد» أثارت الرعب في قلبها. بالرغم من توجسها من مجهولٍ يعقب عضويتها الحزبية، إلا أن خوفها تعاظم أكثر، في حال تم رفض انضمامها للحزب. عندها ستُعاد إلى المدينة القاتلة.

«ذهبوا لاستئجار بغل. نريد الانتقال من هنا بأقرب وقت ممكن. سنحتاج إلى البغل لحمل الذخائر أثناء قيامنا بالمهمات. في المرة الماضية، حين ذهبنا استولت المتفجرات وفتائلها على الحيز كله في الحقائب، ولم يبقَ مكان كاف للطعام، الذي سرعان ما نفد في منتصف

الطريق المؤدي إلى المعبر الذي كان من المفروض أن ننسفه، وبالتالي بقينا يومين من دون كسرة خبز». ازداد قلق لولا مع كل حرف نطق به ماكس. حيث لم يكن لديها أدنى فكرة عن المتفجرات أو الأسلحة. نظرت حولها في المطبخ، فجأة رأت شيئاً تعرف كيف تعده.

«هذه المياه، هل يمكنني استخدامها؟» سألت.

«بالطبع»، قال ماكس. «لا يبعد النبع أكثر من عشرة أمتار من هنا. استخدمي قدر ما تشائين».

ملأت لولا أكبر الغلايات المسودة وعلّقتها فوق الموقد. أوقدت النيران وأضافت بعض الأخشاب. ثم خرجت.

وقفت أمام أوسكار والشابين الغريبين. بإصبع قدمها يهتز فوق العشب، ثم جرت قدمها بانفعال.

«ما الأمر، لولا؟» سأل أوسكار. شعرت بوجهها يتورد خجلاً. «أتساءل لو أنك... لو أنك... تناولني سترتك وسروالك؟».

نظر الفتيان بعضهم إلى بعض وضحكوا.

«أخبرونا أن فتيات سرايفو حارات!» قال أحدهم.

«لا يمكنك التخلص من القمل عن طريق التقاطه». تحدثت لولا بلهجة متعجلة. «إنه يختبئ في طبقات لا يمكنك العثور عليها. إن قمت بغلي ملابسك، فإنك ستقتلها جميعاً. سترى».

كان الشبان، على استعداد لفعل أي شيء لإنهاء الحكة اللعينة، جمعوا ثيابهم، سخروا بعضهم من بعض وتزاحموا أمامها كما تفعل الجراء.

«أعطها ملابسك الداخلية!».

«لن أفعل هذا في حياتك!».

«حسناً، أنا كذلك. ليس الحل جذرياً إن تم التخلص من القمل في معطفك، بينما لا يزال يحوم حول خصيتيك!».

في وقت لاحق، علقت لولا الملابس المبخرة - المعاطف

والسراويل والجوارب والسراويل الداخلية - على الشجيرات. ظهر، أثناء ذلك، برانكو وإسحق من النفق، يقودان بغلاً مع سرجين محملين فوق ظهره.

كان برانكو شاباً طويل القامة صارم الملامح، قاتم الشعر، داكن العينين. بدا بأفق ضيق، عبر تعابيره المفضية للشك والريبة. أما إسحق الذي كان بالكاد يصل إلى كتفيه. فقد لاحظت لولا، وهو يحتضن أخته الصغيرة، أنه بات عريض المنكبين والذراعين، أكثر مما كان عليه أيام دراسته. أما وجهه فقد زال عنه الشحوب، وتصبغ بفعل حرارة الشمس. بدا مسروراً لرؤية إينا، حتى أن لولا لمحت دموعاً تلمع في عينيه. لكن سرعان ما بدأ باستجوابها عن كثب، للتأكد من أنها لم تقم بأي خطأ من شأنه أن ينم عن مهمتهم. ثم التفت مطمئناً نحو لولا: «شكراً لك على إحضارها. شكراً لقدومك».

تجاهلت لولا، غير دارية بماذا ترد. لا يتعلق الأمر باختيارها من عدمه، لكنها لم تُرِد أن تصرح بذلك أمام برانكو، الذي سيقرر ما إذا كان بإمكانها البقاء أم لا. يبدو أن وجود إينا له فائدة أكبر بكثير. حيث يمكن للطفلة أن تتجول، من دون إثارة الشبهات، في جميع أنحاء المدينة، بهدف مراقبة أنشطة العدو. أما لولا، فلا بد أنها بنفع أقل وضوحاً لبرانكو، على الأغلب مقدمة إسحق لن تساهم في دعمها.

«لولا رفيقة من هشومير هازير». قال إسحق لبرانكو: «حضرت جميع الاجتماعات. حسناً، معظمها تقريباً. إنها متجولة جيدة...».

إسحق، الذي لم يول أي اهتمام بلولا في السابق، مع ذلك، يسهم الآن، في رفع نقاط قبولها لدى قائده.

حدق برانكو في وجهها بعينيه الضيقتين، حتى تسبب بتوهج وجهها. رفع طرف سترة نُشرت لتجف. «عاملة غسيل جيدة. لكن للأسف، ليس لدينا وقت لمثل هذه الكماليات».

«القمل» بالكاد نطقت الكلمة. «يحمل مرض التيفوس». تعجلت

في الكلام، قبل أن تفقد تماسكها. «في حالة الإصابة، أنت... يجب عليك غلي الملابس والبياضات جميعها أسبوعياً على الأقل... حتى... تقتل الصئبان... وإلا سيصاب الجميع بالعدوى». كان هذا ما علمها إياه موردخاي. إحدى المعلومات العملية، التي تمكنت لولا من فهمها وتذكرها.

«إذاً» قال برانكو: «أنتِ تعرفين شيئاً ما؟».

«أنا... أنا... أعرف كيفية جبر الكسور، وإيقاف النزيف، وعلاج لدغ... بإمكاني التعلم».

«لدينا طبيب في الخدمة». استمر برانكو في معارضتها، كما لو أن تحديق عينيه يمكنه من تقييم قدراتها بطريقة ما... «إسحق يقوم بهذا العمل، لكن لديه مسؤوليات ضخمة أخرى. يمكنه أن يعلمك ما يعرف، ربما، في وقت لاحق، إن أتقنتِ العمل بشكل جيد، نرسلك إلى أحد المستشفيات السرية لتعلم المزيد عن علاج الجروح. سأفكر في الأمر».

التفت بعد ذلك بما ساعد لولا على التقاط أنفاسها. ثم بدا أنه غير رأيه وعاود التحديق بعينيه الزرقاوين بها من جديد. «نحن بحاجة، في هذه الأثناء، إلى من يقود البغل. كيف تشعرين حيال البغال؟».

بالكاد أجابت لولا أنها لم تكن تعرف مقدمة بغل من مؤخرته. لكن تراءت لها مخاوف تتعلق بنظرة إسحق لها كمساعدة طبيب غبية. نظرت إلى البهيمة التي تنهش العشب. مشت وفكت الأحزمة عن ظهرها. كان جسد الدابة متسلخ الجلد متقطراً بالدماء.

«لا بد من وضع سرج تحت عبء ثقيل مثل هذا، إذا كنت تريد من البهيمة أن تعمل من أجلك». فتحت الجعاب، وبدأت في تنزيل العديد من العبوات الثقيلة وحملها إلى المنزل. عندها سارع أوسكار بخطوات عريضة لتخفيف الحمل عنها، هزت رأسها بالرفض: «أستطيع تدبر الأمر». منحته ابتسامة خجولة وتابعت: «البغل الذي خدم عائلتي... كان أنا».

ضحك الجميع حينذاك، بمن فيهم برانكو. لم يدل أحد بكلام فاق ما قيل، لكن لولا فهمت أنه تم قبولها كعضو في الفصيلة. في تلك الليلة، تحدث برانكو عن خططه فيما التف الجميع حوله يصغون، عاودت المخاوف لتشتعل في قلب لولا إزاء انضمامها إليهم. بدا أن برانكو متعصب جداً. حيث تعرض بعد استجوابه في بلغراد للضرب والإهانة نتيجة لنشاطه السياسي. تحدث عن تيتو وستالين، وعن واجباتهم الخاصة للامتثال لهذين الزعيمين المجيدين من دون اعتراض. قال: «حياتكم ليست ملكاً لكم». «كل يوم جديد يضاف إلى أعماركم، يعود لسنوات أهلكم الذين هُدرت أيامهم حين قُتلوا. علينا أن نحيا حتى نرى بلدنا حراً، أو أننا نموت. لا مستقبل آخر أمامنا، لا خيار».

تقلبت لولا، بعد ذلك، على فراش من التبن القاسي يغالبها شعور الفقد والوحدة. كم كانت متلهفة للدفء الذي يشعله ظهر دورا المتكور برقة جوارها. كانت تعارض تقبل حقيقة ما قاله برانكو عن أن عائلتها قد ماتت. أو أن ذاك المكان المجوف داخل غرفتها اليسارية الصغيرة، لم يعد محرضاً على الأمل. الهروب من المدينة فراراً نحو الريف، ما شغل تفكيرها لأيام. لكنها الآن، بينما تصغي إلى شخير الغرباء، مصابة بوجع كليل. بات دربها، من الآن فصاعداً، مجرد خطوات مبهمة عبر الضباب.

بدأت لولا، على مدار الأيام القليلة التالية، بتدارس وضع البغل. لا يزال بإمكانها ترويضه، رغم عناده عن الانصياع لما تريد. في المرة الأولى التي كُلفت بها بسوقه نحو موقع منخفض لإحضار الإمدادات، تمرد البغل عند المنحدر، وألقى بحمولته فوق رقعة من نبات العليق. استجمعت لولا شجاعتها لاستعادة صناديق الذخيرة من بين الأشواك، بينما هطلت عليها لعنات برانكو كأمطار العاصفة.

حاولت لولا في كل يوم تقريباً، الاهتمام بمعالجة جروح البغل، حيث داومت على دهن الجلد المتقرح بفعل امداداتهم المحزمة فوقه، كان البغل ينهق ويتلوى من شدة الألم، كما لو أنها تجلده، حتى التأمت

رقعة الجرح تدريجياً. خاطت لولا وسادة لتستقر تحت السرج، ثم شبكت إطاراً على شكل الحرف A- صنعته من أغصان الصفصاف الخفيفة، بحيث تتوزع أحماله بشكل أفضل. كما أنها طالبت أثناء مسيراتهم الطويلة، أن تتاح للبغل الفرصة لرعي أعشاب اليانسون أو البرسيم البري.

بعد تعرضه لسوء المعاملة، لا بد أن يعود البغل بسوء التصرف. لكنه بدأ يستجيب لملاطفة لولا، ولم يمض وقت طويل حتى استكان وبادلها بتعلق دافئ. بدأت بالإعجاب بأذنيه المخمليتين. ثم لقبته ريد، بسبب لون معطفه الأحمر، الأحمر الذي كان الشارة المميزة لحركة البارتيزان[40].

أدركت لولا سريعاً، بالرغم من أحاديث برانكو المتبجحة كلها، أن فصيلتهم لا تملك الكثير من القوة للقتال. بصرف النظر عن برانكو نفسه، إلا أن إسحق وماكس فقط كان لديهما بنادق ستين[41]. انضم الفتية الفلاحون مع بنادق صيد على أكتافهم، ليعدهم قائد اللواء بمزيد من الأسلحة، لكن بعد كل قطرة دم، بدا أن احتياجات الفصائل الأخرى، للبنادق أكثر إلحاحاً.

اشتكى أوسكار من هذا الأمر، أكثر من أي شخص آخر، حتى أخبره برانكو بأنه إن أراد مسدساً لهذه الدرجة، فعليه أن يستولي على واحد. «هاهي إينا قد فعلتها، بينما لم تتجاوز العاشرة من عمرها» قالها ساخراً منه.

غادر أوسكار المخيم، في تلك الليلة، ولم يعد في اليوم التالي. سمعت لولا إسحق يلقي باللائمة على برانكو: «لقد دفعته بمهمة حمقاء خادعة. كيف يمكن له الاستيلاء على سلاح، بينما لا يمتلك سلاحاً ليستخدمه؟».

40- البارتيزان: يُعرف أيضاً باسم جيش التحرير الوطني، ومفرزة بارتيزان يوغوسلافيا، حركة مقاومة ثورية تزعمها الشيوعيون في يوغوسلافيا إبان الحرب العالمية الثانية.

41- سلاح ستين: صممه العالمان البريطانيان شيفارد وتوربين أثناء الحرب العالمية الثانية. أول ظهور له كان عام 1941م، وهو مأخوذ من التصميم الألماني ل MP40.

«فعلتها أختك» هز برانكو كتفيه غير مبالٍ، تناول مسدس اللوغر، من إينا واضعاً إياه على خاصرته ثم خطا محركاً وركه بزهو وخيلاء. كانت لولا في تلك الليلة تساعد زلاتا في جمع الحطب لتحضير العشاء، حين أطل أوسكار مندفعاً عبر الشجيرات، مع ابتسامة عريضة لا ترتسم إلا على وجه مهرج، حاملاً بندقية ألمانية فوق كتفه. مرتدياً زياً فضفاضاً رمادي اللون، من الواضح أنه أكبر من قياسه بعدة مرات. كان يجر أطراف السروال خلفه، بينما حزم الخصر بخيط من القنب. حقيبة قماشية نازية مكتظة بالذخائر علقها على ظهره.

رفض أوسكار الإدلاء بأي تفصيل عن قصة انتصاره. إلا حين اجتمع برانكو وإسحق مع بقية أفراد الفصيلة. بينما كان يقوم بتوزيع شرائح من النقانق الألمانية، أخبرهم كيف تسلل إلى القرية القريبة المحتلة وجثا مختبئاً، بين بعض الشجيرات على جانب الطريق.

«اضطررتُ إلى الاستلقاء هناك، تقريباً، طوال اليوم، لمراقبة الألمان يذهبون ويجيئون». كان كل جنديين أو ثلاثة منهم، يمضون معاً على الدوام. انتظرتُ إلى أن حظيت أخيراً بأحدهم قادماً وحده. اقترب مني، فقفزتُ من بين الشجيرات، دسستُ عصا بين كتفيه فصرخ: ستوي! أعتقد الأحمق أنني كنتُ مسلحاً حقاً. رفع يديه. حصلتُ على بندقيته، ثم طلبتُ منه التجرد من ملابسه.

هنا انفجر الجميع بالضحك، باستثناء برانكو.

«ثم... أطلقتَ النار عليه». جاء صوته خفيضاً وبارداً.

«لا، أنا... لم أرَ حاجة لقتله... كان غير مسلح... اعتقدتُ...».

«غداً، سيتسلح من جديد، ليقتل رفيقك في اليوم الذي يليه. يا لك من عاطفي أحمق. أعطِ البندقية إلى زلاتا. ريثما تتعلم كيفية استخدامها، على الأقل». لم تستطع لولا رؤية وجه أوسكار في الظلام. لكنها شعرت بغضبه الصامت.

في الليلة التالية، طُلبت الفصيلة للمساعدة في تأمين وتمشيط منطقة إنزال. كانت مهمة لولا الحفاظ على البغل هادئاً وصامتاً، ومستعداً لحمل السلاح، وأجهزة الاتصالات اللاسلكية، أو الأدوية المنزَّلة بالمظلة. في حين كانت فصيلتها تختبئ خلف حدود الشجرة، كان أعضاء الحزب من بقية الفصائل، يؤتمرون بأمرة جاسوس أجنبي - بريطاني الجنسية. قال أحدهم - أشعلوا فرشاة وغطاء كإشارة دخان[42]. ألقوا بها في أرض مقطوعة الشجر بنمط مسبق الترتيب، بحيث يدركها الطيار المتحالف. ارتعشت لولا من الخوف والبرد. اتكأت على جلد ريد الثخين، التماساً للدفء. لم يكن لديها أي سلاح، باستثناء القنبلة اليدوية التي كان مطلوباً من جميع الأحزاب وضعها على أحزمتهم. أشار برانكو حينها: «إذا كان أحدكم على وشك القبض عليه، عليه استخدام القنبلة لقتل نفسه مع أعداء كثيرين، عليه سلب حياتهم معه». ثم تابع: «لا تقيموا أي اعتبار لحياتكم. استخدموا القنبلة، وبالتالي تتفادون التعذيب الذي ينتظركم بتهمة الخيانة». لم يكن القمر قد ظهر بعد. نظرت لولا إلى الأعلى بحثاً عن ضوء النجوم. إلا أن أوراق الشجر السميكة منعتها من ذلك. جعل خيالها الظلام آهلاً بالجنود الألمان، في انتظارٍ متربص بهم. زحف الليل ببطء، ارتفعت الرياح قبل الفجر بقليل، لتدقّ أغصان الصنوبر العالية. أنذر برانكو أن هذا الإنزال قد تم إفشاله. ثم أشار إلى لولا بالتأهب للتحرك. كانت لولا مفعمة بالتعب، متيبسة من البرد، لكنها هرعت وقامت بتعديل حبل الرسن الخاص بريد. عندها، بدأ صوت الطائرة يتضاءل عبر المسافات. صرخ برانكو آمراً بإطلاق النيران. لم يتمكن إسحق من إطلاق النيران. شتم وهو يشق طريقه بصعوبة. لم تفكر لولا أنها تمتلك هذا القدر من الشجاعة داخلها. حتى أنها لم تكن تعرف كيف تصف الشعور الذي اعتراها كفتاة شجاعة. كل ما كانت تعرفه هو

42- إشارة الدخان: من أقدم أشكال الاتصالات المرئية البعيدة. يتم استخدام إشارات الدخان لنقل الأخبار أو الخطر أو جمع الناس إلى منطقة مشتركة.

أنها لم تستطع ترك إسحق هناك، مكشوفاً، يقاتل وحده. اندفعت من خلال الأشجار نحو الأرض الجرداء. ألقت بنفسها منبطحة، قطعت بشدة فوق المادة الملتهبة. ارتفع صليل اللهب بينما كان الجزء الأكبر الداكن من داكوتا يظهر من الأعلى. قام الطيار بجولة استطلاع واحدة، ثم عاد مرة أخرى، قام بإنزال بضائع محزمة، هبط كل منها بمظلة صغيرة خاصة بها. خرج أعضاء الحزب من الغابة المحيطة، ثم ركضوا لجمع البضائع الثمينة. قطعت لولا جزءاً من حبال المظلة، ولفت الحرير عساها تستخدمه كضمادة. تحركت الفصيلة بسرعة حين بدأ الليل يخلع حجابه من جهة الشرق. بحلول الفجر كانت لولا تكدح في السير على طول الزقاق الضيق، تسوق ريد بسرعة خلفها. كان عليهم رصف أميال كثيرة بينهم وبين موقع الإنزال، قبل وصول الألمان إلى المكان. كلما صادفوا مجرى مائياً، أمر برانكو ماكس بقلب الحجارة الموجودة في الماء المغطاة بالطحالب، ريثما يتم الانتهاء من عبور تلك الأودية، ليعاود قلب الأحجار كما كانت، فلا تظهر الطحالب المتأذية أي أثر تركته طبعات الحذاء، أو حوافر البغل.

أمضت الفصيلة التي انتسبت لها لولا، ما يقارب سبعة أشهر متالية، متنقلة من مكان إلى آخر، نادراً ما كانوا يقضون أكثر من ليلة أو ليلتين في المخيم ذاته، حيث قاموا بمهمات تنوعت ما بين تخريب خطوط السكك الحديدية أو هدم الجسور الصغيرة. استمتعوا في العديد من الليالي أن يبيتوا في حظيرة مزارع، حيث كانوا يغفون في دفء بهيمي، على وسائد مبطنة بالقش. لكن في أوقات أخرى، كانوا يضطرون للتخييم في الغابة، مع أغطية مشكلة من أغصان الصنوبر الإبرية لتفادي برودة الطقس.

بالرغم من المسافة التي تقدر بأقل من خمسة أميال عن أقرب موقع للعدو، فإن فصيلتهم تمكنت من الإفلات من الكمائن التي أوقعت بوحدات أخرى. تعامل برانكو إزاء هذا الأمر، كما لو كان نتيجة لقيادته المميزة. كان يترقب على الدوام أن تتم خدمته والإذعان لأوامره كما لو

أنه ضابط عام. ذات مرة، في ختام مسيرة مرهقة، استلقى في فيء شجرة لأخذ قسط من الراحة، بينما سارع الجميع لجمع الحطب الجاف قبل أن يغشاهم الظلام. قام أوسكار، الذي كان يرمي بمجموعة ثقيلة من الفروع إلى جوار برانكو المستلقي، بتمتمة شيء ما، على الشيوعيين الذين يفترض أنهم لا يؤيدون الامتيازات النخبوية.

استقام برانكو على قدميه خلال ثانية. قبض على أوسكار من مقدمة زيه العسكري وضربه بعنف بعد أن ثبته بجذع الشجرة.

«أيها الطفل الشاكي الباكي، لا تنس كم أنت محظوظ، بتكليفي بقيادتك. يجب أن تشكرني كل يوم لإبقائك على قيد الحياة».

وقف إسحق بينهما ودفع برانكو برفق بعيداً عن أوسكار. ثم قال بهدوء: «ما يبقينا على قيد الحياة»، «ليس حظاً أو تفوقاً أبرزتَه في القيادة. إنه ناجم عن ولاء السكان المدنيين. لن نتمكن من المعيشة لخمس دقائق هنا، من دون دعمهم».

للحظة، بدا أن برانكو سيضرب إسحق بدوره. لكنه نجح، بطريقة ما، بالسيطرة على نفسه، تراجع، ثم بصق بازدراء على الأرض.

شعرت لولا بنفاد صبر إسحق تجاه برانكو. أدركتْ أنه سئم خطابه المستمر، حتى وقت متأخر من الليل، حتى بعد المسيرات الطويلة، حين يصل الشباب منهكين ويفضلون النوم أكثر من الإصغاء إلى الشرح غير المترابط عن القيمة الزائدة والوعي الزائف. حاول إسحق إنهاء المواعظ السياسية التي يتشدق بها برانكو، لكن الثاني كان يصر على الدوام بسرد حديثه غافلاً عن شعور الآخرين.

أما الخذلان الأكبر فكان في التناقض بين غرور برانكو بنفسه، وبين التقدير المتدني الشأن الذي يكنه قائد لواء منطقتهم تجاهه. لقد وعد برانكو بأسلحة أفضل، لكنه لم يجلب منها شيئاً. أخبر لولا أنها ستُعين في مستشفى ميداني للتدريب، لكن هذا لم يحدث أبداً.

شعرت لولا، مع ذلك، بأنها ذات نفع في الدور الذي تقوم به كبغّال. حتى برانكو، البخيل بالثناء، ما انفك يشيد بها من وقت لآخر. جاء الشتاء مزدحماً بالمهمات، بما أصاب معظمهم بالمرض. أضحى صوت السعال الرطب في الصباح الباكر، منبهاً لإيقاظهم. طلبت لولا البصل من المزارعين لاستخدامه كمّادات. كما علمها إسحق كيفية مزج عناصر دوائية، لاستخلاص أدوية مذيبة للبلغم مقشعة، أتقنت لولا تركيبها إلى حد كبير. كما قدمت مقترحاً بإعادة توزيع الحصص الغذائية، بحيث يستطيع الأشخاص الذين يعانون من المرض، أن يتلقوا المزيد بما يسرع في شفائهم. وعد برانكو بنقلهم إلى مساكن شتوية، لكن الأسابيع مرت لتمضي الفصيلة شتاء قاسياً فوق الجبال التي لا ترحم. تضاءل عناصر الفصيلة يوماً فيوم. بقي زلاتا في الفراش لأسابيع، بعد إصابته بعدوى عنيفة في الصدر، قضى أيامه الأخيرة في منزل عائلة فلاح محلي ثم مات هناك، احتضنه، على الأقل، سرير دافئ آخر أيامه. أما أوسكار، فنفد صبره من قسوة الطقس وشدة الصعوبات، إضافة إلى إدارة برانكو السيئة، فتسلل في الليل، هارباً مع سلافا، إحدى بنات المزرعة.

اشتد قلق لولا على إينا. الطفلة التي تعاني من السعال القاتل ذاته كمعظم الموجودين. لكن حين أثارت موضوع محاولة العثور على ملاذ شتوي لها، بالتعاون مع أخيها، رفض بشدة: «لسبب أول، أنها لن تذهب إلى أي مكان. أما السبب الآخر، فلن أخذلها، فقد وعدتها بأنني لن أتركها مرة أخرى، بكل بساطة».

في يوم بدأ بعاصفة ثلجية عنيفة في أوائل شهر مارس، استدعى ميلوفان، قائد اللواء، الفصائل جميعها لعقد اجتماع. حين تجمع المراهقون الهزيلون المرضى حوله، بدأ خطابه. قال ميلوفان إن تيتو لديه رؤية جديدة لجيشه. تفترض دمج الفصائل في وحدات قوية ومهنية من شأنها مواجهة الألمان بشكل مباشر. يتوجب دفع قوات العدو نحو المدن، بعد اختراق صفوفه، حتى تتم السيطرة الحزبية على الريف.

عصّبت لولا رأسها بوشاح، ولفته بإحكام حول أذنيها. ظنَّت في البداية أنها أساءت فهم ما قاله الكولونيل فيما بعد. لكن الرعب الذي لمحته في وجوه الآخرين أكد أن ما سمعته كان صحيحاً. كان من المفترض أن يتم حل الفصيلة على الفور. «يشكركم الماريشال تيتو على ما قدمتموه من خدمات. سيتم تذكرها في يوم الانتصار المجيد. أما الآن، أولئك الذين يمتلكون الأسلحة، يرجى تكديسها هنا لجمعها. أنتِ أيتها البغّالة، تولي تحميلها. سنغادر الآن، أما أنتم فستتحركون حالما يحل الليل».

نظر الجميع نحو برانكو، بانتظار أن يرد بكلمة. لكن برانكو، أحنى رأسه يحدق في الثلج المنهمر، ولم يقل شيئاً. بعكس إسحق الذي انطلق بالحديث محتجاً: «سيدي المحترم؟ هل يمكنني أن أسألك، ما هي مقترحاتكم فيما يخص وجهة ذهابنا؟».

«يمكنكم العودة إلى بيوتكم».

«بيوتنا، أي بيوت؟» بدأ إسحق بالصراخ. «لا أحد منا يمتلك منزلاً بعد الآن. تم اغتيال معظم عائلاتنا. ينظر إلينا جميعاً كخارجين عن القانون. لا بد أنك لا تعني أن نسير نحو الأوستاشيين بغير سلاح في أيدينا»؟ «أخبره، اللعنة!».

رفع برانكو رأسه وحدق بوجه إسحق ببرود «سمعتَ ما قاله الكولونيل. قال الماريشال تيتو إنه لم يعد هناك مكان للمجموعات الضعيفة، المكونة من الأطفال الذين يستخدمون العصي والمفرقعات النارية. نحن جيش محترف الآن».

«أوه، نعم أرى ذلك!» صدح صوت إسحق بازدراء.

«يمكنك أن تحتفظ بسلاحك»، البندقية التي اقتنصتها أختي الصغيرة، طفلة الرعاع!. أما البقية منا فحظوا بحكم بالإعدام.

«اصمت!» رفع ميلوفان يده المغطاة بقفاز. «إن التزمت بالأوامر، سنكافئ خدماتك في المستقبل. أما إن عصوتنا، فسيتم إعدامك رمياً بالرصاص».

حمّلت لولا، بخدرٍ وارتباك، البنادق على ظهر ريد كما طُلب منها. ثم قامت، بعد الانتهاء من حزم البنادق القليلة العدد. وتعبئة الجعبة بالقنابل، بوضع كمامة البغل الناعمة بين يديها ونظرت في عينيه. «كن بأمان، يا صديقي»، همست. «أنت لك، على الأقل، نفع ما» أرجو أن يعاملوك بكثير من الوفاء والرعاية، أفضل مما أظهروه لنا». سلمت الرسن إلى مساعد ميلوفان، وأعطته كيساً احتفظت فيه بحصة وفيرة من الشوفان.

نظر المساعد داخل الحقيبة، ومن تعابيره، أدركت لولا أن ريد سيكون محظوظاً برؤية الشوفان للمرة الأخيرة، قبل أن يصير إلى بطن المساعد. لذلك دفعت يديها المغطاتين بقفازتين إلى الكيس وسحبتا حفنتين سخيتين من الشوفان. رطبت أنفاسُ البغل الندية يديها للحظات، بعد أن انتهى من وجبته. لم يلبث ريد أن اختفى في دوامة الثلج المتساقط، حتى تجمد اللعاب متصلباً فوق الصوف الممزق. لاحظت أن برانكو لم يلق بنظرة إلى الوراء.

تجمع باقي أفراد المجموعة حول إسحق، بانتظار أن يسعفهم بخطة ما. «أعتقد أننا سنؤدي واجبنا الوطني، بشكل أفضل بشكل زوجي أو في مجموعات صغيرة». كانت نية إسحق التوجه إلى الأراضي المحررة. جلست لولا في صمت كامل، أثناء تنقل المناقشة من فرد إلى آخر حول النار المصطلية. اقترح البعض التوجه جنوباً نحو المناطق التي تحتلها إيطاليا. بينما قال آخرون إنهم سيلتمسون جذور عائلاتهم الممتدة. لم يكن للولا أحد تبحث عنه، ثم فكرت في رحلة غير مؤكدة إلى مدينة جنوبية غريبة. انتظرت شخصاً ما، عساه يسألها عن خططها، أو يعرض عليها مكاناً حيث ينوي الذهاب. لكن لا أحد بادر نحوها بأي شيء على الإطلاق. شعرت كما لو أنها قد تلاشت بالفعل من الوجود. حين نهضت وغادرت المتحلقين حول النار، لم يخاطبها أحد بتصبحين على خير.

وجدت لولا ركناً لها في زاوية من الأرض الجرداء تتقاذفها الأفكار القلقة. حشرت ممتلكاتها القليلة في حقيبة ظهر، أما أمتعتها فكدستها في

كيس متغضن، ثم لفت قدميها بطبقات من القماش كانت قد احتفظت بها كضمادات. استلقت مستيقظة بعينين مغلقتين، حتى فتحتهما على نظرة بنية رهيبة رمقتها بها إينا. كانت الطفلة ملفوفة ببطانية، كما لو كانت شرنقة. معتمرة قبعة صوفية ضيقة وصلت حتى جبينها بحيث كانت عيناها مرئيتين.

لم تدرك لولا أن النوم جرفها إلى هذه الدرجة، حتى شعرت بيد إينا الصغيرة تهزها. لا يزال الظلام محيطاً بكل شيء حولها، وحدهما إينا وإسحق، يقفان محدقين بها من الأعلى، يحملان حقائب محزمة فوق ظهريهما. وضعت إينا إصبعاً على شفتيها مشيرة للولا بالتزام الصمت، ثم مدت يدها لسحب لولا لتقف على قدميها. استقامت، رفعت غطاءها، دفعته داخل الحقيبة، ثم تتبعت إينا وشقيقها بسكون.

ما انفكت تفاصيل الأيام والليالي التالية، بالعودة مراراً وتكراراً إلى أحلام لولا. لكن لا يزال يطفو في ذاكرتها مشاهد ضبابية تكرس الوجع والخوف. تنقل الثلاثة في جنح الظلام، مختبئين خلال ساعات النهار القصيرة، محاولين انتزاع غفوات متقطعة من فم القلق، حالما تمكنوا من العثور على حظيرة أو كومة قش يمكن لها إيواؤهم. صوت أي كلب، سيوقظهم مذعورين، وما النباح بالنسبة إليهم، إلا دلالة على دورية ألمانية قريبة. في الليلة الرابعة منذ فرارهم، تزايدت الحمى في جسد إينا. مما اضطر إسحق لحملها، مرتعشة، متعرقة تهذي. ألبسها جواربه، لفها بمعطفه في محاولات يائسة لإيقاف الارتعاش، حتى انخفضت درجة الحرارة بحلول الليلة التالية. في منتصف الطريق لمسيرة مسائية مضنية، بعد أن عبروا النهر المغطى بالجليد، توقف إسحق، بقدمين مغروزتين بإبر الصنوبر المتجمدة. «ما الأمر؟» همست لولا.

«قدماي. فقدت الإحساس بهما». أجاب إسحق. «الجليد - تعثرت قدمي في بقعة هشة في النهر وترطبت، تجمدت بمائها الآن. لا قدرة لي على المزيد من الخطوات».

«لا يمكننا التوقف هنا». علقت لولا: «علينا العثور على أي مأوى قريب».

«اذهبي أنتِ، فأنا لا استطيع».

«دعني أرى». وجهت لولا شعاع مشعلها تجاه الجزء الممزق في حذاء إسحق. بدا جلد قدمه المكشوف أسود يقضمه الصقيع. بينما تضررت القدم بفعل المشي والبرد منذ وقوع الحادث في مجرى النهر. وضعت يديها اللتين كانتا داخل القفازين، فوق القدم في محاولة لتسخينها. لكن لا نفع لذلك أبداً. تجمدت أصابع القدم الصلبة، وبدت قابلة للتكسر كأغصان هشة. حتى الضغط الطفيف من شأنه أن يتسبب بتصدعها على الفور. نزعت لولا معطفها ووضعته على الأرض. رفعت إينا ووضعتها عليه. كانت أنفاس الطفلة ضئيلة التعداد، غير منتظمة. شعرت لولا بنبضها، لكنها لم تستطع العثور عليه.

«لولا»، قال إسحق. «لن أتمكن من المشي بعد الآن، وها هي إينا تموت. عليك الذهاب بمفردك».

«لن أتركك أبداً» قالت.

«لم لا؟» قال اسحق. «لو كنت مكانك، لتركتك».

نهضت، وبدأت بجمع العصي المتجمدة عن الأرض الصلبة.

قال إسحق: «النار شديدة الخطورة هنا». «كما أنك، ستعجزين عن إشعال هذا الخشب المتجمد».

شعرت لولا بالسخط والغضب يلتهبان داخلها. فأردفت: «لا يمكنك الاستسلام».

لم ينبس إسحق ببنت شفة، استند بصعوبة إلى يديه وركبتيه، ثم انتصب إلى حد ما.

«قدمك...!». صرخت لولا.

«لا يمكن لها أن تحملني بعيداً». ارتبكت لولا، تقدمت، لالتقاط إينا. دفعها إسحق برفق جانباً.

«لا»، قال. «إنها تخصني».

حمل الطفلة، نحيلة جداً الآن، لا تزن شيئاً تقريباً. لكنه بدلاً من الاستمرار في الاتجاه الذي كانوا يخطون فيه، استدار ورجع نحو النهر.

«اسحق».

لم يلتفت. احتضن أخته الصغيرة، خطا باتجاه ضفة النهر فوق الجليد. سار نحو المركز، حيث الجليد رقيقٌ جداً. وقف هناك للحظات، لا يزال رأس أخته ملقى أعلى كتفه. صدح أنين الجليد المتصدع تدريجياً، غاصا عميقاً في مياه النهر.

وصلت لولا إلى سرايفو، مع انسكاب شعاع الشمس الأول فوق التلال الجبلية، فبدت الأزقة الملطخة بالأمطار كأنها مطلية بالفضة. كان قرار العودة إلى المدينة مقروناً بمعرفتها بعجزها عن المضي بمفردها، في الطريق المؤدي نحو الأراضي المحررة. شقّت طريقها عبر الشوارع المألوفة لها، على طول خط المباني، بحثاً عن أي ملجأ صغير يوفر لها وقاية من المطر المتهاطل، ومن النظرات غير الودية. تسارع إلى أنفها عبق الروائح المألوفة في المدينة، المتفشية من الأرصفة الرطبة، القمامة المتعفنة، والفحم المحترق. تجولتْ، جائعة، مبللة، متعثرة بحالتها المزرية اليائسة المحبطة. سارتْ مع أي وجهة واضحة المعالم، حتى وجدت نفسها على مدرجات وزارة المالية، حيث كان يعمل والدها. لا يزال المبنى مهجوراً. تسلقت لولا درجات السلم العريض. مررت يدها عبر النقوش التي أطرت المدخل الرئيسي، ثم أسندت ظهرها إلى النتوءات المنحوتة. راقبت قطرات المطر تضرب حواف الدرج، كل قطرة ترسم دائرة متحدة المركز، تدور للحظة ثم تتلاشى. بذلت لولا حين كانت في الجبال، أقصى جهدها لتدفع ذكريات عائلتها إلى مؤخرة عقلها. لطالما خشيتْ من أنها لو قامت بفتح بوابة الحزن، فلن تكون قادرة على إغلاقها. ها هي تستسلم تماماً هنا، ذكريات والدها تضغط عليها، تدهس رغبتها بالنسيان. عاودتها الأمنية المحببة من جديد، ليتها تعود تلك الطفلة المحمية الآمنة مرة أخرى. لابد أنها غرقت في ذاكرتها

لبضع دقائق حتى أيقظتها خطىً مجهولة، آتية من وراء الباب الثقيل. انكمش جسدها المنهك في الظل، غير متأكدة مما عليها فعله، أهو البقاء، أم الهرب! انزلق المغلاق إلى الخلف، صادحاً بصليل المعدن الصدئ. ظهر رجل يرتدي وزرة العمال، مع كوفية ملفوفة بإحكام حول ذقنه. لم يرها بعد. ألقى بعض الكلمات التقليدية بقصد التحية. «ليحفظنا الله». استدار الرجل، ثم اتسعت عيناه اللتان كانتا بزرقة البحر من الدهشة، حين لمحتا شخصاً خالياً من أي تعابير، يتقطر مرتعداً بين الظلال.

لم يتعرف إليها، كيف يفعل بعد أن غيرتها تجربتها المضنية لأشهر بين الجبال. لكنها عرفته. إنه سافا، رجل عجوز لطيف، شارك بالعمل إلى جانب والدها. لفظت اسمه، ومن ثم عرفت باسمها. انحنى لأسفل مع تذكره لها، ورفعها إليه معانقاً. غمرها ارتياح هائل من شدة لطفه وبدأت بالنحيب. قام سافا بتفحص الشارع للتأكد من خلوه من الدخلاء. بذراع لا تزال تلف كتفيها المرتعشتين. قادها نحو الداخل، أغلق الباب، ثم أقفله مرة أخرى.

أخذها إلى غرفة الناطور، ثم لفها بمعطفه. سكب لها القهوة الطازجة من الغلاية. أخبرته، بعد أن استجمعت قواها، واستعادت صوتها، كيف قاموا بنفيها من وحدة الحزب. وصولاً إلى فقرة وفاة إينا وإسحق، غصتْ حينها، وعجزت عن متابعة الحديث. وضع سافا ذراعه حول كتفيها، وربت عليهما برفق.

«هل يمكنك مساعدتي» قالت له أخيراً. «إن عجزت عن ذلك، أرجوك سلمني إلى الأوستاش، أعياني الفرار، وأعجز عن الهرب بعد الآن».

حدق سافا في لولا للحظة، من دون قول أي شيء. ثم قام وأخذ يدها. مخرجاً إياها من الوزارة، مغلقاً الباب خلفه. سارا في صمت عابرين مجموعة أو مجموعتين من الأبنية. وصولاً حتى المتحف الوطني، قادها سافا إلى المدخل، ثم طلب منها الانتظار على مقعد داخل كوة، بالقرب من الباب.

مضى وقت طويل. تمكنت لولا من سماع أشخاص يتجولون حول المبنى. تساءلت الفتاة، فيما إن كان سافا قد هجرها هنا. لكن الإرهاق والإحباط جعلاها غير مبالية. فهي الآن لم تعد قادرة على اتخاذ أي إجراء لإنقاذ نفسها. جلست وانتظرت.

عاد سافا للظهور، مع رجل طويل يسير إلى جانبه. كان الرجل في منتصف العمر، أنيقاً إلى حد كبير. يعتمر طربوشاً قرمزي اللون أعلى شعره الداكن مع خصلات من الفضة. شيء ما في الرجل بدا مألوفاً لها. لكن لولا لم تستطع تذكر المكان الذي ربما التقته فيه. أمسك سافا يدها وضغط عليها مطمئناً. ثم مضى. أومأ الرجل الطويل القامة للولا بتتبعه.

غادرا المبنى. أدخلها إلى المقعد الخلفي لسيارة صغيرة، مشيراً إليها بوجوب استلقائها على أرضية السيارة. لم يتكلم الرجل، حتى بدأ المحرك بالدوران، وانسحب بعيداً عن الرصيف. تحسنت لهجته وسمعت صوته لطيفاً، حين سألها عن المكان الذي كانت فيه وماذا فعلت.

لم يقد لمسافة كبيرة، حتى أوقف السيارة ونزل، مومئاً للولا بالبقاء حيث كانت. غاب لبضع دقائق، سلم لولا شادوراً. ثم طالبها على وجه السرعة بالبقاء أسفل السيارة.

«ليحفظنا الله، أفندي!».

تبادل المجاملات مع الجيران المارين، متظاهراً بالبحث عن شيء ما في صندوق السيارة. استدار الرجل بزاوية معينة، فتح الباب الخلفي وألمح للولا أن تلحق به. ألقت الشادور على وجهها، خافضة بصرها نحو الأسفل، كما فعلت المرأة المسلمة التي صادفتها يوماً. ضرب على باب بشدة، داخل المبنى. فُتح على الفور.

كانت زوجته تقف في الداخل، منتظرة. نظرت لولا وتعرفت إليها على الفور. كانت الزوجة الشابة نفسها التي قدمت لها القهوة، عندما جاءت إلى بيتها يوماً لجمع الغسيل. لم تظهر ستيلا أي ملامح تشير أنها تذكرت لولا، رد فعل غير مفاجئ، نظراً للتغيير الكبير الحاصل في

مظهرها. خاصة أن السنة الماضية جعلتها تبدو بمظهر أكبر سناً. فبدت هزيلة، ظاهرة العضلات، بشعر مقصوص قصير، كصبي منهك.

أظهرت ستيلا نظرة قلقة، تجاه وجه لولا الشاحب، مستفسرة من زوجها. الذي حدثها باللغة الألبانية. لم يكن لدى لولا أي فكرة عما قيل، لكنها راقبت حدقتي ستيلا تتسعان مع كل كلمة. استمر زوجها في الكلام بلطف، لكن بشكل متعجل. ملأت الدموع عينيّ ستيلا، مسحتهما بمنديل من الدانتيل والتفتت إلى لولا.

«مرحباً بك في بيتنا»، قالت. «أخبرني زوجي أنك عانيت كثيراً. تعالِي الآن، اغتسلي، كُلي، وارتاحي. في وقت لاحق، بعد أن تنامي جيداً، ستتحدث عن أفضل السبل للحفاظ على سلامتك».

نظر شريف إلى زوجته بملامح تشي بالحب والحنان والافتخار. لمحت لولا تلك النظرة، وكيف تورد وجه ستيلا حين ردتها له. أن ينمو مثل هذا الحب في مكان ما، لا بد أنه سيثمر شيئاً عظيماً بالفعل.

«يجب أن أعود إلى المتحف الآن»، قال. «أراك هذا المساء، زوجتي ستعتني بك، بشكل جيد». يا للشعور الرائع بالماء الساخن مع الصابون ذي العطر الفاخر، ترف مبالغ بالنسبة للولا، الفتاة التي تنتمي إلى حياة أخرى. قدمت ستيلا الشوربة الساخنة مع الخبز الطازج. حاولت لولا بذل قصارى جهدها لتناولها ببطء، بالرغم من جوعها الشديد الذي يجبرها على حمل الوعاء بكلتا يديها وتجرعه بالكامل. بعد الانتهاء، قادتها ستيلا إلى غرفة صغيرة مشرفة على الحديقة. سرير طفل هناك، يرقد فيه طفل رضيع.

«هذا هو ابني، حبيب، وُلد الخريف الماضي»، قالت.

أشارت إلى أريكة منخفضة على طول الجدار. «يمكن لها، أن تكون غرفتكِ أيضاً». جلست لولا، إلا أنها، قبل أن تعود ستيلا بلحاف لها، سقطت في نوم عميق.

حينما استيقظت، بدا الأمر للتو أشبه بسباحة في مياه عميقة. السرير بجانبها كان خاوياً. سمعت أصواتاً خافتة، بعضها قلق وبعضها مطمئن. هدلُ رضيع لطيف، سرعان ما هدأ. رأت لولا ملابس محضّرة ملقاة على السرير. إنهم يرتدون ثياباً غير مألوفة بالنسبة لها، تنورة طويلة مثل تلك التي ترتديها امرأة ألبانية مسلمة. وشاح أبيض كبير لتغطية شعرها تحزمه المرأة جيداً، ثم تسحبه عبر جسر أنفها لإخفاء الجزء السفلي من وجهها. أدركت حينها أن ملابسها الخاصة بمهامها الحزبية، التي خاطتها قبل أربعة أشهر باستخدام قطعة من بطانية رمادية، يتوجب حرقها حتى الرماد.

ارتدت ملابسها، مع أنها عانت قليلاً مع وشاح الرأس الغريب. عندما دخلت غرفة الجلوس المسطرة بالكتب، كان شريف وستيلا يجلسان متقاربين، غارقين في محادثة عميقة. كان شريف يحمل ابنه، طفل صغير ناعم يعلو رأسه قليل من الشعر الداكن، يلهو فوق ركبته. أما يده الحرة، فتشابكت مع يد زوجته. نظرا للولا، حين دخلت الغرفة ثم سارعا لفك أيديهما بسرعة. كانت لولا على علم بأن المسلمين المتحفظين، يشعرون أنه من غير اللائق، حتى بالنسبة للمتزوجين، التعبير عن أي عاطفة تتعلق بالجسد في حضور الآخرين.

ابتسم شريف في وجه لولا. قائلاً: «تبدين قروية جميلة!» «إن كنت لا تمانعين، فإن القصة التي سندّعيها، لشرح وجودك هنا، هي أنك خادمة أرسلتها عائلة ستيلا، لمساعدتها في الطفل. سوف تتظاهرين بعدم معرفتك للغة البوسنية على الإطلاق، وبهذه الطريقة لن تحتاجي إلى التحدث إلى أي شخص. في حضور الآخرين، سنتحدث معك أنا وستيلا بالألبانية. تحتاجين إلى إيماءة فقط رداً على أي شيء نقوله. من الأفضل عدم مغادرتك الشقة على الإطلاق، بالتالي قلة قليلة من الناس يعرفون أنك موجودة هنا. يتوجب أن نمنحك اسماً مسلماً... هل يناسبك ليلى؟

«لا استحق هذا اللطف منكم»، همست. «أنتم المسلمين، الذين من شأنهم أن يساعدوا يهودياً -».

«تعالي الآن!» قال شريف، مدركاً أنها أوشكت على البكاء.

«اليهود والمسلمون أبناء عمومة، إنهم أحفاد إبراهيم. اسمك الجديد... هل تعرفين معناه؟ إنه «المساء» باللغة العربية، لغة قرآننا الكريم، وكذلك باللغة العبرية، لغة التوراة الخاصة بك».

«أنا... أنا... لم أتعلم اللغة العبرية أبداً. لم تكن عائلتي متعصبة دينياً». كان والداها يذهبان إلى النادي الاجتماعي اليهودي، لكنهما لم يسبق لهما أن زارا الكنيس أبداً. حاولا دمج الأطفال بملابس جديدة أثناء احتفالات الحانوكا[43] في السنوات التي أمكنهما تحمل نفقاتها، لكن بصرف النظر عن ذلك، لم تعرف لولا سوى القليل جداً عن دينها.

«حسناً، إنها لغة جميلة جداً ومذهلة». أردف شريف «قمت أنا والحاخام بالتعاون من أجل ترجمة بعض النصوص، من قبل، قبل هذا الكابوس الذي وجدنا أنفسنا بين براثنه»، فرك جبينه بيده ثم تنهد. «كان رجلاً صالحاً، عالماً عظيماً جداً، لقد فُجعت به».

في الأسابيع التالية، وجدت لولا نفسها متكيفة مع إيقاعات الحياة المختلفة للغاية، التي بدأت تحياها في كنف العائلة المسلمة. تضاءل الخوف في قلبها بمرور الوقت، لم تفت فترة طويلة حتى أدركت أن حياتها الهادئة الروتينية كمربية لابن عائلة كمال، أكثر واقعية بالنسبة لها من دورها السابق كعضو في أي حزب من الأحزاب. اعتادت لولا على صوت ستيلا الناعم المتردد منادياً إياها باسمها الجديد: ليلى. أما الطفل فأحبته منذ اللحظة الأولى التي احتضنته فيها. سرعان ما أصبحت مولعة كذلك بستيلا، التي كانت حياتها كامرأة تنتمي إلى عائلة مسلمة محافظة، حياة محلية لها خصوصية تامة، امرأة، بذات الوقت، لها آفاقها الفكرية الفسيحة، كابنة وزوجة في بيئة من متعلمين ومثقفين.

43- حانوكا أو حَنُكَّة: يعرف بعيد الأنوار: هو عيد يهودي يحتفل به اليهود لمدة 8 أيام ابتداء من الخامس والعشرين من شهر كيسليف حسب التقويم العبري، ويتراوح موعده حسب التقويم الميلادي بين الأسبوع الأخير من شهر نوفمبر والأسبوع الأخير من شهر ديسمبر.

كانت لولا في البداية، خائفة قليلاً من شريف، الذي كان يماثل بالعمر والدها. لكن أخلاقه العالية وأسلوبه المهذب هدؤوا من روعها. ظلت لفترة من الوقت عاجزة عن التعبير عن الفرق المتعلق بشخصيته، حيث كان مختلفاً عن جميع الأشخاص الآخرين الذين عرفتهم. في يوم من الأيام، بينما كان يجرها بصبر للنقاش من موضوع إلى آخر، يصغي إلى رأيها، كما لو أنه يستحق النظر فيه، ليوجهها ببراعة إلى رؤية أكمل لقضية النقاش، أدركت ما هو الفرق. كان شريف الشخص الأكثر تعلماً والوحيد الذي قابلته ولم يجعلها تشعر بالغباء على الإطلاق.

يستند نهار عائلة كمال إلى دعامتين: الصلاة والتعلم. تغادر ستيلا واجباتها كلها، لخمس مرات في اليوم، تتوضأ بعناية، تضع العطر. ثم تمد سجادة حريرية صغيرة، خصصتها للصلاة فقط، لتمارس فوقها طقوس الصلاة الإسلامية الخاصة التي تتنوع بين ركوع وسجود وتلاوات. لم تستطع لولا أن تفهم معاني الآيات، لكن رنين القوافي العربية أرست الطمأنينة في قلبها.

في المساء، تقوم ستيلا بتطريز قطعة من القماش، بينما يقرأ لها شريف بصوت عالٍ. انعزلت لولا في البداية، بصحبة حبيب بعيداً عنهما، كلما باشرا جلستهما معاً. لكنهما دعياها للبقاء والإصغاء إن رغبت في ذلك. أرادت لولا أن تجلس لبعض الوقت معهما، خارج دائرة ضوء المصباح الأصفر، واضعة حبيب على ركبتيها، تهزه برفق. تستمع لما اختاره شريف للقراءة من صفحات تاريخية مفعمة بالحيوية، أو قصائد جميلة. حتى وجدت نفسها شيئاً فشيئاً، تتطلع بشغف إلى تلك الساعات المسائية. أما إن تضايق حبيب الصغير، واضطرت إلى مغادرة الغرفة معه، فإن شريف يتوقف عن القراءة حتى عودتها فيتابع، أو يقوم بتلخيص ما فاتها كله.

مازالت لولا تستيقظ في بعض الليالي، مذعورة تتصبب عرقاً، من كابوس تلاحقها فيه كلاب الألمان، أو من عجزها أمام أختها الصغيرة

التي تتعثر راكضة في غابات كثيفة، باكية تطلب منها المساعدة. لا ينفك إسحق وإينا، في أحلام أخرى، يغرقان، مراراً وتكراراً، في عمق الجليد المتكسر. ترفع حبيب من سريره وتعانقه، بعد كل استيقاظ، تلتمس السكينة من جسده الصغير الناعم، حين يضغط ناعساً على صدرها.

ذات يوم، عاد شريف من المكتبة باكراً. لم يحيّ زوجته أو يسأل عن ابنه، أو حتى يخلع معطفه عند الباب، كعادته. بل اتجه مباشرة إلى مكتبه. بعد بضع دقائق، دعاهما إليه. لم تكن لولا معتادة على المضي إلى غرفة المكتب. إذ إن ستيلا هي التي تقوم بتنظيف تلك الغرفة بنفسها. لاحظت بعدما دققت في الكتب المصطفة على الجدران أن المجلدات أكبر وأفخر من تلك الموجودة في أي مكان آخر في الشقة. كتبٌ عن اللغات القديمة والحديثة مسطرة ستة كتب معاً، مع مجلدات بديعة يدوية الصنع، من الجلد المشذب اللامع. لكن شريف كان يحتضن كتاباً صغيراً معقوداً ببساطة بين يديه المغطاتين بقفازين. وضعه على المنضدة أمامه، وحدق به بالملامح ذاتها التي يرسمها وجهه حين ينظر لابنه حبيب.

«زار الجنرال فابر المتحف اليوم». قال. لهثت ستيلا وضربت رأسها بيدها بذعر. كان فابر قائد وحدات اليد السوداء المثير للرعب، الذي شاع أنه المسؤول عن المجازر بحق الآلاف.

«لا، لا، لم يحدث شيء رهيب. في الواقع، أعتقد أن ما حدث كان جيداً جداً. اليوم، وبمساعدة المدير، نجحنا في إنقاذ أحد كنوز المتحف العظيمة».

لم يختر شريف أن يروي تفاصيل كاملة عما حدث في المتحف في وقت سابق من ذلك اليوم. كما أنه لم يقصد حتى أن يريهما الهاجادا. لكن وجود الكتاب - في بيته، بين يديه - تغلب بطريقة ما على حذره. قلب الصفحات حتى تتمكنا من التمعن بفن الكتاب، واكتفى بإعلامهما أن مدير المتحف وثق بوضع الكتاب تحت رعايته.

الدكتور جوسيب بوسكوفيتش، مدير شريف، كرواتي نجح في

التفاوض مع الهيئة المتواطئة مع نظام الأوستاش في زغرب.[44] بينما بقي سرايفياً في قلبه. عمل بوسكوفيتش أمين متحف للقطع النقدية القديمة قبل الانتقال إلى إدارة المتحف. إنه شخصية لها شعبية عالية في سرايفو، وهو الراعي الأساسي للأحداث الثقافية فيها. رجل ذو شعر ينزلق داكناً مسرحاً بدهن عطري، أما موعده الأسبوعي مع مدرم الأظافر فيعتبر بالنسبة له، طقساً غير قابل للتغيير.

عندما أرسل فابر كلمة مفادها أنه يعتزم زيارة المتحف، أدرك بوسكوفيتش أن استعراض السير على الحبل الرفيع على وشك البدء. لم يكن يجيد اللغة الألمانية، لذلك دعا شريف إلى مكتبه، وأخبره عن حاجته له للترجمة. ينتمي بوسكوفيتش وشريف إلى خلفيات متمايزة ولديهما اهتمامات فكرية مختلفة. لكن الرجلين يشتركان في الالتزام الشديد بالتاريخ البوسني، وعشق التنوع الذي شكل ذلك التاريخ. كما يتشاركان في اعترافهما غير المعلن، بأن فابر يكافح من أجل إبطال هذا التنوع.

«هل تعلم ما الذي يريده؟» سأل شريف.

«لم يعلن عن مراده. لكن بإمكاننا التخمين. أخبرني زميلي في زغرب أنهم نهبوا مجموعة التحف اليهودية من المتحف. أنت تعلم، وأنا أعلم، أن ما لدينا هنا، أكثر أهمية إلى حد لا نهائي. أعتقد أنه يريد الهاجادا».

«جوسيب، لا يمكننا أن نقدمها له. سيدمرها، كما دمر رجاله كل شيء يهودي في المدينة».

«شريف، يا صديقي، ما الخيار البديل لدينا؟ قد لا يدمرها. وصلتني إشاعة بأن هتلر يخطط لجمع آلاف القطع الأثرية اليهودية لبناء متحف العرق المنقرض The Lost Race – لعرضها عقب رحيل اليهود أنفسهم...».

صفع شريف مؤخرة الكرسي أمامه. «أليس هناك حد لسفالة هؤلاء الناس؟».

44- زغرب: عاصمة كرواتيا. تقع على المنحدرات الجنوبية لجبل ميدفيدنيتشا وعلى الضفة الشمالية لنهر سافا.

«صه». رفع بوسكوفيتش كلتا يديه لتهدئة زميله. أخفض صوته حتى الهمس ثم قال: «كانوا يسخرون حول هذا الموضوع في زغرب الشهر الماضي، فأطلقوا عليها بالألمانية: Judenforschung ohne Juden – أو بلغة أخرى: دراسات يهودية من دون يهود». تقدم بوسكوفيتش من خلف مكتبه، ووضع يده على كتف شريف: «إذا حاولت إخفاء هذا الكتاب، ستعرض حياتك للخطر».

حدق شريف بمديره بإجلال، آخذاً الأمر بمنتهى الجدية. «أيُّ الخيارات لدي؟ لي أنا كوستوس. هل نجت المخطوطة طوال خمسمئة عام، كي يجيء زمن تسلبُ في ظل حمايتي؟ إن كنت تظن يا صديقي أنني قادر على السماح بمثل هذا الشيء، فأنت لا تعرفني».

«افعل ما يتوجب عليك القيام به. لكن على عجالة، أتوسل إليك».

عاد شريف إلى المكتبة. بيدين مرتعشتين، قام بسحب صندوق عنونه بـ: ARCHIV DER FAMILIE KAPETANOVIC – TüRKISCHE URKUNDEN أو (أرشيف عائلة كابتنوفيتش – الوثائق التركية). قام برفع عدد قليل من سندات ملكية أراضٍ تركية قديمة من أعلى الصندوق. لينكشف تحتها العديد من المخطوطات العبرية. حمل أصغرها، ووضعها تحت حزام سرواله ثم أسدل معطفه بحيث أخفى الانتفاخ. أعاد السندات التركية إلى الصندوق وأقفله من جديد.

كان فابر رجلاً هزيلاً، ضئيل الحجم قصير القامة. يمتلك صوتاً لطيفاً خفيضاً، نادراً ما يرتفع فوق طبقة الهمس. أمرٌ اضطر الحضور إلى الاقتراب منه أكثر، مع إيلاء اهتمام متزايد عندما يتحدث. اصطبغت عيناه بالأخضر الهادئ الكامد لحجرٍ عقيق، أما بشرته فشاحبة وشفافة تماثل جلد السمكة.

ارتقى جوسيب إلى مناصب عديدة، بفعل أساليبه الجذابة الساحرة في التملق والمداهنة. حتى أنه حين رحب بضيفه بلطف وفير، لم يعرف أحد مدى الألم الذي يعانيه من مؤخرة رقبته المصابة بالتهاب

عرق عصبي. استأذن من الألماني النحيل، مقدماً اعتذارات فاضت عن اللازم، لحين ظهور شريف قادماً نحوهما: «زميلي لغوي عظيم. لطالما أحرجني عجزي عن مجارات إلمامه بلغات شتى».

اقترب شريف وقدم يده مرحباً. لاحظ أن قبضة الجنرال لينة بشكل غير متوقع، حتى أنها ارتخت بحرية تامة داخل يده. كان شريف حريصاً على المخطوطة التي تتحرك مع حركته، ملامسة خصره.

رغم عدم الإفادة بالغرض من الزيارة. فإن جوسيب عرض عليه بصمت حذر، جولة بين القطع الأثرية. قدم شريف، أثناء تجوالهم في القاعات المقنطرة، تقارير ضليعة عن العديد من المعروضات، بينما يسير فابر خلفه، يصفع أحد قفازيه الجلديين السوداويين على البشرة الشاحبة ليده العارية، ولا يقول شيئاً.

حين وصلوا إلى المكتبة، أومأ فابر برأسه وتحدث لأول مرة: «دعني أري المخطوطات اليهودية لديك ومجلدات القرن الخامس عشر أو «Incunabula»[45] اختار شريف بارتعاش باطني مجلدات عديدة من الرفوف ووضعها على الطاولة الطويلة. كان منها نص عن الرياضيات للكاتبة إيليا مزراحي، مخطوطة نادرة تحتوي مفردات لغوية عبرية - لاتينية وعربية طبعت في نابولي في عام 1488، مع مجلد تلمود[46] مطبوع في البندقية.

بدأت يدا فابر الشاحبتان بمداعبة كل مجلد بدوره. قلب الصفحات بعناية فائقة. كانت ملامحه تتبدل محدقاً بأندر المخطوطات، منعماً النظر في الأحبار الباهتة والرقوق الحساسة البالغة الرقة، مرطباً شفتيه

45- هي كتب أو كتيبات أو نَشرات طُبعت في أوروبا قبل عام 1501. الكلمة نفسها مشتقة من الكلمة اللاتينية Incunabula، التي تعني مهد وتشير إلى بداية فن النشر.

46- التلمود: كتاب تعليم الديانة اليهودية، بتعريف آخر هو تدوين لنقاشات حاخامات اليهود حول الشريعة اليهودية، الأخلاق، الأعراف، وقصص موثقة من التراث اليهودي، وهو أيضا المصدر الأساسي لتشريع الحاخامات في الدعاوى القانونية.

بين الحين والآخر. لاحظ شريف أن حدقتي عينيه أسهبتا كعيني عاشقٍ. بما أدى به للإشاحة برأسه بعيداً. أصابه إحساس ممزوج بالاشمئزاز والانتهاك، كما لو أنه يشهد مشهداً إباحياً.أغلق فابر، أخيراً، مجلد التلمود المطبوع في البندقية ونظر إلى الأعلى، أثارت سيماه استفساراً!

«من فضلك الآن، أريد الهاجادا». شعر شريف بفيضٍ من العرق الشديد يهطل فوق ظهره. أدار راحتي يديه مستهجناً ثم قال: «هذا مستحيل، هير[47] جنرال».

هاجت ملامح جوسيب تماماً، مُسحت، ثم اصطبغت بالشحوب.

«ماذا تقصد بمستحيل؟»، تعجب فابر ببرود، بصوت خفيض هادئ. «ما يعنيه زميلي»، أردف جوسيب، «هو أن أحد ضباطك جاء إلى هنا أمس، وطلب الهاجادا. مشيراً أنها مطلوبة لمشروع متحف معين خاص بالرئيس.

يشرفنا بكل تأكيد، تكريمنا بقبول هذا الكنز لهذا الغرض...» بدأ شريف بترجمة كلمات جوسيب، لكن الجنرال قاطعه.

«أي ضابط؟ أعطني اسمه». خطا نحو جوسيب. بالرغم من عوده الرقيق، بدا الجنرال فجأة وكأنه يرتشح وعيداً عظيماً. رجع جوسيب بخطوة نحو الوراء، مصطدماً برفوف الكتب.

«سيدي، لم يصرحوا باسمه. أنا... أنا... لم أجد أنه من شأني أن أسأل عن الاسم... لكن إذا حضرت معي إلى مكتبي، قد أتمكن من إعطائك الورقة التي وقعها لي، كإيصال استلام».

عندما ترجم شريف كلمات المدير، هدأ فابر ملتقطاً أنفاسه. «جيد جداً». استدار على كعبه واتجه نحو الباب. لم يمتلك جوسيب سوى لحظة لتبادل نظرة فورية مع شريف. نظرة كانت الأكثر بلاغة في حياته. ثم، بنبرة هادئة مثل أمواج بحيرة في يوم وديع، قام شريف بدعوة الجنرال. «من فضلك، يا سيدي، اتبع المدير. سيقودك إلى الدرج الرئيسي».

47- لقب يستخدم باللغة الألمانية، عند المخاطبة، يقابل بالعربية بكلمة السيد.

أدرك شريف أنه لا يملك سوى القليل من الوقت. كان يأمل أنه تكهن بخطة المدير بشكل صحيح. كتب إيصالاً بأرقام بيانات الهاجادا، ومن ثم، وقع عليها بقلم مختلف، مخربشاً بحروف غير مقروءة. دعا المستخدم وطلب من الرجل أخذ الورقة إلى مكتب المدير. «استخدم سلم الخدم، اصعد بسرعة قدر الإمكان. ضعها على مكتبه حيث يمكنه رؤيتها لحظة دخوله».

جاهد شريف نفسه، متعمداً، محاولاً إبطاء تحركاته. سار بهدوء نحو علاّقة القبعة وصولاً إلى معطفه وطربوشه. خرج من المكتبة عابراً القاعة متجهاً صوب المدخل الرئيسي للمتحف. حدق بحاشية فابر المنتظرة خارجاً، أشار بإيماءة مرحباً بوجودهم. قابل في منتصف الدرج، زميلاً صاعداً تداول معه بعض الأحاديث. اجتاز سيارة الطاقم السوداء الكبيرة، التي كانت في الانتظار على الرصيف. ابتسم، حيّا معارفه، ثم توقف في المقهى المفضل لديه. احتسى قهوته ببطء، كما يُفترض من بوسني حقيقي، يستلذ بكل قطرة. ثم، بعدها فقط، توجه نحو البيت.

أثناء قيام شريف بتقليب صفحات الهاجادا، ذهلت لولا من فخامة الإضاءة والتصاوير.

«يجب أن تفتخري بذلك». «إنه عمل فني رائع قدمه شعبك للعالم».

هزت ستيلا يديها، ثم تحدثت بعبارة باللغة الألبانية. نظر إليها شريف بملامح حادة، لطيفة مع ذلك. ثم أجاب بالبوسنية. «أنا أعلم أنك قلقة، يا عزيزتي. لديك كل الحق في أن تفعلي. صحيح أننا خاطرنا بإيواء فتاة يهودية، والآن نخفي مخطوطة يهودية، مطلوبتين بشدة من قبل النازيين. حياةٌ شابة وقطعة أثرية قديمة. كلتاهما ثمينتان جداً. تقولين إنك لا تهتمين بالخطر على نفسك، أشيد لك بهذا الإحساس، وأفتخر بك لكنك تخافين على ابننا. وما تخشينه منطقي وحقيقي للغاية. أخشى عليه، بدوري. أريد إعلامك أنني خططت أمراً فيما يخص ليلى، مع صديق لي. غداً، سنلتقي به. سيقودها نحو عائلة في منطقة إيطالية ستقوم بحمايتها».

«ولكن ماذا عن المخطوطة؟» قالت ستيلا. من المؤكد أن الجنرال

سيكشف تضليلكما له. بعد إجراء تحقيقات في المتحف، ألن يأتوا إلى هنا؟».

«لا تقلقي»، أجاب شريف بهدوء. «من المؤكد أنه لن يتم كشف أمرنا. يمتلك الدكتور بوسكوفيتش الحنكة ليقنع فابر أن أحد رجاله قد جاء من أجل الكتاب. النازيون ليسوا سوى لصوص في القلب. هذا ما يدركه فابر. هو يعلم أن ضباطه محترفون في السرقة. كما أنه لن يتوانى عن التفكير، أن نصف دزينة من رجاله قادرون على سرقة الكتاب الذي سيورثهم وفير المال. «على أي حال»، قال، وهو يلف المجلد الصغير في قماشه، «بعد غد، لن يكون هنا».

«أين ستأخذه؟» سألت ستيلا.

«غير متأكد بعد. لكن المكان الأفضل لإخفاء كتاب ما، هو ركنٌ في المكتبة». فكر في إعادة الكتاب إلى المتحف، وإخفائه في مكان ما بين آلاف المجلدات. لكنه تذكر مكتبة أخرى أصغر بكثير، حيث أمضى العديد من الساعات الممتعة في الدراسة بجانب صديق عزيز. التفت إلى ستيلا، ابتسم. ثم قال: «سوف آخذها إلى المكان الأخير الذي يفكر فيه أي شخص».

في اليوم التالي، الجمعة، اليوم الذي يحمل قداسة السبت بالنسبة للمسلمين. ذهب شريف للعمل كعادته، لكنه استأذن في منتصف النهار، بعذر رغبته بأداء صلاة الجماعة. عاد إلى منزله وأحضر ستيلا، حبيب، ولولا. وبدلاً من التوجه إلى المسجد المحلي، خرج من المدينة متجهاً نحو الجبال. حملت لولا حبيب أثناء القيادة، حيث لعبت معه ألعابه المفضلة من «إخفاء وجهها ثم إظهاره»، و«تخمين في أي يد»، كانت تميل نحوه كلما سنحت لها الفرصة، محاولة استنشاق أكبر كمية من رائحة رأسه، التي لا تذكرها إلا بعبق العشب المجزوز لأول مرة. كان الطريق منحدراً، ضيقاً ومتعرجاً. الفصلُ منتصف الصيف، ها هو الضوء كثيف كالزبدة، ذهبي ينساب فوق الحقول الصغيرة للقمح، أما أزهار عباد الشمس فقد ملأت كل شبر من الأرض المسطحة الموزعة بين

المرتفع المفاجئ، والمنحدرات المتماوجة بين الجبال. دروب إن مسها فصل الشتاء، تمنعت عن تمرير أحد حتى ذوبان الجليد.

ركزت لولا على حبيب لتتوقف عن شعورها بالغثيان الناجم عن حركة السيارة ومن تقلقلها بين الحين والآخر. كانت تدرك أنه من الحكمة مغادرة المدينة، حيث أن خطر العثور عليها محتوم، لكنها كانت مكرهة على الرحيل عن عائلة كمال. بالرغم من الحزن الذي يرفل في قلبها، والخوف الذي يلاحقها، إلا أن الأشهر الأربعة التي أمضتها في حضن هذه الأسرة الدافئ، أودعها سكينة لم تحيها من قبل.

كانت الشمس تغرب في عليائها، حين عبروا الدرب الضيق الأخير، حيث أطلت القرية عبر منحدراته كزهرة بسطت بتلاتها فوق وادٍ معلّق صغير. أحد المزارعين يعود بأبقاره من المراعي، اختلط صوت أذان الدعوة إلى صلاة المغرب، مع نسمات الغروب وأنين الماشية المتعبة. هنا، في عزلة الجبال، بدت الحرب ومآسيها بعيدة جداً.

أوقف شريف السيارة قرب بيت حجري منخفض. الجدران بيضاء، متموضعة بعضها بجوار بعض بدقة، كلغز أحجية مرتب بأسلوب معقد. أما النوافذ فعميقة، طويلة وضيقة العرض، مع مصاريع سميكة، يمكنها التشبث بجدران البيت في وجه العواصف الشتوية، مطلية بلون لازوردي. نما نبات العليق البري بغزارة حول المبنى. زوجان من الفراشات حلقا بكسل وسط أزهاره الزرقاء الداكنة. أما شجرة التوت القديمة فمدت أغصانها فوق فناء الدار. حجبتِ الشجرة، بمجرد توقف السيارة، وجوهاً صغيرة خلف أوراقها اللامعة، أكثر من ستة أطفال تنقلوا بين الأغصان المتشعبة كطيور مبتهجة.

تسرب الأطفال واحداً تلو الآخر من الشجرة، وتحلقوا حول شريف، الذي وزع بدوره الحلوى للجميع. بزغت فتاة من المنزل الريفي،أكبر قليلاً بالعمر، بوجه منقب كوجه ستيلا، حاولت إيقاف ضجيج الأطفال. صرخوا معترضين بحماس: «لكن العم شريف هنا» تمكنت لولا من ملاحظة ابتسامة أفشت بسرها، عينا الفتاة المتوهجتان من خلف الخمار.

«مرحباً، مرحبا بكم!» قالت مرحبة بالزوار. «لم يعد الأب من المسجد بعد، لكن أخي منيب في الداخل. من فضلكم، ادخلوا، البيت بيتكم». منيب، شاب متعلم يبلغ حوالي التاسعة عشرة، يجلس على مكتب، يحمل عدسة مكبرة بيد، وملاقط في اليد الأخرى، يدقق بعناية بعينة من حشرة ما. تومض الطاولة بأجزاء عديدة من الأجنحة.

استدار منيب عندما نادته أخته ممتعضاً، بدا جلياً أن الصوت شتت تركيزه العالي. لكن تعابيره تغيرت برؤية شريف: «سيدي المحترم!». كان شريف على علم بالشغف المتزايد لدى ابن صديقه، بالحشرات، لذلك قام بتأمين وظيفة لمنيب كمساعد في قسم التاريخ الطبيعي للمتحف خلال العطلات المدرسية.

«أنا سعيد لرؤيتك تواكب ما يستجد في دراستك، بالرغم من هذه الأوقات العصيبة»، قال شريف. ثم تابع: «أعلم أن والدك ما زال يأمل في إرسالك إلى الجامعة في يوم من الأيام».

«إن شاء الله». أجاب منيب.

جلس شريف على أريكة منخفضة تحت نافذة مقوسة، بينما قامت شقيقة منيب بمرافقة ستيلا ولولا إلى قاعة استقبال النساء، أما الأطفال الصغار فعملوا في عرض لا نهاية له، بنقل الصواني المحملة بالكؤوس المعبأة تارة بعصير العنب، المعصور من كروم العائلة، وتارة بالشاي - النادر هذه الأيام في المدينة - مرة تحتشد بالخيار الطازج المقطوف تواً من شتلاته، وأخرى مملوءة بالمعجنات المخبوزة يدوياً.

لم تكن لولا حاضرة، حين طلب شريف كمال من صديقه العزيز، والد منيب، خواجه القرية، أن يساعد في إخفاء الهاجادا. فاتتها الحماسة التي انسكبت على وجهه رافعاً برفق أدوات ابنه، حين نفد صبره محاولاً إضفاء مساحة على الطاولة، لوضع المخطوطة، لم تلحظ العجب في عينيه أثناء تقليبه للصفحات. غربت الشمس بالكامل، لكن الغرفة لا تزال تغرق في شفق أحمر دافئ. توقدت أجنحة حشرات منيب الصغيرة المتناثرة، تراقصت

أرجوانية لامعة مع ضوء النهار الأخير. طفل يحمل صينية الشاي دخل القاعة، حلق جزء من جناح فراشة مع النسيم الطفيف المتسلل من الباب المفتوح، رفرف وحطّ، من دون أن يلحظه أحد، على صفحة مفتوحة من الهاجادا.

أخذ شريف الهاجادا بصحبة الخواجة إلى مكتبة المسجد. وجدا لها مكاناً ضيقاً على رف عالٍ، ثم ضغطا عليها بين مجلدات الشريعة الإسلامية. المكان الأخير الذي يفكر أي شخص به للبحث عنها.

في وقت لاحق من تلك الليلة، قاد كمال عائلته مع لولا نزولاً من الجبل. توقفوا، قبل وصولهم إلى المدينة، قرب منزل فاخر تحيط به جدران عالية. التفت شريف نحو ستيلا. «قولي وداعاً الآن. لا يمكننا البقاء هنا لوقت طويل» عانقت ستيلا لولا. «وداعاً يا أختي». قالت ستيلا بنبرة حزينة: «ليحفظك الله بأمان، حتى نلتقي مرة أخرى». غصت لولا فعجزت عن النطق بحرف. قبلت رأس الطفل وسلمته إلى والدته.

تبعت شريف في الظلام.

حنا

فيينا، ربيع 1996

بارناسيوس.

اسم رائع لفراشة، من نوع فاخر. شعرتُ بالانتعاش بينما أتجول في الحدائق المشذبة المحيطة بالمتحف في الجهة المقابلة لحركة مرور سريعة في شارع رينغستراس. لم أعثر على أي فراشة مختبئة في كتاب من قبل أبداً. لا يمكنني الصبر انتظاراً حتى وصولي إلى مكانة إقامة فيرنر لأخبره بكل شيء.

إن منحة السفر التي جلبتني إلى فيينا بعد حصولي على درجة قيد المتخرجين من دراستي، تمكنني من السفر إلى أي مكان. القدس أو القاهرة؛ المدينتان الأكثر أهمية عادة. لكني كنت مصممة على متابعة الدراسة مع فيرنر ماريا هاينريش، أو عالم الجامعة -بالألمانية - هير الدكتور - هاينريش، كما طُلب مني مخاطبته. النمساويون بعكس الأستراليين في إصرارهم على منح لقب مستقل لكل درجة يحصلون عليها. سمعت عن خبرته في التقنيات التقليدية، كما أنه الأفضل في العالم من ناحية اكتشاف عمليات التزييف، نتيجة لحصيلته الوافرة من المعرفة، التي تتجاوز ما يحظى به أي شخص آخر عن الحرف اليدوية والمواد الأصلية. كان متخصصاً كذلك في المخطوطات العبرية، بما أثار فضولي لأتعرف على الجيل الذي ينتمي إليه هذا الألماني الكاثوليكي. عرضتُ نفسي للتدرب على يديه.

كان رده على رسالتي الأولى مهذباً ولكنه عاد بالرفض - «سرني

اهتمامكِ، لكن لسوء الحظ ليس في مكانه الملائم»، وما إلى ذلك. أما رسالتي الثانية فأسفرت عن رفضٍ أشد بعبارة أقل كلمات ومبالاة. أما رده الأخير على رسالتي الثالثة، فكان بكلمة واحدة تظهر نزقاً إلى حد ما بمعنى «فتاة أسترالية» أو بمعنى آخر: «لامجال لعين». مع هذا جئت إليه. مع كم هائل من الرجاء والثقة، قدمت نفسي في شقته في ماريا-تيريزيرِنشتراسيه بميونخ في ألمانيا، وتوسلت إليه أن يقبل بتدريبي.

مثل معظم الأستراليين المسافرين في رحلتهم الأولى إلى مكان شديد البرودة، في فصل الشتاء، لم أكن مستعدة لهذا الطقس الوحشي. اعتقدتُ أن جاكيت قصيرة مصنوعة من الجلد تعتبر معطفاً شتوياً، حيث إنها تفي بالغرض في سيدني. لم يكن لدي أدنى فكرة عن هيئتي المثيرة للشفقة، لما وقفتُ على عتبة بابه، مرتعشة، وقد تحولت رقاقات الثلج المتلاشية في شعري إلى رقائق جليدية تتناثر، كلما أومأتُ برأسي. لطفه الفطري أنقذني، فكان من المستحيل أن يطردني بعيداً.

أعتقد أن الأشهر التي قضيتها بين جرش الصبغات أو صقل المخطوطات في ورشته الكبيرة الواسعة، أو تلك التي جلست فيها بجواره في قسم الحفظ التابع لمكتبة الجامعة القريبة، علمتني أكثر من تحصيلي العلمي الرسمي الذي حصلتُ عليه مجتمعاً. صحيح أن الشهر الأول قاسٍ جداً: «الآنسة هيث» هذا و«هير دكتور»: ذلك صحيح، بارد نوعاً ما. لكن مع مضي الوقت معه، صرتُ بالنسبة له: «حنا ليشن».(48)

أعتقد أننا شغلنا كلانا مكاناً شاغراً في حياة الآخر. كنا، على حد سواء، العنصر المفقود في دائرة العائلة. لم أكن على دراية أبداً بأصول أجدادي. أما عائلته فقُتلت في قصف دريسدن(49).

48- ليشن: مصطلح يستخدم للإشارة إلى شخص عزيز محبب.

49- قصف دريسدن: قام الحلفاء (الأمريكيون والبريطانيون) بقصف مدينة دريسدن الألمانية. تشير التقديرات إلى مقتل ما لا يقل عن 25 - ألف شخص، من جراء قصف المدينة، بينما دمرت القذائف المدينة حتى بدت كأنها تعرضت لزلزال مدمر.

كان يومها في برلين بالطبع، متطوعاً في الجيش. رغم أنه لم يتحدث عن ذلك أبداً. كما أنه لم يذكر أي معلومة عن طفولته، التي اختصرتها الحرب، في دريسدن.

حتى في تلك الأيام، احتفظتُ بما يكفي من الدبلوماسية كي لا أضغط عليه. لكنني لاحظت كلما تجولت معه بالقرب من هوفبورغ، أنه يحاول، على الدوام، تغيير طريقه متفادياً المرور بهيلدينبلاتس [50]، أو ساحة البطل. بعد ذلك بفترة، سنحت لي الفرصة أن أعبر أمام صورة شهيرة لتلك الساحة، تم التقاطها في شهر مارس من عام 1938. يبدو الناس في الصورة، محتشدين بكثرة، بعضهم يتشبث بنصب الفروسية الضخم عساه يحظى برؤية أفضل، آخرون يهللون مع إعلان هتلر عن تأسيس أمته الجديدة لـ «الرايخ الثالث».[51]

غادرتُ فيرنر بقصد الانتساب إلى جامعة هارفارد من أجل الحصول على درجة الدكتوراه (حيث لم يكن من الممكن قبولي من دون تزكية منه) كان يكتب لي، في بعض الأحيان، ليخبرني عن مشاريع مثيرة للاهتمام كان منهمكاً بها، كما قدم لي بعض النصائح فيما يتعلق بعملي. كلما أتى في زيارة إلى نيويورك، كنتُ أستقل القطار من بوسطن لمقابلته. كان هذا منذ بضع سنوات مضت، لكنني لم أكن مهيأة لمقابلة شخصية هزيلة، تنتظرني في أعلى الدرج المكسو بالرخام المؤدي إلى شقته.

كان يتكئ على عصا من خشب الأبنوس ذات رأس مرصع بالمرمر. شعره فضي، بدا طويلاً نوعاً ما، مسرحاً للوراء بدءاً من نهاية جبهته. كان يرتدي سترة مخملية داكنة مع تشابك ليموني شاحب على تلابيبها. مع ربطة عنق تعود لموضة الأزياء في القرن التاسع عشر، وهي عبارة عن قطعة طويلة من الحرير المنقوش، قام بعقدها بشكل فضفاض تحت الياقة. برعم زهرة بيضاء صغيرة عُلق في عروة السترة. كنت على دراية،

50- هيلدينبلاتس: ساحة البطل - الساحة العامة في فينا، النمسا

51- الرايخ الثالث: الدولة النازية 1933-1945

بما يلفت نظر فيرنر بما يخص المظهر الخارجي، على وجه الخصوص. لذلك أوليتُ اهتماماً أكثر للتفاصيل، كما استغرقت وقتاً في التبرج، شاقاً أكثر من العادة مستخدمة أنواعاً فرنسية فاخرة، أما بالنسبة للثياب فقد اخترت ثوباً أرجوانياً، بدا منسجماً مع شعري الداكن.

«حنا، ليبشن!» كم أنتِ جميلة اليوم! يا للفتنة! «أكثر جمالاً من كل مرة أراك!». أمسك يدي وقبّلها، ثم نظر إلى الجلد المتشقق وتبعه بـ «أووه». «ثمن الحرفة التي اخترناها، إيه؟» قال. كانت يداه خشنتين كذلك، وقاسيتين، لكنني لاحظت أن أظافره مشذبة بدقة. بعكس أظافري التي لم تكن كذلك للأسف.

تقاعد فيرنر من الجامعة، في منتصف السبعين من عمره. لكنه لا يزال يخطُّ الأوراق النادرة. كما تتم استشارته في بعض الأحيان، بما يخص مخطوطات مهمة. منذ اللحظة التي دخلت فيها إلى الشقة، رأيتُ وتحسستُ وتشممت أنه لم يتوقف عن العمل بمواد المخطوطات العتيقة. لا تزال الطاولة الطويلة بجوار النوافذ القوطية الطويلة في مكانها. الطاولة حيث جلست بجانبه وتعلمت الكثير، لا تزال تعج بحجارة العقيق، والغالونات ذات الرائحة الكريهة، وأدوات طرق الذهب العتيقة، إضافة إلى الرقوق في جميع حالات التحضير.

لديه خادمة الآن، سارعت الفتاة إلى تقديم القهوة، حالما أدخلني إلى المكتبة - المكان المفضل لدي من الأمكنة جميعها في العالم، حيث يخفي كل مجلد قصة ما.

أعادني عبق الهيل الغني إلى حنا الطالبة الشابة، في عشرينات عمرها من جديد. يشرب فيرنر القهوة على الطريقة العربية، متأثراً بأستاذه في الجامعة العبرية في القدس، حيث عاش في الحي المسيحي في المدينة القديمة بين الفلسطينيين. رائحة الهيل لا تذكرني إلا به، بهذه الشقة، التي يستولي عليها ضوء أوروبي رمادي باهت. نورٌ ملائم لعيون تقضي ساعات طويلة متفحصة التفاصيل الدقيقة.

«هكذا إذاً. يا لروعة رؤيتك يا حنا. شكراً لوقت أمضيته في طريقك لملاطفة رجل عجوز».

«فيرنر، أنت تعرف أنني أحب أن أراك. لكني أتمنى هذه المرة، أن تتمكن من مساعدتي في مسألة أيضاً».

أشرقت ملامح وجهه. انحنى نحو الأمام في كرسيه الهزاز. «أخبريني!».

أحضرت ملاحظاتي معي، مشيرة إليها، أخبرته عن تفاصيل ما قمت به في سرايفو. هز رأسه، بالاستحسان: «تماماً كما كنت سأفعل بنفسي»، أعلمته، بعد ذلك عن جزء جناح بارناسيوس، الذي أثار اهتمامه، ثم سردت له عن الموجودات الأخرى - الشعر الأبيض، عينات البقع والملح، وصلت أخيراً إلى لغز الغلاف المحزز.

«أوافقكِ»، قال. «لا بد أنهم تقصدوا أخذ زوج من المشابك». نظر إلى وجهي، بعينيه الزرقاوين اللامعتين من خلف نظارته ذهبية الإطار. «إذاً، هما مفقودان؟ يا للإثارة! يا للغموض».

«هل تعتقد أن المتحف الوطني قام بأي فعل تجاه الهاجادا، أي إجراء منذ العام 1894؟ مضى وقت طويل منذ...».

«يا عزيزتي، ليس زمناً طويلاً جداً بالنسبة لفيينا. منذ العثور على الهاجادا المزدانة بالرسوم والزخارف. اثنان من أبرز العلماء المعاصرين جاءا إلى هنا لتفحصها. أنا متأكد أن المتحف لا يزال يحتفظ على الأقل بأوراق أبحاثهما. أعتقد أن أحدهما كان روتشيلد، قدِم من أكسفورد. نعم، صحيح، بل أنا واثقٌ من ذلك. الباحث الآخر هو مارتيل، أتى من السوربون، هل تجيدين اللغة الفرنسية، هل تفعلين؟ الملاحظات حول الغلاف، إن تم الاحتفاظ بها، فلا بد أنها مكتوبة باللغة الألمانية. من الملاحظ أن الغلاف لم يحظ بأي اهتمام. كما رأيت بنفسك، تم التعامل معه بأسلوب سيء».

«لماذا هذا التعامل المقيت، في حين شكل الكتاب محوراً لاهتمام كبير؟».

«أعتقد بسبب نشوء جدل، حول من يتوجب عليه حفظ الكتاب».

«فينا، بالطبع، من اختارت الاحتفاظ به. لم لا؟ فهي عاصمة الإمبراطورية النمساوية المجرية، مركز النشاط الفني في أوروبا... لكن تذكري أن هابسبورغ في ذلك الوقت، كانت تحتل البوسنة فحسب -حيث إنهم لم يضموها إلى الإمبراطورية حتى عام 1908 إلا أن القوميين السلافيين ما انفكوا يقاومون الاحتلال». ثم رفع إصبعاً ملتوية ولوح بها- إنها طريقته بالتعبير، إن كان لديه فكرة يعتقد أنها مثيرة للبوح.

«هل تعلمين أن الرجل الذي أشعل فتيل الحرب العالمية الأولى، ولد بالتزامن مع العام نفسه الذي وصلت فيه الهاجادا إلى هنا؟».

«أنت تقصد الطالب[52] الذي أطلق النار على وريث عرش[53] الإمبراطورية النمساوية المجرية المنحدر لآل هابسبورغ[54] في سراييفو؟» سطر فيرنر على وجهه، ابتسامة متعجرفة. كان يهوى إخبار الناس بمسائل لا يعرفونها. كنا نتشابه على حد سواء بهذه السمة.

«على أي حال، أعتقد أن خشية إثارة النزعة القومية، ربما لعبت دوراً في حفظ الكتاب في متحف لاندسميوزيوم البوسني».

52- ـ إن السبب المباشر لنشوب الحرب العالمية الأولى، حادثة اغتيال ولي عهد النمسا فرانس فرديناند مع زوجته على يد طالب صربي يدعى غافريلو برينسيب في 28 يونيو/ حزيران عام 1914 أثناء زيارتهما لسراييفو.

53- فرانس فرديناند (1863 - 1914) - وريث منذ مولده إلى مماته، كان مصرعه على يد الصربي غافريلو برينسيب هو ما أشعل فتيل الحرب العالمية الأولى عندما أعلنت الأمبراطورية النمساوية-المجرية الحرب على مملكة صربيا، وبهذا تخندق حلفاء الطرفين وبدأت الحرب.

54- آل هابسبورغ: يشار إليهم أحياناً باسم آل النمسا، إنهم إحدى أهم العائلات المالكة في أوروبا التي تشتهر بكونها أصل الأباطرة المنتخبين رسمياً لحكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة بين 1438 - 1740، وكذلك حكام الامبراطوريات النمساوية والأسبانية والعديد من البلدان الأخرى.

«أخمن أن هذا التجليد غير المتقن ليس سوى انتقام فيني، وهو أسلوب يفضي إلى نوع من الغطرسة: إن كان من المحتم حفظ المخطوطة في المقاطعات، فغلاف رخيصٌ كهذا سيعتبر جيداً بما فيه الكفاية. إنها النقمة على المخطوطة، كضحية منفية»، انخفض صوته قليلاً، ثم نقر بأصابعه على ذراع الكرسي المقصب. «لا أعرف إن كنتِ على دراية بالأمر، لكن تلك السنوات الأخيرة، شهدت تزايداً كبيراً في معاداة السامية هنا. كل ما قاله هتلر مضافاً إلى ما مارسه ضد اليهود، تم التدرب عليه هنا. حتى الهواء الذي تنفسه كما تعلمين، ذو منشأ نمساوي. كان يبلغ دعيني أرى، حوالي خمس سنوات من العمر، في روضة أطفالٍ آنذاك في مدينة برونو[55]، عندما كانت الهاجادا هنا. يا لغرابة التفكير في مثل هذه الأشياء...» تلاشى صوته. يبدو أننا بدأنا بالاقتراب من نقاشات محرمة. نظر إلى وجهي وبدأ بالحديث مرة أخرى، فكرت بداية أنه يحاول تغيير الموضوع.

«قولي لي، حنا، هل قرأت شنتزلر[56]؟».

«لا؟». «يجب عليك أن تفعلي! لا يمكنك فهم أي شيء عن الفينيين، حتى في هذه الأيام، من دون آرثر شنيتزلر».

تلمس عكازه ووقف متكئاً بصعوبة عليه، سار ببطء وحذر نحو خزائن الكتب. أدار إصبعه على طول أعمدة المجلدات التي كانت جميعها بإصدارات أولى أو نادرة تقريباً. «لدي الطبعة الألمانية فقط، وما زلت

55- براوناو آم إن، وتعرف اختصاراً بيرونو. مدينة نمساوية صغيرة تقع في إقليم النمسا العليا على الحدود مع جمهورية ألمانيا الفدرالية، استمدت هذه المدينة شهرتها من كونها مسقط رأس الزعيم الألماني النمساوي الأصل أدولف هتلر.

56- أرثر شنتزلر: روائي وكاتب قصة قصيرة وكاتب مسرحي نمساوي، ولد عام 1862 في فينا، ومات 1931 في المدينة نفسها. كتب أعماله باللغة الألمانية. كان شنتزلر ممثلاً للأدباء التأثيريين في فيينا، وانتقد المجتمع البورجوازي الفاسد في نهاية القرن التاسع عشر، كما انتقد مفهوم هذا المجتمع عن الشرف وأخلاقيات الجنس. يعتبر شنتزلر من أهم المسرحيين قبل الحرب العالمية الأولى.

لا تجيدين الألمانية، أليس كذلك؟» «لا؟». «مؤسف حقاً». روائي ذو أسلوب مشوق جداً، يدعى شنتزلر- كاتبٌ - اغفري لي - إغرائي. وهو ذو أسلوب جريء جداً، فيما يخص الأخلاقيات الجنسية. لكنه مع هذا، لم يغفل التركيز على فكرة «Judenfressers»- التي تترجم من الألمانية: «آكلي اليهود»، كان لا يزال فتياً حينها، ولم يكن قد نضج مصطلح «معاداة السامية» بعد. لا بد أن أخبرك أن شنيتزلر يهودي بالطبع».

استل كتاباً من الرف - «هذا شبابي في فينا. إنها طبعة جذابة جداً - نسخة جمعية، بين شنيتزلر وسيده اللاتيني، يوهان أوير، مع الامتنان لأوريزمز. هل تعلمين، وجدت الطبعة في معرض لبيع الكتب في كنيسة في سالزبورغ؟ مع ملاحظة عدم التعرض له من قبل أحد...». قلب بالكتاب حتى وجد المقطع الذي يسعى إليه.

«هنا، يعتذر عن كتابة الكثير عما... - يسمى بالمسألة اليهودية- لكنه يقول إنه لم يُسمح لأي يهودي، بغض النظر عن مدى قدرته على الاستيعاب، أن ينسى حقيقة أصله». ترجم بصوت عال.

وضع نظارته وتابع القراءة بنبرة مرتفعة، مترجماً. «حتى لو نجحتَ في التصرف بحذق، فلا تظهر من يهوديتك شيئاً، لأنه من المستحيل النجاة من عدم المساس بك تماماً؛ على سبيل المثال، لا يداوم الشخص على تجاهل قامته الخاضعة للجلد، مع هذا يجب عليه أن يراقب، بعينين مفتوحتين، كيف يتم خدشه بسكين نجس، أو جرحه حتى تدفق الدم». أغلق فيرنر الكتاب. «كتبَ ذلك في أوائل القرن العشرين. الصور تقشعر لها الأبدان، أليس كذلك؟ في ضوء ما أعقب ذلك...».

أعاد الكتاب إلى الرف، استل منديلاً أبيض مطوياً من جيبه ومسح جبينه. ثم جلس بتثاقل في كرسيه. «لذا من الممكن أن يكون الغلاف قد حظي بأقل اهتمام ممكن. حيث إنه ينتمي لليهود على حد تعبير شنيتزلر».

رشف آخر قطرة من قهوة فنجانه. «ربما لم يحدث أي من هذه

الأشياء. لكن من الواضح أن الغلاف المتهلهل لم يكن موضع تقدير قط، الغلاف الذي كان الأكثر ملاءمة ليخبرنا الكثير الكثير. والذي فقدنا بإهماله وتجريده المزيد من المعلومات القيمة. في كل مرة أضطر إلى التعامل مع مثل هذا المجلد، يوجعني التفكير في الأمر. على الأرجح، إن كان الكتاب قد وصل إلى فيينا بمشابك من نوع ما على الغلاف القديم، لكان هذا هو الأصل... لكن لا يمكن التأكد من ذلك...».

قضمتُ قطعة صغيرة من كعكة تسمى «موجات الدانوب»[57]، الحلوى المفضلة لدى فيرنر. أزال بقايا الفتات عن سترته، ثم ذهب نحو الهاتف ليجري اتصالاً مع المتحف. بعد محادثة حيوية باللغة الألمانية، وضع السماعة واتجه صوبي: «يمكن للمديرة الإدارية أن تقابلك غداً. أخبرتني أن الأوراق العائدة إلى تلك الحقبة محفوظة في مستودع على بعد مسافة من المتحف. ستقوم بطلب إرسالها لها، عند ظهر الغد. متى يتوجب عليكِ التواجد في بوسطن؟».

«يمكنني البقاء ليوم أو يومين». قلت.

«حسناً! أرجو أن تتصلي بي، وأخبريني إن وجدتِ شيئاً؟».

«نعم، بالطبع»، قلت. نهضتُ. استندت إلى الباب، انحنى قليلاً فبدا أقصر مني، قبّلتُ خده الرقيق كورقة.

«فيرنر، اعذرني على سؤالي، لكن، هل أنت بخير؟».

«ليبشن، بلغتُ السادسة والسبعين. القليلون جداً منا في هذا العمر بخير، لكنني ما زلت أحاول أن أكون».

وقف عند المدخل بينما كنت أهبط الدرج. التفتُّ نحو المدخل المزخرف، نظرتُ إلى الأعلى، أرسلتُ له قبلة، متسائلة إن كنتُ سأراه مرة أخرى.

57- موجات الدانوب: كعكة تقليدية شعبية في ألمانيا والنمسا. مصنوعة من طبقات من كعكة الجبن والكرز الحامض مجتمعة لتكون لها حدود متموجة بينهما. يأتي اسم الكعكة من نمطها المتعرج الداخلي وزخارفها المزيّنة بالشوكولاتة.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، جلستُ على زاوية سريري الضيق في فندق بالقرب من كنيسة القديس بطرس، وضعتُ جهاز الهاتف على ركبتي. كنت أريد بشدة أن أخبر أوزرين عن فراشة البارناسيوس. لكن أثناء سحب دفتر ملاحظاتي من حقيبة المستندات الخاصة بي، سقط الظرف المحتوي على صور الأشعة الخاصة بدماغ إليا. شعرت فجأة بالذنب إزاء الاستهانة بإرادة أوزرين ومعاناته الخاصة. لا بد أنه على الأرجح سيصاب بنوبة غضب ثانية إن اكتشف ما قمت به. كان على حق؛ الأمر ليس من شأني اللعين على الإطلاق. بقدر ما رغبت بالتحدث معه عن جناح الفراشة، إلا أن تضليلي له يجثم فوق صدري. أخيراً مر الوقت المتوقع لتواجده في المتحف، رفعت السماعة، جاءني صوته. لا يزال يعمل في وقت متأخر. أفشيتُ من غير تفكير عن الأخبار حول الكتاب، تمكنتُ من سماع نبرة البهجة في صوته.

«سؤال يدور في رؤوسنا على الدوام، أين كانت الهاجادا طوال الحرب العالمية الثانية؟».

«كنا نعلم أن القيّم على المتحف قد حماها بطريقة ما من النازيين، لكن تم تداول قصص مختلفة عن ماهية حمايتها: أشارت إلى إخفائها داخل المكتبة بين بعض الوثائق التركية، وأنه أخذها إلى قرية في الجبال وأخفاها في أحد المساجد. يبدو جناحكِ دليلاً على تواجد الهاجادا في الجبال. يمكنني أن أسافر نحو المرتفعات، وأنظر فيما لو كان بإمكاني الوصول إلى قرية صغيرة، ثم أبحث عن أي خيوط تقود إلى معرفة الحكاية كاملة. من المثير جداً أن نعرف الشخص الذي يتوجب شكره على استضافته للهاجادا أثناء الحرب. من المحزن للغاية حين لم يقم أحد، في أي وقت مضى، بالاستفسار منه حين كان على قيد الحياة. لا بد أنه عانى كثيراً بعد انتهاء الحرب. خاصة بعد أن اتهمه الشيوعيون بتعاونه مع النازيين».

«لكنه أنقذ الهاجادا. كيف له أن يكون متعاوناً؟».

«ليس الهاجادا فقط. لقد أنقذ اليهود أيضاً. لكن تهمة التعامل مع النازين كانت وسيلة ناجعة للشيوعيين للتخلص من أي شخص متميز فكرياً،

متعصب دينياً، أو صريح جداً. كانت لديه السمات الثلاث جميعها. ناضل ضدهم كثيراً، لا سيما عندما أرادوا هدم المدينة القديمة. كانوا يخططون لتجديد مدنهم الرهيبة، جاهد لفترة في إيقاف هذا الجنون، لكن كلفه ذلك ست سنوات في الحبس الانفرادي - في ظروف سيئة للغاية. بعد ذلك عفوا عنه. تلك هي الحال في ذاك الوقت. ثم عاد ليلتحق بوظيفته القديمة في المتحف. لكن على الأرجح ساهم الوقت الذي أمضاه في السجن في إضعاف صحته. توفي في الستينيات، بعد إصابته بمرض عضال».

مررت أصابع يدي بشعري، أخرجت الدبابيس التي رفعته بها. «ست سنوات في الانفرادي. لا أعرف كيف يواجه أي شخص هذه المعضلة». صمت أوزرين للحظة وقال «أنا أيضاً، لا أعلم حقا».

«ما أعنيه، الأمر مختلف في حالته، لو كان جندياً أو حتى ناشطاً سياسياً... أي شخص من هذا القبيل أتعتقد معي، حسناً، سيكون على علم بالمخاطر التي تواجهه. لكنه مجرد أمين مكتبة...».

حالما قلت ذلك، شعرت وكأنني ارتكبت حماقة جديدة. أوزرين في النهاية ليس سوى أمينٍ للمكتبة لكن هذا لم يمنعه من التحلي بالشجاعة، عندما اضطر إلى ذلك.

«أعني».

«أنا أعرف ما تعنين، حنا. حسناً، أخبريني: ما هي خططك؟».

«سأقوم غداً بتفحص أرشيف المتحف الوطني. لأتحقق عن توفر أي معلومة تخص المشابك. ثم سأمضي بضعة أيام في بوسطن، يمكنني هناك إجراء بعض الاختبارات على البقع في مختبر أحد الأصدقاء».

«حسناً. أرجو إعلامي بما تتوصلين إليه».

«سأفعل... أوزرين»... «هممم؟» «كيف حال إليا؟».

«لقد انتهينا تقريباً من آخر صفحات ويني ذا بو. اعتقدت أنني سأقرأ له بعدها بعض القصص الخيالية البوسنية».

كنت آمل أن يسهم خط الهاتف في حجب النبرة الغريبة التي انتقل بها صوتي حين غمغمتُ بالرد.

خالفتْ فراو زويك، أمينة الأرشيف في المتحف التاريخي لمدينة فيينا، جميع توقعاتي المتعلقة بشخصيتها. إنها فتاة في أواخر العشرينات من عمرها، ترتدي حذاء أسود ذا كعب عالٍ، وتنورة منقوشة يعلوها قميص أزرق مكهرب، ضيق ينحت خصراً فاتناً للغاية. أما شعرها الداكن فتمايل بخصلات قصيرة، متخايلاً بين اللونين الأحمر والأصفر. حلقة فضّية تعلقت في جانب أنفها الأفطس.

«أنتِ صديقة فيرنر؟»، قالت، صدمتني أكثر فأكثر، من كونها الوحيدة في فيينا التي سمعتها تناديه باسمه الأول. «إنه في رحلة، أليس كذلك؟ أعشقه، مع بدلاته المخملية جميعها، مع كل ما يمثله من القرن الماضي... أعشقه ببساطة». قادتني إلى أسفل الدرج الخلفي من المتحف، إلى حجرة الطابق السفلي. تردد صدى تك تك من حذائها العالي الكعب على الأرضية الحجرية. «أعتذر لإحضارك لمثل هذا المكان المحتشد بالنفاية »، قالت، ثم فتحت الباب أمام غرفة التخزين التي اكتظت رفوفها المعدنية العملية بالمكونات المألوفة لمساحات العرض - بأجزاء من أطر قديمة وألواح تثبيت، حافظات العرض المفككة، وجرار من المواد الحافظة... «من الواجب الترحيب بك في مكتبي، لكني عملياً في حالة اجتماع هناك طوال اليوم - أستقبل مراجعات الموظفين، كما تعلمين».

«ياااا للملل...»، طافت بعينيها كمراهقة تتذمر من التوجيهات الأبوية. «تمتص طاقتي هذه البيروقراطية النمساوية، هل تعلمين؟ تدربت في مدينة نيويورك. من الصعب علي العودة إلى هذه الإجراءات الشكلية».

جعدت أنفها الصغير. «أرغب بالانتقال إلى أستراليا. أتدرين، الجميع في نيويورك يعتقدون أنني أسترالية الأصل. كلما حاولت التصحيح: من النمسا، يسارعون للقول: «أوه! يا للكنغر اللطيف! فأصمت غير نافية اعتقادهم. أنتم يا رفاق تتمتعون بسمعة أفضل منا. الجميع يفكر أن الأستراليين يعشقون

التسلية والضحك. بينما النمساويون ممثلون للعالم القديم، فهم متجهمو الوجه على الدوام. هل تعتقدين أنه من الأفضل لو أنتقل للعيش هناك؟». لم أرغب في التسبب بخيبة أملها، فلم أجبها. حيث إنني لم ألتق أي شخص في أستراليا يشغل منصب كبير المؤرشفين بمثل هذه الحيوية والمرح.

صندوق أرشيفي موضوع على طاولة العمل في مركز الغرفة. تولت فراو زوينغ فك الختم عنه بآلة حادة... «حظاً موفقاً»، قالت. «أخبريني إن احتجت أي شيء. قبلة كبيرة مني لفيرنر». أغلقت الباب، كان بإمكاني سماع طقطقة حذائها، العالي الكعب، تنحسر في الممر.

هناك ثلاثة مجلدات في الصندوق. أشك أن أحداً قد رمقها خلال مئة عام. جميعها مختومة بختم المتحف المختصر بالأحرف K.u.K، الممثلة للكلمات الألمانية:

Kaiserlich und Königlich– أو الإمبراطوري والملكي. يحمل آل هابسبورغ لقب «الإمبراطور» في النمسا و«الملك» في المجر.

نفختُ الغبار عن المجلد الأول. كان يحتوي على وثيقتين فقط، كلتاهما باللغة البوسنية. أستطيع الجزم أن إحداهما نسخة من فاتورة بيع للمتحف من عائلة تدعى كوهين. أما الثانية فهي رسالة مكتوبة بخط يدوي جميل. مرفقة، لحسن الحظ، بترجمات عديدة لها. أعتقد أنها أعدت للزائرين من العلماء. تفحصت النسخة الإنكليزية.

قدم كاتب الرسالة نفسه كمدرس - من هنا جاء الخط اليدوي الدقيق. إنه، كما أشار، مدرس للغة العبرية في مالدار في سرايفو. أضاف المترجم ملاحظة مفادها أن مالدار هو اسم المدارس الابتدائية التي يديرها اليهود السفارديم.[58]

58- اليهود السفارديم: تعود أصولهم الأولى إلى يهود أيبيريا الذين طردوا منها في القرن الخامس عشر، ثم تفرقوا في شمال أفريقيا وآسيا الصغرى والشام، كثير منهم كانوا من رعايا الدولة العثمانية في المناطق التي تخضع لسيطرتها، لغتهم الخاصة كانت اللادينو. وهي مزيج من اللغة اللاتينية تحوي كلمات عبرية.

«جلب، ابن عائلة كوهين، تلميذي، الهاجادا لي. أرادت العائلة الثكلى حديثاً بفقدان معيلها، التخفيف من ضغوطها المالية، عبر كسب مبلغ ما حصيلة بيع الكتاب... استشارني في تقييم المخطوطة ليكونوا على بينة من سعرها. رأيت عشرات الهاجادا في حياتي، بعضها كان قديماً جداً، لكني لم أر قط منمنمات مُضاءة من هذا النوع... عند زيارة العائلة لمعرفة المزيد، وجدت أنهم يفتقدون أي معلومات تتعلق بالهاجادا، عدا الحقيقة الثابتة أنها محفوظة في بيت عائلة كوهين منذ «سنوات عديدة». أوضحت الأرملة أن زوجها أشار إلى أن الكتاب استخدم عندما قام جده بتحضير السيدر، الجد الذي أتى بها إلى سراييفو في وقت مبكر من منتصف القرن الثامن عشر... هذا ما قالته، لكني كنتُ على يقين أن جد كوهين المذكور، كان قائد جوقة الترتيل، بعد أن تدرب في إيطاليا...».

جلستُ في الكرسي... إيطاليا. الخط المنقوش - فيستوريني - النسخة المنقحة - الهاجادا في البندقية عام 1609. بما أن جد كوهين تدرب في البندقية، حيث المجتمع اليهودي هناك أكبر وأكثر ازدهاراً من مجتمع اليهود البوسنيين، ويتميز بالتراث الموسيقي الغني... ربما يكون قد حصل على الكتاب من هناك؟

تخيلت كيف تجمعت العائلة، مع بطريركها العالمي المثقف، حول طاولة السيدر. طفل، يكبر ويصير رجلاً ليدفن والده وفق طقوس ملائمة، ثم يأخذ مكانه على رأس الطاولة. الموت نفسه اقتنصه، فجأة، مغادراً عائلته الغارقة في ظروف بائسة. شعرت بالحزن على الأرملة، التي تكافح من أجل إطعام أطفالها، وتحمل مسؤوليتهم وحدها. وأصبتُ بغم أكبر، على الأطفال الذين لا بد أنهم لقوا حتفهم جميعاً، حيث لم يتبق يهودي واحد ينتسب لعائلة كوهين في سراييفو بعد الحرب العالمية الثانية. كتبتُ ملاحظة بضرورة النظر في التبادلات بين المجتمعات اليهودية في البحر الأدرياتيكي في عقد 1700. ربما هناك مدرسة يهودية

إيطالية خاصة، ذهب إليها موسيقيون بوسنيون للدراسة. سيكون أمراً عظيماً أن نخلق تخمينا دقيقاً عن كيفية وصول الهاجادا إلى سرايفو.

لكن لا معلومة هنا متعلقة بالمشابك، قمت بوضع هذا المجلد جانباً، ثم تناولتُ المجلد الثاني. لسوء الحظ فإن الكتابة اليدوية التي خطها هيرمان روتشيلد، المختص بالمخطوطات القديمة في الشرق الأدنى في مكتبة بودليان، في أكسفورد- كانت غير مقروءة بشكل واضح كحال ما خطه المعلم العبري. كان تقريره، موزعاً في عشر صفحات من الواضح أنها مدونة على عجالة على نحو مفرط. ربما كانت خربشة باللغة البوسنية، من الصعب علي فكّها. لكن سرعان ما اكتشفت أنه لم يتعامل مع المشابك على الإطلاق. انبهر من المنمنمات المضاءة البديعة للمخطوطة لدرجة أن تقريره بأكمله جاء بأكثر من أطروحة عن تاريخ الفن، إنه تقييم جمالي للمنمنمات في سياق الفن المسيحي في العصور الوسطى. قرأت من خلال صفحاته، معلومات ضليعة، استخلصها بأسلوب جذاب. قمت بنسخ بضعة أسطر للإشارة إليها في مقالتي الخاصة. لكن لم يكن أي منها مرتبطاً بمسألة المشابك. وضعتُ الصفحات جانباً، فركتُ عيني. مع أمل أن يكون زميله الفرنسي تبنى وجهة نظر أوسع.

كان تقرير السيد مارتيل متناقضاً تماماً مع تقرير نظيره البريطاني. بدا على هيئة ملاحظات، مقتضبة جداً، وتقنية بالكامل. غلبني التثاؤب طيلة فترة تصفح التعداد المعتاد الممل لرزمة الورق، حتى وصلت إلى الصفحة الأخيرة. ثم توقفت فجأة عن الشعور بالنعاس. وصف مارتيل بمفاهيم تكنولوجية، الغلاف المهترئ الملطخ، الملوث التالف كطفل بثياب بالية. أشار إلى أن خيوط الكتان إما مفقودة أو متهالكة، بحيث إن معظم الرزمة لم تعد معلقة بالغلاف على الإطلاق. يا للدهشة والحظ الجيد، وفقاً لما وصفه، أن الصفحات لم تتعرض للضياع.

جمل قصيرة عديدة قام بشطبها. دنوتُ بضوء المكتب إلى أسفل عساي أتمكن من قراءة ما لدى م. مارتيل من أفكار غير رأيه بتوثيقها

حول المخطوطة. لكن لا نتيجة، قلبتُ الورقة. من المؤكد أن قوة يده تسبب بدمغة واضحة للكلمات بشكل جزئي بتأثير الشطب. حيرتني، لعدة دقائق، الحروف التي تمكنتُ من فك شيفرتها. من الصعوبة قراءة جملة غير مكتملة باللغة الفرنسية عكسياً. تمكنتُ في النهاية من الوصول إلى العبارة. أدركت لماذا تم شطبها.

«زوج غير فعال، من الفضة المؤكسدة. كلّاب مزدوج وثقب، مستهلك ميكانيكياً. بعد تنقية عنصر التنجستن الكيميائي[59]، وتمديد بيكربونات الصوديوم NaHCO3، تكشف فكرة زهرة منطوية على جناح. النقش = زخرفة + نقش بارز. لا دمغة».

استخدم م. مارتيل، هنا في هذا المتحف العريق عام 1894، قطعة قماش ناعمة وفرشاة صغيرة للمسح فوق القطع المعدنية القديمة السوداء، للمساهمة في تلميع الفضة من جديد في الضوء. للحظة واحدة فقط، خسر مارتن هدوءه واتزانه، انفجر غاضباً، ثم كتب: «المشابك»... «جميلة بصورة ملحوظة».

59- التنجستن عنصر كيميائي يرمز له باللاتينية بالرمز W، وتعني كلمة تنجستن الحجر الثقيل، اكتشفه الكيميائي السويدي كارل فلهلم شيله في عام 1871، عنصر مهم جداً، يستخدم في صناعة الأسلاك المتوهجة في المصابيح الكهربائية.

الريش والوردة

فيينا، 1894

فيينا... مختبر نهاية العالم.

• كارل كراوس

«جميلتي عاملة المقسم في غلوجنتز؟ هلا منحتني الشرف أن أتمنى لكِ أمسية طيبة؟ أنا على ثقة بأن يومك سار على ما يرام حتى الآن. معك على الهاتف فريق هير الدكتور فرانز هيرشفيلدت، الذي يقدم تحياته ويود أن يقبل يدك بامتنان، محاباة القيام بهذا الاتصال».

«فترة ظهيرة طيبة لك، يا حلوة فيينا. أشكركِ على تمنياتك الطيبة، أرجو أن تقبلي ردي من التحيات الصادقة. يسعدني الرد على اطمئنانكِ الكريم بالإشارة إلى أن يومي كان لطيفاً للغاية، وآمل أنك تستمتعين أنت وفريقك بالطقس الصيفي الباعث على السرور ذاته. بصفتي الممثلة المتواضعة لفريقي، هل لي أن أجرؤ على القول إن صاحب السعادة البارون يتطلع إلى فرصة إرسال أمنياته الطيبة و...».

أبعد فرانز هيرشفيلدت سماعة الهاتف عن أذنه، نقر بقلم الرصاص على مكتبه. لا يملك أي صبر لتحمل هذا الكم من المجاملات المُهدرة للوقت. أما الكلمات التي تعبر عقله تلك اللحظة فليستْ مهذبة بأي حال من الأحوال. كان يتوق إلى قطع الاتصال، ليجبر النساء أن يصمتن وينهينَ

الاتصال الملعون. ضرب بقلم الرصاص بقوة حافة النيكل في المكتب فتسبب بتطاير أجزاء منه، عبرت أدواتِ الفحص، وهبطت فوق ملاءة السرير البيضاء. ألا تعلم هؤلاء النسوة أن هناك مهلة لا تتجاوز مدتها عشر دقائق، فقط، لإنهاء مكالمة خارج المدينة؟ يبدو الأمر، بالنسبة لهيرشفيلدت، في بعض الأحيان، كما لو أن المخصصات المالية للاتصالات، تُهدر بأكملها قبل الانتهاء من الوصول إلى المتصل على الخط. لكنه في آخر اتصال أوجز مع عاملة المقسم، فأنهت المكالمة بسرعة، ليحصل على راحة باله.

يا للإزعاج المتكرر كل مرة، المسألة مشابهة لعملية دعك ياقة القميص أثناء الغسيل بالرغم من التعليمات الصريحة بعدم فعل ذلك. الكثير من مثل هذه المضايقات تعم المدينة، بدءاً من التزلف الممل، إلى موضة ربطات العنق الهادفة لخنق الياقات، أمور تستفزه، إزعاجات تبقيه في حالة سخط دائم.

هيرشفيلدت؛ رجلٌ يبلغ من العمر ستة وثلاثين عاماً، أب لطفلين جذابين، متزوج من امرأة لا يزال معجباً بها، عاشق هادئ، يستمتع بعلاقات متعددة مع سلسلة من العشيقات السريات. كان ناجحاً مهنياً، لدرجة الثراء. فوق كل هذا، يعيش في فيينا، التي بلا شك تعد واحدة من أعظم مدن العالم.

رفع نظراته عن المنضدة متنقلاً بها لما وراء إفريز الشباك. حيث تابعت عاملة المقسم التزلف ملقية مجاملاتها على طول أسلاك التلغراف. لا بد أن المدينة واثقة جداً كي تعمل على تفكيك جدران القلعة العائدة بتاريخها إلى القرون الوسطى، واستبدالها بالالتفاف الجديد المفعم بالحيوية للشارع الدائري[60]. فيينا البراغماتية بما فيه الكفاية لاحتضان الحداثة التي غبّرت الأفق بسديم الازدهار.

60- الشارع الدائري أو رينجستراس: يشكل سواراً حول مركز المدينة التاريخية القديمة، أما الآن فهو جزء من التراث العالمي لليونسكو، يبلغ طوله قرابة 5.3 كم. يعد واحداً من المعالم السياحية الرئيسية في العاصمة النمساوية.

هنا مدينته، تتجلى بكامل جاذبيتها، عاصمة الإمبراطورية الممتدة من جبال الألب التيرولية، عبر الجبل البوهيمي والسهل الهنغاري العظيم، إلى الساحل الدلماسي والأراضي الذهبية الواسعة لأوكرانيا؛ إنها المركز الثقافي المميز الذي جذب من العقول أذكاها ومن الفنانين أكثرهم إبداعاً.

اصطحبته زوجته آنا، في الليلة الماضية، لسماع آخر إصدارات مالر[61] الموسيقية، الرجل الذي مزج موسيقاه بتركيبة غريبة جداً، - مالر غير البوهيمي أو المنتمي لهذا النوع من الأشخاص- ثم ترافق الرجل وزوجته إلى معرض اللوحات الفنية لكليمنت[62] التي لا يمكن بأي حال من الأحوال النظر للوحاته ورسوماته إلا برؤية مختلفة وحس متمايز. المدعو بالحرية الفنية، أو ما كان يفترضه كليمنت لقباً لما يرسمه، لكن الرجل، في الواقع، لديه تصور غريب جداً عن الجسد الأنثوي.

لم تكن الحارات بعيدة عن توقد الإثارة في فينا. على العكس تماماً، فإن المدينة تنبض بالطاقات المهتاجة خاصة بعد اختراعها العظيم، لقالب الفالس الإيقاعي الذي تحوّل فيما بعد إلى رقصة معروفة.

مع ذلك، فإن قروناً سبعة من الملكية في هابسبورغ، ساهمت بإضفاء حلة فائضة من العظمة على العاصمة الإمبريالية، دفنتها تحت دوامات من الجص، أغرقتها في عباب القشدة السميكة، أرهقتها بزخارف الذهب المجدول (حتى عمال النظافة يقرؤون الكُتُب!)، جرفهم هذا التدفق - لا - بل لنقُل هذا الطوفان، المكتظ بالمجاملات الدبلوماسية المداهنة...

61- غوستاف مالر (1860 - 1911) مؤلف موسيقي وقائد أوركسترالي نمساوي. يعتبر من أهم المؤلفين الرومانسيين المتأخرين. ألّف العديد من الأغاني بالإضافة إلى عشر سيمفونيات يمكن أن تصنف ضمن تيار الأعمال الشاعرية التي تلت الحركة الرومانسية.

62- غوستاف كليمنت (1862 - 1918) أحد أبرز فناني حركة الانفصال الفنية في فينا على الإطلاق. أعماله الرئيسية من اللوحات والرسومات الجدارية والتحف الفنية، موجود أغلبها في معرض في فينا.

«... إن كان لا يزال بإمكان هير دكتور هيرشفيلدت التواصل عبر الهاتف، فإن سعادة البارون سيكون مسروراً للغاية...».

حسناً، سيكون سعيداً، فكر هيرشفيلدت. إن عاملة المقسم على حق في ذلك. فالبارون سيكون مسروراً جداً. مبتهجاً لسماع أن الأمر لا يتعدى كونه دمّلاً نبتَ في مكان غير ملائم على الإطلاق، وليست قرحة مستعرة بتأثير مرض الزهري. لا حاجة للجرعة شبه السامة من الزئبق أو لمعالجة ارتفاع الحرارة عبر زيارة جناح الملاريا، بما يكفي لاقتناص عدوى أشد وطأة. من المستحسن ألا يقوم البارون بأي اعترافات حمقاء للبارونة عن الذنب الذي قام به، لذا نصحه الطبيب بأخذ عضوه الباكي بعيداً، ليقيم وحده، في نزله الجبلي، حتى تتاح لهيرشفيلدت الفرصة لفحص عشيقته.

اتضح أن عشيقة البارون ما هي إلا فتاة ساذجة، عودها الصغير سليم، أما قصتها فترتكز على براعة ودهاء هيرشفيلدت في استجوابها. غادرت للتو غرفة الفحص، بعد أن تقرحت عيناها فبدتا كزهرة قرنفل حمراء من البكاء. غيض من الدموع، حاضر دائماً في أعين أولئك المصابين باليأس، المفتقدين الأمل. إلا هذه الفتاة بكت من فيض الإذلال. ما زالت الورقة موجودة على طاولة الفحص تحمل تصوير جسدها النحيل. بدت شاحبة كورقة خريف، ارتجفت، عندما طلب هيرشفيلدت منها فتح فخذيها. ليست بمومس وقحة، هذه الفتاة. شعر هيرشفيلدت بخجلها فتعامل معها بحساسية. حين يتجول المرء، في بعض الأحيان، في تفاصيل حياة المريض الحميمة، عليه أن يمارس الفتوة للوصول إلى الحقيقة. لكن ليس مع هذا المخلوق الحساس، المستعد إلى حد كبير لإعادة سرد التاريخ القصير الذي أوقعها في شرك الإغراء. البداية كانت مع أديبٍ معروف، كان بدوره مريضاً لدى الدكتور هيرشفيلدت، المشهود له كرجل محترم وحريص على سلامته الجسدية. لم تشهد علاقته وقتاً طويلاً بالفتاة، حتى أثار انتباه البارون إليها.

حرص هيرشفيلدت على تدوين عنوانها في مذكراته الخاصة. ربما، بعد فترة مناسبة، حين تغيب المساءلة حول خرق العلاقة بين الطبيب والمريض، قد يحظى بلقاء حميم بها. يمكن للمرء، في هذه المدينة، أن يفعل ما هو أسوأ بكثير.

هزت قرقرة البارون، في نهاية المطاف، وصوته المخادع الجهوري سلك الهاتف، فحلت محل هذر عاملة المقسم. غير أن هيرشفيلدت راقب كلامه جيداً حيث إن عاملة المقسم متنصتة سيئة السمعة.

«يوم جيد، حضرة البارون، أردت فقط أن أخبرك أنه في أقرب فرصة ممكنة، سنحاول تمييز النبتة، وتحديد ماهيتها بالضبط. على الأرجح أنها ليست من نوع الحشائش الضارة التي كنت قلقاً بشأنها».

سُمع في الطرف الآخر من الخط، زفير البارون.

«هيرشفيلدت، شكراً لك. شكراً لك على إخباري بذلك بهذه السرعة. أشعر بارتياح كبير».

«لا بأس عليك، سعادتك. لكن هذا النبات لا يزال يتطلب بعض الرعاية «- ينبغي فقء الدملة» سنقوم بما يتوجب علينا فعله».

«سأراك بمجرد عودتي إلى المدينة. الشكر كل الشكر، لما فعلته وتفعله، التقدير لك».

وضع هرشفيلدت الهاتف. «التقدير...» يا لهؤلاء الأرستقراطيين، مع قفازات تغطي الطفح الجلدي فوق راحاتِ أطفالهم، البرجوازيين المحترمين المذعورين من قروح ملتهبة داخل سراويلهم. جميعهم... «التقدير»... فقط ما يدفعونه من أجله. كان يعي أن العديد منهم لن يستقبل يهودياً يدنس المجلس الخاص في بيته، أو يدعوه أحدهم لاحتساء القهوة. لكنهم مسرورون للغاية أن يعهدوا له بالعناية بأعضائهم التناسلية، ومعالجة حياتهم الخاصة. هيرشفيلدت كان أول من أعلن في المدينة عن تخصيص غرفة «العزل»، لاستقبال أولئك الذين يعانون من

«أمراض سرية». مرت سنوات عديدة بعد اقتراحه تلك العيادة، منذ رفع اللافتة لأول مرة.

إن السلوك الحر ما هو سوى سمة قيمة في هذه المدينة، عاصمة الشهوانية، حيث الفضيحة والنميمة؛ الوقود الذي يلهب النشوة الاجتماعية. الكثير الكثير من القيل والقال. ست سنوات مضت، منذ اكتشاف جثتين في كوخ للصيد في قرية مايرلينغ خارج فيينا، جثتين تعودان إلى ولي عهد النمسا والمجر الأمير رودولف، وحبيبته، البارونة ماري فيتسيرا، مع ذلك لم تكل الإشاعات التي تلاحق تلك المأساة أو المهزلة، كما يروق للبعض تسميتها، وفق الدرجة التي يتمتعون بها من الرومانسية أو من السخرية. أدت محاولات، العائلة المالكة لإخماد هذه القضية، بالطبع إلى إشعال المزيد من لهيب القيل والقال. قد يكون لدى هابسبورغ القدرة على العبور بجثمان ماري فيسيرا، بعربة في منتصف الليل، مع وضع مقبض مكنسة في الجزء الخلفي من سترتها، لتقويم ظهرها فتبدو حية أمام العابرين، في وسيلة جديدة، من محاولات لا تنتهي لإخفاء حقيقة أنها ماتت قبل أربعين ساعة. كما أنهم تمكنوا في الوقت ذاته من شطب اسمها من الصحف النمساوية كلها. لكنهم، رغم هذا كله، فشلوا في منع الصحف الأجنبية من العثور على طريق لأخبارها عبر الحدود، أو تحت مقاعد سيارات الأجرة في فيينا، حيث يقوم سائق سيارة الأجرة، مقابل أجر كبير، بتسليم الصحيفة إلى أيادي الفضوليين من الركاب.

هيرشفيلدت، الذي تدرب تحت إشراف الطبيب الملكي، كان على معرفة برودولف ولي العهد، ومعجباً به. يتشارك الرجلان عمرين متقاربين، كما أنهما يتمتعان بعزيمة ليبرالية متماثلة. أحس هيرشفيلدت عبر لقاءاتهما القليلة، كم كان الأمير عنيداً، محبطاً بسبب منصب ولي العهد الموكل إليه، الذي لم يكن في الحقيقة، أكثر من دورٍ شعائري. لا حياة فيه لرجل ناضج، تم إقصاؤه عن مستشاري الدولة. المطلوب

حضوره، كدمية بملابس رسمية في المآدب والحفلات الراقصة. رجلٌ في انتظار مصير يومض متقهقراً، في كل مرة يحاول الاقتراب منه. لم يتمكن هيرشفيلدت، بالرغم من معرفته تلك، من الاقتناع بالانتحار السخيف لولي العهد. إن الذي كتبه دانتي، فيما يخص البابا الذي تخلى عن مقامه ليصبح متأملاً، مع ذلك أدين وعوقب بأدنى دوائر الجحيم؟ ما هو إلا فكرة ما عن العقاب، لأنه أدار ظهره بعيداً عن فرصة عظيمة لفعل الخير في العالم... منذ حادثة وفاة الأمير الصادمة، بدأت فيينا تدخل في حالة انحدار غير محسوس، هبوط في المزاج، ليس بالمادة أو المال. لكن مع افتقاد العين لوجوه ليبرالية في هوفبرغ، صدحتْ أصوات القضاة ارتفاعاً عاماً بعد عام.

من كان يظن أن انتحاراً واحداً - أو انتحاراً مزدوجاً، أكثر ملاءمة - لوضع مدينة بأكملها في مزاج سيئ؟ كان لا بد لفيينا تقييم حوادث الانتحار، لا سيما تلك الحالات الدرامية، المرتبطة بشيء من الموت المزخرف - كتلك المرأة الشابة التي اكتست بحلة الزفاف الكامل، قبل أن تلقي بنفسها من قطار سريع. أو فنان في السيرك، الذي ألقى بقطبه في خضم أدائه، ثم قفز عن السلك العالي بشجاعة. صفق الجمهور، مندهشاً من حيوية لم يفهم معناها، معتقداً أنها جزء من دوره. بدأ الدم يتجمع تحت جثته المحطمة، انقلبت الهتافات إلى لهاث، أدارت النساء وجوههن بعيداً، فهموا أنّ الرجل رقم مضاف جديد على قائمة الانتحار، الانتحار الذي بات المعدل الأعلى في البلاد مقارنة مع الدول الأوروبية الأخرى. الانتحار جنباً إلى جنب الأمراض الجنسية. القاتلان الأشد فتكاً في فيينا، بين المواطنين جميعهم، من المولودين حديثاً حتى أكثرهم شيخوخة.

أنهى هيرشفيلدت ملاحظاته عن حالة البارون، ثم دعا سكرتيرته لإدخال المريض التالي. نظر في جدول مواعيده اليومي. أه... نعم. هير ميتل، بائع الكتب. يا للرجل المسكين.

«هير دكتور، الكابتن هيرشفيلدت، إنه هنا لمقابلتك. هل أرسله أولاً؟».

عبر هيرشفيلدت عن تذمره بتأوه غير مسموع. لماذا يزعجه داود في العيادة؟ أعرب عن أمله أن يكون أخوه الذي يداوم على توريط نفسه بالمشاجرات، قد اكتسب براعة كافية ليكون على بينة بالالتزام بمواعيد قاعة الانتظار الخاصة بغرفة العزل.

كان هير ميتل رجلاً نزقاً لكنه ذو أخلاق عالية، وقور للغاية، دفع ثمناً باهظاً لبعض الحماقات العابرة التي ارتكبها في شبابه البعيد. ثم شعر بعمقٍ بعار الحالة التي وصل إليها. نتيجة لذلك، تردد في طلب العلاج في المراحل الأولى من مرضه، حيث للشفاء بعض الأمل. لكنه الآن، من بين كل الناس، سيتورط في مواجهة بطل ألماني عالي المرتبة للدخول قبله للموعد.

«لا، أرسلي للكابتن تحياتي واطلبي منه الانتظار». اضطرب هير ميتل بفعل هذا الحوار. حيث يمتلك الأولوية بالدخول.

«جيد جداً، هير دكتور، ولكن».

«ولكن ماذا؟» وضع هيرشفيلدت إصبعه تحت ياقة قميصه، الذي كان مشدوداً أكثر من المعتاد.

«إنه ينزف».

«كرمى لله، دعيه يدخل بسرعة».

يا لهذا النموذج، فكر، حيث اعتاد أخوه غير الشقيق، الأطول قامة، الأصغر بثلاثة عشر عاماً، التسلل إلى غرفة الفحص، ممسكاً بقماشة من الحرير الملطخ باللون الأحمر إلى جانب فكه المنحوت. حيث تومض قطرات ياقوتية دموية بين شعرات شاربه الأشقر العريض.

«يا داود، ماذا فعلت الآن بحق الرب؟ مبارزة جديدة؟ ألا تعلم أن جسدك لم يعد شاباً لمثل هذه المبارزات. لماذا لا يمكنك بحق السماء تعلم السيطرة على أعصابك؟ مع من، هذه المرة؟».

ارتقى هيرشفيلدت من خلف مكتبه ليقود أخاه إلى طاولة الفحص. ثم تذكر أن الممرضة ليست هنا لمساعدته في التضميد. سالمٌ خير من آسف. حثه على السير تجاه كرسي بجانب النافذة، ثم رفع بعناية الحرير الرطب، أبعد ربطة العنق الأنيقة بعيداً عن الجرح.

«داود». أتى صوته جهوراً موبخاً. جال بأصبعه فوق ندبة بيضاء قديمة نقشت قوساً فوق حاجب أخيه الأيمن. «من الممكن غفران ندبة مبارزة واحدة، على ما أظن، مع أنه بالنسبة لك، لا تزال علامة محببة. لكن اثنتين! اثنتين! هذا فائض عن الحد المقبول». وضع الكحول فوق الجرح الطري، بما أجفل الشقيق. سيتركُ ندبة، لا شك. الجرح الذي تسبب به السيف ضئيل، لكنه عميق جداً. رأى هيرشفيلدت أنه سيشفى من دون غرز إن تم لصق جانبي الجرح بضمادة بشدة. لكن هل سيترك شقيقه المختال الضمادة في مكانها؟ على الأغلب لا. التفت محاولاً الوصول إلى خيط الجراحة.

«ألن تخبرني؟ من؟».

«لا أحد تعرفه».

«أوه؟ سيفاجئك الذين أعرفهم. لم يعد مرض الزهري منتشراً فقط بين رتب الجيش».

«ليس ضابطاً».

توقف هيرشفيلدت مؤقتاً، كان الرأس الحاد الساطع لإبرة القَطب في طريقها إلى جسد أخيه. أدار وجه أخيه نحوه. عينان ناعستان حدقتا به بلا مبالاة، لهما اللون الأزرق الداكن نفسه لسترة قبطان شاب يرتديها.

«مدني؟ ذهبت بعيداً جداً يا داود. هذا كارثي».

«لا أعتقد ذلك. على أي حال، لم أتحمل الأسلوب الذي نطق به اسمي».

«اسمك؟».

«أوه، هيا يا فرانز. أنت تعلم جيداً كيف يلفظ البعض الأسماء اليهودية. يمكنهم تحويل كل مقطع إلى مهزلة من السخرية».

«داود، أنت شديد الحساسية. ترى الازدراء في كل مكان».

«لم تكن حاضراً، فرانز. لا تملك الحق في الحكم علي في هذه المسألة».

«لا، لم أكن هناك، هذه المرة. لكنني شهدتُ ذلك من قبل».

«حسناً، حتى لو كنتُ شديد الحساسية، حتى لو كنتُ مخطئاً فيما يخص الاسم، فإن ما حدث بعد ذلك يثبت العكس. عندما اتصلت به، صرح بأنه ليس مرتاحاً إلي، لكوني يهودياً».

«ما الذي كان يقصده؟».

«كان يشير، بالطبع، إلى بيان ويدهوفن».

«بيان... ماذا؟».

«آه منك فرانز! أتساءل، في بعض الأحيان، أين أنت من المدينة التي تقطن فيها؟ بيان ويدهوفن حديث يدور في كل مقهى في فينا منذ أسابيع. إنه رد الفعل الملعون للفصيل الوطني الألماني تجاه حقيقة أن عدداً كبيراً من اليهود، سواء في الجامعة أو في صفوف ضباط الشرطة، أصبحوا مبارزين بارعين وخطرين. حسناً، بالتالي يتوجب عليهم الدفاع عن أنفسهم ببساطة من الاستفزازات المتزايدة. على أي حال، ينص البيان على أن اليهودي بلا شرف من يوم ولادته، أنه لا يستطيع التفريق بين النجاسة والطهارة، أنه على دراية بالقيم الأخلاقية، إلا أنه غير أخلاقي. لذلك من المستحيل تحقير اليهودي، من هذا المنطلق، لا يمكن لليهودي أن يطالب بحقه، إن تعرض لأي إهانة».

أخذ فرانز نفساً طويلاً. «يا إلهي».

«أرأيت» ضحك داود، ثم كشّر، كما لو أن عضلات خده الممزقة احتجت. «حتى أنت، يا أخي الأكبر الحكيم، ستصل بك الأمور إلى استخدام مشرط ضد زميلك».

المفارقة هي أن داود هيرشفيلدت، بعكس فرانز، لم يكن يهودياً. حيث بعد مرور عام أو عامين على وفاة والدة فرانز بمرض السل،

انجذب والدهما للكنيسة الكاثوليكية البافارية[63]. بعد أن اعتنق اليهودية سابقاً، من أجل التودد لزوجته. أما ابنهما، داود، فقد نشأ في أوساط تعبق ببخور الأحد وأريج صنوبر عيد الميلاد. السمة اليهودية الوحيدة الباقية للنجم الأشقر، ذي العينين الزرقاوين، ونصف البافاري المتربي في فيينا... كان اسمه.

«هل هناك المزيد؟».

«ماذا؟».

«هناك إشاعات بطردي من سيليزيا».

«من المحال أن يفعلوا! أنت بطلهم، منذ المدرسة الثانوية هل تسبب ما حدث... أقصد... المبارزة؟».

«لا بالطبع لا. يخوض كل شخص في سيليزيا مبارزة غير قانونية في وقت ما. لكن على ما يبدو أن نصفي البافاري، لم يعد يوفر ما يكفي من الدم النقي لتطهير وصمة والدنا».

خان التفكير فرانز، فعجز عن قول أي شيء. ستتخرب حياة شقيقه إن طُرد من نادي المبارزة. أما النادي فسيخسر الكثير بفقدان أفضل منافس لديه. إن كان داود على حق، بعيداً عن مسألة الحساسية، فإن الحال أسوأ بكثير مما كان يتخيله.

ذهل هيرشفيلدت حين بدا مريضه الأخير، في ذلك اليوم.

«آسف جداً لأنني أخرتك، هير ميتل، لكنها كانت حالة طوارئ».

رفع بصره، فلاحظ مشية ميتل. أثارت حالة الرجل المتدهورة انتباهه الكامل. كان ميتل يمشي بتثاقل بساقين متصلبتين مفتوحتين إلى أن تسمر بجانب طاولة الفحص، يحمل قبعته بين يديه. أما وجهه، وجهه الضيق دائماً، فكان نحيلاً كئيباً. بقعة لوثت قميصه الذي كان استثنائياً.

63- بافاريا: أو رسمياً ولاية بافاريا الحرة هي إحدى الولايات الاتحادية الست عشرة المكونة لجمهورية ألمانيا الاتحادية. عاصمتها وكبرى مدنها هي مدينة ميونيخ التي تقع شمال جبال الألب.

يتذكّر هيرشفيلدت ميتل، أن أكثر ما يميزه كانت حلاقة شعره. تحدث هيرشفيلدت معه برفق.

«اجلس، هير ميتل، وأخبرني كيف حالك؟».

وميض من الخوف لمع في مقلتي الرجل.

«نعم بالتأكيد. يجب أن أعمل. ينبغي أن أعمل. لا خيار. بالرغم أنهم يتآمرون ضدي، ويتقاسمون المرابح فيما بينهم، بينما أحصل على البقايا...».

توقّف ميتل ورفع كفّه إلى فمه. « نسيت أنك -».

قاطعه هيرشفيلدت، تجنباً للإحراج لكليهما على حد سواء.

«كيف يتم تدبر العمل بشكل جيد، ماذا عن بصرك هل تدهورت حدته؟».

«لدي ابنتي تساعدني في الخياطة. الوحيدة التي يمكنني الوثوق بها. جميع المتدربين الآخرين يتنافسون معي، يسرقون كل شيء، حتى خيطي الكتاني...».

تنهد هيرشفيلدت. لا بد أن أوهام جنون العظمة تمثل مرحلة مرضية متقدمة، تماثل إلى حد كبير الإعاقات الجسدية. تساءل إن كان بإمكان ميتل، بالنظر إلى تدهور صحته، أن يحصل على أي عمولة على الإطلاق. على الرجل أن يمتلك، في هذه الحال، زبائن مخلصين للغاية.

رمق ميتل الطبيب بنظرة جلية. انخفض صوته وعاد إلى نبرته الطبيعية.

«أعتقد أنني أفقد عقلي. هل هناك ما يمكن فعله من أجلي؟».

ابتعد هرشفيلدت واتجه نحو النافذة. ماذا عليه أن يخبره؟ هل سيستوعب الأمر؟ كان متردداً في ذكر العلاجات التجريبية للمرضى، الذين لم يتمكنوا من إدراك المخاطر الكاملة، والاستجابة غير المؤكدة للدواء. مع ذلك، فالعلاجات، عادة، شديدة المفعول إن طبقت على أي شخص ليس في مرحلة متأخرة أو ميئوس من حالته. ألا يفعل شيئاً، ليس سوى اعتراف بتدهور حالة ميتل البائس، وإعداده لتقبل موته.

«هناك شيء ما»، نطق هيرشفيلدت أخيراً. «زميلي يختبر علاجاً في برلين. النتائج واعدة، لكن العلاجات واسعة ومؤلمة، كما أخشى أنها مكلفة للغاية، إذ تستلزم ما يصل إلى أربعين حقنة على مدار السنة. إن الدواء الذي طوره زميلي شديد السمية، يرتكز على مادة الزرنيخ. تكمن فكرته أن المركب يودي بالأجزاء المريضة من الجسم أكثر مما يؤذي الأجزاء السليمة، التي ستتعافى بمرور الوقت. لكن الآثار الجانبية قد تكون شديدة. الألم في مكان الحقن شائع جداً، كذلك الأمر بالنسبة للاضطرابات المعوية. لكن زميلي وثّق بعض النتائج المثيرة. بل يدعي أن الدواء شاف. لكن يتوجب علي تحذيرك، إذ من السابق لأوانه، تقديم مثل هذه التأكيدات».

تعطشت عينا ميتل الغائمة للمزيد. «قلت باهظة الثمن، هير دكتور. كم تكلف؟».

تنهد هيرشفيلدت وأعلن المبلغ. دفن ميتل رأسه بين يديه. «لا أملك المال الكافي» حرج عميق أصاب هيرشفيلدت، حين أجهش الرجل بالبكاء كطفل عاجز.

لم يكن هيرشفيلدت بمزاج حسن حين غادر عيادته، لم يود أن ينهي نهاره بمريض يعاني من حالة ميئوس منها. كان على وشك دعوة عشيقته، لكنه حين وصل إلى زاوية الشارع حيث تقيم، تردد ثم غير رأيه متابعاً المسير. لم يكن الأمر متعلقاً بميتل. عشرة أشهر مضت حتى الآن. بدأ جسد روزاليند البدين، مع وركها العريض، يثيران في نفسه السأم. ربما حان الوقت للبحث في مكان آخر... بزغت في ذاكرته، بلا استدعاء، صورة الفتاة المرتعشة التي زارته في العيادة، بعيون زرقاء بلون زهرة العنبر البرية. كم من الوقت سيستغرق البارون ليصاب بالتخمة منها، أمل ألا يطول الزمن لذلك...

إنها أمسية لذيذة من نهايات الصيف، حيث ترنو الشمس المنخفضة إلى المنحوتات العارية الجصية الباردة، التي تألقت فوق الأسطح

المعمدة[64] لبعض الشقق الجديدة المتفاخرة. من يشتري مثل هذه الأماكن، تساءل. ربما ترغب الطبقة الصناعية الجديدة بدنو مادي من هوفبورغ. إلا أن الاقتراب الوحيد الذي يأملونه مستحيل، حيث تعجز ثرواتهم كلها عن رفعهم إلى المستوى الاجتماعي للطبقة الأرستقراطية.

أغرى الدفء الناس جميعهم للتجول بعض الوقت في الشوارع. استغرق هيرشفيلدت متأملاً في تنوع أجناس البشر. أسرة هناك، الزوجة محجبة، بينما يرتدي الرجل طربوشاً، من المحتمل أنه قادم من البوسنة لزيارة قلب الإمبراطورية، التي سقطت أراضي بلادهم تحت وصايتها. امرأة بوهيمية من الغجر، صلصلت حاشية ثوبها المتلألئة بالأجراس، لتتوافق مع مشيتها المتمايلة. ها هو الفلاح الأوكراني يحمل صبياً متورد الخدين على كتفيه. إن أراد القوميون الألمان تطهير هذه الولاية من التأثير الأجنبي، لديهم خيارات كثيرة وواضحة للتخلص منها، قبل وصولهم إلى اليهود، ناهيك عن رجل مشابه لهم تماماً مثل أخيه داود. مع ذلك، صوت صغير يضايقه. لم يتميز البوسنيون والأوكرانيون بوجود شخصيات مبدعة، تألقت في مجالات الفن والصناعة والتمويل. عدد قليل من السياح النابضين بالحيوية - ربما يجدهم الوطنيون الألمان آخاذين على نحو ما، كعنصر متمايز في المشهد الحضري. أما ما لم يعتقدوا بجاذبيته، فهو بروز اليهود في مجالات المساعي النمساوية، حتى ضمن صفوف الضباط في الجيش، في الوقت الحاضر.

تذكر هيرشفيلدت شجيرات الزيزفون الشابة وشتلات الدلب حين غُرست في ساحات شارع رينجستراس. ها هي الآن تنمو عالياً بما يكفي لشبك ظلال فيء كثيفة فوق دربه. يوم واحد من شأنه أن يوفر الظل. ربما يعيش أولاده للاستمتاع به.

سيذهب إلى البيت، نعم، لأطفاله. هذا ما يفترض عليه فعله. سيقترح

64- السطح المعمد: يتكون من العناصر المعمارية الأفقية للنظام الكلاسيكي في العمارة اليونانية- الرومانية القديمة.

على زوجته الذهاب إلى منتزه براتر، ربما، يخبرها هناك، عن حال داود. ستتفهم مخاوفه. لكن زوجته لم تكن في المنزل حين وصوله، الأطفال كذلك. أشارت الخادمة أن السيدة فراشو هيرشفيلدت ذهبت لمقابلة السيدة هيرتزل. أما المربية فاصطحبت الأطفال للتنزه في الهواء الطلق بالحديقة. أصيب فرانز بالذعر، رغم درايته بالمشاعر الخارجة عن الإرادة، ورغم أنه كثيراً ما كان يدعي أنه محتجز بالعيادة في هذه الساعة. مع ذلك، كان يود صحبة زوجته حيث يريد، زوجته التي اعتاد أن ينال منها كل ما يطلب. ماذا رأت في تلك المرأة المضجرة هيرتزل؟ ماذا ترى هيرتزل فيها، ما القاسم المشترك بينهما؟ بينما كان عقله يؤطر السؤال، سرعان ما أدرك فرانز الإجابة.

كانت هيئة فراو هيرتزلز الشقراء مع أظافرها الطويلة المطلية تتناقض تماماً مع وقار تيودور الحاخامي الظلامي.[65] الذي بدا مع اسم «جولي» الموشوم على ذراعه، أقل يهودية بكثير. أدرك فرانز حينها أن هذا هو المدخل للتعرف أكثر على صديقه الأديب. إلا أن زوجته، على العكس تماماً، حيث لديها القليل جداً لقوله، حتى أن وجودها كله، يدور في حلقة تدور حول الموضة. كيف لزوجته المثقفة المتعلمة أن تنجذب نحوها؟ يتوجب على آنا ألا تضيع وقتها في هذه الصداقة غير المجدية. يريد عودتها الآن، أمر مزعج آخر. مضى إلى حجرة نومه، رمى القميص مع ربطة العنق المزعجة. ارتدى سترة التدخين[66]... «هذا أفضل». مال برأسه من اليسار نحو اليمين، ليرخي عضلات عنقه المشدودة. مضى إلى الصالون، طلب كوباً من الشنابس[67]، وجلس يتصفح أخبار جريدته اليومية.

65- تيودور هرتزل (1860 - 1904)، الاسم العبري الممنوح إلى عهد ختانه بنيامين زئيف، المعروف أيضاً بالعبرية باسم «رؤيا الدولة» كان صحافياً نمساوياً-مجرياً، وهو كاتب مسرحي، وناشط سياسي.يعتبر والد الصهيونية السياسية الحديثة. شكل هرتزل المنظمة الصهيونية وشجع الهجرة اليهودية إلى فلسطين في محاولة لتشكيل دولة يهودية. إلا أنه توفي قبل إنشائها.

66- سترة تدخين: عبارة عن بذلة مصممة لتلبس أثناء التدخين.

67- شنابس: خمرٌ ألماني؛ مُسْكِرٌ ثَقِيل، قوي المفعول.

لم تلحظ آنا وجوده، عندما اجتاحت الباب المفتوح. كان رأسها منخفضاً إلى أسفل، تنظر ليديها المشغولتين بانتزاع دبابيس القبعة. التفتت إلى المرآة في الردهة، حيث وضعت قبعة القش الكبيرة. رأى فرانز وجهها ينعكس في الزجاج. محاولة إخفاء ابتسامة فاضحة، بينما تعدل أصابعها دوامات الشعر الكثيفة، التي بعثرها خلع القبعة. وضع فرانز زجاجته بهدوء، تسمر بصمتٍ خلفها، ملتقطاً إحدى خصلات الشعر التائه بيده، ثم قام بنقر رقبتها بمؤخر أصابعه. التفتت الزوجة جفلة مرتعدة.

«فرانز! لقد أخفتني»، احتجت. كان وجهها، حين نظرت نحوه خاوياً من الملامح. لكن ذلك وحده لم يكن كافياً، لاختراق هيرشفيلدت بمعرفة مفاجئة غير مرحب بها. قبل التفاتها، لاحظ أن أحد الأزرار الصغيرة المغطاة بالموسلين، على ظهر صدريتها، تم تثبيته في عروة خاطئة. بالتأكيد لن تسمح الخادمة النيّقة بمثل هذا الخطأ. خطأ صغير، يشي بخيانة عظيمة.

أخذ هيرشفيلدت وجه زوجته بين يديه وحدق بها. هل كان خياله، أم أن شفتيها لهما مظهر طري مكدوم؟ أحجم عن مسها فجأة. ترك وجهها، ثم نزل بيديه يدعك خط سرواله الجانبي، كما لو كان يمسح نجاسة ما.

«هيرتزل؟» همس.

«هيرتزل؟» تفحصت عيناها وجهه. «نعم، فرانز، هيرتزل، ذهبتُ لزيارة فراو هيرتزل، لكنها لم تكن في المنزل لذلك أنا -».

«لا. لا تحاولي الكذب علي، أنا أقضي حياتي بين المستهترين جنسياً، الديوثين، والمومسات». دفع إبهامه بقسوة عبر شفتيها، ضاغطاً عليهما فوق أسنانها. «تم تقبيلك». استدار وراء رقبتها ثم سحب بقوة الموسلين، فتمزقت الأزرار من عروات القماش الرقيقة التي عقدتها. «تم خلع ملابسك».

«شخص ما مارس الجنس معك».

خطت مرتعدة بعيداً عنه. «أسألك مرة أخرى: هل كان هيرتزل؟».

طفحت حواف عينيها البنيتين بالدمع. «لا»، همست. «ليس هيرتزل. لا أحد تعرفه».

وجد نفسه يكرر ما قاله لأخيه قبل عدة ساعات. «سيفاجئكِ ما أعلمه»، كان عقله مكتظاً بالصور: قضيب البارون ذو القشرة الغليظة، القيح الأصفر الذي ينز من أشفار الفتاة المتآكلة، الأورام الغامضة التي تتغذى على ميتل المختل. فقد القدرة على التنفس. يحتاج الى هواء نقي. التفّ بعيداً عن زوجته، خرج من الباب، صفعه خلفه.

روزاليند، بعد أن تخلى هيرشلفيدت عن مقابلتها ذلك المساء، تأهبت فارتدت ثوبها مع نية الخروج. في الليلة الفائتة، حدق بها عبر قوسه؛ عازف كمان جذاب، العازف الثاني في رباعية بهرنسدورف، حدث ذلك أثناء حفلة موسيقية، استضافها صالون خاص. بعد الانتهاء من مقطوعته، دعاها للخروج معه، أخبرها بأنهما سيمرحان معاً في قاعة موسيكفيرين الموسيقية الليلة التالية. وضعت للتو قطرات العطر خلف أذنيها، متأملة فيما لو تخاطر بتثبيت بروش صغير من الياقوت الأزرق فوق حرير صدريتها الرقيقة ليمونية اللون، عندما تم الإعلان عن قدوم هيرشفيلدت. شعرت بطعنة من السخط. لماذا لم يأتِ في الساعة المعتادة؟ سارع إلى مخدعها، أذهلها مظهره الغريب، مرتدياً سترة التدخين، مع وجه بمثل هذه التعابير.

«فرانز! يا للغرابة! لا تقل لي إنك ارتديت هذه السترة في الطريق؟».

لم يجب، فك حزام الجاكيت بأصابع لا تمتلك الصبر، ورماها على السرير. خطا بفجاجة نحوها، أزاح ثوبها من أعلى كتفها، ثم بدأ بتقبيلها بإلحاح لم يقم به منذ أشهر. استسلمت روزاليند، بدلاً من المشاركة. تبع ذلك ممارسة غير حميمة. أسندت نفسها على أحد أكواعها، ثم حدقت به. «هل يهمك أن تخبرني ما الذي يجري؟».

«ليس صحيحاً».

انتظرت لحظات قليلة، ولكن عندما رفض متابعة الحديث، قامت، التقطت ثوبها المرمي على الأرض، وشرعت بارتدائه من جديد، في محاولة اللحاق بالحفلة الموسيقية. إن أسرعت، يمكنها الوصول إلى هناك قبل الفاصل الأول.

«أنت ذاهبة؟» بصوت مضطهد.

«نعم، إذا ظللت مستلقياً بمثل هذا الوجه المتحجر. سأخرج بالتأكيد». التفتت إليه بوجه غاضب- هذه المرة.

«فرانز، هل تدرك أنه مضى شهر منذ آخر مرة اصطحبتني إلى أي مكان، منذ أن أحضرت لي هدية، منذ أن جعلتني أضحك؟ أعتقد، ربما حان الوقت لأخذ إجازة منك. علي الذهاب إلى منتجع صحي في بادن».

«روزاليند، من فضلك. ليس الآن». قالها مغموماً. يتوجب عليه أن يقرر متى ينهي هذه العلاقة لا هي. التقطت البروش، بدا الياقوت مناسباً للون الليموني، لافتاً الانتباه لعينيها النابضتين بالحيوية. علقت الدبوس في النسيج الرقيق.

«ماذا بعد، يا صديقي، من الأفضل أن تعطيني سبباً واحداً للبقاء».

وقفت مع تلك الكلمات، وضعت دثاراً خفيفاً فوق كتفيها، ثم غادرت الغرفة.

مع احتشاد الظلام في وقت مبكر من المساء، استند فلورين ميتل إلى جذع شجرة الزيزفون ليعيد توازن مشيته، بالتزامن مع خروج الحاخامات من كنيسهم يعتمرون قبعات طويلة من الفراء، يترعون الشارع بثرثرتهم اليديشية[68] الفظة.

كان غير متأكد من أن خطواته لا تشكل خطراً عليه بالتعثر إن قرر

68- اللغة اليدية وتسمى باليديشية، حسبما جاء في الموسوعة العربية العالمية: هي لغة يهود أوروبا، نمت خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين من لغات عدة منها الآرامية والألمانية والإيطالية والفرنسية والعبرية.

اختراق مد العابرين. اختار أن ينتظر حتى يمروا. في ولاية النمسا العليا حيث نشأ، اليهود هناك من يفسحون الطريق للمسيحيين، إنهم من يتوجب عليهم الانتظار حتى يعبروا. فيينا بلاد ممارسة الحريات، لا شك في ذلك أبداً. يسمح لليهود هنا بممارسة جميع طقوسهم. لكن ألا توجد أي نهاية لأعدادهم العابرة؟ اليوم ليس السبت، افترض ميتل أنهم يحتفلون بمهرجان يهودي ما، أخرجهم بهذه الكثافة، بهذه الهيئة الغريبة.

ربما كان المهرجان ذاته المُحتفل بذكراه في الكتاب الذي أرسلوه إليه لإعادة تجليده. لم يكن يعلم. لم يكن يهتم. ما يعنيه البهجة التي منحه إياها وصول الكتاب ليديه. حتى لو كان يهودياً. من المعتاد أن يبعثوا له بكتاب يهودي، مع أقداره المتشحة بالغموض في متحف محلي. إنه الرجل الذي وُضعت في عهدته، فيما مضى، مجوهرات المجموعة الإمبراطورية، الكتب المقدسة الأفخم، أجمل كتب الساعات... حسناً، أشهرٌ مضت، منذ آخر مرة أرسل المتحف له أي شيء على الإطلاق، لذلك لم يكن هناك داع لاسترجاع الذكريات. سيبذل الآن قصارى جهده. والبداية ستكون مع الألواح المستخدمة للتجليد الجديد، قطّعها، ثلمها بغية وضع المشابك.

على الكتاب أن يُغلف بمجلد استثنائي لافتٍ للنظر، بالنظر أولاً إلى جودة المشابك. ينبغي عليه أن يولي كل تفصيل العناية الفائقة ذاتها التي منحها للمجموعة الإمبراطورية. اليهود، قبل أربعمئة عام، كانوا فاحشي الثراء. على دراية تامة كيف يحصّلون المال. لماذا لا يقوم بالفعل ذاته؟ تجليد الكتاب بأرقى المعايير، أمر لا بد من بذل أقصى ما بوسعه لمصلحته. أن يثبت لنفسه أنه ليس مجرد خردة. أن يثير إعجاب مدير المتحف. أن يحصل على عمل. المزيد من العمل. أن يكشط الأموال التي يتطلبها علاج الطبيب اليهودي. يكذب الطبيب حول التكلفة بالطبع. لم يكن ليدفعه نحو يهودي آخر إلا إن كان مرابياً، يراهن ميتل على الفكرة. يا لهم من مصاصي دماء، جميعهم، يملأون جيوبهم من معاناة المسيحيين.

بمرارة، بوجع، بذعر، شق ميتل طريقه على طول الشارع، مرتقباً بخوف خطوة بخطوة اللحظة التي سيصل فيها إلى الساحة. الساحة الضيقة التي لا تشكل بالنسبة له سوى امتداد لا ينتهي من الصحراء القاحلة، تخذله في عبورها أقدامه المتعثرة. سار متباطئاً، على مقربة من جدران المباني، قابضاً على سياج السور، ممتناً لقبضته في وجه عاصفة مفاجئة قد تطيح به. وصل، أخيراً، إلى المبنى حيث يقطن. خاض معركة مع الباب الثقيل، انحنى، أرهقه موطئ قدمه في أسفل الدرج. استراح لفترة طويلة، استرد أنفاسه قبل الصعود، استجمع قواه وإرادته. يا للدرج المثير للرعب. رأى نفسه ميتاً عند سفحه، برأس متصدع قرب الباب، وساقين متشابكتين بصورة وحشية. أمسك بالدرابزين، سحل نفسه كمتسلق للجبال.

دخل الشقة المظلمة، التي تفوح منها روائح نتنة. إنها العفونة المعتادة المنبعثة من الجلد والغراء المغطاة بصِنان ملابس عسكرية غير مغسولة ورائحة لحمٍ زنخ. أضاء مصباح الكاز الوحيد- كل ما استطاع شراءه للإنارة - بسط قطعة لحم الضأن التي تركتها ابنته له قبل عدة أيام. لماذا تتجاهله الفتاة إلى هذا الحد؟ إنها كل ما يملك في الوجود، منذ والدتها... منذ ليز...

مع ذكر اسم زوجته، اجتاحه الإحساس بالذنب، بالندم. ما هي هدية الزفاف التي قدمها لها. هل عرفت ابنته؟ لا يمكنه الاحتمال إن عرفت ابنته. ربما هنا يكمن السبب أنها كُبرت بعيداً عنه، لا تساعده إلا بحكم الواجب فقط. ربما يثير اشمئزازها، بالتأكيد، الأمر كذلك. إنه بنفسه يشمئز من نفسه. كاللحم الفاسد، المتعفن من الداخل. كستْ لحم الضأن مسحة خضراء، بدا غروي الملمس. أكله كيفما اتفق، ليس هناك طعامٌ آخر.

قصدَ البدء بالعمل من جديد. مسح يديه بقطعة قماشية متجهاً نحو الطاولة، حيث الكتاب مغلفٌ بمجلده المتضرر، ملقى بإهمال مترصد اهتمامه، سنوات أو قروناً ربما، لم يقم أي شخص خلالها، بالعناية به أو

إصلاحه. إنها الفرصة الآن لإظهار مهاراته. افعل ذلك بسرعة، أبهرهم، عساهم يرسلون لك المزيد من العمولة. اترك بصمتك المبدعة. كان هذا بالضبط ما يتوجب عليه فعله. لكن النور سيئ للغاية، كما تنقلتِ الآلام صعوداً ونزولاً بين ذراعيه من دون رحمة. جلس، قرّب المصباح أكثر. التقط السكين، ثم ألقى بها. ما المفترض الذي ينبغي أن يقوم به؟ ما الخطوة الأولى؟ إزالة الألواح؟ الإفراج عن الأوراق؟ قياس الأحجام وتحضيرها؟ قام بتجليد مئات الكتب - كثير منها قيمة، ونادرة. لكنه فجأة يجلس عاجزاً عن تذكر سلسلة الخطوات الطبيعية جداً، بالنسبة لرجل مهني مثله، مراحل بديهية حفظها في السابق، كشرب الماء، كالشهيق والزفير.

احتضن وجهه بيديه. لقد فقد بالأمس، القدرة على استحضار طريقة تحضير الشاي. هذه العملية البسيطة. الشيء الذي يقوم كل امرئ به من دون تفكير. كان يُعد الشاي عدة مرات في اليوم، معظم أيام حياته. بالأمس، بدا إعداد الشاي أمراً غامضاً، مثل الدرج المرعب، حيث الكثير من الخطوات. وضع أوراق الشاي في الكأس، أضاف السكر إلى إبريق الشاي، ثم سكب الماء الساخن على نفسه.

إن اقتنع الطبيب اليهودي بمنحه العلاج المنشود. يتوجب عليه أولاً إنقاذ ما تبقى من عقله، ما تبقى من نفسه. لا بد أن هناك منحة ما، غير المال يقدمها له. لا، لا شيء. لا يشغف اليهود إلا المال. ربما يكمن الحل في بيع موجود قيّم. خاتم الزواج الخاص بزوجته. لكن ابنته أخذته. من المخجل أن يسألها عنه من جديد. على أي حال، لا يشكل الخاتم سوى قطرة في محيط. الخاتم الناعم جداً. كانت تستحق ليز قبل رحيلها، أفضل منه بكثير. آه يا ليز الطيبة!

كيف يساعده التفكير؟ كيف ينجيه العمل، بينما ينهش القلق عقله بلا استكانة؟ لعله إن استلقى قليلاً، محاولاً الاسترخاء، تسعفه ذاكرته، فيكمل ما بدأه.

استيقظ فلوريان ميتل، بحلة نهار أمس الكاملة. بعد أن أنهى ضوء الصباح أخيراً صراعه مع سخام وجه نافذته. لايزال مستلقياً، ينظر بحيرة، محاولاً جمع أفكاره المتناثرة. تذكر الكتاب. استرجع الذعر ذاته الذي أصابه مساء أمس. تمكن من تذكر خذلان ذاكرته، مع ذلك، بقيت الحقائق الطريدة نفسها، بعيدة المنال. كيف يمكن لرجل أن يضيع مهارات عمره؟ أين ذهبت معرفته، خبرته؟ جالت أفكاره مضطربة، مثل جيش مهزوم، منسحبٍ، متخلٍّ عن المزيد من الأراضي لعدوه، المرض. لا، ليس تقهقراً. ليس في الفترة الأخيرة على الأقل. إنها أشبه بهزيمة منكرة. التفت برأسه بعناد. طاف شعاع من الشمس كوشاح أصفر فوق طاولة العمل، أصاب الغلاف الكئيب الممزق غير الممسوس للكتاب. ثم توقد فوق الفضة المصقولة حديثاً للمشابك.

لم يقم هيرشفيلدت بصيام يوم الغفران[69] رغم أنه متضامن عرقياً مع الشعائر؛ حيث بدا بمظهر خاشع ملائم في الكنيس، محيياً القادمين والغادين، لكنه سرعان ما خرج خلسة مع أول فرصة سانحة. أما الممارسات الغذائية غير الصحية الخاصة بهذا اليوم، فأمر آخر بالنسبة إليه. فكر في هذه الطقوس الخرافية الممتدة منذ العصور البدائية. أما آنا، فكانت تجاريه، فلا تقوم بالمناسك عادة. لكنها صامت هذا العام. ها هي تنسلُ بتثاقل في الشقة مع تنامي ساعات النهار، مع يد قابضة على صدغها. صداعٌ ناجم عن العطش، هذا تشخيص هيرشفيلدت لحالتها.

مع تلاشي أنوار النهار، تحلّق الأطفال في الشرفة، ينتظرون بشغف وميض نجم المساء الثالث، ليعلن نهاية الصوم. أمضى كلاهما اليوم بلا قوت، منذ الزمن القصير المخصص للشاي الذي تناولاه في الحضانة،

69- يوم الغفران (الكيبور) يعد من أهم الأعياد اليهودية بحسب التوراة والكتاب المقدس بالعهد القديم، يتم به الصوم لمدة 25 ساعة تكرس لمحاسبة النفس والتكفير والتطهير من الذنوب وإقامة الصلوات والشعائر التلمودية بالكنس.

لكنهما أرادا اختبار الطقوس. العديد من الصرخات صدحت، الكثير من الإنذارات الكاذبة، قبل حلول اللحظة المنشودة التي تصطف فيها الصواني الفضية محملة بالمأكولات الشهية -كعكات بذور الخشخاش مع الفطائر الهلالية الحلوة - الطعام المسموح به رسمياً.

وضع هيرشفيلدت قطعة صغيرة من الكاتو، المفضل عند آنا، في طبق. سكب بعض الماء البارد من الإبريق الفضي في كأس من الكريستال وحملهما قاصداً زوجته. نظر في وجهها، فخمد غضبه فجأة. يا للعجب استغرب بداية، من رد فعله الغريب، لكنه سرعان ما أحسّ بتقدير ذاتي لشهامة في روحه، لنضج كبير، لتطور فكري. لا بد أنه أضحى رجلاً خارج العالم. عاد إلى منزله في صباح اليوم التالي، ليجد بانتظاره دموعاً منسكبة، تائبة، مفعمة بالتضرع، بالتأكيد، دعم هذا موقفه. الغريب هو النظرة الجديدة لزوجته، إن فكرة «المرأة المرغوبة من قبل آخر» أحيت في داخله شغفاً تجاهها. يا لجاذبية الشهوة الجنسية، تأمل طويلاً، كما لو أنه يقبّل لبّ خبز طري من زاوية شفاهها الشبقة. فرويد ذاك الرجل! يشغل حيزاً واسعاً من قلبه، يجب أن يتعرف عليه بشكل أفضل. لا تزال البعض من كتاباته زاخرة بالبصيرة. ها هو بالكاد يفكر بروزاليند، البعيدة في بادن، أو بتلك الفتاة ذات العينين الملونتين بأزرق العنبر البري.

«لا أعلم، هير ميتل. لم أتحمل أي نفقات بهذا الحجم مسبقاً».

«من فضلك، هير دكتور. لقد أزلتها عن الكتاب المقدس الخاص بعائلة ميتل، يجب أن تتأكد أنها رائعة».

«جيد جداً، هير ميتل. جميل. لا أعلم أي شيء عن الفضة، ولكن يمكن لأي شخص أن يقدر التفاصيل فيما صنعتَ... عمل حرفي حقيقي... أنت فنان، في الواقع».

«إنها فضة نقية، هير دكتور، ليست صفيحاً».

«أوه، هير ميتل لا أشك في ذلك، لا تكمن المسألة هنا. إنها أنني... نحن... اليهود بشكل عام، لا نحتفظ بكتب مقدسة خاصة بالعائلة. يُكتفى بالإبقاء على التوراة عادة في الكنيس، على أي حال إنها طومار[70]...».

اكفهر وجه ميتل. أراد أن يفشي من غير تفكير: أن المشابك خرجت من أحضان مجلد يهودي إلى أكفٍّ مجلد يهودي آخر، لكن كيف يعترف، من دون أن يقدم نفسه كلص؟ هل ما حدث هو فيض من جنون أصيب به، أم يأس أطاح بمبادئه؟ حين أقنع نفسه أن الجميع في المتحف عاجز عن اكتشاف غياب المشابك؟ حتى وإن حدث واتهمه أحدهم، لا بد أنه سينفي بحزم، جازماً بإثارة الشكوك حول العلماء الأجانب.

لكن المفاوضات لم تتم كما أراد مطلقاً. جلس في مقعده متلوياً مرتبكاً. كان يعتقد أن الطبيب، بفعل شخصيته المتسمة بالجشع، سيحاول اقتناص المعدن اللامع غزيزياً مثل طائر التعريشة[71].

«حتى اليهود، لا بد أنهم يمتلكون نماذج... من كتب الصلاة؟».

«نعم، بالطبع لدينا. أنا، على سبيل المثال، لدي سيدر، للصلوات، لدينا الهاجادا أيضاً، لعيد الفصح، لكنني لا أعتقد حقاً أن أياً منهما يعادل قيمة المشابك الفضية. إنها مجرد طبعات سابلة، أخشى أن التغليف المعاصر يوحي للمرء باختيار الأفضل، على ما أظن، ما عنيته... أنا -».

أرغم هيرشفيلدت نفسه على قطع الجملة في منتصفها، عليه اللعنة. ها هو الرجل النحيل يبكي من جديد. اعتاد الطبيب على دموع المرأة، لا تزعجه تلك العيون المنهمرة، يالسحرها الأخاذ، يستمتع الرجل كثيراً بمواساة امرأة تبكي! لكن دموع الرجل! آه! انكمش هرشفيلدت. المرة الأولى التي شهد فيها رجلاً يبكي بقهر كانت دموع والده، لا يمكن

70- طومار أو الطامور، يراد به الكامل من مقادير قطع الورق، الصحيفة أو الكتاب أو الوثيقة أو أي أوراق ملفوفة ومشدودة ومحزّمة.

71- طائِر التعرِيشَة الأطلَسِيّ أو طَائِر التَعرِيشَة السَاتَانِيّ: طائر مستوطن في شرقي أستراليا.

نسيان تلك الليلة التي رحلت فيها أمه. يا لها من لحظاتٍ مروعة! ليلة أوقعته بخسارة مزدوجة! والده المنيع، الشديد البأس. والده الذي أفشى وجعه كله، أطلق دموعه ونحيبه، الرجل الذي أصيب بنوبة هستيريا عاتية في ليلة أفقدتهما كليهما أسلوب التعامل ذاته قبلها، إلى الأبد.

ما يحدث الآن مروع بدوره. وضع هيرشفيلدت يديه، بلا وعي، حول أذنيه، محاولاً حجب صدى العويل عنه. هذا رهيب. لأي مدى نال اليأس من ميتل، ليبكي بهذا الشكل؟ أيّ إحباط، أي هزيمة، أوديا به إلى تخريب الكتاب المقدس الخاص بعائلته؟ خرج هيرشفيلدت، فجأة، من خلف الأسوار التي نصبتها سنوات التدريب والخبرة حوله. ها هو يكشف عن نفسه أمام الرجل المتصدع الروح، المنتحب أمامه، نظر إليه، خالعاً عباءة الطبيب الجلف تجاه مريضه، مُظهراً شفقة وحناناً حقيقياً، كإنسان متعاطف مع مأساة الآخر، داعم له.

«من فضلك، هير ميتل. لا حاجة لهذا كله. سأرسل إلى الدكتور إيرليك في برلين، في طلب مصلٍ معالج لأجلك. يمكننا أن نبدأ العلاج بداية الأسبوع المقبل. لا أعدك بنتائج مُرضية بشكل كامل، لكن يمكننا أن نأمل...».

«الأمل؟» نظر فلوريان ميتل إلى أعلى وأخذ منديلاً قدمه له الطبيب. الأمل... كلمة كافية، بل إنها تعني كل شيء.

«هل تعني ما قلت؟ هل تفعلها حقاً؟».

«نعم، هير ميتل». مع تغير ملامح وجه ميتل النحيل كجرذ، شعر هيرشفيلدت بجرعة عالية من الشهامة. قبض على المشابك، قام من خلف مكتبه واتجه حيث يجلس ميتل، تنفس برفق، محدقاً في عينيه. كان على وشك إعادة المشابك للرجل، عساه يعيدها إلى مكانها الأصلي.

توهج الضوء فوق الفضة، يا للورود البالغة الرقة. روزاليند... إنها بحاجة إلى هدية وداع يقدمها لها، بعد عودتها من بادن. على المشاعر الراقية أن ترافق العلاقة منذ بدايتها حتى آخر أنفاسها، حتى لو لم يستطع

أي من الشريكين أن يظهر نزاهة طوال الوقت. غرس المشابك في يده وتفحصها عن كثب. نعم، يمكن لصانع مجوهرات ماهر - يعرف من يكون - أن يصنع من الورود زوجاً من الأقراط، أو زوجاً مثالياً من الأزرار الآسرة. روزاليند التي تفضل التزين بقطع مبالغة في الحجم، لا بد أن تكون هذه الورود الصغيرة، إضافة متمايزة لمجوهراتها.

هل يدين بأي شيء لكتاب عائلة ميتل المقدس؟ بعد كل ما جرى؟ لا يزال موجوداً، نجا على الأقل، لا يشبه في حاله، تلال التلمود والكتب اليهودية الأخرى التي تم حرقها حتى الرماد، على مر القرون بأمر من كنيسة هير ميتل.

ماذا يهم لو افتقد الكتاب أي مشابك؟ طلب إرليخ أجراً باهظاً ثمناً لمصله. بينما أقراط روزاليند، لا تشكل سوى تعويض جزئي بسيط. لذا يتوجب عليه تقديم المزيد. نظر في المشابك من جديد. انثنى الريش المنحوت يحتضن الورود، مشكلاً جناحاً مذهلاً من الفضة. من العار الغفلة عن الاستفادة من الجناحين. يمكن للجوهري صنع زوج ثان من الأقراط، ربما. للحظة، فكر في الأعضاء المرهفة الرقيقة كأجزاء العصفور، بعينيّ زهرة العنبر.

لا ليس من أجلها، ليس بعد الآن. ليس في المستقبل. إنه يفتقد، لأول مرة منذ سنوات، شغفاً داخله تجاه عشيقة أياً كانت. لديه آنا. عليه أن يفكر بآنا فقط، ليس عليه سوى أن يتخيل أن يداً غريبة تداعبها، لتشتعل جذوة شهوته تجاهها من جديد. ابتسم. يا لها من فرصة مناسبة للغاية.

زوجٌ من الأجنحة، لامعةٌ بين خصلات الشعر الداكن لملاكه الساقط.

حنا

فيينا، ربيع 1996

ارتجفت يدي أثناء كتابتي للتقرير. أين كانت هذه المشابك الفضية، الفاتنة للغاية، لدرجة أشعلت فيها الإعجاب في وجدانِ جذعٍ مسن جافٍّ مثل مارتيل؟ من شطب ملاحظاته المكتوبة؟

تدفق ذهني في أقنية السيناريوهات. حين وصلت المشابك، كانت مهلهلة جداً بالنسبة للغلاف. داكنة مكسوة بقشرة، بالتالي لم تظهر قيمتها على الفور. لماذا لم تعمل عائلة كوهين على صقلها؟ ربما لم يدركوا أبداً أن المعدن الأسود هذا، فضة خالصة.

«عاطلة» أشار مارتيل: «مُستهلكة ميكانيكياً»، ما يعني على الأرجح، أنها لم تكن معلقة معاً، لخدمة غرضها الأصلي المتمثل في إبقاء الرقوق منبسطة. على أي حال، قام مارتيل بإزالتها لتنظيفها، ثم سلمها إلى الموثق بشكل منفصل بالفعل عن الكتاب، ليتم تثبيتها على الغلاف الجديد. هذا لو تم تسليمها بالفعل. ربما مارتيل، الذي استهوته المشابك كثيراً، احتفظ بها لنفسه. لكن لا: هذا توقع غير محتمل. فالألواح تم ثلمها. حيث أعد الموثق مكاناً للمشابك. بالتالي لم يكن مارتيل هو المتهم.

لعل المشابك سيقت إلى ورشة التجليد. ربما لا: من المحتمل إرسالها إلى صائغ للفضة لإصلاحها ميكانيكياً. هل أعادوها فيما بعد إلى المتحف؟ هذا هو التساؤل التالي. تناولتُ الملف الأخير من الصندوق. عشر وثائق هناك، مكتوبة كلها باللغة الألمانية. بدت إحداها

وكأنها فاتورة، أو قائمة بسلع مرسلة. خط اليد فظيعٌ، لكن الوثيقة مذيلة باسم وتوقيع. أن تعرف الاسم أمنيةٌ عليك الصلاة من أجل تحقيقها. يشبه الاسم بداية لكرة من الخيطان ستقودك خلال المتاهة. وجدت ملاحظات مكتوبة على هامش الفاتورة، بخط مختلف أكثر وضوحاً. أما الوثائق الأخرى فهي مراسلات كتبت بين متحف ساتاس في فيينا ومتحف لانديز في البوسنة. بالنظر إلى التواريخ التي تمتد إلى عدة سنوات من المراسلة، يتكشف الأمر عن ترتيبات لعودة الهاجادا، عدا ذلك، كل ما بين يدي غامضٌ.

يتوجب علي العثور على فراو زوينغ. لكن من غير المنطق التجول في المتحف بحثاً عن أحدهم بينما أحمل صندوقاً أرشيفياً بين ذراعي. لا أستطيع، في الوقت نفسه، مغادرة المستندات من دون مراقبة، كما أنني أعجز عن الانتظار.

حين وجدتُ طريقي إلى مكتبها، كانت غارقة في محادثة جدية مع رجل رمادي ضئيل القامة - شعر رمادي، بدلة رمادية، حتى ربطة عنقه رمادية اللون. شابٌ ذو وجه كثير البثور تسمر في الممر بملابس سوداء، منتظراً دوره لمقابلتها. بدت فراو زوينغ وكأنها ببغاء اللوري بطيف قوس قزح حوله، سُجنَ مصادفة في قفص للحمَام. عندما رأتني أحوم خارجاً، أومأت أنها لن تتأخر أكثر من دقائق قليلة.

سرعان ما قادت الرجل الرمادي إلى الخارج بسرعة، ثم طلبت من السيد «الأسود» أن ينتظر. ذهبنا بعدها إلى مكتبها.

أغلقت الباب. «أوه»، همستْ. «آمل أن هذا يعني عثورك على فضيحة! صدقيني، لا ينقص هذا المكان إلا الفضيحة!». قلت لها: «لا أعرف، حقاً، لكني أثبتُّ أن الكتاب كان محتوياً على مشابك فضية قبل وصوله إلى هنا، إلا أنه وفقاً لجميع المصادر، فالمشابك اختفت مع مغادرته للمكان».

لخصتُ بسرعة ما قرأته، ثم سلمتها الوثائق باللغة الألمانية. سحبتُ

نظارة القراءة ذات الإطارات بالزيزفوني الأخضر، وضعتها بالضبط فوق الحلقة الفضية المعلقة بأنفها الأفطس. «الفاتورة كما كنت أعتقد، عائدة للموثق، اسم هناك، أو جزء من الاسم! شيء ما مشابه لاسم ميتل. يا للتوقيع الفظيع، إذ لا يمكنني تحديد الاسم الأول. لكن ميتل... نعم... ميتل. رأيته من قبل. أعتقد أنه كان الموثق الذي طلبه المتحف لخدمته في فترة ما... أتذكر أن اسمه مرتبط بالعمل بما يخص المجموعات الملكية. يمكنني التحقق من ذلك بسهولة. في العام الماضي، حفظنا السجلات الكاملة إلكترونياً». ثم استدارت صوب لوحة المفاتيح على مكتبها نقرت قليلاً. «يا له من أمر مثير للعجب. فلوريان ميتل، المسيحي الملقب بفلوريان. أكثر من أربعين مهمة قام بها لمصلحة المتحف، وفقاً لهذا... لكن احزري ماذا؟» توقفت بشكل مفاجئ، دفعت بنفسها بعيداً عن جهاز الكمبيوتر، استدارت بالكرسي الجالسة عليه. «الهاجادا... كانت مهمته الأخيرة». عادت إلى الفاتورة. «الملاحظة، هنا في الهامش، مثيرة للاهتمام... إنها لشخص ذي مقام أعلى، يبدو هذا من لهجة كتابته، يوجّه إلى عدم دفع الفاتورة؛ «حتى تُحلّ المسائل المعلقة».

تفحصت الحروف الأخرى. «هذا أمر غير اعتيادي. هنا قائمة طويلة من الأعذار تفسر عدم إمكانية إرجاع الهاجادا إلى البوسنة في ذلك الوقت. الأعذار واهية جداً، معظمها... يبدو أن متحف ستاتس يؤخر إعادة الكتاب معتمداً على الحيلة، أما البوسنيون... كيف تقولونها؟ piss? pissed?».

«يقول الأستراليون: PISSED OFF بمعنى مستاء - pissed تعني سكران، أما piss فهو الكحول. To take the piss فمعناها أن يهزأ بـ (لماذا أخبرها بكل هذا؟)».

«البوسنيون إذاً كانوا مستائين جداً حول هذا الموضوع. بدا هذا جلياً بين السطور وفق تخميني: قام ميتل بسرقة المشابك، أو ربما أضاعها، بما كلفه حرمانه نصيبه من العمولة من المتحف. حاول المتحف طمس

هذه المعلومات كي لا يزعج البوسنيين. ثم اضطروا فيما بعد إلى تأخير إعادة الكتاب لأطول فترة ممكنة، متأملين بفكرة الزمن، الكفيل بتضليل الحقيقة، فلا يلاحظ أحد أن زوجاً من المشابك السوداء القديمة المكسورة، قد فقدتْ من الغلاف.

حالفهم الحظ، في هذه الحالة (استغرقتُ في التفكير) ساعدهم التاريخ قليلاً، أود القول إنه في الوقت الذي عاد فيه الكتاب أخيراً إلى الوطن، كان كل من يعرف شيئاً عنه إما ميتاً أو مشغولاً...».

«بالحديث عن الانشغالات، يجب أن أتعامل مع هذه التقييمات الغبية... متى تغادرين إلى الولايات المتحدة؟ يمكنني البحث عن ميتل من أجلك، ما رأيك؟».

«نعم، من فضلك، سيكون ذلك رائعاً».

«أما الليلة، فاسمحي لي من فضلك أن أدعوك إلى مكان في فيينا، لا يمكنكِ الحصول فيه على تارت زاخا[72]، أضمن ذلك تماماً، كما أعدكِ أنك لن تصغي لموسيقى الفالس».

يا للجولة المجنونة مع فراو زوينع في وقت متأخر من الليل في نوادي S و M، مروراً بسراديب الجاز، واستوديوهات الفن الخيالي (فنان واحد، عارٍ، مكتّفٍ كدجاجة، متدلٍ من السقف، أما الحدث الكبير في الليل، حين يبول على شخص ما بين الجمهور في الأسفل) بفضل هذه الرحلة الليلية، غفوتُ طوال الطريق إلى بوسطن. مبددة ثمن تذكرة من الدرجة الأولى. ربما ينتهي بي الأمر للعودة على متن عربة الماشية، كما هي العادة اللعينة.

استقليتُ مترو T بوسطن، من مطار لوغان إلى ساحة هارفارد. فأنا أكره القيادة في المدينة، إنه الازدحام الذي يقودني إلى فقدان الرغبة بذلك،

72- تارت زاخا هي كعك شوكولاتة صنعه الخباز النمساوي الشهير فرانز زاخا للأمير كليمنس فون مترنيش في فينا بالنمسا عام 1832. إنها واحدة من أشهر ما يختص به المطبخ الفييني.

إضافة إلى الأساليب الفظيعة لسائقي السيارات هناك. يشير أشخاص من نيو إنغلاندز إلى سائقي ماساتشوستس على أنهم «ماسولس». لكنّ هناك سبباً عظيماً ألا تقود إلى هناك وهو الأنفاق. من الصعب جداً تجنبها؛ عليك أن تكون دائماً أحادي الاتجاه، أو تنقلب إلى فوهاتها المفتوحة. بشكل عام، ليس لدي أي موقف ضد الأنفاق. فأنا جبانة إلى الحد الذي لا يجعلني أقترب منها على الإطلاق. على سبيل المثال، لا مشكلة لدي مع نفق ميناء سيدني، فهو نفق ساطع في الأسفل نظيف ويوحي بالثقة والطمأنينة. لكن حين تعبر في أنفاق بوسطن، فالأمر مثير للذعر حقاً. إنها خافتة الإضاءة، أما الجدران فملطخة بفعل الارتشاح. كما لو أن ميناء بوسطن شق طريقه عبر تصدعات في الخرسانة المبنية خارج المعايير، لدرجة أن بعض رؤوس المافيا الإيرلندية عرضت المدينة للبيع. بدت الأنفاق وكأنها ستنفجر في أي لحظة، مثل شيء مجهولٍ في فيلم سبيلبرغ، آخر شيء تسمعه فيه هدير المياه المتجمدة. الذي لا يتحمله خيالي أبداً.

إن T هو نظام مترو الأنفاق الأقدم في الولايات المتحدة، أتخيل كيف صمد لفترة طويلة. كان يتوجب بناؤه بشكل متقن في المقام الأول. أما القطار الذي استقليته من المطار، فكان مكتظاً بالطلاب. بدوا جميعهم يرتدون سترات قطنية برسائل مكتوبة عليها. تشير بعضها إلى بعض مثل اليراعات. غرور أحمق، كتب على إحداها، وعلى ظهر آخر: المكور جيداً لا رأس لديه. على سترة أخرى: هناك فقط عشرة أنواع من الناس حول العالم. هؤلاء الذين يفهمون النظام المزدوج وأولئك الذين لا يفعلون. نزل اثنان منهم في محطة MIT.

أعتقد في بعض الأحيان أنه إذا استبعدت جميع الجامعات والمستشفيات الواقعة في بوسطن الكبرى، ستكون قادراً على احتواء ما تبقى من المدينة، ضمن ستة أحياء فقط. تقع جامعة هارفارد على جانبي النهر، تنقسم إلى معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا من جانب، وجامعة

بوسطن من الجانب الآخر. الجامعات الثلاث ضخمة للغاية جميعها. هناك أيضاً براندايز وتافتس وويلسلي وحفنة من جامعات أصغر مثل ليزلي وإيمرسون وعشرات بالكاد سمعت عنها. لا يمكنك أن تبصق من دون أن تحصل على شهادة الدكتوراه. أنا هنا بسبب الرجل الملياردير الذي دفع ثمن تذكرتي من لندن، الرجل العبقري في الرياضيات في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، إنه من اخترع خوارزمية، أدت لمقلاد[73]، يتم استخدامه في كل دارة متكاملة. أو شيء من هذا القبيل. لم استوعب حين شرحها أحدهم لي، كما أنني لم أتحدث مع المخترع وجهاً لوجه مسبقاً. قام بترتيب موعدٍ مع أمناء المكتبات في هوتون، ليظهروا لي المخطوطات التي كان مهتماً بها، وصلتُ بالتزامن مع ساعات الدوام الخاصة بالمكتبة، هكذا حظيت بالكثير من الوقت للقيام بالتفحص والتقييم. قبل عقد اجتماع آخر في الصباح، سأقابل فيه والدتي.

رسالة مقتضبة تركتها لي على جهاز الرد الآلي الخاص بي، في منزلي في سيدني. موضحة أن لحظتها الوحيدة الحرة، لمقابلتي، هي استراحة شاي قصيرة في الصباح ذاته الذي سافرتُ فيه. كان بإمكاني سماع تكتكة دماغها: «ربما لن تتصل على جهازها، يمكنني التهرب من رؤيتها». لكنني تحققت من رسائلي قبل أن أغادر فيينا. ابتسمتُ في أعماق نفسي مصغية لصوتها المتردد المشتت. «لا مفر أبداً، كابتن كيرك»، تمتمتُ «ستريني في بوسطن».

ومع ذلك، لا يزال أمامي مهمة تحديد مكانها. حالها كحال الجامعات، تندمج المستشفيات الكبيرة في بوسطن بعضها مع بعض -- التجمع العام، بريجهام والنساء، دانا فاربر.

إنها شبيهة بحديقة صناعية عملاقة مخصصة للمرض. كان مركز المؤتمرات عبارة عن فرع للمجمع المعقد والمشيد لغرض الاجتماعات الطبية الكبيرة. كان علي أن أسأل عن الاتجاهات لمرات أربع قبل أن أعثر

73- مفتاح كهربائي يعمل بواسطة ذراع إسقاط تتحرك إلى أعلى وأسفل.

في النهاية على مدرج المحاضرة، التي ستتواجد فيه، كما قالت. حصلتْ على برنامج من مكتب التسجيل لأحد العناوين الرئيسية لخطاب رئيسي مرغوب، تقرر أن لا يتحدث به أحد سواها. الأضواء الخافتة ساهمت في تخفيض منافسة تقديمات الأطباء الآخرين، في حين ظهرت ملصقات أبحاثهم منخفضة لعشرات الحاضرين في القاعة الكبيرة، أما ورقة أمي كانت تحت عنوان «ماذا أفعل حيال تمدد الأوعية الدموية». انزلقتُ إلى الصف الخلفي. رأيتُ أمي تجول فوق المنصة بخطوات متسارعة ذهاباً وإياباً بما أظهر ساقيها الطويلتين. بدت أنيقة في ثوب من الكشمير كريمي اللون، مصمم بطريقة توحي بشخصيتها الحيوية. قامت بجذب الجميع، تقريباً في القاعة. الرجال ذوو الشعر الأشيب والبدلات الداكنة المجعدة تسمروا في أماكنهم، يحدقون بها جذلين أو يخربشون كالمجانين في دفاترهم ما تكشف لهم عن ثمار أحدثتها أبحاثها، نتائج لها علاقة بتقنية جديدة أثبتت ريادتها. فبدلاً من فتح الرؤوس جراحياً، يتم إدخال قسطرة في الدماغ، تطلق شظايا معدنية صغيرة في الأوعية الدموية، تسهم في فتح مجراها، فتمنعها من الانفجار.

إنها طبيبة من السلالات النادرة التي ما زالت تمارس هذا النوع من الطب «من المختبر إلى المريض» حيث تقوم بتطوير تقنية في المختبر، لتنتقل بعدها إلى غرفة العمليات. أعتقد شخصياً أنها تفضل الإبحار في العلم أكثر بكثير من التعامل مع المرضى الفعليين، الذين تنظر إليهم بعيداً عن اعتبارهم كائنات بشرية ذوات طموحات ومآثر إنسانية، وإنما مجموعات من البيانات المعقدة وقوائم من المشكلات. لكنها في الوقت ذاته تؤثر التبختر والغرور كجراح كبير، امرأة جراحة عظيمة.

«هل تعتقدين أنها لأجلي فقط؟» قالت لي في أحد الأيام بعد إصابتها بالاستياء من اتهامي لها بتفضيلها أسلوب التملق الذي يعاملها به الجميع بالمشفى. «إنها ليست لي. إنها لكل ممرضة أو متدربة أنثى عليها أن تكافح أعباء التقليل من شأنها والحط من قدرها. أن تختار ما بين القبول

بتربيت الرجل على مؤخرتها، أو أن تضع ذكاءها موضع تساؤله. إنها لك يا حنا. لجميع نساء جيلك، اللواتي لن يضطررن أبداً إلى تحمل مضايقة أو ضجر في مكان العمل مرة أخرى، بتأثير من نساء مثلي ناضلن ونجحن. ها أنا أدير الأمور الآن، ولن أسمح لأحد بتجاهل الأمر».

لا أدري مدى صحة ما تقول، لكني أعرف أنها صادقة. على أي حال، أعجبتني متابعتها تناقش مسائل كهذه، بالرغم من محاولتي تفادي النظر للأشياء اللزجة الظاهرة على الشاشة الكبيرة خلفها. كانت تسيطر بالكامل على بياناتها، كما ترد ببلاغة أنيقة عما تعتبره نقاطاً أو استفسارات جيدة. لكن الويل لمن يسأل سؤالاً غير ناضج، أو لمن يشكك باستنتاجاتها. ستقوم بمعالجة الأمر بابتسامة ساحرة، مع إطلاق سلسلة من عبارات حادة كالمنشار. مع غياب لأي تلميح بغضب أو غطرسة في صوتها مقطعة أوصالهم، ربما لن أتحمل مشاهدتها تفعل ما تفعله مع مجموعة من الطلاب، لكن هذه القاعة المليئة بالرجال مسألة أخرى. من المفترض أنهم صنوان، بالتالي فاللعبة عادلة، إنها بالتأكيد تجيد إدارة الحشد. بدا التصفيق، في نهاية محاضرتها، أشبه بصوت في ساحة لموسيقى الروك أكثر من كونه تصفيقاً ضمن مؤتمر طبي.

تراجعتُ بينما كانوا يصفقون وانتظرت في مقعد في الردهة. ظهرت محاطة بأعداد كبيرة من المعجبين. استقمت وتوجهتُ متوازية مع خط نظرها. وددتُ لو أشارك في مجموعة المتملقين حول عرضها الرائع، لكن عندما لمحتني، تجهم وجهها بالفعل، أدركتُ على الفور أنها تأمل ألا أنطق بحرف. يا للكوميديا، لا يمكن وصف الطريقة التي تغيرت بها تعابيرها، لتعيد التحكم بها من جديد، حين أدركت ضرورة إعادة ترتيب ملامح وجهها كما كانت.

«حنا. لقد فعلتِها. كم هذا لطيف». ثم بمجرد أن يتلاشى الأطباء الآخرون. «كم تبدين شاحبة، يا حبيبتي. من الضروري أن تخرجي للشمس والهواء الطلق في بعض الأحيان».

«حسناً، كما تعلمين، فأنا أعمل...».

«بالطبع تعملين، حبيبتي». جالت عيناها الزرقاوان، المكحلتان ببراعة بنوع من الظل البني الغامق، محدقة بي من حذائي إلى أعلى رأسي، ثم تفحصتني من أخمص قدمي من جديد.

«كلنا نعمل، أليس كذلك؟ هذا لا يعني أننا لا نستطيع الخروج وممارسة الرياضة. إذا كان بإمكاني العثور على الوقت لنفسي، يا عزيزتي، فمن المؤكد أنك قادرة على ذلك. كيف حال مخطوطك الصغير الرث، على أي حال؟ هل تم إصلاح جميع الصفحات المطوية الزوايا؟».

أخذتُ نفساً عميقاً، محاولة التحفظ تجاه ما قاله. لم أكن أرغب في إثارة استيائها ريثما أحصل على ما أتيت من أجله. نظرتْ إلى ساعتها. «أنا آسفة جداً لأني لا أملك المزيد من الوقت. أخشى أنه علينا تناول الشاي في الكافتيريا. لدي اجتماعات كثيرة متعاقبة، كما أنني سأضطر لحضور دعوة للشرب هذا المساء. قاموا بدعوة كاتب نيجيري، يدعى والي شيء ما، ليلقي خطاباً. انظري، لأن الرئيس الحالي للمؤتمر العصبي نيجيري الجنسية، يتوجب علينا الإصغاء لبعض الأفارقة المغمورين في بوسطن. كان بإمكانهم دعوة أحد الكتاب المحليين المحترمين، الذين يشكلون، على الأرجح، اثني عشر شخصاً، يتحدثون اللغة الإنكليزية على الأقل».

«أمي... حصل والي سونيكا على جائزة نوبل للأدب. في الواقع، يتحدثون اللغة الإنكليزية في دولة نيجيريا».

«حسناً، أنت على اطلاع بهذه المسائل، بالطبع» وضعت يداً على ظهر سترتي تدفعني للسير نحو نهاية الممر.

«أتساءل، أمي، لدي بعض الصور الشعاعية خاصة بابن الرجل الذي أعمل معه في سراييفو، أمين المكتبة، الذي أصيب بالرصاص أثناء الحرب، هناك تورم... أتساءل لو أنك».

توقفتْ في الرواق، تبع ذلك دقيقة من الصمت:

«أوه... عرفت ان هناك سبباً لتشريفي بزيارتك هنا».

«أرجوك أمي، باختصار، هل ستلقين نظرة عليها أم لا؟».

انتزعتْ مظروف المانيلا من يدي، وعادت إلى نهاية الممر. كان علينا السير حوالي ميل فوق جسر للمشاة نحو الأجنحة الطبية. دخلنا المصعد. كان الباب ينغلق أثناء وصول رجل كهل بعباءة، يترنح محاولاً اللحاق بالمصعد. تذكرتُ كلمة لصديقي تعبر عن تلك اللفتة الواهنة التي نتظاهر بها، كما لو أننا نريد الاحتفاظ بالباب مفتوحاً، بينما في الواقع لا نرغب في ذلك مطلقاً. أطلق عليه تسمية إليفين. كانت لفتة أمي «الإليفين» أوهن من أي وقت مضى؛ ليغلق الباب تماماً في وجه الرجل المسن. عبرنا الطوابق صعوداً في صمت، ثم انتظرتُ حين طلبت من المتدرب العثور على لوحة مضاءة.

ضغطت على الزر، فأضاءت جداراً أبيض ساطعاً. لقطة لقطة لقطة، عرّضت الصور للضوء، ثم تفحصتها بمسح لم يستغرق أكثر من ثانيتين.

«لنشرب نخبه».

«ماذا؟».

«نخب الطفل. أخبري صديقك أن عليه أن يسحب القابس الآن، محاولاً إنقاذ نفسه من بعض الفواتير الطبية الفائضة».

علت وتيرة غضبي بسرعة، لذعني الحنق، أحرقني. ثم احتقنت الدموع في عيني من تعاظم الغم. أمسكتُ الصور بعيداً عن لوحة الضوء. ارتخى معصمي في الواقع، من الغيظ. بالكاد أمكنني حشو المظروف بالصور الشعاعية من جديد.

«ما قصتك يا أمي؟ هل كنت غائبة في اليوم المخصص لتعليم التعاطف الإنساني؟».

«أوه، حنا. بالله عليكِ. يموت الناس كل يوم في المستشفيات. لو أنني أتأثر في كل مرة أرى فيها إشارة لمرض مستعص...» تنهدت بطريقة مبالغ فيها. «لو أنك طبيبة، لفهمتِ ما أعنيه».

كنت مستاءة جداً، فلم أمتلك قدرة على الرد. التفتُّ لأمسح عيني. رفعتْ يداً أمسكتني واستدارت بي نحوها. تفحصت وجهي. «لا تقولي...»، صدحت، بصوت مشبع بالازدراء. «لا تخبريني بأنك متورطة بطريقة ما مع والد هذا الطفل، مع عثة الكتب المبتذل من أوروبا الشرقية. أليسوا مسلمين جميعهم أو شيئاً من هذا القبيل، في سرايفو؟ أليس هذا ما يدور حوله القتال؟ لا تقولي إنك ورطتِ نفسك في علاقة مع مسلم؟ في الحقيقة، حنا، اعتقدتُ أنني ربيتك، كامرأة ناضجة بما يكفي كي تنوئي بمسار مقبول منطقي!!».

«ربيتني؟ أنتِ؟» ضربتُ المغلف بأسفل المكتب. «لم تربيني أنتِ، إلا إذا قمت بإحصاء الشيكات الخاصة بمدبرة المنزل».

كانت تذهب للعمل، أثناء استيقاظي في الصباح، ونادراً ما تعود قبل وقت نومي. أكثر ذكريات حياتي الساطعة معها، هي مصابيح الإضاءة الخلفية للممر في منتصف الليل. حيث كان لدينا بوابة أوتوماتيكية، يوقظني صريرها كل ليلة. فأجلس في السرير، أحدق في النافذة، ألوح للعربات المغادرة. لا أتمكن، في بعض الأحيان، من العودة للنوم. فأنهال في البكاء. تأتي غريتا، مدبرة المنزل، يغلبها النعاس. وتقول لي: «ألا تعرفين أن والدتك تنقذ حياة شخص ما هذه الليلة؟» لطالما شعرتُ بالذنب بسبب أمنيتي، رغبتي البسيطة أن أتمكن من السير نحو الغرفة المجاورة، أن أزحف إلى السرير، أن استلقي بجوار أمي فأغفو. لكن مرضاها بحاجة لها أكثر مني. هذا ما قالته غريتا دائماً.

تخللت بأصابعها خصلات شعرها اللامع، كما لو كانت تصلح عيباً في مظهر تسريحتها. للمرة الأولى أزعجها إلى هذا الحد. شعرتُ بقليل من الارتياح. لكنها عاودت بنبرة بسرعة. لا يمكن لها أن تخسر نقاطها بالطبع. «حسناً، لا تنوين إقناعي أن شفقتك المفرطة بلا سبب شخصي. كيف لي أن أعرف أن لديك اهتماماً عاطفياً بهذه الحالة؟ تخبرينني بأنك عالمة على الدوام. سامحيني لمعاملتك كعالمة، اجلسي، بحق الآلهة،

توقفي عن الصراخ في وجهي. سيعتقد أي شخص يسمعك، أنني من أطلقتُ النار على الطفل المبارك».

سحبت كرسياً من وراء المكتب وربتتْ عليه. جلستُ بحذر. أما هي فاعتلت حافة المكتب واضعة ساقاً فوق ساق.

«ما أقوله ببساطة، بوضوح وبتحليل علمي، دماغ الطفل في هذه المرحلة، نسيج ميت على الأغلب، مجرد كتلة إسفنجية. إذا استمررنا في إبقاء جسده على قيد الحياة بوسائل اصطناعية، فإن تقلصات الأطراف ستزداد سوءاً، بينما تشتعل معركة مستمرة مع قروح الاستلقاء في الجلد، ومع حالات الالتهاب الرئوي والبولي. لن يستيقظ هذا الطفل أبداً» رفعت كلتا يديها، بكفّين منبسطين.

«طلبتِ رأيي. ها هو لديك الآن. من المؤكد أن الأطباء هناك أخبروا الأب بذلك».

«نعم. لكني اعتقدت --».

«لو كنت طبيبة، لما اضطررت إلى الاعتقاد، حنا. يجب أن تتأكدي».

ذهبنا وتناولنا الشاي، لا تسألوني لماذا. حدثتها عن أمور روتينية: استفسرتُ حول ورقة البحث التي سلمتها، ومتى سيتم نشرها. ليس لدي أي فكرة عما أجابتني. كان تفكيري منشغلا بأوزرين، وقصة ويني ذا بو اللعينة.

ما زلتُ أتجرع الفكرة ذاتها، حين غادرتُ هارفارد عبر النهر لمقابلة رازموس كاناها، كبير علماء الحفظ في فوغ. إن رازموس زميل ما بعد الدكتوراه، صديق قديم لي. تميز بتقدم مهني سريع جداً، كما أنه شاب جداً ليترأس أقدم مركز للأبحاث الفنية في الولايات المتحدة. درس الحفظ بمساعدة الكيمياء، كما فعلت، لكنه يبقى أقرب إلى هذا الجانب من العمل مني. أما ما أثار الانتباه إليه فكان تحليله للكربوهيدرات والدهون في البيئات البحرية، مما غيّر المسار نحو نموذج جديد كلياً في معالجة الفن المُسترد من حطام السفن. لقد نشأ في هاواي، بما يوضح هوسه البحري.

الأمن في فوغ مكثفٌ جداً، أما الأسباب فواضحة: المتحف يضم إحدى أرقى مجموعات أمريكا من الأعمال الفنية الانطباعية وما بعد الانطباعية الرائدة، فضلاً عن أعمال بيكاسو المذهلة. على الزائر أن يحتفظ برقاقة إلكترونية، بهدف تتبع تحركاته حول المبنى. توجب على راز أن ينزل شخصياً ويوقع للسماح لي بالدخول.

إن راز أحد هؤلاء البشر الطليعيين المنحدرين من أصل عرقي غير محدد، بطفرات مذهلة آمل أن يُقدَّر لنا جميعاً منحها لألفية جديدة من الاختلاط. أخذ لون بشرته المصطبغة بلون جوز البقان الغني من والده، بجذوره الأمريكية من أصل أفريقي وجزيرة هاواي. أما شعره الأسود المنسدل اللامع، وشكل عينيه الضيقتين فكانا من جدته اليابانية. لكن لون الحدقتين، الأزرق الهادئ فورثه عن أمه. إن راز بطل السويد لركوب الأمواج. لطالما أخذني معه عندما اشتركنا في أبحاث الدكتوراه معاً. أقمت معه علاقة، تشابه أسلوبي في العلاقة: خفيفة، سهلة، ممتعة، بلا قيود. كان ينطلق في القوارب البحرية الطويلة إلى مكان ما، يجمع الأبحاث من أجل أطروحته. أما حين يعود فقد نمارس الحب معاً، أو لا نفعل، وفقاً للمزاج الذي يجتاحنا. لم يكن هناك أي مشاعر موجعة بيننا. فيما لو قرر أحدنا أو كلانا الارتباط بآخر.

بعد سنوات هارفارد، لم نلتقِ بعضنا ببعض كثيراً، لكننا أبقينا على اتصال دائم بيننا. تزوج من شاعرة، فأرسلتُ لهما طبعة مخطوطة جميلة صغيرة تعود للقرن التاسع عشر، وجدتها مع قطع خشبية من حطام سفينة شهيرة. أما صورة الزفاف التي أرسلاها لي فكانت مذهلة. زوجة راز ابنة لأم كردية إيرانية وأب باكستاني أميركي. لا أطيق صبراً لرؤية أطفالهما: الموكلين بإعلانات شركة بنيتون للأزياء.

تعانقنا بتحفظ، كما يتوجب في مكان العمل، لا نعرف تماماً ما إذا كنا سنقبّل الهواء مرة واحدة أو مرتين، هل سنرتكب الخطأ، ونضرب الرؤوس ببعضها، متمنين لو اكتفينا بالمصافحة باليد. مررنا عبر

الأتريوم[74] المغمور بالضوء، ثم صعدنا الدرج الحجري الذي يمر عبر صالات العرض. بوابة للأمن معدنية هناك، تُغلق الطابق العلوي، حيث يقوم راز والحفظة الآخرون بعملهم.

إن مركز ستراوس للحفظ، عبارة عن مزيج غريب، فهو منشأة علمية حديثة جداً، على طراز العلية، مقترنة بمجموعة مقتنيات، قام بجمعها إدوارد فوربس، مؤسس المنشأة، حين قام بتكليف أعضاء منظمة فوربس حول العالم، أوائل العام الماضي، بمهمة الحصول على عينة من كل صبغة معروفة مُستخدمة في الفن. كانت جدران الدرج مبطنة برفوف تحمل الاكتشافات الثمينة، خزانات عرض بألوان طيف قوس قزح اكتظت باللازورد والملاكيت، إضافة إلى التحف الحقيقية النادرة، مثل اللون الأصفر الهندي، المصنوع من بول الأبقار التي تتغذى على أوراق المانغو فقط. الصباغ ذو اللون الزيزفوني الرائع، الذي لم يعد له وجود مطلقاً إلا هنا. حيث حظر البريطانيون إنتاجه خلال فترة حكمهم الهند، لأن الحمية المتعلقة بالطعام كانت قاسية للغاية بالنسبة للماشية.

في نهاية إحدى الحجرات الطويلة، لمحتُ فتاة تعمل على جذع تمثال برونزي، «إنها تقارن بين التمثال المنحوت أثناء حياة النحات، مع آخر تم نحته في وقت لاحق لمعرفة الاختلافات المتعلقة باللمسات الأخيرة». شرح لي.

في آخر الطرف الآخر انتصبت الدكة التي تحمل المطياف.[75]

«حسناً، ماذا في جعبتكِ لي؟» سألني راز.

«إنها عينات رفعتها عن رق ملطخ. أراهن أنه نبيذ»، سحبتُ الصورة التي التقطتها للصفحة الملطخة بلون خمري متفش فوق قاعدة كريمية

74- فسحة سماوية في قلب المبنى.

75- المطياف أو سبكترومتر: في الفيزياء والكيمياء، جهاز يستعمل لقياس الخواص الضوئية عبر نطاق معين من طيف الموجات الكهرومغناطيسية، ويقوم، بصفة خاصة، بالتحليل الضوئي للتعرف على مكونات المواد.

فاتحة، كنت وضعتُ علامة فوقها لإظهار المكان الذي رفعت فيه العينات البالغة الدقة. آمل أنني جلبتُ ما يكفي. سلمتُ راز المظروف الزجاجي. تناول بدوره مشرطاً مقوساً، ووضع العينة الأولى من المادة الملطخة على شريحة من الماس متمركزة وسط شريحة مجهرية مستديرة. حطّ بأسطوانة فوق العينة، لجعلها مسطحة فوق الماس، بحيث تمر عبرها الأشعة تحت الحمراء. زلق الشريحة تحت العدسة.

أمعن عبر المجهر للتأكد من تمحور العينة، ثم سلط الأضواء الملتوية فوقها لإظهارها بشكل واضح. يستغرق الوقت ساعات للحصول على اثني عشر طيفاً، في أي مختبر آخر، بما في ذلك مختبري. كل ذرة تطلق الضوء بألوان مختلفة من الطيف. تميل بعض المواد لإنتاج النهاية الزرقاء، البعض الآخر يُنفذ الأحمر وهكذا. بما يعني أن طيف الذرة يشبه بصمة يمكن استخدامه لتحديد ماهيتها. أما اكتشاف راز الجديد فكان أحدث ما توصل إليه العلم: حيث يمكن الحصول على مئتي طيف في أقل من دقيقة. أصبتُ بطعنة من الحسد، مع ظهور خطوط خضراء تماوجت صعوداً وهبوطاً، أعلى وأسفل شبكة قياس امتصاص الضوء على شاشة الكمبيوتر أمامنا. درس راز الرسم البياني.

«هذا غريب»، قال.

«ماذا؟».

«حسناً، لست متأكداً. دعيني أنظر إلى العينة الأخرى».

دار بأصابعه حول المغلف الزجاجي وعرض عينة ثانية. رسمت الخطوط البيانية على الشاشة، هذه المرة، منحنيات مختلفة تماماً.

«ها»، قال.

«ماذا تقصد بها؟» تصبب جبيني عرقاً.

«دقيقة واحدة فقط». غير راز الشرائح مرة أخرى. ارتفع الرسم البياني وهبط داخل الشاشة. قام بنقر بعض مفاتيح لوحة الكمبيوتر.

قفزت منحنيات أخرى، باللون الأصفر والأحمر والبرتقالي والأزرق، تدور جميعها حول المنحنى الأخضر.

«ها»، قال ثانية.

«راز، إذا لم تخبرني ما الذي تراه، سأضربك بمشرطك هذا».

«حسناً، ما أراه لا معنى له. إنها مخطوطة عبرية، أليس كذلك؟ ألم تخبريني أنها هاجادا؟».

«نعم». أوشكت على النباح.

«إذاً أي نبيذ يُسكب فوقها، يمكننا أن نفترض بثقة أنه كوشير[76]؟».

«نعم بالطبع. سيكون موافقاً للشريعة اليهودية في عيد الفصح، صارماً وفق الأصول».

رجع بكرسيه إلى الخلف، ودفع به بعيداً عن المنضدة، بحيث صار قبالتي.

«هل تعرفين أي شيء عن نبيذ الكوشير؟».

قلت: «ليس كثيراً». «يكون عادة شراباً حلواً، غير قابلٍ للشرب».

«ليس هذه الأيام. بعض أنواع النبيذ الكوشير المُحتسى بكثرة، يتم تصنيعها في مرتفعات الجولان، وفي مصانع نبيذ غيرها كذلك».

«من أين لك الخبرة هذه؟ أنت لست يهودياً. أم ماذا... يهوديٌّ أنت؟» ليس من الغريب لسلالة مختلطة جداً كأسلاف زار.

«لا. لكن يمكنك القول إني أدين بدين النبيذ. أتذكر أنني قضيت ستة أشهر في معهد تخنيون[77] في إسرائيل، أعمل على قطع أثرية استردت من حطام سفينة متوسطية. حسناً، تعاملت مع امرأة هناك، تمتلك عائلتها كرماً

76- موافق للشّريعة اليهوديّة (حلال عند اليهود).

77- تخنيون - معهد إسرائيل للتكنولوجيا، أولى الجامعات التي بناها اليهود في فلسطين. تم وضع حجره الأساس سنة 1912 ولكن تأسيسه الفعلي لم يتم إلا في سنة 1924 في مدينة حيفا.

في الجولان. يا لها من بقعة أرض جميلة. أمضيتُ، بطريقة أو بأخرى الكثير من الوقت فيها، خاصة خلال موسم القطاف، مما يدفعني للقول إنه من حسن حظك». وضع يديه وراء رأسه، استلقى على الكرسي مبتسماً.

«راز، هذا مذهل. أعني، يا للروعة. ولكن بحق الله، ما علاقة هذا كله بالبقعة؟».

«سأقول لك لكن، حافظي على هدوئك وركزي معي».

عاد إلى الرسم البياني وأشار إلى ارتفاع طويل. «انظري إلى هذا؟ إنه ارتفاع لطيف من الامتصاصية[78] هناك؟ إنه بروتين».

«وبالتالي؟».

«لا ينبغي تواجد أي بروتين في نبيذ الكوشير. عادة ما يستخدمون بياض البيض في صناعة النبيذ التقليدي، كأداة لتنقيته من العكر. بالتالي يمكن توقع الحصول على آثار من البروتين فيه. لكن صناعة نبيذ الكوشير تحظر استخدام أي منتج حيواني. لذلك فهم وفق التقاليد، يستخدمون نوعاً من الصلصال الطيني بدلاً من البيض، للقيام بمهمة التنقية ذاتها». هز بضعة مفاتيح، وقام بإحضار الرسم البياني للعينة الثانية.

«هذا يبدو بالصورة التي توقعتِها».

«ما الذي تعنيه إذاً؟ قطراتٌ من نوعين مختلفين من النبيذ اندلقت على الصفحة ذاتها؟ أمر غير محتمل أبداً».

«لا، أعني أن هناك شيئاً آخر مختلطاً بالنبيذ ببعض الأماكن». نقر على مفتاح آخر، لتعود الشاشة إلى الإشراق من جديد بمجموعة منوعة من الخطوط بألوان مختلفة.

«بحثتُ في المكتبة الإلكترونية الشاملة لجميع الأطياف التي ظهرت

78- الامتصاصية (ABSORBANCE): يشير مصطلح «امتصاصية» إلى الكمية الرياضية لشدة الضوء الذي تمتصه بعض جزيئات المادة، حين تعرضها للضوء.

هنا، لعلي أجد ما يتطابق مع الطيف هذا. ها هو... أترين هذا الخط الأزرق؟ إنه يتبع بشكل مستمر تقريباً أثر الخط الأخضر، الظاهر في العينة الأولى. ما أقصده هنا، أنّ البقعة على سطح الصفحة الممتزجة بالنبيذ، الملطخة لمخطوطتك».

«حسناً؟» بدأت بالصراخ مع كلماته الأخيرة «ما هذا إذاً؟».

«الخط الأزرق؟» قال بهدوء

«إنه دم».

بقعة النبيذ
البندقية 1609

«سأذهب إلى مذبح الرب».

• قداس لاتيني

أجراسٌ فضيّة مرتعدة دقتْ في رأسه، كما لو أن ألسنتها تصطدم بجدران جمجمته القرمزية الباردة. ماج الخمر في الكأس في يديه أثناء نصبه في مقامه فوق المذبح. لمست ركبته الأرض، فاستراح جبينه على الكتان الهش. تسمّر للحظة، أجاز لبرد الرخام التسرب من قماش المذبح، ثم نهض. بقعة عرق صغيرة، تركها جبينه هناك.

بدت الأمهات المسنات، في هذا القداس المبكر، ورعاتٍ للغاية، لاحظن تعثره الطفيف حين قام. شالات رثة انسدلت فوق رؤوسهن الحانية بخشوع للصلاة. فتى المذبح وحده، بعينين مشرقتين كسمندل الماء[79]، عقد حاجبيه معاً. لعنَ الشباب وجلاء أحكامه. حاول - الله وحده يعرف كم حاول - أن يقود عقله للتركيز على اللغز المقدس. إلا أن رائحة قيئه الكريهة قبل الفجر لم تغادر أنفه.

ظامئاً كان. قُبضتِ الكلمات على لسانه كرماد رقّ محروق. الرماد الذي هطل كأمطار دافئة بعد حرق آخر كتاب. مزقةٌ حطّت فوق رداء

79- السمندل المائي: حيوان مائي يشبه السحالي.

الكهنة الخاص به، رفع يده لإزالتها، لاحظ أن الكلمات لا تزال مقروءة، إنها رسائل أشباح شاحبة فوق الأرض المتفحمة. أحيلت إلى غبار عُصف بعيداً.

«به»- رشمَ الجسد بالدم، ثم رسم علامة الصليب.

«معه» -لاعناً ارتعاشه - و- كان الخبز المقدس يتراقص قرب الكأس مثل نحلة طنانة.

«المجد للآب والابن والروح القدس وعلينا نحن الضعفاء والخطأة الرحمة والحنان» ثم تلا مرتلاً الصلوات الربانية، حمل الله، صلوات السلام والتقديس والنعمة والشكر.

قام أخيراً بإمالة الكأس وشعر بالدم البارد العذب، لا بد أن الطعم اللذيذ القابض- يغسل الهموم والمرارة والارتجاف الرهيب من جسده. التفت لمنح المناولة للخادم. لكن لحسن الحظ، عيون الصبي مغلقة، حيث اختفت بصيرتهما خلف السياج الكثيف لرموشه. شق طريقه صوب سياج المذبح ثم قام بمنح مناولة الخبز الأبيض الناصع لست نساء مسنات.

في الموهف[80] بعد انتهاء القداس، شعر جيوفاني دومينيكو فيستوريني بنظرة الفتى من جديد، أما يداه المرتعشتان فكانتا تكافحان لفك عقدة الحزام.

«ما الذي تحوم حوله يا باولو؟ اخلع رداءك وتدبر أمورك. رأيت جدتك في القداس. اذهب الآن. لا بد أنها الآن في حاجة لذراعك».

«كما يحلو لك، أيها الأب». تكلم الفتى، بلطف شديد، كما اعتاد على الدوام أن يفعل، محتفظاً بعادته في الانحناء احتراماً. يعتقد فيستوريني، في بعض الأحيان، أن الولد يتقصد العجرفة، لكن باولو جميل الشمائل، شديد العناية بالتفاصيل، بالقرب من المذبح، أو خارجه. لم يسبق أن

80- الموهف: غرفة المقدسات في الكنيسة: أو الكيسة (بالإنكليزية: Sacristy) غرفة لحفظ الصداري (مثل الكتونة ورداء الكاهن وبدلة القداس) وغيرها من المفروشات الكنسية، وسجلات الرعية.

منحه أي فرصة ليلومه أو يشتكي منه. أما ازدراء الصبي فلا يظهر جلياً إلا عبر نظراته الفاحصة العميقة. ألقى على الكاهن نظرة متفرسة من نظراته تلك، ثمّ ابتعد ليبدل ملابسه، ساهمت إيماءاته المقتصدة الساخرة الفعالة بتلعثم فيستوريني. خرج من الباب من دون أن يضيف أي كلمة.

في الموهف وحده الآن، فتح فيستوريني الخزانة المحتوية على نبيذ القربان غير المقدس. لتصدح سدادة الفلين بصوت ندي ناعم أثناء نزعها عن إناء الخمر. لعق شفتيه. كان الإبريق البارد متكاثف النداوة مغبشاً، حركه فيستوريني بعناية، خشية وقوعه من يديه المرتعدتين. احتسى جرعة كبيرة، تلتها جرعة فجرعة. كان على وشك أن يعيد السدادة إلى مكانها في إناء الخمر، لكنه أخذ بعين الاعتبار الفجر الذي امتد أمامه. إضافة إلى أن مكتب المحقق الباباوي في فينيسيا ليس معروفاً بسخائه. فالغرف التي خصصها دوج لأعضاء محكمة التفتيش معتمة، مفروشة على نحو رديء وفقيرة بالمؤونة. اعتقد فيستوريني أن دوج يحاول إثارة نقطة تفضي إلى أن التابعين لروما يشغلون منصباً ثانوياً في الولاية، بحيث يتخذ هو والعشرة الأوائل جميع القرارات المهمة. على أي حال، لن يتمكن من الحصول على أي مشروب آخر قبل ساعات الظهر، لذا رفع الإبريق مرة أخرى وترك السائل المخملي يسيل إلى أسفل حلقه.

مضى فيستوريني بخطوات جذلى بعد إغلاق الباب الجانبي لكنيسته، مغادراً نحو ضوء الصباح الباكر. الشمس عالية بما يكفي للوصول إلى الشارع الضيق، لتقذف حبائلها المرقطة صوب أمواج القناة المتراقصة التي طلَت بدورها الحجر بفضة ساطعة. بدا قرع جرس مارانجونا، أعمق وأكثر رنيناً من أي جرس آخر في المدينة. إنه يعلن بداية يوم العمل في أرسنالوتي، فتح البوابات في غيتو القريبة، مع صلصلة مصاريع الأبواب للمتاجر في كامبيلو الواقعة أمام الكنيسة.

تنفس فيستوريني بعمق. لا يزال، حتى بعد مرور ثلاثين عاماً في المدينة، يعشق ضوء ونسيم مدينة البندقية. المدينة التي يمتزج فيها عبق

البحر المالح مع الطحالب والعفن والجص الرطب. كان عمره ست سنوات فقط أول مجيئه إليها، حاول الإخوة في دار الأيتام تشجيعه على التخلص من ذكريات الماضي كلها، إلى جانب لهجته وآدابه الأجنبية. علموه أن التعلق بالذكريات أمر غامضٌ ومخزٍ، يشير إلى عدم امتنانه لبركاته الحالية. تلقى تعليمات تفضي بدحض أفكار والديه المتوفيين وإنهاء الحياة القصيرة التي شاركهما فيها. لكن في بعض الأحيان، لا بد في الأحلام، من اندلاع لبقايا الصور، أو بفعل شلل يصيبُ إرادته بتأثير الثمل. لطالما أضيء الماضي الجاثم في تلك الشظايا العائمة، بجفلة وهاجة، بغبارٍ عصفت به الرياح اللاذعة بعيداً.

بينما كان يخطو فوق الجسر، مر بعامل سفينة حمولة، يقوم بتوصيل اللحم للجزار ولعاملات الغسيل قرب القناة. تعرف على العديد من رعاياه. حياهم، كفرد من العائلة، بكلمات دمثة أو استفسارات لطيفة. دفع متسول فاقدٌ ساقه جسده إلى الأمام متكئاً على جذعين من المفترض أن يكونا ذراعيه. «أيها الرب العظيم» قام فيستوريني بأداء صلاة باطنية للرجل، الذي كان تشوهه بشعاً لدرجة أن الجراح ذاته سيصعب عليه معالجته، من دون أن يرد بصره بعيداً. وضع قطعة نقدية على طرف المتسول المرتشح بالصديد، قام، مقاوماً اشمئزازه، بوضع يده على رأسه الأجرب ثم باركه. استجاب المتسول بنخر حيواني، بدا وكأنه تعبير عن الامتنان.

ككاهن أبرشي، بذل فيستوريني قصارى جهده لاختلاق الفائدة في حياة رعيته. لكن في الحقيقة، لا يجذبه العمل في الكهنوت. إن ولاءه الأساسي لكنيسته كامنٌ في مكان آخر. صحيح أن فيستوريني تلقى الاعتراف بقدراته، من قبل الأخوة، منذ تبنيهم إياه كيتيم. حين أذهلتهم براعته بإتقان اللغات وفهمه الفائق للعلم اللاهوتي المعقد والمجرّد. لذا قاموا بتعليمه اللغة اليونانية والآرامية والعبرية والعربية، التي استوعبها جميعاً. كان تعطشه للمعرفة في تلك الأيام عظيماً؛ الآن، عطش آخر يدير وجوده.

عندما أعلن البابا سيكستوس الخامس، في عام 1589، حظراً على كتب اليهود والساراسين [81] التي تحتوي على أي شيء ضد الدين الكاثوليكي. أضحى الكاهن الشاب فيستوريني، بالطبع، خياراً طبيعياً للعمل كرئيس للمحققين. أمضى دومينيكو سبعة عشر عاماً، طوال حياته تقريباً في الرهبانيات المقدسة، يقرأ ويصدر الأحكام على الديانات الأخرى. كعالم يمتلك تقديساً فطرياً للكتب، سمة لا بد من إخضاعها أثناء مهمته المناقضة لإحساسه القاضي بتدمير الكتب. كثيراً ما سلب لبه، جمال الخط العربي المائل. في أوقات أخرى، توقف عند حجة مقنعة يقدمها يهودي متعلم. لطالما استغرق وقته للنظر في المخطوطات البديعة. لكنه إن قرر، في النهاية، وجوب اصطلائها بالنيران، يحاول تجنب النظر في الرق المتفحم. أما بالنسبة للكتب المسيئة الداعية للإلحاد، فكانت ألسنة النيران المستعرة بها تبهجه كخطوة للتطهير، لتخليص الفكر الإنساني من الضلال.

كتاب من الكتب المحرمة في جعبته هذا الصباح، إنه نص يهودي. عليه أن يستهل عمله الصباحي بصياغة أمر خاص بتسليم جميع النسخ في المدينة إلى مكتب المحقق، حيث سيتم إرسالها إلى النار. جالت الكلمات والعبارات التكفيرية في رأسه، أما حروفها العبرية فهي مألوفة بالنسبة له مثلها كمثل الأحرف اللاتينية:

«إن عبادة المسيحين ليسوع، ليست سوى وثنية، تفوق بكثير عبادة الإسرائيليين للعجل الذهبي. ضل المسيحيون في قولهم: إن شيئاً مقدساً دخل امرأة من ذاك المكان النتن... الزاخر بالغائط والبول اللافظ للمفرزات ودم الحيض، مكانٌ بمنزلة حوضٍ لسائل الرجال المنوي».

يتساءل فيستوريني، في بعض الأحيان، كيف لا تزال هذه العبارات

81- الساراسين أو ساراكينوس (باللاتينية: Saracenus، ساراسينوس؛ باليونانية: Σαρακηνός، ساراكينوس) مصطلح استخدمه الرومان للإشارة إلى سكان الصحراء في إقليم البتراء الروماني، ثم أصبح يطلق على العرب في العصور الوسطى. توسع المصطلح خلال الحروب الصليبية ليشمل كل الذين يدينون بالإسلام.

محفوظة في نسخ رقِّية، بعد أكثر من مئة عام من محاكم التفتيش، في حين تعرض اليهود والعرب للتغريم والسجن حتى الموت، بتهم تجديف أقل بكثير من هذه. افترَض أن انتشار دور الطباعة في البندقية سبب في الأمر، بالرغم من منع اليهود رسمياً من ممارسة أعمال النشر، مع ذلك ازدهرت دورهم خلف جبهات واهية لبعض المسيحيين الراغبين في منح أسمائهم مقابل بعض النقد الذهبي.

لا يمكن لأي رجل يرغب بالعمل في مجال الطباعة والنشر أن يحصل على موافقة بذلك. من الواضح أن البعض إما جاهلون أو خبثاء. يتوجب عليه مناقشة القضية مع يهوذا أريبه. يتوجب على اليهود إحكام السيطرة على منشوراتهم، أو يقوم المحقق ملزِماً إياهم بهذه المهمة. من الأفضل إبقاء مكتب التفتيش خارج جدران غيتو. حتى الشخص الأقل ذكاءً من يهوذا سيلاحظ، بالتأكيد المغزى من ذلك.

كما لو كانت أفكاره تستحضر الرجل من الحجارة، رأى فيستوريني القبعة القرمزية للحاخام يهوذا أريبه، يقطع وسط حشد أمامه الطريق في فريزيريا[82] حيث يقوم حرفيو الأسهم بتصنيع سلعهم. كان يمشي بجسد محدودب الظهر، ورأسٍ منحنٍ، بوضعية اعتاد عليها أثناء وجوده خارج غيتو. رفع فيستوريني يداً للرجل، لكنه سرعان ما تردد. نظر نحو الحاخام متأملاً للحظات فيه. كم من الإذلال تعرض له هذا الرجل، بما استلزمه الانحناء بهذا الشكل المزعج: من إهانات مسيئة لفتية رعْن، من تهكم وبصاق يمارسهما الجهلاء. إن قبل الزميل المتيبس العنق تبني حقيقة المسيح، يمكنه إذاً إنهاء هذه الإساءات.

«يهوذا أريبه!».

استدار رأس الحاخام، كغزال يتوقع أحد سهام الحرفيين. حين رأى فيستوريني، استرخت تعابير الحذر في وجهه، وحلت محلها ابتسامة بهجة حقيقية.

82- فريزيريا (Frezzaria): شارع يقع في حي سان ماركو في البندقية.

«دومينيكو فيستوريني! مضى وقت طويل، أبونا، منذ رأيتك في كنيسي».

«آه يا حاخام، الكثير من الإذكار يثير في النفس جلاء عيوبها. قد يرغب المرء في التعلم منك، لكنه في الوقت نفسه يشعر بالخزي بفعل بلاغتك».

«أبتاه، لا تسخر مني».

«لا حاجة لتواضع زائف معي، يهوذا». كان الحاخام مشهوراً بفصاحة تفاسيره للإنجيل حتى أنه ألقى موعظة في أربعة كُنس مختلفة في السبت اليهودي، كما خطب بالعديد من المسيحيين، بمن فيهم الرهبان والكهنة والنبلاء، الذين قدموا لغيتو لسماعه فحسب.

«أكد أسقف بادوا، الذي دعوته لسماعك آخر مرة، أنه لم يسبق له الاطلاع على تفسير لكتاب أيوب، بمثل هذه البراعة»، قال فيستوريني. لم يضف أنه سمع الأسقف يعظ بالنص ذاته بعد بضعة أسابيع، في كاتدرائية بادوا، لم يفكر في خطبة الأسقف بأكثر من كونها دقيقاً مطحوناً بالفعل بين أحجار عقل الحاخام. كان فيستوريني متأكداً أن القليل من الكهنة الذين جاءوا للاستماع، فعلوا ذلك بغية سرقة كلمات الحاخام. عن نفسه، لم يكن المحتوى هدفه، بل أسلوب الإلقاء المشذب والعاطفي الذي رغب بشدة في تقليده. «هلا قبضتُ على المحفل في يدي، كما فعلتَ؟ أحاول تعلم أسرارك، بأن أقدم كلمة الكنيسة الأم بشكل أفضل، ولكن للأسف! لا تزال مبهمة أمامي».

«أفكار الإنسان وقدرة التعبير عنها هبة من عند الله، إن كانت كلماتي تحظى بالرضا، فليكن ذلك تمجيداً للرب». كبت فيستوريني نظرة سخرية. هل يستطيع الحاخام بالفعل أن يصدق مثل هذه الأقوال المداهنة؟ لاحظ أرييه تعابير فيستوريني المستاءة فغير نبرة صوته: «فيما يتعلق بالأسرار، يا أبتاه، ليس لدي سوى سر وحيد: إن كانت الجماعة تتوقع عظة بزمن أربعين دقيقة، فامنحهم واحدة لا تتجاوز

الثلاثين. إذا توقعوا الثلاثين، فامنحهم عشرين. لم يسبق لي، طوال سنواتي التي قضيتها كحاخام، أن اشتكت روح من أن الخطبة قصيرة جداً».

ابتسم الكاهن عند هذه الكلمات. «الآن أنت الذي يسخر مني! لكن، إن أردتَ تعال لتتمشى قليلاً، لدي مسألة لأناقشها معك» استقام يهوذا أرييه أثناء حديثه مع فيستوريني، إنه محمي الآن من قبل رفيقه المرموق، مشى منتصباً، ألقى بكتفيه للخلف رافعاً رأسه. تسلل شعره الداكن أسفل قماش قبعته القرمزي في تجعيدات ناعمة بلون كستنائي حيوي، مثله مثل لحيته. يحسد فيستوريني يهوذا على جسده الطويل القامة المشدود العضلات، النحيل إلى حد ما، مع بشرة ذات لون زيتوني ذهبي، بعكس الجلد الباهت الذي وسم الكثير من العلماء. لكن الانطباع المشوه لا يمكن النجاة منه، كان بفعل غطاء الرأس هذا.

«يهوذا، لماذا ترتدي هذه القبعة؟ أنت تعرف أنه ليس مستحيلاً بالنسبة لك الحصول على إذن لارتداء قبعة سوداء» يرمز اللون القرمزي لدم المسيح الذي أسقطه اليهود فوق رؤوسهم. لكن فيستوريني كان على معرفة بعدد من اليهود الذين حصلوا على استثناء.

«الأب دوم، أعرف جيداً، يمكن للمرء بوجود المعارف والمال، القيام بكل شيء تقريباً في البندقية. المال، لا أملكه كما تعلم جيداً. أما بالنسبة للأصدقاء، نعم، لدي العديد ممن يجنبونني هذا الفرض. بكلمة من هنا أو من هناك، يمكنني، كما أشرت، ارتداء قبعة سوداء والعبور من دون تحرش. لكن إذا فعلت ذلك، فلن أعرف الحياة كما يعرفها الناس في مجتمعي. لا أريد أن أكون منفصلاً عنهم. أنا مختالٌ بما يكفي لجعل ابنتي تخيط قبعاتي من المخمل وتعقدها بالحرير، لكنني سأفعل ما يتطلبه القانون، لأن قيمة الرجل لا تأتي مما يرتديه على رأسه. قبعة حمراء، قبعة سوداء ماذا يهم؟ لا أحد يستطيع إخفاء وجهة نظري».

«أحسنت القول. إنني على دراية بأسبابك التي تميل لنظام البينديكتين».[83]

«لكنني لا أعتقد أنك طلبت مني أن أمشي معك لمناقشة موضوع القبعات».

ابتسم فيستوريني. لم يرد أن يعترف بذلك، حتى لنفسه، لكنه لطالما شعر أنه أقرب لهذا اليهودي الذكي الحدق، أكثر من أي كاهن في نظامه.

«لا لن أفعل. اجلس لحظة، لو سمحت». أشار فيستوريني نحو جدار منخفض بجانب القناة. «اقرأ هذا»، قال وهو يمرر بالكتاب، «افتح عند المقطع المهين».

قرأ أرييه، تمايل قليلاً، كما لو أنه في الكنيس. حدق عبر القناة حين انتهى، متجنباً عيني صديقه. «هناك انتهاك جلي للنص» قال بلهجة محايدة تماماً، لا تعبر عن أي مشاعر قوية. لاحظ فيستوريني مراراً وتكراراً أنه بالرغم من أن أرييه، جاء مثله، إلى البندقية من مكان آخر، فإنه يهودي يتحدث بلهجة رجل بندقي الأصل؛ بلهجة مدنية لينة مغرية، تكسوها إيقاعات مميزة مرافقة لبلدته كاناريجيو. حاول الكاهن على الدوام أن يجعل خطابه أصيلاً، لكنه عجز عن التخلي بشكل تام عن لهجات طفولته.

«الأمر أكثر خطورة من ذلك». قال فيستوريني: «هذا النوع من النصوص استفزازي متعمد لجذب الانتباه، وإثارة غضب المكتب المقدس على غيتو كلها. من الأفضل لك يا صديقي أن تتعامل مع هذا الأمر بنفسك، قبل أن نلتزم بذلك. يتوجب عليك إغلاق هذه المطابع».

استدار يهوذا أرييه لمواجهة الكاهن. «لم يكتب مؤلف هذا النص ما كتب بقصد الاستفزاز، إنما لمجرد التعبير عن الحقيقة كما يتصورها.

83- نظام القديس بنديكت (باللاتينية: Ordo Sancti Benedicti) هو نظام ديني كاثوليكي من مجتمعات رهبانية مستقلة تحترم دور القديس بنديكت. يحافظ ضمن هذا النظام، كل مجتمع فردي (دير أو كنيسة) على استقلاليته الخاصة، بينما توجد المنظمة ككل لتمثيل مصالحها المتبادلة.

لقد قام علماء اللاهوت الخاصون بكم بربط المنطق بوثاق ليقدم عقيدة تتناول النقطة ذاتها. رغم كل شيء، ما هي حقيقة البشارة؟ إن سمة التقصي والتأمل في العقول تجعلها تسعى جاهدة للتعامل مع الحقائق غير المحتشمة للجسد. نحن اليهود أكثر صراحة حول مثل هذه الأمور».

كان فيستوريني على وشك الاحتجاج، بعد أن أخذ نفساً عميقاً. لكن أريبه رفع يداً أحبطت نيته. «لا أريد أن أضيّع هذا الصباح الرائع في مجادلة عن اللاهوت معك. أعتقد أننا تعلمنا منذ زمن طويل، أنت وأنا، كم من المكاسب الضئيلة تصيبنا منه. لنضع جانباً مزايا أو عيوب عملنا في هذا المجال الدقيق. أعتقد أنك بحاجة للنظر بشكل واقعي للموقف الذي وسم مكتبك في مدينة البندقية. إن عدد الحالات التي يتمكن المحقق من تقديمها للمحاكمة هنا يتناقص سنة بعد سنة. بينما يتم إبطال معظمها في المحكمة لعدم وجود أدلة. أنا لا أقول إننا لا نخاف منك، لكننا لا نهابك كما كنا نفعل من قبل. هلا أخبرتك بما يقوله شعبي عن مكتبك: السم فاقد الفعالية، وأنك فقدت الوصفة لتطبخ المزيد منه».

التقط فيستوريني الأشنيات النامية على الحجر بجواره. إحساسٌ داخله هناك، كما هو حاله دائماً يؤيد ما قاله صديقه. حتى البابا الراحل، غريغوري الثالث عشر، حدد نقطة الضعف التي تحدث عنها الحاخام حين اعترف بها قائلاً: «أنا البابا في كل مكان ما عدا البندقية». لكن فيستوريني شعر بحنق خطير ضد البابا الجديد في روما. قد لا يقف بوجه دوج والعشرة مباشرة، لكنه قادر على المواجهة عبر مساعدة يهود المدينة. حتى الوحش الجريح يمكنه جمع قواه لطعنة مخلب أخيرة.

«حاخام، آمل - وأقول هذا بإخلاص - أنه ليس لديكم سبب لاختبار مرارة الإرهاب مرة أخرى. من المؤكد أن أولئك، أحفاد المغترب الإسباني ما زالوا يتذكرون الظروف المريرة التي عاشها أجدادهم؟».

«لم ننس. ولكن هناك ليس هنا. الأمس ليس اليوم. محاكم التفتيش الإسبانية كانت بمنزلة كابوس، لا يزال الكثير منا عاجزين عن الاستيقاظ

منه. مع ذلك فنحن الإيطاليين، الذين جرب أسلافهم الإقصاء العظيم، لسنا سوى مجموعة واحدة، مجموعة متماثلة من الذكريات. هناك الهولنديون، الألمان، أهل بلاد الشام. كيف لا نشعر بالأمان هنا، بينما تحظى كل أسرة نبيلة بصداقة يهودي! في حين لا يسمح الرئيس حتى لمحاكم التفتيش، بفرض العظات الخاصة بتغيير الاعتناق الديني!!».

تنهد فيستوريني ثم قال: «أنا نفسي نصحت المحقق بالعزوف عن هذه الخطابات». «أخبرته أن ذلك لن يؤدي إلا إلى إثارة سخط شعبك، لن يهذبه». أما السبب الحقيقي فكان كامناً في عدم رغبته بفضح عقدة نقصه في إلقاء الموعظة في التجمعات الخاصة المدمنة على الاستماع ليهوذا أريه. انتصب الحاخام على قدميه. «يجب أن أهتم بأعمالي، يا أبتي». قام بسحب قبعته، متسائلاً عما إذا كان من الآمن التعبير عن رأيه بمثل هذه الصراحة. لكنه قرر أن للكاهن الحق في معرفة منطقه. «أنت تعرف أن كنيستك لديها وجهة نظر خاصة حول هذه المسائل، شديدة الاختلاف عما لدينا. منذ اليوم الذي صدرت فيه الصحف المطبوعة، وكنيستك ترفض تناول أيدي الناس العاديين للكتب المقدسة. لدينا وجهة نظر مختلفة. فالطباعة بالنسبة لنا عمل مقدس. شبه بعض الحاخامات الصحافة بالمذبح. كما أطلقنا عليها عبارة «الكتابة بالعديد من الأقلام». لقد وجدنا أنها تزيد من انتشار الكلمة، التي بدأت بكلمة موسى على جبل سيناء. لذلك يا أبي الصالح، لك أن تذهب وتصدر قراراً بحرق ذلك الكتاب، كما تتطلب كنيستك منك. أما عني، فلن أقول شيئاً للمطبعة، كما يتطلب ضميري مني. فالرقابة المسبقة أو الرقابة القمعية لهما التأثير نفسه. وفي كلتا الحالتين، يتم تدمير الكتاب. من الأفضل أن تفعل أنت ذلك، من أن تستعبدنا فكرياً لدرجة أن نقوم بالأمر من أجلك».

لم يمتلك فيستوريني أي إجابة جاهزة للحاخام، الأمر الذي أثار غضبه. لقد بات مدركاً ماهية الجلجلة البليدة لمعبده.

افترق الرجلان بوداع بارد، حيث غادر يهوذا أريِيه الكاهن، جالساً، بجوار القناة. ابتعد الحاخام بقلبٍ نابض بشدة. هل كان صريحاً جداً؟ لا بد أن أي شخص سمع حديثهما المُتبادل السابق، سيلهث لشدة غطرسته، قد يتساءل إن كان فيستوريني سيتخذ خطوة بإرساله إلى قادته! لكن المصغي ذاته لا يعرف شيئاً عن التاريخ الذي يجمعهما. إنهما صديقان، كلمة لها معنى عميق في ظروف كظروفهما، صداقة دامت عشر سنوات. لماذا، سأل الحاخام نفسه، يخفق قلبه بهذه الشدة إذاً؟

بمجرد أن غدا بعيداً عن ناظري فيستوريني، أوقف أرييه خطاه، ثم انحنى نحو الحائط متنفساً الصعداء. أصابته أنفاسه بوجع داخل صدره. آلام رافقته سنوات عديدة. يتذكر جيداً صدره السقيم منذ اليوم الأول الذي قابل فيه الكاهن، في مكتب المحقق. خاطر يهوذا أرييه يومها كثيراً حين ذهب عن طيب خاطر إلى المكتب المقدس، حيث طُلب منه الادلاء بدلوه. تحدث لأكثر من ساعتين، بلغة لاتينية بليغة، في محاولة للحصول على رفع جزئي للحظر المفروض على التلمود. العمل المكون من جزأين كان تقطيراً للفكر اليهودي منذ أيام المنفى، أما منعه فبلاء عظيم، صيام فكري وجوع مقيت. بالنسبة للمشناه[84] جسد العمل، فلا يوجد أي أمل في إنقاذها. لكن بالنسبة للجزء الثاني من التلمود، فإن الجامارا[85]، فبإمكانه، وفق اعتقاده، أن يناقش بأمرها. فالجامارا مجرد تبادل للآراء الحاخامية، إنها مجموعة أفكار ونزاعات. دافعَ بفكرة متعلقة بطلب النظر للجامارا كمساعد للكنيسة وليس لإيذائها. حيث أثبت أن الحاخامات أنفسهم يختلفون في جوانب من القانون اليهودي.

84- المشناه (بالعبرية: המשנה) الكلمة تشير بشكل محدد إلى دراسة الشريعة الشفوية، وهي أول ما ألف في التوراة الشفهية، وتتضمن الشرائع ومجموعة واسعة من الشروح والتفاسير تتناول أسفار العهد القديم التي قالها التنائيم.

85- الجمارا הגמרא تعني التكملة. الجمارا هي نقاش حول المشناه. إذ بعد سنة 200 للميلاد. حيث جرى على مدى ثلاثة قرون، تحليل ونقاش بما يخص المشناه في فلسطين وبابل.

لا بد أن الدليل على تكريس هذه الانقسامات داخل اليهودية، سيسهم في تعزيز موقف الكنيسة المناهض لعقيدته وإنقاذ الكتاب؟

وقف فيستوريني خلف كرسي المحقق، ضاقت عيناه، إنه على دراية بالنصوص العبرية عن قرب، خاصة بعد مصادرته وتدميره للكثير من نسخ التلمود. كان يعلم أن أي حاخام متعلم الدين المعتدل يمكنه الاعتماد على الجمارا لإعادة بناء نص مشناه لعينٍ لمريديه. لكن المحقق سمح لنفسه بالوقوع في فخ الحجج الذكية التي استخدمها الحاخام. فمنح اليهود الموافقة على الاحتفاظ بنسخ من التلمود كما هو حاله بين أيديهم، طالما يتم تنقيحه بشكل صحيح.

بالرغم من خسارته بمنافسة الذكاء، فإن فيستوريني كان متأثراً جداً بأريه، بتعليمه، بشجاعته، بدهائه كذلك. الأمر، كما تأمله، أشبه بمراقبة كيميائي يُظهر تفاعلات مضللة. تعلم أنه يتلاعب باحتيال، تراقبه بعناية قدر ما تستطيع. مع ذلك، تبقى اللحظة الحاسمة والخام المضاف وسائل غامضة بالنسبة لك. ها هو الحاخام، يهجس بإنقاذ نصوصه، إنه حريصٌ على مغادرة قاعة المحقق مصطحباً إياها. انحنى فيستوريني مقترباً منه، هامساً، «يهوذا الأسد... كان من الأفضل أن يطلقوا عليك اسم يهوذا الثعلب». نظر الحاخام إلى عينيّ الكاهن فلم يلحظ الغضب على نحو التحديد، بمقدار ما تجلت مشاعر متناقضة أصابت خاسراً تجاه خصمه المحنك. حظي أريه على فرصة زيارة المكتب المقدس لمرة ثانية. أخبر مساعد الكاهن بتقديمه لفيستوريني بـ «الحاخام يهوذا فولبيس[86]». سرعان ما جاء فيستوريني لينعم بالمناوشة مع أريه، الرجل المتمرس بالتلاعب بالألفاظ عبر لغات ثلاث.

لطالما عاش الكاهن حياة منعزلة. صغيراً في دار الأيتام، أصابته لهجته السمجة، بعار أشار بأصابع واضحة إلى ماضٍ أجبره على تحاشي الأولاد الآخرين. في معهد اللاهوت، ساهمت اهتماماته وقدراته الفذة

86- فولبيس(Vulpes) «الثعالب باللاتينية».

في الابتعاد عن أقرانه. أما مع أرييه، فبإمكانه الكفاح في ظل مساواة فكرية جذابة. إنه يدرك أن أرييه لا يضيع وقته سدى، حين يستميت في دفاعه عن بدعة واضحة أو انتهاكات جلية للنص. كان يسمح للحاخام، في بعض الأحيان، بإقناعه بوجهة نظره. كأن يقوم بالتنقيح بدلاً من التدمير، قام مرة أو مرتين برفع قلمه لإرجاء تمزيق نص متوعد، وكتب عبارات الحكم اللازم في أولى صفحاته.

دفعه اهتمامه بأرييه، أخيراً، إلى التغلب على كراهية طويلة الأمد، إلى عبور الجسر الصغير نحو غيتو. الكثير من زملائه الطلاب، إبان دراسته الأكاديمية، داوموا على التوجه إلى هناك بانتظام. استدراج اليهود، كانت التسلية المفضلة لبعض الشباب. آخرون قصدوا المكان بروح صادقة من التبشير بالإنجيل لكسب النفوس. عدد قليل منهم غدوا مخاطرين بأنفسهم للتورط بمتع محرمة. لكن فيستوريني تبنى فكرة مناهضة لغيتو تفضي إلى رفضه المطلق لزيارة حي مسور لا يزحف فيه سوى اليهود. جعلته الفكرة نفسها يشعر بأنه محاصر، مختنق ونجس.

اليهود الأوائل الذين استقروا في مدينة البندقية عام 1516 كانوا من المصرفيين الألمان. تبعهم آخرون، لكن لم يسمح لهم بممارسة سوى ثلاثة أنواع من العمل:إدارة محال الرهن، التي عملت على تقديم قروضٍ بتسهيلات كبيرة لسكان البندقية الفقراء، ومتاجر «سترازاريا» لبيع وشراء السلع المستعملة، إضافة إلى ممارسة التجارة الخارجية للاستفادة من علاقاتهم مع بلاد الشام بغية تسهيل أعمال التصدير والاستيراد الواسعة في المدينة. لم يُسمح لليهود بالعيش إلا في منطقة صغيرة كانت ذات يوم مسبكاً للحديد في المدينة، أو غيتو، جزيرة الرماد المسورة، يصلها بالمدينة، جسران ضيقان فقط، بينما تغلق بواباتها كل ليلة.

لكن مع مرور السنين، تحمس بعض أهل البندقية لوجود اليهود بينهم، حيث استأجروهم لأداء موسيقاهم الجنائزية، كما بحثوا عنهم كأطباء أو مستشارين ماليين. بالنسبة لليهود، فإن واقع احترام حقوق

الملكية الخاصة بهم واحترامهم للقانون جعل البندقية أرضاً واعدة نابضة بالحيوية مقارنةً بحال أماكن أخرى.

لذلك استمرت عائلات البونوتيني اليهودية، المطرودة من إسبانيا، وبعدها من البرتغال من قبل السلطات الكاثوليكية، الفارة من مذابح المدن الألمانية؛ إضافة إلى اليهود الشرقيين الهاربين من بلاد دائمة الاضطرابات مثل مصر وسوريا. تضخم المجتمع اليهودي إلى ما يقارب ألفي شخص، كما تكدست مساكنهم شقة فوق الأخرى، ست أو سبع عائلات كبيرة تقطن معاً، حتى أضحت غيتو المنطقة الأكثر كثافة سكانياً، ذات المباني الأعلى في البندقية. عندما استفسر فيستوريني عن الطريق إلى كنيس يهوذا، تم إرشاده إلى مبنى ضيق شاهق. يصل أعلاه عبر درج مظلم شديد الانحدار، حيث تشارك بيت العبادة الخاص بالحاخام مساحة من السطح، مع برج حمام وقن دجاج.

بالرغم من أن أسباب انجذابه الأولى للحاخام ناجمة عن انسجام فكري، فإن الضعف، وليس القوة، هو الذي ترك بصمته على علاقتهما. حدث، بعد ظهر أحد الأيام، أن يهوذا كان يسير في المنطقة الواقعة بين غيتو وكنيسة الكاهن، حيث سلك دروب كاليتوس وروغيتاس الضيقة في محاولة تحاشي المضايقات في الطرقات المزدحمة. نشالٌ قطع طريقه، منحنياً فوق جثة ضحيته. هرب الرجل، ثم سرعان ما تعرّف يهوذا على دومينيكو منتشياً بحالة من السكر، برأسٍ نازفٍ بفعل ضربة السارق، ورداء مبلل بالبول. خاض الحاخام مخاطرة شخصية كبيرة، متحدياً حظر التجول، في سبيل الحصول على بياضات نظيفة، ومساعدة الكاهن لاستعادة مظهره الرصين. فلا يصل إلى كنيسته أي خبر عن المشهد المخزي الذي سببه لنفسه.

عندما حاول دومينيكو شكر يهوذا، همس الحاخام أنه يمتلك بدوره نقطة ضعف يستغلها الشيطان من وقت لآخر. لم يقل أكثر. مع ذلك، ينال ضعف أرييه من ذهنه، حيث يصرف انتباهه عن صلاته نهاراً، ومن تبادل

الحب مع زوجته ليلاً. كان، كلما انهار مستنداً إلى الحائط في الشارع، بقلبٍ قافزٍ بإيقاع سريع مضطرب، يعلم أن الألم في صدره لا يأتي فقط من جسارة نقاشه مع الكاهن. كما أنه غير ناجم عن مهمة صباحية - غير مشروعة وخطيرة. أمور اجتمعت مع صوت متذمر يدق في رأسه، صوت فتّان لا يمكنه الهدوء. وحده الله الشاهد على محاولاته العنيدة، لترتيب مغادرة البندقية قبل أن يبدأ الكرنفال[87] في غضون أيام قليلة. أراد أن ينأى بنفسه بعيداً عن متناول الخطيئة. إن القدرة على العيش خلف قناع، كرجلٍ آخر، أن يقوم بفعل ما لا يفعله اليهودي - إغراء غير محتمل يطغى عليه. تمكن السنة الفائتة، من الحصول على وظيفة كمدرس خارج المدينة. لكن تم تمديد موسم الكرنفال عاماً بعد عام، حيث بات من الصعب العثور على مواعيد موائمة حتى انتهائه. تقدم السنة بطلب لتدريس شاب في بادوا، كما عرض القيام بدور بديل لأي حاخام مريض على البيمة[88] في فيرارا. لكن لم يُدعَ لأي منهما. مع اقتراب موعد الكرنفال، بحثت زوجته، التي تعرف حجم الخطر، بين ملابسه عن القناع والقبعة اللذين سيجعلانه غير قابل للتميز من غير اليهود في البندقية. وجدت، أخيراً، المكان حيث أخفاهما بين الخردة ودبابيس الأقمشة التي تخص ابنتهما الخيّاطة. أخذت القطعتين مباشرة إلى سترازاريا وباعتهما. شكرها على ما فعلته وقبلها بحنان على الجبين. أصابته، حيال ذلك، حالة من الارتياح العميق ليوم أو نحو ذلك، حيث ركائز وصمه بالعار، أضحت بعيدة عن متناول يده. لكن سرعان ما طغى الكرنفال على تفكيره، والفرصة التي سيتيحها له.

حتى الآن، حين يحتاج إلى فطنته، يقوم ثعبان بلف نفسه حول كل فكرة، ضاغطاً على العقل والضمير. شق طريقه بمجموعة من الخطوات

87- كرنفال البندقية (Carnevale di Venezia) مهرجان سنوي يقام في مدينة البندقية بإيطاليا. ينتهي الكرنفال بالاحتفال المسيحي بعيد الصوم الكبير، بأربعين يوماً قبل عيد الفصح. يشتهر المهرجان بأقنعته المعقدة.

88- البيمة: (المنبر) في الكنيس اليهودي الأرثوذكسي، المنطقة المرتفعة حول الحرم في المعابد اليهودية حيث تقرأ التوراة.

بالقرب من ريالتو حيث طلب منه الانتظار. لا يحبذ الوقوف بهذه الحال، مكشوفاً، في قلب المدينة. شعر أن الناس يحدقون به. قام المواطنون بدفعه أثناء تجاوزه، دمدم بتعليقات ساخطة. أما الارتياح الهائل فبزغ أخيراً، حين رمق قائد الجندول يسحب القارب نحو المدرجات. قاربٌ مطلي باللون الأسود عاري الزينة، اللون الذي تفرضه القوانين لثني سكان البندقية عن الاستعراض المختال لثروتهم. اللون الموحد، جنباً إلى جنب الحرية الأسطورية التي يقتنيها قائد الجندول، يساعدان على خلق جو من السرية للعشاق.

شق أريبه طريقه بحذر فوق الدرجات الحجرية الزلقة، مدركاً أن مشهد يهودي يستقل الجندول أمرٌ ليس بشائع أبداً. بدا مضطرباً، أما قلبه المرتجف بشدة فتسبب له بقليل من الدوار. من المفترض حين يصل البندقيُّ، أن يمسك بيد صاحب الجندول كي يتوازن بقامته داخل المركب وصولاً إلى مقعده. لكن أريبه لم يكن متأكداً من شعور الرجل حول لمسه من قبل يهودي. إذ يمكن استغلال هذه اللمسة لتمرير الأرواح الشريرة للمسيحين عبر السحر الذي يمارسه اليهودي، خرافة سادت على نطاق واسع بين أهل البندقية. حين وضع قدمه في القارب، اهتز بفعل مروره، تأرجح أريبه، ملوحاً بذراعيه مثل طواحين الهواء، ثم هبط على عجزه. علت قهقهات ريالتو الجلفة. كثير من البصاق هطل من جدار القناة فوق قبعته.

«ديو!»[89] صرخ صاحب الجندول، انحنى نحو الأسفل وطوق الحاخام بذراعين قويتيّ العضلات بفعل التجذيف. انتصب الحاخام على قدميه، فقام الرجل بتنظيف ملابسه باهتمام، ثم قام برمي كمية كبيرة من الملح ليغلق أفواه الشباب الضاحكة على الشاطئ.

وبخ أريبه نفسه لأفكاره السلبية عن صاحب الجندول. بالطبع، لن يكون لدى رينا دي سيرينا من يبغض يهودياً في خدمتها. ها هي جالسة، تنتظره، في فيء المقصورة.

89- ديو: لفظة ايطالية تعني الله.

قالت وهي ترفع حاجباً: «تفضل بالدخول يا حاخام». «ليست طريقة حصيفة للركوب على متن القارب. لكن، لا بأس، اجلس الآن» ثم أومأت إلى وثار حريري مطرز بجوارها. بدت المقصورة مغطاة بقماش داكن أسفل الشراع الأسود. بينما بُطّنت في تناقض مثير في داخلها ببروشيات ذهبية اللون هازئة من قوانين البذخ المفروضة.

وصلت رينا دي سيرينا إلى البندقية في ظروف خاصة منذ عقد من الزمن. بعد فرارها كيهودية من البرتغال. أعلنت عن نفسها في مدينة البندقية كمعتنقةٍ ورعةٍ للدين المسيحي. متخذة اسماً جديداً يدل على ولائها لمكان اللجوء. كمسيحية، امتلكت القدرة على الاستقرار خارج المناطق المزدحمة في غيتو، في قصر مذهل، مقابل دار صك العملة في البندقية. حتى أن بعض أهل المدينة أشاعوا مازحين، أن منزل سيرينا يحتوي على ذهب أكثر من مبنى المصرف المجاور له. عرفت سيرينا بأنها وريثة أعظم البنوك اليهودية ثرواتٍ في أوروبا. لكن الأسرة التي وصلت باستثماراتها إلى ما وراء شبه الجزيرة الأيبيرية، فقدت جزءاً من ثروتها مسلوباً من قبل العائلة المالكة في إسبانيا والبرتغال. بالرغم من أنها تخلت عن الاسم اليهودي لعائلتها، لكن معظم العقول مقتنعة، أنها ما تزال تحتفظ بهاجس لاسترجاع أموالها.

لكن سيرينا لا تنفق ثروتها الكبيرة على ستائر الديباج والحفلات، التي يحضرها صفوة النبلاء فحسب. حيث إنها في السر، تعتبر بالنسبة لأريه، المصدر الرئيس للصدقات الموزعة على المحتاجين في مجتمع غيتو. علاوة على ذلك، فهو على دراية بمساعدتها لليهود في العديد من المدن الأخرى، مستفيدة من الشبكة المصرفية التي أسستها عائلتها. يعرف أيضاً أن وجهها العام ككاثوليكية متدينة، ليس سوى قناع ارتدته، وضعته كما يفعلُ عادة في التمويه الكرنفالي.

«هيا يا حاخام. قل لي احتياجاتك لهذا اليوم. كيف يمكنني مساعدتك لدعم شعبنا؟».

احتقر أريه نفسه لما كان على وشك فعله. «سيدتي، لقد غطت أجنحة كرمك بالفعل عدداً كبيراً من أبنائنا وبناتنا، وحمتهم من قسوة المنفى. أنتِ ينبوع الماء الصافي حيث يشرب الظمآن، أنت...».

رفعت رينا دي سيرينا يداً مرصعة بالجواهر ولوحت بها أمام وجهها، كما لو كانت تتفوّح من رائحة كريهة.

«يكفي. قل لي فقط كم تحتاج».

سمى أريه المبلغ. كان فمه متيبساً، كما لو أن الكذب قام بتجفيفه. راقب وجهها، رزينٌ وفاتن، تمعنتْ في المبلغ للحظة، ثم وصلت إلى كومة الوسائد بجوارها وأخرجت حقيبتين مكتنزتين. لعق أريه شفتيه، وابتلع ريقه بصعوبة. «سيدتي، سوف تبارك العائلات اسمك. ليتك تعرفين قليلاً من تفاصيل مشاقهم...».

«لا أحتاج لمعرفة أي شيء، أكثر من كونهم يهوداً يعانون من العوز، ويستحقون مساعدتي وفق اعتقادك. وثقت بك بسرّي، حاخام؛ فكيف لا أثق بك فيما يتعلق بالقليل من النقد الذهبي؟».

حين شعر الحاخام بوزن الذهب، تساءل عن تعريفها لـ «القليل». لكن كلمة «ثقة» جعلت قلبه يرتعد، كما لو أن قبضة عصرته فجأة.

«الآن، حاخام، لدي خدمة لأطلبها منك».

«أي شيء يا سيدتي». خففت اليد قبضتها قليلاً، على أمل أن يتمكن من فعل شيء لتكفير جزئي لخيانة الأمانة.

«سمعتُ أنك صديق الرقيب في المكتب المقدس».

«لن أقول «صديق» بمعنى الكلمة يا سيدتي». فكر بضرورة اقتضاب الحديث قرب القناة. «لكننا نعرف بعضنا بعضاً، نتحدث بكياسة في كثير من الأحيان. في الحقيقة، جئت من عنده للتو. إنه يريد إغلاق مكتب الطباعة الخاص بأبراهام بينيل - المكتب الذي قدمه لهم برنادوتي باسمه».

«الأمر كذلك إذاً؟ سيكون لي كلمة مع لوسيو دي بيرنادوتي سأقترح عليه تجنباً لمثل هذا الإحراج. أن ينظم لجنة خاصة في الدار مهمتها

القيام بمديح البابا، بحيث يصبح الإغلاق المفاجئ، من قبل المكتب المقدس أقل ملاءمة من الناحية السياسية؟».

ابتسم أريبه. لا عجب أن رينا دي سيرينا نجت، بل وازدهرت في المنفى الذي سحق الكثيرين. «لكن كيف يمكنني مساعدة سيدتي مع الرقيب؟».

قالت: «لدي هذا»، بحثت مرة أخرى تحت الوسائد الموجودة بجانبها، مستخرجة كتاباً صغيراً بغلاف جلدي مع مشابك فضية مطلية بشكل ناعم. سلمتها للحاخام. أخذ أريبه الكتاب بين يديه.

«إنه قديم جداً»... قال.

«في الواقع. أكثر من مئة عام. إنه مثلي، أحد الناجين من عالم لم يعد موجوداً، افتحه».

حرر أريبه المزاليج، معجباً بمهارة صائغ الفضة. تم تشكيل القفل على هيئة زوج من الأجنحة. حين يتم تحرير المزلاج البالغ الرقة - السلس الحركة، رغم مرور أكثر من قرن - تُشرع الأجنحة كاشفة عن وردة تحضنها داخلاً. أدرك أريبه في الحال أن الكتاب هاجادا، لكنه بعكس ما يعرفه عن الهاجادا سابقاً. حيث صنع من ورق الذهب والأصباغ الثرية و... حدق في المنمنمات، جال بين الصفحات بفارغ الصبر. بدا مسروراً، لكنه في الحقيقة انزعج بعض الشيء، لرؤية قصص يهودية تروى في كتاب فني مثله، يشابه كتب الصلاة عند المسيحيين».

«من صنع هذا الكتاب؟ هذه الصور؟».

هزت رينا دي سيرينا كتفيها بالنفي.

«كم أحب أن أعرف. قدمه لي خادم لأمي كبير السن. كان رجلاً طيباً عرفته منذ وقت طويل. اعتاد أن يروي لي قصصاً أثناء طفولتي. قصصاً رهيبة مثل قصص هذه الأيام، مليئة بالجنود الأشرار والقراصنة، بعواصف البحر والأوبئة بين البشر. أحببتها، بروح طفولية، لا تعرف ما يكفي عن العالم لتدرك أيّ منها الحقيقة، وأيها الخرافة. أشعر بالخزي،

الآن، حين أذكر كم كنتُ أضغط عليه لتلاوة هذه القصص. لا بد أنها قصص حياته الحقيقية. حيث أخبرني أنه وُلد في شهر الطرد الإسباني، لم يمض وقت طويل فيما بعد، حتى توفيت والدته في حادث تحطم سفينة، أثناء محاولتها العثور على مكان آمن لتنشئته. قامت أسرتي بطريقة ما بوضعه طفلاً تحت وصايتها، كما فعلت إزاء الكثير من الأيتام على مر السنين. عمل مع جدي في شبابه، ليس في البنك، وإنما في مجال تقديم المساعدات المستمرة لتسهيل هروب اليهود من البرتغال. على أي حال، فالكتاب كان الثروة الأقدم والأغلى بالنسبة له. قبل موته، تركه لأمي، بعد وفاتها نُقل إلى عهدتي. أقدر هذا كثيراً، فالكتاب من ناحية مذهل، كما أنه يذكرني بالرجل وبمعاناة الكثير من أمثاله.

«أيها الحاخام، أحتاجُ الرقيب لفحص هذا الكتاب وتمريره من دون أذى. لكني لا أملك المخاطرة بفرصة كذلك. علي أن أتأكد أنه سينجو قبل أن ألفت انتباهه له. بالطبع، لا ينبغي لأحد أن يعرف أنه لي. فلا تحتاج السيدات الكاثوليكيات إلى هاجادا».

«دونا دي سيرينا، اسمحي لي أن آخذه وأدرسه. أعرف جيداً صيغة الكلمات التي تنتهك حرمة النص الكاثوليكي. دعيني أتأكد في المقام الأول أنه لا يوجد في الكتاب أي شيء مسيء للكنيسة، بعدها، سأحضره إلى الأب فيستوريني بثقة أكبر لتحقيق نتيجة مرضية».

«هل أنت متأكد من ذلك؟ أعتقد أن الأمر يفوق قدرتي على تحمل، أن أرى الكتاب، بعد أسفاره الكثيرة وظروف حمايته الصعبة، يُرمى إلى النيران».

«لهذا السبب بالذات، علي أن أسألك سيدتي، لو سمحت لي: بالرغم من يقيني من تلبية ما تحتاجينه من الرقيب، لماذا لا تبقين الكتاب سراً إذاً؟ إذ لا حاجة لتمريره؟ بالتأكيد لا تملكين أي سبب للخوف من أن ممتلكاتك الشخصية الخاصة سيتم تفتيشها أو فحصها؟ لا يجرؤ أحد في البندقية على فعل ذلك».

«حاخام، علي مغادرة البندقية -».

«سيدتي!».

«وفي ذلك الوقت، من يدري أي من الممتلكات ستخضع للفحص؟ أحتاج أن أكون حريصة ودقيقة».

«لكن هذا خبر محزن بالفعل! سنفتقدك. سيفتقدك جميع يهود البندقية، بالرغم من أنهم لا يعرفون اسم راعيتهم الكريمة. ليس لديك أي فكرة، سيدتي، عن كم الدعوات المباركة التي لا أستحقها من شعبي، بفعل تسليمهم الصدقات التي أوكلتني بها». رفعت يدها، بعد أن ضاقت ذرعاً من جديد.

«عشت جيداً هنا. لكنني أدركتُ بمرور السنين جوهر نفسي. اكتشفت أنني لا أستطيع أن أحيا حياتي كلها بالكذب».

«إذن، هل ستقومين بإسقاط اعتناقك المزعوم؟ أنت تعلمين أنها مخاطرة كبيرة، من غير الحكمة حيث أن محاكم التفتيش، لا تزال -».

«حاخام، لا تزعج نفسك. لقد رتبت عبوراً آمناً».

«لكن إلى أين ستذهبين؟ أين هو ذاك المكان السعيد حيث يعيش أحدنا ويزدهر كيهودي؟».

«ليس بعيداً جداً. إنه عبر البحر الذي يقف بيننا وبين الأراضي الخاضعة لحكم مقر الباب العالي[90]. رحب بنا السلاطين العثمانيون منذ فترة طويلة - لما نملكه من مهارات وثروات. لم أقتنع بالفكرة حين كنت أصغر، لكن الكثير تغير منذ ذلك الحين. نما مجتمعنا وتألق، انظر لدينا أطباؤنا، وشعراؤنا العبريون في العديد من الأماكن. لقد قام السلطان بدعوتي، ولا يزال حتى الآن يرسل من دائرته إلى رئيس قضاة البندقية برسائل مبهمة تشير إلى مروري الآمن. ليست الخطوة مطمئنة تماماً.

90- الباب العالي: مقر الحكومة العثمانية. أطلق عليه هذا الاسم بعد أن كان («ديوان همايون» أو الديوان الهمايوني أو الديوان السُلطاني) افتتحه محمد الفاتح بعد أن توسعت رقعة الدولة العثمانية، وكان يرأسه الصدر الأعظم.

حيث سيشعر الكثيرون بالسعادة، لمعرفة أن ما كانوا يشتبهون بهم منذ فترة طويلة، صحيح: أنني تظاهرتُ باعتناق المسيحية من أجل العيش بحرية هنا. لكنني لو بقيت هنا، يتوجب علي تمضية العمر وحيدة. فلا يمكنني الزواج من رجل مسيحي، وإخفاء سر روحي اليهودية عنه أبداً. لعل الأوان يحين للزواج أو لإنجاب طفل. من يدري، ربما تأتي حينها وتمنح بركاتك له في بريطانيا؟ يقولون إن مدينة راغوزا جميلة جداً - بالتأكيد ليست أجمل من مدينة البندقية، لكن حياتي على الأقل ستكون صادقة هناك. استعيد بها اسمي من جديد. يكفي الآن، صلي معي، حيث إني أتوق إلى ملء أذني بصدى العبرية».

بعد ذلك بوقت قصير، نزل أريه من الجندول في مسافة قريبة من صخب ومراقبة الريالتوين. جيوبه ثقيلة محملة بنقود دونا دي سيرينا، مع كتاب صغير محزم فوق خصره. كان يعتزم الذهاب إلى المنزل. مشى منحدراً إلى أسفل الدروب، بعينين مطرقتين فوق حجارتها. اجتاز ورشة صانع الأقنعة، من دون أن يعبأ حتى باختلاس النظر للأقنعة التي وضعها الحرفي في واجهة محله. توقف في الزاوية. جعبتا الذهب في جيبه رسا بهما هناك.

يدرك يهوذا، عادة، أن الهاجس الذي يسيطر عليه ما هو إلا بفعل إغواء من الشيطان. لكن في بعض الأحيان، يقوم عقله وتعليمه بتهذيب الفكرة، حيث يقنعانه بأسلوب أكثر منطقية. يتأمل: ألم تقسم الأراضي الموعودة على الأسباط وفق القرعة[91]؟ ألم يختر العبرانيون أوائل ملوكهم؟ كيف لأمر أن يغوي به الشيطان، إن كان مصدقاً في التوراة؟ إن لم يكن الشيطان من أغراه لخداع دونا دي سيرينا. فلا بد أنها يد الرب التي وهبته بكرمٍ هذه المحافظ. إنها العناية الإلهية، التي تتطلب

91- الكتاب المقدس - العهد القديم: «52 ثم كلم الرب موسى قائلاً 53: لهؤلاء تقسم الأرض نصيباً على عدد الأسماء 54 الكثير تكثر له نصيبه، والقليل تقلل له نصيبه. كل واحد حسب المعدودين منه يعطى نصيبه 55 إنما القرعة تقسم الأرض 56 حسب أسماء أسباط آبائهم يملكون حسب القرعة يقسم نصيبهم بين كثير وقليل».

منه أن يخاطر بهذه الأموال، ليفوز بثروات أكبر لمصلحة شعبه. حينها سيقوم بتوزيعها للمحتاجين جميعهم، ويرفع من شأن غيتو بأكملها. فكرة سرعان ما جعلت قلبه يتقافز في صدره من البهجة. التفت، وعاد بخطوات قليلة إلى ورشة صانع الأقنعة، دخل.

استقام فيستوريني من خلف مكتبه، باحثاً عن منديل لمسح جبينه. حيث خصص هذا الصباح للنقاش بشأن أوامر تقتضي حجز كتاب ابتداعي. الغريب أن يكون الجو حاراً جداً في هذا الوقت المتأخر من السنة، في صباح مبكر من اليوم. أما رائحة عرقه الحامضة، فهي تذكره بأنه لم يستحم منذ بعض الوقت. أثار جداله مع اليهودي صداعاً في رأسه، حتى أن عقدة صغيرة من الغضب هبطت إلى بطنه غير المستقرة متسببة بالمزيد من الألم. أدرك في قرارة نفسه أنه تعرض للإهانة، وأن الحاخام يعول على صداقتهما. لم يستطع أن يعترف بالحقيقة التي تفضي إلى أنه لم يبذل قصارى جهده بالنقاش. تقلصت أمعاؤه. احتاج أن يذهب إلى المرحاض. انتقل إلى قاعة خارج المكتب المقدس، بخطوات متقلقلة لرجل عجوز مريض.

الجو بارد، على الأقل، هنا في القاعة. عموماً، كانت الجدران العفنة ترهقه، لكنه سعيدٌ بها اليوم، بفترة راحة قصيرة خارج غرفته. بينما كان يلف الزاوية، اصطدم قليلاً بالخادم الفتي مع صينية تحتوي على وجبة غدائه الضئيلة. تناول المنديل من الصينية ومسح وجهه، ثم أعاد قطعة القماش المبللة بالعرق للصبي، الذي قبلها بحذر شديد، بتعابير أوحت بالنفور. جفل الكاهن، لعنه ماضياً نحو المرحاض. تباً لكل هؤلاء الشباب وسلوكياتهم المتكلفة. كان الأمر سيئاً بما يكفي لتحمل ولد المذبح الوقح هذا، باولو، وهو الفتى المتعلم من أسرة جيدة. لكن كيف يجرؤ خادم أن يحدق إليه بمثل هذا الاحتقار؟

لفظت أحشاء فيستوريني محتوياتها في المجاري النتنة، لكن الألم في أمعائه بالكاد خفّ قليلاً. ربما زاد وضع القرحة سوءاً. ذهب على

مضض إلى طاولة الطعام، بحثاً عن النبيذ. لم يكن لديه أي شهية لحساء الطباخ الفقير أو للخبز مغمساً بها. قدح واحد، معبأ لأكثر من منتصفه انتصب على الطاولة حيث يجلس خلفها عادة. طلب المزيد، فأجابه الصبي أن خزانة النبيذ قد أغلقت للتو من قبل المشرف. تراءى له ظلاً لابتسامة، قمعها وجه الشاب سريعاً، أثناء حديثه.

عاد إلى مكتبه بحالة مزاجية أسوأ، تأهب فيستوريني للبدء بالأعمال الروتينية المتمثلة في التنقيح. أمسك قلمه المحمل بالحبر الأسود الكثيف، ثم مرره بين الصفحات، شاطباً أي عبارات عبرية غير مقروءة تشير إلى المسيحيين، لغير المختونين، للحقد اليهودي، إلى «مراقبي الطقوس الغريبة»، ما لم يرجع النص بشكل لا لبس فيه، إلى وثني العصور القديمة، أو أنه بغير إسناد رسمي للكنيسة. عثر على كلمات مثل -المملكة الشريرة أو أدوم أو الرومانية -التي ربما تقصدوا بها الدلالة إلى المسيحيين. كما قام بتجاهل أي ذكر لليهودية كدين حقيقي موحد، مع العبارات الدالة على المسيح المنتظر، أو أي استخدام لكلمات ورعة أو مقدسة يتلوها اليهود.

يتعامل فيستوريني مع الكتب، في الأيام التي يشعر فيها بحالة جيدة، بلطف كبير. حتى أنه أحياناً يؤدي واجب تنقيح فقرة مرفوضة، بدلاً من شطبها. مثلاً إن أضاف كلمة عُبّاد النجمة بعد الإشارة إلى الوثني، فبإمكانه استبعاد التضمين بأن تبجيل صور القديسين المسيحيين ما هو إلا عبادة للأوثان. لكن رأسه الآن يرتج، أما المذاق في فمه فبطعم الروث.

هاهو قلمه يجول فوق الكلمات بخطوط متقاطعة عريضة. ضاغطاً بقوة ببعض الأحيان، لدرجة أن طرفه يمزق الرق. انتابه شعور بالإعياء. انتهى من الاطلاع على الكتاب، رأى أنه يحتوي على الكثير من الأخطاء التي توجب القصاص، فأحاله إلى الحرق. من شأن ذلك أن يأتي بيهوذا أرييه، ذاك الأحمق المتغطرس. لماذا لا يحرقها جميعاً وينهي المهمة؟ بذلك يمكنه العودة إلى المنزل، فيقدم له خادمه شراباً على الأقل. نشر

ذراعه فوق المنضدة، اجتاح نصف دزينة من المجلدات غير المقروءة ثم أشاح بها نحو ركن الكتب الذاهبة إلى النيران.

حاول يهوذا أريه الجلوس ببطء في الظلام، كي لا يوقظ زوجته. حدق بتوهج القمر فوق خدها وشعرها غير المعقود، المتخفي باحتشام طوال النهار، إن الإحجام عن مداعبة الشعر الذي انسدل لامعاً عبر الوسادة بغزارة الأسود وخصلات الفضة، هو كل ما يمكنه القيام به. في الأيام الأولى لزواجهما، لطالما عقد يديه بهذا الشعر الطويل، عانقه، أثاره انسكابه فوق جلد صدره العاري قبل أعوام كثيرة، حين كان الحب جامحاً أرعن متوهجاً في الجسدين النضرين.

لا تزال ساراي امرأة فاتنة حتى الآن. بالرغم من مرور أكثر من عشرين عاماً، لا ينفك عضوه ينتصب بقوة، حالما تنظر إليه بطريقة معينة. يتساءل في بعض الأحيان، عن فيستوريني، عن وحدته؟ كيف يمكن للمرء أن يعيش من دون دفء امرأة في سريره؟ بلا أطفال؟ ما جدوى غيابهم من أيامه؟ ألا تنضج ملامح وجوههم الجميلة البريئة أمام ناظريه، عاماً بعد عام، ألا يشقون دروبهم نحو خصبٍ جليل، أين صديقه من صناعة الذكريات؟ لا ضير أن الخمر الذي يحتسيه بإدمان، ما هو إلا وسيلة لتخفيف تلك الاحتياجات، هذا طبيعي جداً، فهي هبة من الرب.

لم يكن أريه يزدري الحياة المنضبطة بالإيمان. بل على العكس من ذلك، فهو يدرك بهاء التنسك في مثل هذه المعيشة. فقد عاش كل لحظة مدركاً وصايا التوراة الستمئة وثلاث عشرة. من الطبيعي بالنسبة له أن يفصل الحليب عن اللحم، أن يمتنع عن العمل يوم السبت، أن يلتزم بقوانين الطهارة الأسرية في علاقته مع زوجته. أن يدرك أن ضوابط الامتناع عن ممارسة الجنس شهرياً، ليست سوى شحذ للرغبة وإثارة لشغف لم الشمل من جديد. لكن أن تكون بلا زوجة بالكامل... ليس هذا، بالنسبة له، بحياة سليمة لرجل على الإطلاق.

صرّ الباب حالما أغلقه أريه. انتظر على الدرج لتلقي رد فعل يشي ما إذا كان الصوت قد أيقظ أي شخصٍ. لكن البناء المكتظ، كعادته، ليس بهادئ أبداً، حتى في هذه الساعة المتأخرة. تسرب سعال متقطع لرجل عجوز عبر الحاجز الخشبي الرفيع الواقع بين شقتهما وجارتها. هذا هو حال من أراد البناء في الطوابق العليا، على الجدران أن تكون ضئيلة الحجم، خفيفة الوزن أكثر من تلك الشقق الأقرب إلى الأرض. اخترقت صرخة مولود جائع صدر الليل.

جاء من الأعلى صياح ديك ملعون بدا وكأنه يفتقر للإحساس بالفجر أو بالظلام. ينبغي على شخص ما أن يرسل لـ«الشوشيت»[92] أن ذاك الطير المداهم لليل يحتاج إلى غفوة في قدر الطهو، فكر أريه متلمساً بعناية طريقه في العتمة أسفل السلم الخشبي.

في الخارج، اتجه نحو الزقاق الضيق الذي يفصل مبنى شقته عن المبنى التالي. راكعاً على ركبتيه، مد يده عبر الأحجار الموحلة، ثم سحل كيس القماش الذي أخفاه هناك. اختلس النظر على طول الممر، انتظر حتى أوغل الظل في الأنحاء لفتح الكيس واستخراج محتوياته. بعد لحظات قليلة، ذهب نحو بوابات غيتو.

البوابات التي أغلقت قبل عدة ساعات. كانت الجزء الأصعب من خطة تضليل الليل التي ترصده الآن. بإمكان الوثنيين، الذين تسبب نزواتهم باحتجازهم في غيتو، نتيجة حظر التجول الواقع في الحي اليهودي، الخروج بمجرد القيام برشوة الحراس. لكن السبيل لخروج يهودي، أمرٌ يتطلب جرأة ومكراً. تسمر أريه في الظل مترقباً. ثم... تخفّت خصلات شعر الحاخام الكستنائية تحت قبعة ثلاثية الحواف لرجل أرستقراطي. في حين تغلغل النسيم الرطب في الصوف الناعم لعباءة نبيلٍ مقنّع أكمل التنكر على هيئته. مرت ساعة من الوقت. ثنى

92- شوشيت: شخص معتمد رسمياً بأنه مؤهل لذبح الماشية والدواجن بالطريقة المنصوص عليها في القانون اليهودي.

كتفيه للتخفيف من تصلبهما، هز ساقيه، واحدة تلو الأخرى، لمنع التشنجات. ربما يتعين عليه، قريباً، الاستسلام لهذا الليل والمحاولة مرة أخرى في اليوم التالي. لكن بمجرد ظهور هذه الفكرة، سمع الأصوات التي كان يترصدها. أصوات خشنة، ضحكات صاخبة. سرعان ما اندفع فريق من الشباب الوثنيين إلى كامبيلو. مستخدمين رخصة الكارنفال، ليحظوا ببعض الملذات الدخيلة غير المشروعة بين اليهود المهاجرين، ذوي الحالة المادية السيئة، لدرجة أنهم يعملون في القوادة، متاجرين بأبنائهم وبناتهم لهذا الغرض.

ستة أو سبعة منهم، اتجهوا نحو البوابة، منادين الحراس للسماح لهم بالخروج. ارتدى جميعهم عباءات كرنفالية قاتمة وأقنعة لشخصيات الملهاة الإيطالية المرتجلة «الكوميديا ديلارتي». تخبط قلب أريه مرفرفاً في صدره. لا يملك سوى لحظة ليتصرف، لينضم إلى الفريق، معولاً على الثمل المصاب به أفراده فلا يهتاجون مفسدين خطته. وضع يده على قناعه، تفقد الأربطة بتوتر للمرة العاشرة خلال عدة دقائق. لقد اختار تصميماً مألوفاً وشائعاً: قناعاً بمنقار طويل لطبيب الطاعون[93] مما لا شك فيه، تلك الليلة في المدينة، أن هناك حشداً من الرجال يرتدون ملابس مشابهة، إلا أنه وفي اللحظة الأخيرة، بينما كان يجتاز الظلال ذات الحواف المثلمة متجهاً صوب الساحة، غزت الرهبة عقله. لا بد أنها مخاطرة كبيرة جداً، ماذا يفعل لو تحداه الشبان. يتوجب عليه العودة من حيث أتى عابراً مجهولاً في الظلام، وأن يرمي بالقناع اللعين في قناة للصرف الصحي.

لكنه فكر بسنا الشموع المتراقصة فوق أكوام الترترة الذهبية، أي نشوة مذهلة تصحب تلك اللحظة التي تنقلب فيها البطاقة معلنة أسرارها. ابتلع أريه ريقه بصعوبة. الفكرةُ كانت مثيرة لدرجة أنه استطاع تذوق لذتها في

93- طبيب الطاعون: طبيب يعالج ضحايا الطاعون الدبلي. كان بعض الأطباء في القرن السابع عشر إلى التاسع عشر يرتدون قناعاً شبيهاً بمنقار يحتوي على مواد عطرية. صممت الأقنعة لحمايتهم من الهواء الفاسد الناقل للمرض. نُسب تصميم هذه الأزياء إلى شارل دي لورم، كبير أطباء لويس الثالث عشر.

مؤخرة حلقه. تقدم نحو الأمام، في أعقاب الشبان الصاخبين. كن جريئاً. ألقى ذراعاً على كتف أقرب شاب منه، محاولاً التظاهر بضحكة، أطلقها بصوت عالي الطبقة متوتر غريب.

«ساعدني سيدي الشاب. أثقل الشرب قدمي، ولا أرغب في لفت انتباه الحراس». بدت عيون الشباب، المحدقة عبر الفتحات الهلالية لقناع المهرج، غبية كعيون الأبقار. «حسناً، عماه، دعنا نمضي»، قال. لا بد أن أنفاسه قادرة على إيقاد مصباح. استغرق الأمر مجرد لحظة لعبور البوابة المضاءة، أيقن أريبه أن قلبه الخافق بشدة سيوقعه بمشكلة، كيف لم يسمع الشباب صوته؟ مروا بعد ذلك فوق الجسر الضيق، ثلاث خطوات إلى الأعلى، ثلاث خطوات إلى الأسفل، إلى بندقية الوثنين. استعاد ذراعه، أثناء مغادرة الجسر، عن كتف الشاب، انسحب بعيداً صوب مظلة. أراح رأسه على جدار حجري خشن محاولاً استعادة أنفاسه. مرت بضع دقائق قبل أن يتمكن من المضي قدماً.

حالما عاد إلى القناة، اجتاحه الحشد إلى داخله. لا يجلب الليل أي راحة في البندقية خلال الكرنفال. فالمشاعل والأضواء تنشر سناها عند غروب الشمس، فوق سلسلة من الاحتفالات البهيجة. تجمهر الناس في المدينة. حتى أن الشوارع الرئيسية ازدحمت أكثر مما يجري في طرقات الغيتو. اجتذب النبلاء بزيهم الرسمي الأنيق، المشعوذين والنشالين التوّاقين لاستغلالهم. كذلك فعلوا مع البهلوانيين، الرياضيين، ومصارعي الدببة الذين أرادوا الترفيه عنهم. الذين يشكلون بمجملهم الطبقة المسحوقة في الوقت الراهن. قد يكون الرجل الطويل ذو قناع الأنف المدبب لشخصية زاني الكوميدية، الذي انقض على أريبه، خادماً أو حمالاً، مثل شخصيته، أو ربما يكون أحد العشرة. «مساء الخير يا سيد قناع»، العبارة التي تتطلبها التحية فحسب.

تلمس أريبه قبعته أثناء تفاديه زاني الطويل القامة، مندمجاً في الحشد

من جديد، مما سمح له بالمضي قدماً في اتجاه الريدوتو[94] الذي لا يبعد مسافة كبيرة عن الجسر. دخل أريه، كأحد النبلاء المقنعين بين الكثيرين المتسللين ليلاً. صعد إلى الطابق الثاني، مر إلى غرفة التنهدات. حيث تم تجهيز الصالون بنكهة مبهجة للغاية. كانت الأضواء المنبعثة من الثريات العديدة مشرقة جداً بحيث لم تداهن أعناق النسوة المجعدة، اللائي استرخين على الأرائك، يعزين شركاءهن الخاسرين. كان هناك أزواج مع عشيقاتهم، زوجات مع رجال، يعملون كمرافقين لكن في كثير من الأحيان، ليسوا في الواقع سوى عشاقهم[95]. هناك عاهرات وقوادون، بين الجموع، مع جواسيس من الشرطة. الجميع مقنعون في سبيل تحقيق التماثل في التخفي فيما بينهم. كلهم، عدا البانكرز. هؤلاء الرجال، أعضاء من عائلة برنابوت الأسقفية. هم أهل البندقية الوحيدون الذين تمت الموافقة عليهم لشغل هذا الدور. كل بارنابوتي عليه ارتداء ثياب سوداء طويلة، وشعر أبيَض مستعار، ليقف خلف طاولته في البهو التالي. أعلنت وجوههم العارية هويتهم، حتى يتعرف عليهم الجميع.

رأى أريه أكثر من عشر طاولات للاختيار. بينما كان البانكرز يتنقلون ويوزعون أوراق الباكارا والبانفيل. طلب النبيذ ومشى الهوينا ليراقب اللعبة الثالثة عشرة العالية المخاطر. لاعب واحد فقط، يتواءم حظه مع البنك. دارت اللعبة مراراً وتكراراً عدة مرات قبل أن يكشط اللاعب الترتر الخاص به ويضعه في محفظة صغيرة، ثم يرحل، ضاحكاً لأصدقائه. حلّ أريه مكانه، انضم إليه رجلان آخران. وقف البانكر بين الشموع الطويلة، خلط الأوراق بينما وضع اللاعبون أكواماً من الذهب، مراهناً كل منهم على حظ اللاعب الموزع للورق. كانت اللعبة بسيطة:

94- ريدوتو: (Ridotto) كلمة بالإيطالية تعني الغرفة الخاصة. وهو أول موقع قانوني عام للعب القمار، أقيم في إيطاليا وفي الغرب.

95- كان مرافق المرأة في إيطاليا (cisisbeo) في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، يقوم بالاهتمام بالمرأة في وسائل الترفيه العامة، كما يقودها إلى الكنيسة وفي مناسبات أخرى. قد يحظى في معظم الأحيان، بفرصة الوصول إليها كعشيقة.

على موزع الورق تسمية البطاقات من واحد إلى ثلاثة عشر - من الأص حتى الملك - ثم يقلب الورقة. إذا سقطت البطاقة كما سماها، سيجمع الرهانات ويستمر بالتوزيع. إذا وصل إلى الملك من دون أن يتطابق ما سمّاه مع البطاقة المقلوبة، فعليه أن يدفع الرهانات ثم يتخلى عن التوزيع للاعب على يمينه.

أتى صوته حين استهل توزيع الورق، خافتاً ومتوازناً.

«أونو»، قال بينما اصطدمت خمسة البستوني بوجه الطاولة.

«اثنان»، ثم ظهرت التسعة الكبة.

«ثلاثة»، الحظ لا يزال ضده حين أومأت الثمانية البستوني. ارتفع العدد إلى «تسعة» ولا يزال الموزع لم يوزع البطاقة التي كان يسميها. أربع فرص أخرى، وستضاعف الترتر الذهبية لأريه.

«فانتي»[96]، صاح البانكر. لكن البطاقة التي وزعها كانت السبعة الديناري، وليست الشاب. فرصتان تبقيتا فقط. حدق أريه بذهبه.

«ري». الملك البطاقة الأخيرة. لكن الموزع قلب بطاقة الأص. وصلت أصابع الموزع البيضاء الطويلة إلى كومة الترتر بجانبه. وضع إحداها أمام أريه، وأربعاً أمام رجل مراهنٍ بقيمة عالية في قناع شخصية بريغيلا[97]. أزاح أريه قناعه قليلًا ليمسح جبينه المتصبب. وصل إلى محفظة دونا رينا ووضع قطعتين أخريين على الطاولة، بجوار رهانه الأصلي وما كسبه منذ البداية. ليصل رهانه الآن إلى أربع قطع ذهبية. ظن أن الرجال على جانبيه موافقون بإيماءات صغيرة تراءت له.

«أونو». أتى صوت من خلف قناع بريغيلا عميقاً ورناناً. كانت البطاقة التي قلبها التسعة الإسباني.

96- الشاب في ورق اللعب (بالايطالية)

97- بريغيلا (Brighella) شخصية هزلية مقنعة من نمط مسرح الملهاة المرتجلة أو الكوميديا دي لارتي الإيطالية.

«اثنان». من السابق لأوانه نفع الشاب الآن. «تري، كواترو، سينك، سي... فانتي، كافالو»... بدا صوت «بريغيلا» أعمق مع كل بطاقة، حيث لم يماثل أي منها العدد الذي يصرخ به. شعر أريبه بقلبه يخفق بنبض مضاعف. كان على وشك الفوز بأربع ذهبيات أخرى. وفق هذا المعدل، سيضاعف ما تحتويه محفظة دونا رينا بأسرع وقت.

«ري!» صرخ بريغيلا. لكن البطاقة التي قلبها كانت عبارة عن السبعة البستوني. مد الرجل يداً إلى حقيبته ووضع الذهب على كومة كل لاعب بدوره. لمعت عيناه عبر شقوق الهلالين فوق خدي القناع المنتفخين.

وصل دور توزيع الورق إلى أريبه. راقب الأسد، البريغيلا والوجه النبيل فاقد الحس من عائلة بارنابوت أثناء تكديسهم أكوام الذهب. قام بريغيلا، في محاولة لتعويض خسائره، بوضع عشرين قطعة نقد ذهبية على الطاولة. راهن برنابوت بقطعتين فقط. لعب الأسد بأربع كانت موزعة في كلتا يديه.

بدت يد أريبه بارعة وثابتة أثناء خلطه الورق فوق الطاولة. شعر بالبهجة بدل الرهبة، حتى مع وجود ست وعشرين ذهبية في الرهن.

«Uno!» صرخ ببهجة. كما لو كانت لديه القدرة على استدعاء البطاقة من الطاولة، توهجت البقعة الحمراء الزاهية الحيوية للأص الديناري في لهيب الشمعة.

سحل أريبه المكاسب نحوه. كفائز، استمر بتوزيع الورق. وضع اللاعبون، مرة أخرى رهاناتهم؛ جازف بريغيلا بعشرين ذهبية، بارنادوت باثنتين، الأسد بأربع.

«أونو!» صاح أريبه بجزل، بالرغم من أن البطاقة التي قلبها كانت تسعة.

دو – تري – كاتر! «لم يصل حتى إلى فانتي، الشاب، حتى تصدع حلقه متخوفاً من احتمال الخسارة. لكن السر في إرغام أريبه على إدمان القمار طفا

بتلك اللحظة، حين بدأ الذعر ينتشر داخله كحبر في كوب من الماء الصافي. رحّب بالمشاعر المرتبطة بالمخاطرة المظلمة المرعبة. إنها الأحاسيس الأكثر حدة، المرافقة للتأرجح بين حافة الخسارة، ويد الفوز. لم يشعر أبداً بالحياة كما يفعل هذه اللحظات، وهو يخفق متمايلاً بين نتيجة ونقيضها.

«كافالو!» صرخ، كانت البطاقة الأص الديناري - الأص ذاته الذي جلب له ثروة قبل قليل، يخونه هذه المرة. لديه فرصة واحدة فقط. ارتعش جسده.

«Re!» صرخ، كان الملك الذي سماه يحدق به على الطاولة. خلط الآخرون الورق مضطربين. لدى هذا الرجل في قناع طبيب الطاعون حظ خارق. كيف له الفوز برمية واحدة ومن البطاقة الأولى، يليه فوز آخر من البطاقة الأخيرة. في الحقيقة، إنها فرصة غريبة للغاية. شاهد أريه الشموع تتراقص فوق ياقوت خاتم بارنابوت، أثناء تناوله ببطء لقطعتين ذهبيتين، ليتبعهما بتكاسل باثنتين فوقهما. يبدو أن النبيل يراهن أن حظ طبيب الطاعون يجب أن يتغير.

حدق بريغيلا في وجهه، بعينين زجاجيتين هذه المرة. ثم وضع أربعين ذهبية على الطاولة. الأسد وحده حافظ على قيمة رهانه، بأربع ذهبيات أضافها إلى سابقاتها. أقل من ستين دقيقة، كانت كفيلة بأن تتجمع الثروة أمام أريه، الذي مسه نعيم هائل من البهجة كلما تصاعدت كومة ذهبه. لقد تمكن من مضاعفة ذهب محفظة دونا رينا الأولى. غادر القناع الأسد الطاولة متخذاً طريقاً مقلقلاً صوب غرفة التنهدات. استعيض عنه بولسينيلا، الذي بدا في حالة سكر وغرور طائش. كان يصرخ متباهياً بثروته في كل منعطف معاند لحظّه. بينما حافظ النبيل بارنابوت على تحفظه وسلوكه الجليل، لكن وجهه العاري عجز عن إخفاء بعض ملامح التوتر. أما بريغيلا، الخاسر الأكبر، فقبض على الطاولة، حتى تبدت مفاصل يديه وقد اصطبغت بالشحوب. تجمع عدد ضئيل من الفضوليين على حواف طاولتهم.

لا مفر في النهاية، فقد وصل أريبه إلى الملك من دون تسمية البطاقة بشكل صحيح. صرخ بولسينيلا بصوت صاخب من الغبطة. انحنى أريبه ودفع الرهانات - ثمانين ذهبية إلى بريغيلا، عشراً لبولسينيلا، وأربعاً لبرنابوت. ثم قام بتمرير التوزيع إلى بريغيلا متأملاً برهانه التالي. كانت ساعة سحرية. شعر بالسمو كأحد البالونات الملونة المحلقة فوق المدينة خلال كرنفالها. يمكن، حقاً، لأكوام المكاسب الكبيرة هذه أن تقدم الكثير لمصلحة شعبه الفقير. وقف هناك، بيد مترددة فوق الذهب. ربما يكون الشيطان من أغواه هنا، لكن الرب الذي يمنحه هذه اللحظة من الاختيار. استمع إلى صوت العقل في رأسه. أخبره أن يأخذ هذه المكاسب ويغادر الريدوتو. أطعم الوحش، شعر بارتفاع الدم الممزوج بالرعب والنشوة. هذا يكفي. جرف كومة الذهب إلى فم محفظته.

يد قاسية ألقت بأصابعها الثقيلة فوق يده. إنه بريغيلا. نظر أريبه إلى الأعلى مشدوهاً. لاحت عينا الرجل خلف القناع السوداوي اللون بحدقتين أشد اتساعاً من كل مرة. «ما من رجل نبيل يغادر اللعبة بعد جمع المكاسب».

«تماماً»، شجع بولسينيلا. «لا يجوز التهاون بأموال الرجال الآخرين بهذا الشكل. فكر بالذهب أكثر من قضاء وقت ممتع، ألستُ محقاً!؟ الانسحاب ليس من روح الكرنفال. أراهن أنه لا يقوم به رجل نبيل، ولا حتى رجل من أهل البندقية».

مسح أريبه بقلق تحت قناعه. هل عرفوا؟ هل خمنوا؟ من خلال إثارة مسألة «الآخر»، ضرب بولسينيلا المتورط في حالة سكر شديد على الوتر. سحب يده من تحت يد بريغيلا ووضعها على قلبه. تقدم باتجاه الطاولة وقام بالانحناء: «أيها السادة»، قال بلهجته اللينة الجزلة المميزة. «سامحوني. إنها مجرد هفوة لحظية، لا أعرف حقاً بماذا كنت أفكر. بكل الأحوال، دعونا نمضي قدماً في اللعب».

استمرت اللعبة طيلة الساعة التالية، يفوز رجل ويخسر بدوره. افترض

أريبه أن الوقت الكافي قد مر، همّ من جديد بمغادرة الطاولة. مد بريغيلا يده ثانية مقاطعة يد أريبه نحو مكاسبه الثرية. «لماذا أنت على عجل؟» همس بصوت منخفض. «هل لديك موعد غرامي؟» ثم انخفض صوته إلى حدٍ كبير، حتى تلاشى خلف القناع المتفخ. «أم أنه لديك حظر تجول عليك الالتزام به؟».

«إنه يعلم»، فكر أريبه. بدأ العرق يتصبب تحت عباءته «هبنا كرماً، في مراهنات لائقة أكثر، يا سيد دكتور الطاعون».

«يد الصداقة، إيه؟» تسللت يد بريغيلا تحت عباءته ثم سحب محفظة كاملة ووضعها على الطاولة. ارتعش أريبه بذعر. دفع كامل مكاسبه نحو الأمام. اجتاحه إحساس مركب من الذعر واللذة.

استلم بارنابوت النبيل التوزيع مرة أخرى. «أونو. دو. تري...».

تلمس أريبه ومضة في رأسه «... أوتو... نوف...». وجد صعوبة في التنفس خلف القناع. ضرب قلبه وتخبط في صدره. ها هو على وشك الفوز مرة أخرى.

«فانتسي. كافالو...».

قبض عليه مزيج متناظر لذيذ من التهلل والرهبة، ليحله الذعر إلى قاعه في النهاية، اختنق حين قام برنابوت بقلب الملك. الهدير في رأس أريبه أخمد الصوت المكون من مقطع واحد على شفاه النبيل. «الملك!».

وصل البرنابوت إلى كومة الذهب واجتاحها لنفسه، انحنى قليلاً باتجاه بريغيلا. «الآن، عزيزي الطبيب. الآن فقط يمكنك تركنا، إن كنت متعباً للغاية من اللعب معنا».

هز أريبه رأسه بالرفض. لا يمكنه الرحيل. ليس الآن. لم يخسر مكاسبه فحسب، بل النصف الكامل من ذهبه. ها هي إحدى محافظ دونا رينا تجثو رخوة فارغة جانبه. كان مصمماً على الرهان بمحفظة واحدة فقط. نصف للمقامرة، ونصف لقضاء حوائج شعبه. هذا ما قاله لنفسه.

لكنه يتخبط الآن في الانتفاخ الآخر لمحفظته الثانية. عندما أغلقت أصابعه على الكتلة المطمئنة، شعر أريه كما لو أنه يستحم في الوهج من جديد. أحس باقتناع تام بأن الحظ السحري في وقت مبكر من المساء لا يزال مرافقه مرة أخرى. ليست يده، إنها يد القدر ذاتها التي ستوجهه وهو يدفع الكيس الكامل نحو الأمام على الطاولة.

لأول مرة، حتى وجه برنابوت البارد الملامح أضحى كالحاً. ارتفعت حواجبه إلى حافة شعره المستعار المتيبس، انحنى تدريجياً نحو أريه. ثم بدأ التوزيع. لم يستغرق الوقت لأريه سوى بضع ثوان، ليشعر بالألم المبتهج الرائع الذي لطالما استعبده. البطاقة التي كلفته المحفظة كانت ثمانية. يبدو أن الحروف المستديرة لكلمة otto سقطت من شفاه برنابوت لتندمج مع مقطع اللانهاية المنحني للرقم نفسه، مستطيلة إلى نفق يبدو أنه امتص الروح من الحاخام.

حدق غير مصدق بأن كل ذلك الذهب سيرحل بأبراج براقة لجهة الموزع من الطاولة. رفع يده وطلب ريشة. ارتعش حين كتب ورقة بمئات الذهبيات المزيدة. أمسك النبيل بارنابوت الملاحظة بين إصبعين، نظر إليها، ثم هز رأسه في صمت. شعر أريه أن الدم يغلي في عروقه.

«لكنني رأيتك تلعب مع خاسر بناء على كلمته بقيمة عشرة آلاف دوكات!».

«كلمة البندقي مسألة شخصية. لماذا لا تذهب إلى مصاص دماء يهودي إذا كنت تريد الائتمان».

ساد صمت مفاجئ على الطاولات القريبة. انسجمت وجوه المقنعين في هدوء تام، كقطيع من الصقور استشعر الجيفة.

«يهودي!» اكشف عنه، شتم بولسينيلا... «كنت أعرف أنه ليس بندقياً!».

استدار أريه، لكَمَ قدح النبيذ، ثم خرج متعثراً بخطواته من الصالة. مدت عاهرة، في غرفة التنهدات، ذراعاً بدينة نحوه، في محاولة الإيقاع

به فوق أريكتها. «لمَ العجلة؟» همست بصوت منخفض مغرٍ. «الجميع يخسر أحياناً. اجلس معي سأجعلك تشعر بتحسن». ثم رفعت صوتها. «كنت أرغب دائماً في تذوقه مختوناً!» تجاهلها مندفعاً إلى أسفل الدرج نحو الشارع، مهاناً بالضحكات التي أغلقت الدرب خلفه، كماء منسكب.

في وميض كئيبٍ للحرم المقدس، وضع يهوذا أريبه التاليت[98] على رأسه وانحنى أمام الرب. «تعديتُ على ممتلكات الغير، خنت الأمانة، سرقت». بللت الدموع خديه بينما كان يتقدم إلى الأمام أو يتراجع إلى الخلف، قارئاً الكلمات المألوفة لصلاة التكفير. «كنتُ ضالاً، أضحيتُ متغطرساً، أصابني الخبث، صغتُ النفاق ونطقتُ بالأكاذيب. ارتكبتُ الخطيئة ونقضتُ العهد... ابتعدت عن وصاياك وأحكامك الصالحة، لأغدو تافهاً عدماً. ماذا أقول أمامك، لسموك في العلاء، ماذا أعلن أمامك، أنت الذي في السماوات؟ أنت الذي تعلم كل شيء الباطن والظاهر؟ فلتكن مشيئتك إذن يا رب، إلهنا وإله آبائنا، أن تغفر لي، أن تعفو عن آثامي، وأن تهبني التكفير عن خطاياي...» غرق في المقعد منهكاً متصدع الفؤاد. الله يغفر الخطايا المخترقة لقوانينه، لكن أريبه يعلم - قام بالتبشير بذلك بما فيه الكفاية - لا بد من التماس الغفران أولاً من أولئك المتضررين نتيجة أفعاله الآثمة. تأمل يائساً في العودة إلى رينا دي سيرينا للاعتراف بخداعه وتضليله. فكر كذلك بحجم الإهانة التي عليه مواجهتها من قبل مجتمعه. عليه أن يعترف أنه سلب الخبز من أفواه الجائعين، الأدوية للموشكين على الموت. مع ذلك، يتعين على الرجل البائس، كما هو عليه، إعادة المبلغ الذي نهبه. بما يتطلب معيشة اقتصادية أشد صرامة. عليه أن يرهن كتبه، أن ينقل الأسرة، ربما، للسكن في أماكن أرخص. يعتبر منزله مع وجود ستة أشخاص في غرفتين صغيرتين، مكاناً فخماً، حيث إن إحدى الغرف تحتوي على نافذة، بينما

98- التاليت: طاليت (بالعبرية טלית) هو شال الصلاة، أحد أثواب الطقوس الدينية اليهودية يرتديه بعض اليهود أثناء الصلاة ويرتديه اليهود الأرثوذكس أو الحريديم في حياتهم اليومية كلها.

يرتفع سقف عال فوق كلتيهما. فكر أريه في البدائل الأقل شأناً: عرض عليه الشوشيت، ذات يوم، مكاناً معتماً مكوناً من غرفة واحدة قريبة جداً من الجزارة التي يملكها، وفق اتفاق عادل جداً. لقب يهوذا المكان، بصورة سرية بمغارة المخبيلا [99] لكنه وعد بوضعه في الاعتبار إن احتاج أي من جماعته إلى السكن. الغرف في مكان صغير جداً كغيتو، بإيجار عادل، ستجد طالبين لها، حتى ولو كانت مسكناً كالحاً معتماً. لكن كيف له أن يطلب من ساراي الانتقال إلى مثل هذا المكان الموحش؟ ماذا عن ابنته إستر، العاملة في المنزل، أين ستجد مساحة لدبابيس أقمشتها ومجلس خياطتها؟ كيف ستتمكن من الحياكة من دون ضوء النهار؟ إنها خطيئته، لا خطيئة عائلته. لا يمكن أن يلقيها في خضم المعاناة.

فرك أريه خديه بيديه. بدا جسده مرهقاً شاحباً في الضوء المتنامي، قريباً، سيبدأ تجمع الميان[100] عليه أن يستعد لاستقبالهم. غادر الحرم ونزل إلى غرفته. أخبرته رائحة القلي أن ساراي نهضت بالفعل. اعتاد أريه على التلذذ بالفريتاتا [101] المقرمشة التي تصنعها زوجته، ساخنة ذهبية اللون. كان يجلس على المنضدة المزدحمة مع أبنائه الثلاثة وابنته الحبيبة، يتبادلون الثرثرة والدعابات. لكن، رائحة الزيت الساخن، هاجمته بعنف هذا الصباح. شعر بالسقم.

استقر في كرسي مقابلٍ لساراي، لظهرها أثناء انشغالها بالطهو. قبض وشاحاً من الصوف الناعم على شعرها ببساطة، ليعقده بجاذبية في مؤخر عنقها. «صباح الخير». قالت «صعدتَ للأعلى قبل الطيور...» التفتت بنظرة فوق كتفها، لكن سرعان ما تحولت الابتسامة

99- مغارة المخبيلا(Cave of Makhpelah) كهف البطاركة أو مغارة (المكفيلة). التسمية اليهودية للحرم الإبراهيمي.

100- ميان: مجموعة أو نصاب يمكّن المصلين من أداء صلوات وطقوس لا يُسمح أداؤها دون 10 رجال ونساء بالغين(سن البلوغ لدى اليهودية 13 سنة)، بما في ذلك قراءة التوراة. بناء على ما ورد في سفر الأمثال 14: «فِي كَثْرَةِ الشَّعْبِ زِينَةُ الْمَلِكِ».

101- طبق إيطالي، يقدّم عادةً على الفطور يشبه العجة.

على شفتيها إلى ملامح مكفهرة: «هل أنت مريض يا زوجي؟ أنت تبدو شاحباً جداً».

«ساراي». قال، لم يستطع متابعة العبارة. وقف ابناه الكبيران معاً في الزاوية، يؤديان صلاة الشحاريت[102]. أما الأصغر، الذي أتمها للتو، فجلس مع أخته حول الطاولة، يستمتعان بالفريتاتا. لم يستطع أن يتحدث عن عاره أمامهم. بالرغم من عزمه على إعلام غيتو بأسرها بما حصل في القريب العاجل.

«لا شيء. لم أستطع النوم». كان النصف الثاني، على الأقل، من الجملة صادقاً. «حسناً، يجب أن ترتاح. أنت بحاجة لأن تستعيد حيويتك، لتحية عروس السبت لاحقاً» ابتسمت. حيث تعد ممارسة العلاقة الحميمة بين الزوج والزوجة، وصية من وصايا السبت. إنها إحدى متطلبات المعتقد الذي يمارسه كل منهما بمتعة. منحها ابتسامة ضئيلة مرة أخرى، ثم استدار لسكب الماء في الحوض. قام برش وجهه ثم رطب شعره، استبدل الكيباه وصعد الدرج نحو الحرم.

تجمع المينيان بالفعل تحت الضوء الباهت. من السهل جداً، في مثل هذه الأوقات، وفق رأي أريبه، جمع عشرة أشخاص. بالرغم من اندلاع الطاعون، الذي أودى، قبل عام، بحياة الكثير من الناس، إلا أنه لا يزال أكثر من عشرين شخصاً من الأبناء الأكبر سناً يأتون لتأدية الصلاة كل يوم، يمارسون طقوس حزنهم بتلاوة الصلاة لأرواح موتاهم.

شق أريبه طريقه نحو المذبح. رمق قطع القماش الزرقاء المخملية، بلون منتصف الليل، ملقاة على الطاولة. حاكتها ابنته حين كانت طفلة صغيرة. بقيت لفترة طويلة جيدة الصنع منتظمة الخيوط. لكن القماش الرث تزايدت مساحته الآن، مثله كمثل كل شيء تقريباً في الغرفة الصغيرة. أزال أريبه وجه المخمل المتضرر من الأماكن التي وصلت إليها يده في المذبح. لم تزعجه الفكرة، فإن أكثر المقاعد المتمايلة،

---

102 - صلاة الشحاريت: صلاة السحر أو الفجر عند اليهودية.

والأرضية التي تموج بلا توازٍ تحت الأقدام. ما هي سوى إشارات على طول الاستخدام، دلائل على الحياة، علامات تومئ أن البشر أتوا إلى هنا، العديد منهم، عشرة على الأقل، يحاولون التحدث إلى ربهم.

«ليتمجّد ويتقدّس اسمك العظيم في العالم...» ارتفعت أصوات المشيعين. لطالما كانت صلاة القاديش[103] صلاة من صلوات أريه المفضلة - صلاة الموتى التي لا يكرس فيها الموت، أو الحزن، أو الفقد، صلاة تزيح وجهها عن سيرة الدفن والبقايا البالية، تراتيل ترفع ناظريها إلى قبة السماء الزرقاء: «ليكن المجد والسلام والحياة علينا وعلى إسرائيل، قولوا آمين! الذي يخلق السماء في عُلاه، فليخلق السلام علينا وعلى كل إسرائيل، قولوا جميعاً، آمين!».

لم يتوان أريه بعد انتهاء الصلاة الصباحية، عن تبادل بضع كلمات موجزة مع رفاقه عابراً طريقه للخروج. حاول تفادي البقاء في المنزل أيضاً، خاصة مع حدس ساراي ونظرتها المتفحصة المحبة. تركها في المطبخ بهدوء، تعد الطعام الخاص بتلك الليلة وفي اليوم الذي يليها، حيث لا عمل يتوجب إنجازه يوم السبت. غادرها تقشر البصل بتروٍ، تكشط طبقة تلو الأخرى، تُعمل النظر في القطع باهتمام دقيق، خشية وجود حشرة ما مخبأة داخلها. إن أكل مثل هذه الحشرة، حتى لو مصادفة، يعد انتهاكاً للوصية المفضية بعدم استهلاك أي نوع من هذه الحشرات.

شق أريه طريقه صوب منزل تاجر سترازاريا، الذي ازدهرت أوضاعه بما يكفي، ليخصص جزءاً من منزله كمكتبة. كان أريه مدرساً لأبناء الرجل، بناء عليه تمت دعوته لاستخدام الغرفة لإنجاز دراساته الدينية بهدوء. قام هناك، بفك الهاجادا الخاصة بدونا دي سيرينا، الملفوفة بقطعة قماش من الكتان لحمايتها. إن قرر الاعتراف لها بنفاقه وسرقته، لن يذهب، على الأقل، خالي الوفاض. لا بد من قراءة الكتاب بعناية،

103- صلاة الحداد أو القاديش... «قاديش» كلمة آرامية تعني "مقدس"... من أشهر الصلوات الدينية اليهودية المكتوبة بالآرامية.

لتحديد ما إذا كان إرساله آمناً، إلى المكتب المقدس. إن كان الأمر كذلك، سيقوم بحمله إلى فيستوريني في ذلك اليوم بالذات. يا له من حظ عظيم لو تمكن من استعادته مع كلمات منقوشة تبيح حفظه بأمان، وحمله برفق لزيارة رينا دي سيرينا بعد يوم السبت.

حرر المشابك الفضية، أي مدينة كانت السيفراد، تلك التي قطنها اليهود، فمكنتهم من صنع مثل هذا الكتاب! هل عاش هؤلاء اليهود معيشة الأمراء؟ لا بد أنهم كانوا كذلك فعلاً، وإلا كيف تم حزم هذا القدر من أوراق الذهب والفضة لتغدو كتاباً، كم من أجور باهظة تم دفعها للحرفيين وصائغي الفضة والرسامين لإضاءته بمثل هذه البراعة. ها هم أحفادهم يتجولون في الأرض، بحثاً عن أي مكان آمن، يسمح لهم بإسناد رؤوسهم بسلام. ربما هناك العديد من الكتب تشابه هذا الكتاب الفاخر، قد أضحت رماداً الآن. فُقدت... تلاشت... ومُحيت من الذاكرة.

لكنه لم يُرد الاستسلام لرثاءٍ، أو انبهار. موضوع الإضاءة ليس مطمئناً

- إنها فعل مسيحي؟ لماذا على اليهودي رسم صور مثله مثل المسيحي؟

- ماذا عن الشخص المحترف، الذي قام بتدوين النص بمثل هذه اليد الماهرة والرائعة.

ماذا عن هذه القصص التي لا تزال مثيرة للاهتمام. يتوجب عليه الخروج من عقله، أن يضع نفسه بدلاً من ذلك، في ذهن جيوفاني دومينيكو فيستوريني، في عقل الصياد، الشرس في سعيه لأدنى تلميح يخص التكفير. العقل المرتاب، العدواني أحياناً. أمل أريه أن يقدر فيستوريني الكتاب بتأثير جماله وعمره التاريخي العتيق. لكن، لا جدوى، إذ أحرق فيستوريني الرقيب الكثير من الكتب المذهلة. قلّب أريه الصفحات المضاءة حتى وصل إلى الصفحات الأولى من النص العبري. «هذا هو خبز الآلام...» بدأ في قراءة القصة المألوفة لعيد الفصح اليهودي[104]، كما لو أنه كان يتعرف عليها لأول مرة.

---

104 - بالعبرية: פסח يِسَح

رفع فيستوريني الكأس إلى شفتيه. «ليس سيئاً» النبيذ الذي أحضره الحاخام اليهودي. لم يتذكر أنه شرب نبيذ الكوشر من قبل. ابتلع رشفة أخرى. ليس سيئاً على الإطلاق. لم يسبق له أن قدم كأسه فارغة ليهودي سيسارع بالوصول إلى زقّه وملء القدح من جديد. لاحظ بسرور أن الزق[105] مفرط في حجمه، بينما كأس اليهودي لا تكاد تُمس، توهج الخمر بداخله قرمزي اللون في ضوء الظهيرة الخافت. من الحكمة المماطلة بهذا العمل، إذ بمجرد الانتهاء مما يرغب اليهودي بسماعه، سيغادر مع زقه بعيداً.

«كتابك هذا، هل هناك المزيد من الكتب المماثلة له، مخبأة في أدغال غيتو؟».

«لم أر مثيلاً له في حياتي. أعتقد حقاً أن القليل جداً من هذه الكتب العائدة لمجتمع سيفراد، حالفها الحظ بالنجاة».

«لمن هذا الكتاب؟» سؤال مرهبٌ لكنه متوقع بالنسبة لأريه. لم يكن يود خيانة رينا دي سيرينا مرة ثانية. «لي»، قال كاذباً. كان أرييه معولاً على القليل من الصداقة أو ما شابهها التي تجمع بينه وبين الكاهن.

«لك!» ارتفع حاجب الكاهن مرتاباً.

«حصلت عليه من تاجر جاء هنا، قادماً من أبوليا».

أسفرت شفتاه عن ضحكة قصيرة. «هل حصلت عليها أنت؟ أنت، الذي يشكو الفقر على الدوام؟ كيف لك شراء مخطوطة مذهلة مثل هذه؟».

تسارع عقل أريه. كان بإمكانه القول إنه تلقاها مقابل خدمة، لكنه جواب غير مقنع على الإطلاق، ما الخدمة التي يمكن تقديمها مقابل ثمن باهظ كهذا؟ لأن خطيئته في طليعة عقله، وشى من غير تفكير عن فكرة تمخضت عنها. « فزت بها من لعبة حظ».

«مراهنة، غريب! يهوذا، أنت تدهشني. أي لعبة؟» تلوّن الحاخام. كانت المحادثة تتجه إلى أعمق النخاع إلى حد ما. «شطرنج».

---

105 - الزق: وعاء الخمر، مصنوع من الجلد.

«شطرنج؟ لا تكاد تعتبر لعبة حظ».

«حسناً، كان التاجر واثقاً إلى حد ما بمهاراته العالية. فقام بالمراهنة على كتابه. بالطبع، ستكون لعبة الشطرنج، لا شك بالنسبة له، لعبة حظ إلى حد ما».

ضحك الكاهن من جديد، باستمتاع هذه المرة. «تخرج الكلمات من فمك كالحلويات، أنسى ذلك، حين لا ألتقيك» تجرع رشفة أخرى من النبيذ. شعر بمزيد من الدفء تجاه الحاخام. ما الذي أغضبه في اجتماعهما الأخير؟ لم يستطع تذكر ما جرى الآن. من المؤسف حقاً أن يخيب أمل صديقه.

«حسناً، يسعدني أن أسمع أن هذا هو السبيل للمخطوطة. لأن ما يأتي بسهولة، يمكن التخلي عنه بسهولة».

تجمد أرييه في كرسيه. «لا يمكنك أن تقصد...؟ أنت لا تعني أنك لن تمرر هذا الكتاب؟».

انحنى الكاهن فوق المكتب ووضع يده على كتف أرييه. مخالفاً لرغبته بلمس يهودي عن طيب خاطر.

«يؤسفني قول ذلك، لكن نعم، هذا هو الوضع بالضبط».

تجاهل أرييه يد الكاهن، وقف غاضباً غير مصدق ما قاله.

«على أي أساس ممكن؟ قرأتُ كل صفحة من النص، كل مزمور، كل صلاة، كل أغنية. لا شيء، لا كلمة واحدة منه تتعارض مع قائمة المحظورات ولا في أي تفصيل».

«أنت محق. لا شيء من هذا القبيل في النص». كان صوت فيستوريني منخفضاً وهادئاً.

«حسناً إذن؟».

«أنا لا أتحدث عن النص. ليس هناك، كما تقول، أي شيء ضد الكنيسة». توقف مؤقتاً. أصغى لقلب أرييه ينبض بصوت عالٍ اخترق الصمت. «هناك، ويؤسفني أن أقول، تكفير خطير في المنمنمات».

غطى أريه عينيه بيده. لم يكن قد تفحص الزخارف عن كثب. أذهلته بالطبع، لكنه لم يمعن في تحليل معانيها بأي تفاصيل. جلس بتثاقل مرة أخرى على كرسي الكاهن المنحوت.

«أيها؟» همس بصوت خفيض.

«أوه، أخشى أنها أكثر من واحدة». اقترب الكاهن نحو المخطوطة فوق المنضدة، رفع زق الخمر ليملأ كأسه فلم يفلح. مد أريه يده بشكل انعكاسي لتثبيتها. ثم، على أمل يائس في تليين الكاهن، مال بالزق وملأ كأس الكاهن حتى حافتها.

«لا يحتاج المرء للإمعان بعيداً» تابع فيستوريني، وهو يقلب الكتاب وصولاً إلى مجموعة الزخارف الأولى: «انظر هنا؟ يحكي الفنان قصة سفر التكوين. الضوء منبعث من عمق الظلام. وهكذا، بشكل مدهش للغاية، كرس عبر التمايز الشديد بين الأصباغ البيضاء والسوداء؛ الطلاقة مقابل التزمت. لا وجود لأي هرطقة هنا، في هذه المنمنمة: روح الله تموج على وجه المياه. جميل، إن استخدام ورقة الذهب، للإشارة إلى وجود الله الذي لا يُقهر. مرة أخرى، ليس فيها أي مخالفة للمعتقدات أيضاً. ولكن الزخرفات التالية، وما بعدها، وما يليها. انظر وقل لي: ماذا ترى؟». نظر أريه، بما أحال رأسه خفيفاً. كيف لم يلاحظ؟ الأرض التي خلق القدير فوقها النباتات والحيوانات - تظهر في كل منمنة، كجرم سماوي. تبدو الأرض مستديرة، وليست مسطحة وفقاً لرأي غالبية اللاهوتيين آنذاك. المثير للاهتمام أن هذا الفنان ينتمي إلى زمن عتيق، سيق فيه المسيحيون إلى مثل هذا الاعتقاد، وتبنيه. لكن هذا وحده لا يدين الكتاب.

جالت الرسومات المُضاءة من جديد بمنطقة أشد خطورة. حيث تجلى فوق الأرض، في الزاوية اليمنى العليا في ثلاث من اللوحات، جرم سماوي ثان مطلي بالذهب. من الواضح أنه يعني الشمس. كان موضعه غامضاً.

حدق أريه بفيستوريني. «هل تعتقد أن هذا ينطوي على بدعة تكفيرية؟».

«ينطوي...! أيها الحاخام، لا تكن مخادعاً. من الواضح أن هذا يأتي دعماً لهرطقة علماء الفلك السراسين، من كوبرنيكوس، ذوي الكتب المنضوية في القائمة المحظورة، لذلك الرجل في بادوا، غاليليو، الذي سيُعرض قريباً على محاكم التفتيش ليدلي بحججه وبراهينه».

«لكن الرسومات – لا يحتاج المرء إلى قراءتها بهذه الطريقة. الأجرام السماوية، والأفلاك متحدة المركز، ربما يقصد بها الزخرفة ليس إلا، بالتأكيد، إن لم يتقصد المرء التمحيص فيها، فإن التضمينات التي تعنيها يمكن أن تمر من دون أن يلاحظها أحد...».

«لكنني تمحصت فيها». كان فيستوريني يتابع تجرع كأسه، بينما يقوم الحاخام بإعادة ملئها. «بسبب الرجل المدعو غاليليو، صارت الكنيسة مهتمة الآن بإصدار قانون حول هذه البدعة».

«دوم فيستوريني، أتوسل إليك. بأي معروف قدمته لك في الماضي، لسنوات عديدة عرفنا بعضنا بعضاً خلالها. من فضلك، اجتنب حرق هذا الكتاب. أعلم أنك رجل علم، رجل يقدس الجمال. ألا ترى مدى الجاذبية فيه».

«أنت تهبني سبباً إضافياً لحرقه. قد تغري فتنته يوماً ما بعض المسيحيين الجاهلين، ربما ساقهم للتفكر في عقيدتكم المثنية هذه». كان مزاج فيستوريني المنتشي مستمتعاً لأقصى حد بما يقول. في حين أتى صوت الحاخام المصغي بكامل قواه، متصدعاً بنبرته العذبة المعتادة.

لم يسبق لفستوريني أبداً أن لحظ من صديقه اهتماماً وشغفاً تجاه أي كتاب جادل بشأنه. بزغت فكرة مفاجئة في رأسه، من شأنها أن تطيل متعة بعد ظهر هذا اليوم. وجه كأسه الفارغة صوب النافذة، كما لو أنه يدرس منحنى حافة القدح.

«ربما... لكن لا. لا ينبغي أن أقترح ذلك -».

«أبتاه؟» انحنى أريبه نحو الأمام بعينين متعطشتين. تخبط محاولاً الإمساك بالزق وملأ قدح الكاهن.

«حسناً، قد أقوم بتنقيح يخص الصفحات المسيئة». سارع بإصبعه على الرق، وقلبها للأمام وللخلف. «صفحات أربع - ليست بعدد كثير - سنبقي على الرسوم الرئيسية، الرحلة من مصر، هذه هي النقطة الرئيسية في العمل...».

«أربع صفحات». تخيل أريبه السكين تقتطع أوراق الرق. أصابه ألم حقيقي في صدره، حاد كما لو أن سكيناً طعنته.

«هنا الفكرة» قال فيستوريني. «بما أنك قلت أنك كسبتَ هذا الكتاب في لعبة مراهنة، فماذا تقول إن عقدنا مراهنة جديدة لردع مصيره؟ إن فزت، سأقوم بالتنقيح وتمرير الكتاب. إن فزت أنا، يذهب إلى النيران».

«ما هي اللعبة؟» همس أريبه.

«ما هي اللعبة؟» جلس فيستوريني على كرسيه، يرتشف الخمر متأملاً.

«لا، أعتقد أنها لعبة الشطرنج. أهجس أنك ستربح، كما فعلت مع التاجر، من أين قلت؟».

لم يتمكن أريبه، المتوتر والغاضب، حتى تلك اللحظة بتذكر ما لفقه عن التاجر. تظاهر بنوبة السعال لإخفاء ارتباكه.

«بوليا»، نطق أخيراً.

«نعم، بوليا. قلت ذلك. حسناً، لا أريد المجازفة بمضاهاة المصير المؤسف لذلك الرجل. أوراق القمار، ليس لدي أي منها، وليس من دواعي شغفي جمعها» ثم تابع حديثه مقلباً الصفحات بلا مبالاة: «وجدتها. دعنا نلعب لعبة القرعة، لكن علينا أن نلائم اللعبة مع الرهان. سأكتب الكلمات المستخدمة في موافقة الرقيب «Revisto per mi» كل كلمة على قصاصة من الرق. عليك ترتيب الكلمات مغمض العينين، إذا

كان ترتيب العبارة صحيحاً، سأدرج هذه العبارة في الكتاب. إذا عجزت عن الترتيب الصحيح، أتوقف عن الكتابة، وتخسر حينها».

«لكن هذا يعني لعبة يجب علي الفوز فيها ثلاث مرات بمراهنة واحدة. الاحتمالات كثيرة أيها الأب».

«كثيرة؟ نعم، ربما كذلك. أنت قلتها، إذن: إذا كان السحب الأول صحيحاً، فيمكنك إزالة هذه القصاصة من السحب الثاني. بالتالي تحسن احتمالاتك بالتدريج. أعتقد أن اللعبة هكذا تبدو عادلة».

راقب أريه يد الكاهن وهو يدون الكلمات التي طال انتظارها على قصاصات الرق، ثم رمى بها، واحدة تلو الأخرى، في صندوق فارغ على مكتبه. ارتعش قلبه حين لاحظ شيئاً لم يلحظه الكاهن، الذي غرق، بالفعل، في حالة سكر شديد. كانت إحدى القصاصات التي اختارها من نوعية أدنى من القصاصتين الأخريين، أما سماكتها فأقل قليلاً. إنها القصاصة التي خربش عليها فيستوريني الكلمة الوسطى «per» شكر أريه ربه. حيث أصبحت احتمالاته فجأة محسومة إلى حد كبير. صلى لله أن يوجه يده أثناء زحفها داخل الصندوق. حددت أصابعه بسرعة الرق الأكثر سماكة فاجتنبته. الآن مزيد من الاحتمالات هناك. صح أم خطأ. ضوء أو ظلام. نعمة أم نقمة. لذلك «اختر الحياة». أغلق يده على القصاصة، سحبها وسلمها للكاهن. لم تتغير تعابير ملامح فيستوريني. قلب القصاصة ووضعها على مكتبه. ثم التقط الهاجادا، فتحها على الصفحة الأخيرة من النص العبري، مال بريشته، وكتب بخط رفيع كلمة «revisto».

حاول أريه ألا يكشف عن البهجة التي ارتسمت في وجهه. تم إنقاذ الكتاب. كان عليه فقط اختيار القصاصة الكثيفة لتنتهي اللعبة الرهيبة هذه. مع امتنان عميق لله، مد يده إلى الوعاء مرة أخرى. سلم القصاصة السميكة إلى فيستوريني الذي لم يخفِ، هذه المرة، ما استطاع كتمه فيما سبقها. مع التواء في زوايا فمه، سحب الهاجادا نحوه بنزق، ثم كتب الكلمتين التاليتين: «per mi».

أشرق الابتهاج على وجه أريبه «هذا لا قيمة له، بالطبع، ما لم أوقعه وأؤرخه».

«لكنك... لكننا... أيها الأب، لقد أعطيتَ كلمتك».

«كيف تجرؤ!» وقف فيستوريني فجأة، مصطدماً بمكتبه المصنوع من خشب البلوط الثقيل. يبدو أن النبيذ الذي دار في كأسه، أغرقه بمزاج فج فاض منه الغضب المفرط هذا.

«كيف تجرؤ على ذكر «كلمتي». دعنا نعترف بالحقيقة، أتيت إليّ بتلفيق غير مقبول - ببراءة سالت من شفتيك حول فوزك بهذا الكتاب، وتتحدث عن كلمة أعطيتها لك! هل راهنت على موافقتي معولاً على صداقتنا؟ ألم يتمكن القارب الذي حمل أسلافك المتهمين من إسبانيا من النجاة وصولاً إلى اليابسة هنا! ها هي البندقية تمنحكم وطناً آمناً، بينما لا تلتزمون بأقل الأنظمة التي تطالبكم بها. قمتم بإنشاء دور طباعة تتعارض مع قوانين الدولة وتمرير الفاحشة حول مخلصنا المبارك. أنتَ، يهوذا، وهبك الله الفطنة وأكرمك بالعلم، مع ذلك تقسو بقلبك عن حقيقته وتحول وجهك عن نعمته. اخرج من هنا! وأخبر مالك الكتاب الحقيقي أن الحاخام فقده في لعبة مراهنة، لعلها فكرة تنجيه من وجع الحقيقة؛ أنّ أوراق الذهب الجميلة قد تلاشت في النيران. أنتم اليهود تحبون الذهب، أعلم ذلك».

«دومينيكو، من فضلك... سأفعل أي شيء تطلبه... أتوسل إليك...» أتى صوت الحاخام متقطعاً. كان عاجزاً عن التنفس.

«اخرج! الآن، قبل أن أحاكمك بتهمة الهرطقة. هل ترغب بخدمة تصل إلى عشر سنوات على متن القادس[106]، بقدمين مثقلتين بالسلاسل؟ أم تريد قضاء بقية حياتك في زنزانة معتمة؟ اخرج!».

106- القادس: نوع من السفن المزودة بمجاديف لدفعها، نشأت في إقليم البحر المتوسط واستُخدمت في الحرب، والتجارة والقرصنة منذ الألفية الأولى قبل الميلاد. هيمنت القوادس على الحرب البحرية في البحر الأبيض المتوسط منذ القرن الثامن قبل الميلاد وحتى تطوير السفن الحربية الشراعية المتقدمة في القرن السادس عشر.

ركع يهوذا على ركبتيه وقبل رداء الكاهن. «افعل ما تريده بي»، صرخ. «لكن احفظ الكتاب!» كان جواب الكاهن الوحيد ركلة قلبت الحاخام على ظهره. نهض على قدميه بصعوبة وخرج من الغرفة، سار إلى نهاية القاعة، خارجها، متجهاً صوب القناة. كان يبكي ويلهث، منتزعاً بأسى شعر لحيته كأي مفجوع أصيب بفقد عظيم. استدار المشاة العابرون يحدقون في اليهوديِ المجنون. أدرك نظراتهم، أحسّ بكراهيتهم. بدأت دماؤه المحاصرة، الراكدة بالتدفق من تصدعات قلبه المثلوم. حين التوى كاحله بفعل حجر صلب، بدأت قبضة المارد تضرب حشايا صدره من الداخل.

مع وصول الفتى حاملاً شمعة رفيعة، كان فيستوريني يتجرع للتو كأسه الأخيرة من الزق الذي فرغ تماماً. ظن بتأثير ثمله مع الضوء الخافت أن أريه، عاد متضرعاً، فقام بسكب الشتائم. لكن الفتى بدأ يظهر جلياً، فأيده فيستوريني بضرورة إضاءة المكتب بالشموع.

سحب الكاهن الهاجادا إلى بؤرة النور، بعد خروج الصبي. صوتٌ بدأ يدوي في رأسه، النداء الذي لطالما أخمده، الكلمات التي يرضخ للإصغاء لها ليلاً، في الأحلام أحياناً، أو حينما يخسف به الكثير من الشرب... الصوتُ، الغرفة المظلمة، الشعور بالعار، الخوف المخزي. السيدة العذراء المنحوتة في المحراب على يمين عتبة البوابة. يد الطفل الملفوفة بيد خشنة كبيرة. يد توجه الأصابع الصغيرة لمسِّ الخشب المصقول في إصبع قدميها: «هذا ما عليك فعله، على الدوام». الرمال العاصفة فوق تلك المدينة المهجورة. أصوات: عربية، لادينو[107]، أمازيغية؟ لم يعد يتذكر على الإطلاق أي لغة كانت، اللغة التي يجب ألا يتكلمها!

«Dayenu!»[108]: نطق الكلمة بصوت عال. «كافية!».

107- اللادينو: لغة يهودية قريبة من اللغة الإسبانية. تحتوي على الكثير من الكلمات المأخوذة من اللغتين الإسبانية واللغة العبرية. يتحدث بها اليهود السفارديون.

108- (بالعبرية: דַּיֵּנוּ) أغنية مرتبطة بعطلة عيد الفصح اليهودي. تعني كلمة «Dayenu» «كافية» تجاوز عمر الأغنية الألف عام. تدور حول الامتنان للرب.

جال بيده بين خصلات شعره الدهني، كما لو أنه ينتزع الذكريات من ذهنه ليلقيها بعيداً. لا بد أنه يعلم الآن، ربما عرف دائماً، حقيقة هذا الماضي المحظور التفكير فيه، ينبغي أن يتوقف عن الحلم. حدق في قدم السيدة العذراء المتصدعة، حيث تهاوت لفة صغيرة من الرق. بدأ بالصراخ مذعوراً يصارع ضربات قلبه بقبضة قاسية، لكنها انقشعت جلية عبر دموعه، رآها تلك المخطوطة العبرية. المِزوزة المخفية. لاحت له كلماتها أمام عينيه المتقطرتين: «أحب الرب إلهك من كل قلبك...» تبدت له الحروف العبرية، التي سحقها أحدهم في التراب أسفل حذائه، الرجل الذي جاء لاعتقال والديه، ثم قتلهما كيهود متخفين[109].

الهاجادا هناك أيضاً،إنه متأكد من ذلك، كانت مخبأة في المقصورة السرية حيث ذهبوا لممارسة اللغة المحرمة. بان وجهها مجعداً حين أشعلت الشموع، مجويّ التفاصيل. لكن عينيها أشرقتا بلطف كثيف، حينما ابتسمت له. أما صوتها، المترنم بالتبريكات مع لهب الشعلة. فكان خافتاً جداً كأنه الهمس مرتلاً. لا بد أن في الأمر خطأ ما، هناك الكثير من الكتب العبرية المتناثرة في ذهنه. إنها مجرد أوهام، لا ريب أنها كوابيس. ليست بذكريات على الإطلاق. بدأ يصلي باللغة اللاتينية، ليغرق شظايا الأصوات المجهولة العنيدة. رفع كأسه ارتعشت يده، اندلق النبيذ على الرق، لم يلاحظ ذلك.

«أومن بإله واحد، آب قادر على كل شيء»، شد قبضته على الكأس، رفعها إلى شفتيه وتجرعها. «وبربّ واحد يسوع المسيح. ابن الله الوحيد. المولود من الآب قبل كل الدهور... مولود غير مخلوق... وبكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية. واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا...» تندت خداه.

«جيوفاني دومينيكو فيستوريني. أنا! جيوفاني دومينيكو. فيستوريني».

109- اليهود المُتخفّون: اليهود الذين تظاهروا باعتناق دين آخر غير اليهودية، تعود هذه الممارسة للفترات الزمنية حين تم اضطهاد اليهود أو حظر اليهودية.

غمغم بالاسم، مراراً وتكراراً. وصل للكأس. فارغة كانت! شد بقبضة غاضبة، تحطمت الكأس البندقية الرقيقة، لتخترق شظية الجزء العريض من إبهامه. بالكاد أحس بالدم المنسكب المختلط مع بقعة النبيذ المتبرعمة فوق الرق.

أغلق الهاجادا، الملطخة بالبقع الخمرية. أحرقها، جيوفاني دومينيكو فيستوريني. أحرقها الآن. لا تنتظر auto-da-fé[110]. سأذهب إلى مذبح الرب. أنا جيوفاني دومينيكو فيستوريني. سأذهب، لأنني جيوفاني دومينيكو فيستور - أنا... أنا... هل أنا... هل أنا، هل أنا إلياهو كوهين؟

«لا! لستُ هو أبداً!».

قلّب الصفحات مع القلم في يده المصابة، حتى وجد المكان. كتب: الموقع أدناه جيوفاني دوم. فيستوريني، في العام 1609 بعد ميلاد المسيح.

قام برمي القلم عبر الغرفة، وضع رأسه على المنضدة، على غلاف الهاجادا، بكى بينما يدور العالم في رأسه ويتدحرج.

110- أوتو دا في: وتعني رسوم الإيمان، وهي التكفير العلني للخطيئة الذي يخضع له المدانون بالهرطقة أو الردة إبان سطوة محاكم التفتيش الإسبانية والبرتغالية، الذي يتبعه تنفيذ السلطة المدنية للحكم على المدان، الذي قد يصل في كثير من الأحيان إلى الإعدام حرقاً. اشتهرت مواكب «الأوتو دا في» في إسبانيا منذ القرن الخامس عشر.

حنا

بوسطن، ربيع 1996

«إنه لأمر سيئ للغاية»، قال راز، ماداً يده نحو سلة البابَدُم الساخن[111]، «ألا نعرف أبداً ما حدث بالفعل». «أعلم». كنتُ أفكر بمسألة أخرى طيلة المساء. نظرت خارج نافذة المطعم إلى ساحة هارفارد في الأسفل. كان الطلاب بأعناقهم الملفوفة بالأوشحة، يشقون طريقهم عبر المشردين المتجولين في مداخلهم المعتادة. إنه منتصف أبريل، انخفضت درجة الحرارة مرة أخرى، مغادرة بقايا الثلوج الرمادية، غير المذابة، كتلاً عنيدة جاثية في زوايا الشوارع. انبلجت ساحة هارفارد، مليئة بالطاقة والامتياز والوعد كأنها حفلة في ليلة دافئة. لعلها هلّت بذات الوقت، كأنها أكثر الأماكن كآبة على وجه الأرض - وبانت كمتاهة جليدية تجرفها الرياح، حيث أهدر الفتيان شبابهم مكبلين بعضهم فوق بعض، في سباق شاق للحصول على أوراق الاعتماد في الجامعة.

بعد الابتهاج الأولي لاكتشاف بقعة الدم، تهاويتُ في خضم الارتياع. إنه شعور مألوف بالنسبة لي؛ إنها المخاطرة المهنية. أفسر الأمر كما لو أنني في مواجهة مع الجنيّ القاطن في صفحات الكتب القديمة. إن حالفك الحظ في إحدى المرات، قد تتمكن من إطلاق سراحه للحظة أو اثنتين، ليبادر بمكافأتك بإلقاء نظرة خاطفة على الماضي. في أحيان

111- بابَدُم (بالهندية: पापड़म) رقائق من الخبز الهندي يوصف أحياناً بأنه من أنواع الخبز المسطح.

أخرى، سينفخها - بووف - قبل أن تتمكن من فهم ما حدث، ثم تتسمر حيث أنت بذراعين متصالبتين، ليس أبعد من مكان أنت فيه.

تابع راز الغافل عن حالتي المزاجية، في محاولة استفزازي. «وجود الدم حالة دراماتيكية لدرجة كبيرة» قال، وهو يحوم بالنبيذ داخل كأسه.

تقيم زوجة راز، أفسانا، في بروفيدنس ثلاث ليال في الأسبوع، حيث سجلت درجة أستاذ مساعد في تدريس الشعر في براون. هكذا تناولنا الطعام بمفردنا، ما مكننا من الحديث عن الموضوع بقدر ما نرغب. لكن التخمين كان كل ما يمكن الجزم به، مما زاد من استيائي. قلت وأنا أتجرع كأس البيرة، في محاولة لتغيير الموضوع: «لا أعرف كيف تشرب النبيذ الأحمر مع الطعام الهندي؟».

«ربما حدثت مأساة عظيمة»، تابع راز، غير متحمس. «يا للإسبان العاطفيين! يقاتلون من أجل حيازة الكتاب - السيوف المرسومة والخناجر - على الأرجح أن أحد الأشخاص ممن يعدون شواء عيد الفصح، انزلقت يده و-»، قاطعت غاضبة. «لا تبحث عن الحمير الوحشية».

«ماذا؟».

أقول «إذا كان ذا أربع قوائم، بوجه طويل، ويأكل القش، خمن أنه حصان قبل أن تذهب لتعريفه بحمار وحشي». عبارة كانت أمي تكررها. في الواقع الفكرة تتواءم مع تخصصها الطبي. يتوق الطبيب الخبير إلى تشخيص المتلازمات النادرة على الدوام، حتى لو كانت أعراض المريض تشي بحالة شائعة تماماً.

«أوه، أنتِ لستِ سوى دجاجة مبللة. الحمير الوحشية أكثر إثارة بكثير منكِ». وصل راز إلى القنينة وأعاد ملء كأسه. لم تكن الهاجادا مشروعه؛ لم يكن ليختبر الإحباط الذي يجتاحني. «يمكنك إجراء اختبار الحمض النووي، أفترض... للتعرف على الأصول العرقية للشخص الذي انسكب دمه...».

«يمكنكِ. لكن لا يمكنكِ. في هذه الحالة يتوجب انتهاك قطعة الرق لاستخراج عينة كبيرة بما فيه الكفاية. حتى لو توجب علي فعل ذلك، وهو ما لن أفعله بالتأكيد، فلن يسمحوا لي بذلك».

كسرتُ قطعة من البابدم - مسطحة وهشة مثل الماتزوه. مثل المرأة السوداء الغامضة المُضاءة تفاصيلها في الهاجادا، لغز آخر أعجز من حله.

تابع راز إثارة سخطي قائلاً: «كم سيكون أمراً رائعاً لو تمكنتِ من العودة إلى ذاك الزمن أثناء وقوع الحدث»... نعم، أراهن أن زوجته صرخت بوجهه: أنت كلوتز! انظر إلى ما فعلته في كتابنا!.

ابتسم راز ابتسامة عريضة، مهزوماً في النهاية من مزاجي المتعكر. إن لديه مسحة رومانسية على الدوام. أعتقد أن هذا ما جذبه إلى البحث بين حطام السفن. وصل النادل مع وعاء من الفيندالو[112] الحار. قمت بوضع الصلصة الملتهبة فوق الأرز، أخذت شوكة، وشعرت بعيني تدمعان.

أحب هذه الأطعمة. اعتدت على تناولها أثناء دراستي في هارفارد. كانت النكهات الحارة الأقرب إلى طعامي المفضل حول العالم: طبق الملك روبيان سامبال في مطعم الملايان في سيدني. يمكن للطعام أن يشكل عاملاً محسناً للمزاج في بعض الأحيان. قضمات قليلة، ثم بدأت أشعر بتحسن كبير.

«أنتَ على حق». قلت: «لا بد أن هناك شيئاً ما، عليّ الرجوع إلى هناك، حيث مازالت الهاجادا مجرد كتاب للعائلة، وهو أمر يجب الاستفادة منه، قبل أن تصبح قطعة معروضة، محبوسة في فيترين...».

«أوه، لا أعرف»، قال راز. محدقاً بالفيندالو بارتياب. صبّ لنفسه ملعقة صغيرة وحمّل بقية صحنه مع النادل. «لا تنفك تتولى المهمة المفترضة لها بفعلها، إذ بمجرد دخولها المتحف. سيتم تكريسها

112- فيندالو: طبق كاري هندي حار جداً مشهور في منطقة جوا، وكونكان المحيطة، والعديد من أجزاء الهند.

للتدريس، لتستمر زمناً في ذلك. ربما تقوم بتعليم أكثر بكثير من سفر الخروج».

«ما الذي تعنيه؟».

«حسناً، وفق ما قلته لي، نجا الكتاب من الكارثة الإنسانية ذاتها مراراً وتكراراً. فكري في الأمر. لديك مجتمع الآن يتساهل فيه الناس مع سمة الاختلاف، بما يشابه التعايش[113] إبان الحقبة الأندلسية في إسبانيا. الفترة المتسمة بالتنوع الديني والثقافي والعرقي، تنامى كل شيء إبداعياً ومزدهراً. ثم - لاجتذاب هذا الخوف، هذه الكراهية، أمر يحتاج إلى شيطنة ما يدعى ب- الآخر - إنه مجرد نوع من التحريض لتحطيم المجتمع بأسره. محاكم التفتيش، النازيون، الصرب القوميون المتطرفون... القديم ذاته يجتر القديم. يبدو لي أن الكتاب، في هذه المرحلة، يشهد على ذلك كله».

«تحليل عميق جداً، بالنسبة إلى كيميائي عضوي». لم أستطع أبداً مقاومة الفرصة لرد السخرية. تهجم راز في وجهي، ثم ضحك وسألني عما أخطط للحديث عنه في تيل[114]، أخبرته أنني سأقدم ورقة عن السمات الهيكلية ومشاكل حفظ المخطوطات التركية. حيث يؤدي غالباً تنسيق التجليد المعتمد من قبلهم إلى التلف مع دوام الاستخدام، من المذهل عدد الحافظين الذين ما زالوا لا يعرفون كيفية التعامل معه. انجرفنا، بعد ذلك، إلى الثرثرة عن زبوننا المليونير وإيجابيات وسلبيات برامج الشطب الجامعي. عن الأعمال المهمة بما يخص مقتنيات هارفارد، التي قام بها مختبر راز، لديه بعض الآراء المُحكَمة إزاء هذا الموضوع.

«الأمر واحد للمخطوطة، سواء وجدت في مكتبة الجامعة، حيث

113- التعايش (بالإسبانية: La Convivencia) نظرية أكاديمية تفترض أن المسلمين والمسيحيين واليهود في الممالك الأندلسية تعايشوا بسلام نسبي.

114- تيل (Tale) مؤسسة تضم شبكة من أربعة متاحف فنية، ومجموعة المملكة المتحدة الوطنية للفن البريطاني، والفن الحديث والمعاصر الدولي.

يمكن للباحثين الوصول إليها، أو إذا تم نقلها إلى جامع آثار خاص لتحبس في قبو، في مكان ما...».

«أعلم. يجب أن ترى قبو هذا الرجل... لقد عاش زبوني هذا في أحد القصور القديمة الضخمة في شارع براتل، حيث قام بحفر حجرة آمنة مكتظة بالفن، محشوة بالثروات». كان من الصعب إبهار راز، الذي يجني أشياء رائعة كل يوم، لكن عينيه اتسعتا عندما أخبرته، بسرية تامة، عن بعض التحف التي تمكن هذا الرجل من الحصول عليها.

انتقلنا من النقاش ذاك إلى سياسة المتاحف بشكل عام، ومن بعدها إلى الحديث الأكثر حرارة: الجنس بين الركام، والمعروف بقصص الحب بين القيمين على المكتبات. كان هذا إلى حد كبير الحديث الذي رافق ما تبقى من المساء.

رمقتُ المملحة أمامي. حجبتِ الإثارة التي أصابتني بفعل بقعة الدم، ذاكرتي عن القيام بفحص بلورات الملح التي جرفتها من الرق. أخبرت راز أنني سأحتاج إلى إزعاجه في اليوم التالي مرة أخرى، لأنني أردت حقاً إلقاء نظرة على تلك البلورات تحت جهاز فيديو الطيف المقارن.

«اهلاً بكِ في أي وقت. أنتِ تعرفين أننا نحب أن تنضمي إلينا في ستراوس بشكل دائم. هناك وظيفة شاغرة لك، كلما أشرت بإصبعك».

«شكراً يا ماتي، من دواعي سروري. لكن لا قدرة لدي على مغادرة سيدني».

خمنت أن الإطراء اللطيف في عالمنا المحدود، ليس سوى تمهيدٍ لما سيحدث بعد ذلك. كنا في طريقنا لمغادرة المطعم، حين وضع راز يده على مؤخرتي. التفتُّ ونظرتُ إليه.

«أفسانا ليست هنا». «ما المشكلة؟ «Auld lang syne»[115] وكل إلى ما ذلك».

115- الوداع: نشيد عالمي عنوانه باللغة الاسكتلندية Auld lang syne ويعني بالعربية منذ القديم. يرجع تأريخه إلى أواخر القرن 18 حين نظمه الشاعر السكوتلاندي روبرت برنز. يمتاز النشيد بلحن موحد في أنحاء العالم.

نظرت إلى أسفل يده، التقطتها بين إبهامي والسبابة، وانتزعتها عن جسدي.

«أعتقد أنه سيتعين علي وضع اسم جديد لك».

«هاه؟».

«يجب أن أدعوك» رات «- فأر- بدلاً من راز». من الآن فصاعداً».

«أوه، كفاكِ حنا. منذ متى أصبحتِ بمثل هذا الاحتشام؟».

«آه، دعنا نرى - ربما كان ذلك قبل عامين؟ عندما تزوجت؟».

«حسناً، لا أتوقع على وجه التحديد، أن أفانا تتصرف كراهبة أثناء وجودها في بروفيدنس، حيث يجلس الطلاب الشباب النضرون الندیون عند قدميها، لذلك لا أرى--» غطيت أذني بيدي. «اعفني. لست بحاجة إلى معرفة تفاصيل ما تقوم به زوجتك».

التفتُّ بعيداً عنه مسرعة إلى أسفل الدرج. يتوجب علي الاحتشام في مواجهة بعض المواقف، على أي حال. أنا مع الوفاء. ما أعنيه، افعل ما تشاء حين تكون عازباً. عش ودع غيرك يعش. مارس الحب ودع غيرك يمارسه. لكن لماذا تسعى للزواج، إذا كنت لا ترغب بالالتزام؟

عبرنا مباني قليلة، في صمت حرج، وصولاً إلى فندقي. ثم افترقنا مع أمسية رسمية جيدة. صعدتُ إلى غرفتي في الفندق، شعرت بامتعاض، بكآبة إلى حد ما. إن التقيت بشخص أحببته كثيراً لدرجة الزواج منه، فلن أتصرف بمثل طيش راز.

غفوت، فحلمت بأوزرين وكان حلماً غريباً. كنا في الطابق السفلي من شقته، في المخبز في سويت كورنر. حل الموقد محل آلة صنع القهوة في الشقة الكائنة في بونديفي. كنا نخبز الفطائر، دونما كل الأشياء. عندما أخرجت الصينية من الفرن، وقف ورائي حتى استقر طرف ذراعه فوق ذراعي. ارتفعت الفطائر تماماً، عبق بخارها في الأجواء، جالت رائحتها من صوانيها الساخنة. أمسك بفطيرة، رفعها حتى شفتي. ذاب وجه الكعكة في فمي، تذوقت شيئاً دسماً غنياً ولذيذاً. الفطائر فطائر في بعض الأحيان. لكنها ليست كذلك في هذا الحلم.

استيقظت على رنين ملحّ للهاتف. ظننت أنها مجرد مكالمة إيقاظ، تدحرجت ورفعت السماعة وأعدتها إلى الجهاز. عاود الرنين بعد دقيقتين. جلستُ هذه المرة ولاحظت أن الوقت في الساعة الرقمية يومض بلون أحمر للثانية والنصف. إن كان ذلك منبهاً للاستيقاظ، فالتنبيه قبل أربع ساعات، سأودي بموظف الاستقبال إلى الجحيم. تمتمت بغضب، «هاااا؟».

«دكتورة هيث؟».

«اممممم».

«أنا الدكتور فريوسول، ماكس فريوسول. أتصل من مستشفى ماونت أوبورن. لديّ د. سارة هيث هنا».

أي شخص آخر في العالم سينتصب مستيقظاً بفعل الهجوم المقلق في ذلك الوقت. لكن أن تكون والدتي في المستشفى، في منتصف الليل، أمر لا يدهشني، كنت في ذهول خامل، كالعادة.

«أمي؟».

«إنها في وضع حرج. أعتقد أنك من الأقرباء؟».

قمت بسرعة، أتلمس مكان مفتاح النور، غير المرئي في سرير الفندق العجيب.

«ما الذي حدث؟» صدح صوتي أجش، كما لو أن فرشاة عالقة في حلقي.

«تعرضت لحادث سيارة، قامت بالتجول في مكان الحادث، ثم، نتيجة الجس على صدرها شخصت لنفسها أنها تعاني من مشكلة رئوية -».

«انتظر. توقف. تحدث الإنكليزية، هل أنت؟».

«لكنني اعتقدت... أنك طبيبة سيدة هيث...».

«والدتي طبيبة، لكنني في مرحلة الدكتوراه». «أوه، آه تعرضت لحادث سيارة».

فكرت في يديها أولاً. كانت تهتم كثيراً بيديها.

«أين هي؟ هل يمكنني التحدث معها؟».

حسناً، أعتقد أنه يتوجب عليك الحضور إلى هنا. هي... هي، حسناً، بعبارة صريحة، الحالة حرجة بعض الشيء. لقد أوقعت بنفسها خارج[116] AMA - آه، أقصد خارج الاستشارة الطبية - فتعرضت لفقدان في الوعي - يعني أغمي عليها - في ممر المستشفى. إنها تعاني من تمزق في الطحال - ومن تدمي الصفاق - أقصد تدفق الدم في البطن. نستعد لإجراء عملية جراحية لها الآن».

ارتعشت يداي أثناء تدوين تفاصيل المستشفى. بحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى هناك، تم نقلها من قاعة الإسعاف إلى غرفة العمليات. تبيّن أن الدكتور فريوسول طبيبٌ مختصٌ في الصف ما قبل الأخير. ذو وجه مضنى مع لحية محلوقة، وسواد تحت العينين. استغرق الأمر مني، وقتاً ضئيلاً جداً، لأرتدي بعضاً من الملابس، وأعثر على سيارة أجرة لأصل إلى هناك. لا بد أنه يتعامل مع جرح بفعل طلقة نارية، أو مع أزمة قلبية، حيث بالكاد تذكر من أكون. بحث عن معلومات القبول الخاصة بأمي، التي وشت بأنها كانت راكبة في سيارة تقودها امرأة بالغة من العمر 81 عاماً تعمل في وزارة الشؤون الخارجية. اصطدمت سيارتهما بحاجز على طريق سترو. لم يسجل عبور أي مركبة أخرى. «حصلت الشرطة على إفادة والدتك في مكان الحادث».

«كيف ذلك؟ أقصد، هل يُسمح لهم بذلك، إذا أصيب الشخص بجروح خطيرة؟».

«كانت بحالة جيدة أثناء وصولها هنا، أما عن المصابة الأخرى فقاموا بإجراء الإنعاش القلبي لها». نظر ثانية في الملاحظات.

«تجادلت والدتك مع EMTs - فني الطوارئ الطبية - حين أراد تنبيها في مكان الحادث بحيث أعاقت عمل الرجل حين أصر على المضي قدماً في العملية الإسعافية.

Against medical advi - 116

أعتقد أنه محق. يمكنني رؤيتها تفعل ذلك.

«لكن طالما أنها في حالة جيدة، ماذا حدث؟».

«هذا هو وضع الطحال البشري. العضو المتستر. يؤلم قليلاً، لكن لا يثير الانتباه، ولن يدرك المريض أنه يعاني من نزيف الا ما بعد ذلك بكثير، حين ينخفض ضغط الدم لأقصى درجة. قامت بتشخيص حالتها بنفسها، كما تعلمين، قبل أن تتجاوز...».

لا بد أن لوني امتقع بالأخضر في هذه المرحلة، إذ قطع حديثه عن ارتشاح الأحشاء، وسألني إن كنت راغبة في الجلوس.

«ماذا عن السيدة العجوز... هل لديك اسمها؟».

قام بنقر الورقة الموجودة على الحافظة الخاصة به. «دليلة شارانسكي». لم يعن هذا أي شيء بالنسبة إلي.

حاولت اتباع الاتجاهات التي أعطاني إياها فريوسول المؤدية إلى قسم المستشفى الذي كانت فيه أمي، لكن عقلي تشوش بشدة من الفكرة كلها، عن الحادث غير المحتمل لدرجة أنني قمت بحوالي ست دورات خاطئة قبل الوصول إلى مبتغاي. جلست على كرسي من البلاستيك الصلب - بلون زهر الحوذان الأصفر، كان براقاً بشكل فاحش بالمقارنة مع اللون الطيني الرمادي لكل شيء آخر في المستشفى. لم يكن هناك شيء لأفعله، سوى الانتظار.

بدت بحالة مريعة للغاية في سريرها المغادر غرفة الإنعاش. أنابيب أربعة بحجم خراطيم الري منبثقة من ذراعها، أما خدها فكان متورماً مصاباً بعدة كدمات، لا ريب أن وجهها اصطدم بالجزء الجانبي من السيارة. بدت مترنحة، لكنها تعرفت عليّ على الفور ومنحتني ابتسامة خفيفة، شعرتُ أنها الابتسامة الأصدق في وجهي على الإطلاق. أمسكتُ اليد التي لم تخز بها إبرة الوريد.

«خمسة في هذا»، قلتُ. «خمسة من الجهة الأخرى. الجراحة هيث، لا تزال في العمل».

تأوهت بهدوء. «نعم، لكن الأطباء العاملين في المستشفيات يحتاجون إلى طحالهم»، همست. «لا يمكن محاربة الالتهابات...». انهار صوتها، لمعت عيناها وبدأت الدموع تتهاطل بغزارة أسفل خدها المكدوم. لم يسبق لي أن رأيت والدتي تبكي منذ ثلاثين عاماً. التقطت يدها وقبلتها، ثم بدأت بالنحيب.

سمحوا لي بالبقاء في غرفتها على كرسي برشلوني الطراز. ذهبت مسكنات الألم بأمي إلى إغفاءة جديدة خلال خمس عشرة دقيقة، وهو أمر جيد لأنها كانت مضطربة جداً. لم أتمكن من العودة للنوم على الكرسي الملعون، لذلك اخترت الانتظار خارجاً، ريثما تطلق السماء أنوارها، مصغية إلى أصوات الجموع في الممرات بالخارج حيث يستعد العاملون في مناوبات الصباح لتحضير الأدوية والقثاطر، وتحضير المرضى المساكين القادمين لإجراء جراحة اختيارية. فكرت في الأشياء التي أحتاج القيام بها – علي الاتصال بمعهد التيل لإلغاء عرض ورقتي. الطلب من السكرتيرة، جانين، إعادة جدولة المواعيد التي تنتظر عودة أمي في سيدني. التواصل بعدها مع الشرطة، لمعرفة ماهية الالتزامات القانونية المترتبة عليها. لو أن الحادث في سيدني، لكانوا أجروا تحقيقاً على الأرجح، خاصة إن أدى الحادث إلى وفاة. تخيلت موقف أمي السيء إذا اضطرت للمكوث في بوسطن لإنهاء ترتيبات كهذه.

شعرت في النهاية بضيق شديد حول هذا كله، لدرجة أني خرجت للعثور على هاتف وإنهاء المكالمات المطلوبة. الوقت في لندن لا يزال يشير إلى ساعات العمل. أما في سيدني فإنه منتصف الليل هناك ولابد من وجود شخص ما في الخدمة في المستشفى. عندما عدت إلى الغرفة، كانت أمي مستيقظة. لا بد أنها كانت تشعر بتحسن، حيث بدت الدكتورة هيث نفسها، رئيسة قسم جراحة الأعصاب، وقد استعادت صوتها واضعة الممرضة بموقف صعب، أثناء محاولتها تغيير قُنية وريدها. حدقت بي أثناء دخولي الغرفة.

«اعتقدت أنكِ ذهبت»، قالت.

«لا بالطبع. لا يمكنك التخلص مني بهذه السهولة. كنت أترك رسالة لجانين، كما تعلمين، أخبرها بها بما حدث... كيف تشعرين؟».

«دوار لعين». لا تشتم أمي عادة أبداً، باستثناء استخدامها لكلمة مكونة من أربعة أحرف تهبط مثل ضربة قاضية. كانت شتيمة عامية أسترالية معتادة جاثية تحتها.

«هل أقوم بجلب شيء لك؟»... «ممرضة مختصة». حاولتُ منح الممرضة نظرة اعتذار عن فظاظة أمي، لكنها لم تهتم كثيراً. هزت كتفيها، استدارت بعينيها واستمرت في حقن وريد أمي بالمضادات الحيوية. في الواقع، لم يسبق لأمي أن تصرفت بوقاحة مع الممرضات. سرعان ما أدركت أنها لا ريب تتألم كثيراً. عليّ أن أشهد بحقيقة أن الممرضات في المستشفى يعبدنها، حتى أن إحداهن، ممرضة التحقت بالمدرسة المتوسطة وعملت متدربة في ذلك الوقت، أخذتني جانباً، بعد أن سمعت مصادفة نقاشاً حاداً بيننا في مكتبها في أحد الأيام. رجتني عدم إزعاجها بما أشعره من مزاج نكد نتيجة غيابها الدائم. على أي حال، أعلمتني أن هناك جانباً من أمي لم أكن أعرفه، قد يحجب دوام ملامتها. قالت إن أمي هي الجراح الوحيد، في الواقع، الذي يشجع الممرضات على طرح الأسئلة، وتولي مهام أكثر مهارة.

«يمنح معظم الجراحين ظهورهم إن قمنا بسؤالهم أو الطلب منهم، يعاملوننا وكأننا أقل شأناً بالنسبة لهم.لكن والدتك - هي التي ساعدتني على تحصيل القبول مبكراً في مدرسة ميد، كتبت التوصية بكل لطف».

كنت غير متيقنة، في ذلك الوقت، مما قالته المتدربة. أخبرتها حينها ألا تتدخل فيما لا يعنيها، وأن تهتم بشؤونها الخاصة. لكن في الداخل، في مكان ما، أصابني شعور عميق بالافتخار حقاً. كانت المشكلة أن ما هو عظيم بالنسبة لها، كان كالسم بالنسبة لي. أما حين يتعلق الأمر بالطب، فأمي ما هي إلا مبشّرة حقيقية. أما عني فكنت كابنة ملحدة لقديس.

بعد مغادرة الممرضة للغرفة، أشارت أمي بوهن «نعم، يمكنك إسداء خدمة لي. خذي قلماً وورقة. اكتبي هذا العنوان».

أخذت اسم الشارع الذي أعطتني إياه، وهو مكان ما في بروكلين.

«أريدك أن تذهبي إلى هناك».

«لمَ؟».

«إنه منزل دليلة شارانسكي. يقيمون الشيفاه فيه هذه الليلة. إنها طقوس الحداد اليهودية».

«أعرف ما هي، أمي»، قلت، بدبلوماسية شبه معدومة. «حصلت على درجة لعينة في العبرية التوراتية». أردت أن أقول إن المفاجأة الكبرى هي أن تعرفي أنتِ ما هي. كنت دائماً أظن أنها معادية للسامية. كان تعصب أمي الديني مقسماً إلى فرعين. حين يتعلق الأمر بالمرضى، لا تلتفت للون البشرة. لكنها حين تتابع الأخبار، كانت تثير شتائم عرقية عفوية حول «أبوس الكسولين»[117] أو «العرب المتعطشين للدماء». وبالمثل، رغم أنها أعطت الكثير من اليهود المتميزين درجات عالية في برنامجها الصحي، لكنني لا أتذكر أنها دعت أحداً منهم إلى المنزل لتناول العشاء.

«هؤلاء الناس، الشارانسكيون؟ إنهم لا يعرفونني، لا أعتقد أنهم راغبون بوجود شخص غريب هناك».

«سيفعلون». غيرت جلستها في السرير، مع جفلة نتيجة الجهد.

«إنهم يريدونك هناك».

«لكن لماذا يفعلون؟ من هي دليلة شارانسكي، بأي حال من الأحوال؟» أخذتْ نفساً عميقاً أغلقت عينيها.

«هذا ليس مناسباً الآن. لا بد أنهم ملزمون جميعهم بالخروج للخضوع للتحقيق، أو لأي شيء ملعون لديهم هنا».

«ماذا؟ ما الذي تتحدثين عنه؟» فتحت عينيها ونظرت إليّ. «كانت دليلة شارانسكي جدتك».

117- سكان أستراليا الأصليون.

استغرقت في الوقوف على درجات المنزل العالي المبني من الطوب الأحمر لزمن طويل، محاولة استجماع شجاعتي لطرق الباب. المنزل منتصب في القسم المفضل لدي من بروكلين، المكان المفصلي بالقرب من ألستون، حيث تفسح محاور البوريتو الطريق أمام محال بقالة الكوشير وامتداد الشوارع التي تمازجت عمارتها بين الطراز القوطي والفن اليهودي.

هناك فرصة جيدة جداً كي لا أطرق الباب أبداً، لولا وصول مجموعة أخرى من المشيعين ورائي اجتاحتني معهم. فُتح الباب بفعل صخب الأصوات، جرى كل شيء دفعة واحدة. شخص ما قدم لي الفودكا في كوب زجاجي. بطريقة ما، لم أكن لأتصور أن الشيفا بهذا الشكل. أعتقد أن هذه الطقوس مرتبطة باليهود الروس.

بدا المنزل بعكس ما يتوقعه المرء تماماً، حيث تفاوت بين مزجه للمظاهر التقليدية والمعاصرة، مع حقيقة أن امرأة تبلغ من العمر 81 عاماً قد عاشت يوماً هنا. إنه منزل مفتوح من الداخل بالكامل، وفق طراز عصري للغاية، بجدران بيضاء وفسحات سماوية مبدعة التصميم، تقوم بتسريب الضوء إلى الأماكن بإتقان. هناك مزهريات خزفية طويلة ذات أذرع ملتوية، بالإضافة إلى كراسي الميس وغيرها من قطع باهاوس[118] الكلاسيكية المعاصرة.

عُلقت على الجدار البعيد، لوحة كبيرة جداً. فنية بطريقة تقف أمامها مشدوهاً. تم رسم مساحة شاسعة رائعة من السماء الأسترالية مع شريط صحراوي أحمر قاسٍ ضمن خطوط قليلة من الطلاء في الربع السفلي من اللوحة. البسيطة جداً، القوية جداً. لا بد أنها إحدى اللوحات التي

118- باوهاوس (بالألمانية Bauhaus) مصطلح يشير إلى مدرسة فنية نشأت في ألمانيا كانت مهمتها الدمج بين الحرفة والفنون الجميلة أو ما يسمى بالفنون التشكيلية كالرسم، التلوين النحت والعمارة من بين الفنون السبعة. تأسست في مدينة فايمر الألمانية.

صنعت اسماً للفنان في أوائل الستينيات. يمكنك أن ترى لوحة من تلك السلسلة في أي متحف كبير تكاثف فيه الفن الأسترالي. لكن هذا من أعظم ما شهدت، وأفضل ما لمحت. كان لدينا - أقصد أمي - في المنزل في بلفيو هيل، لم أفكر بالأمر في السابق كثيراً، عدد لا بأس به من لوحات تذكارية: بريت وايتلي، سيدني نولان، آرثر بويد. فنانون كبار بأسماء كبيرة. لا يوجد أي سبب، لأمي، لعدم تعليق لوحات لهارون شارانسكي بينها.

تحدثت أنا وأمي مطولاً في ذلك الصباح، حتى نال الإرهاق منها. طلبتُ دواء مهدئاً من الممرضة فغلبها النوم. ثم ذهبت إلى مكتبة ويدنر للبحث عن حقائق سيرة هارون شارانسكي حيث حصلت على المعلومات بسهولة. ولد الأب، الناجي من معسكر الاعتقال الأوكراني عام 1937. أستاذ اللغة والأدب الروسي في جامعة بوسطن. أحضر عائلته إلى أستراليا عندما دُعي لإنشاء أول قسم للغة الروسية في جامعة نيو ساوث ويلز في عام 1955. التحق هارون بالمدرسة الفنية في إيست سيدني للتكنولوجيا، وعمل مساعداً في مزرعة أبقار في إقليم الشمال، بدأ في رسم لوحات جعلت منه مشهوراً بلقب فتى الفن الأسترالي الشقي. بصراحة أكثر غير المكبوح. كان سياسياً شرساً حين يتعلق الأمر بالبيئة الصحراوية، وتدميرها بتأثير صناعة التعدين. تذكرت رؤيته في الأخبار مرة، حين ألقي القبض عليه في اعتصام احتجاج على حفر منجم البوكسيت، أعتقد أنه كان هو، يجره رجال الشرطة العنيفون تلك الأيام، من شعره الأسود الطويل عبر الرمال. أثيرت فضيحة كبيرة حول هذا الموضوع، أتذكر الرواية تماماً. قام برفض شروط الكفالة، كما اعترض على منعه من العودة إلى موقع التعدين، ليلقى حكماً بالسجن لشهر مع عشرات الرجال من سكان البلاد الأصليين. خرج من الحبس وفي جعبته الكثير ليقوله عن المعاملة الرهيبة لأبناء الشعوب الأصلية المحتجزين هناك. أضحى بطلاً في بعض الدوائر فيما بعد. حتى المحافظون كان

عليهم أن يصغوا بأدب، إذا أرادوا المساومة في شراء إحدى لوحاته. في كل معرض يقيمه، تجد هيجاناً للحصول على لوحة من لوحاته، بغض النظر عن ثمنها الباهظ.

ثم، في سن الثامنة والعشرين، أخذت القصة منعطفاً مختلفاً. بدأ نظره بالانحسار. تبين أنه أصيب بورم ضاغط على عصبه البصري. أما الجراحة لإزالته فحساسة جداً وفيها الكثير من المجازفة. توفي، بعد أيام قليلة نتيجة «مضاعفات ما بعد الجراحة». لم يُلاحظ في أيٍّ من الملفات الشخصية أو في العديد من القصص الحزينة الملهمة، اسم جراح الأعصاب الذي أجرى العملية له. لم يُسمح للأطباء الأستراليين بالتصريح للصحافة يومها - كنوع من سياسة الأخلاقيات الطبية. بالرغم من أنني لم أكن في وضع يتيح لي المعرفة على وجه اليقين، لكنني أعلم أن والدتي كانت في أوائل الثلاثينات من عمرها لا تفتقر إلى الثقة التامة بالنفس، التي تمكنها من العمل على إزالة ورمه الصعب. لكن هل كانت هي؟ إن كان الأمر كذلك، فقد تعارضت مع التقليد الأزلي المألوف والقاضي بأن الأطباء لا ينبغي أن يعالجوا جراحياً من يتشاركون عاطفياً معهم.

سارة هيث وهارون شارانسكي كانا عاشقين. في وقت إجراء العملية الجراحية، أما هي فكانت حاملاً بطفله في شهرها الرابع.

«هل تعتقدين أنني لم أحب والدك؟».

ارتسمت النظرة على وجهها بالدهشة المطلقة. بدا المشهد كما لو أنني أخبرتها أن هناك فرس نهر في باطن اليد.

عدتُ إلى المستشفى من ويدنر في فترة ما بعد الظهر. كانت لا تزال نائمة إبان وصولي. لم يسعني عمل شيء إلا الحرص على عدم إيقاظها. فتحت عينيها أخيراً، لمحتني أقف بجوارها مهووسة بالأسئلة. تحدثنا بعد ذلك، استفسارات وأجوبة، وصمت طويل. كانت أطول محادثة أجريناها على الإطلاق، من دون جدال.

«حسناً، لماذا لا أعتقد أنك لا تحبينه؟ أنت لم تذكريه من قبل أبداً.

ولا مرة واحدة. عندما طلبت أخيراً ذلك منك، نفرتِ فوراً مع نظرة مقززة على وجهك».

«ما زالت ذكرى تلك اللحظة جارحة».

«هل تعلمين، لفترة طويلة بعد ذلك، بدأت أقتنع بأنني طفلة اغتصاب، أو شيء من هذا...».

«أوه، حنا...».

«بدا واضحاً أنك عاجزة عن مواجهتي بحقيقة كهذه». «لكن في الحقيقة، كل ما فكرت به كان وهماً».

«أنا... أعتقد أنني ذكرته لكِ، أو شيء...

بصراحة... أنتِ تذكرينني به. تشبهينه كثيراً، بالفعل، منذ اللحظة التي ولدتِ فيها. غمازتكِ، شكل رأسك وعينيك. في وقت لاحق، شعركِ - لون بشرتكِ - بنية جسدكِ. ملامح وجهك حين تركزين - المظهر ذاته الذي يكون عليه حينما يرسم - فكرتُ، حسناً، إنها تشبهه بالشكل، لكنها ستكون مثلي، لأنها معي. أنا من أرعاها. لكنكِ لم تصبحي مثلي. كنت مهتمة بالأشياء التي يحبها دائماً. ضحكتك تشبه ضحكته، التعابير التي يبدو عليها ذاتها حين تغضبين... في كل مرة أنظر إليك، أفكر به... ثم، عندما وصلت سن المراهقة، تبين أنك تكرهينني كثيراً... كما لو كان ذلك جزءاً من معاقبتي».

«عقاب؟ ماذا تعنين؟ العقاب على ماذا؟».

«على قتله». تخفف صوتها فجأة.

لم يكن مريضي. «هل أنت مجنون؟»، قلت له، «ألم تتعلم أي شيء عن الطب جراء العيش معي طوال تلك السنوات؟ ما الطبيبة التي سأكونها، إن أجريت عملية جراحية لشخص أعشقه بشدة؟ بالطبع لم أجر العملية له. قمت بإجراء الاختبارات لأحصل على التشخيص - تكشف أنه يعاني من عدم وضوح الرؤية نتيجة وجود ورم حميد، بطيء النمو، لا يهدد الحياة على الإطلاق.

أوصيت بالمعالجة بالأشعة، حاول ذلك، لكن ضعف البصر استمر. أراد الجراحة ومواجهة المخاطر وكل شيء. أحلته إلى أندرسون».

أندرسون الأسطوري. سمعت الاسم طوال حياتي. عملياً، تعبده أمي.

«إذاً، أرسلته إلى الأفضل. كيف يمكنك إلقاء اللوم على نفسك لذلك؟».

«لن تفهمي». تنهدتُ. «عليكِ أن تفهمي --»... «يمكنك إعطائي فرصة لأفهم».

«حنا، كانت فرصتك لديك. منذ وقت طويل». أغلقت عينيها.

جلستُ هناك، أرتجف. لم أتمكن من التصديق أننا وقعنا في نفس العمر، في الماضي ذاته. ليس في وقت كهذا، حيث لدي الكثير مما أحتاج إلى معرفته.

أوشك الجو، في الخارج، على سكب العتمة، لكن داخل أحشاء المستشفى تعجز أي وسيلة تشي بحلول المساء. أصواتٌ في الممرات، الكراسي المتحركة، صرخاتٌ وأجهزة الاستدعاء، التصفير كلها كانت تغتصب الصمت. تساءلت إن عادت أمي إلى إغفاءة بفعل الدواء. لكنها تحركت، وبدأت بالتحدث بعينين مقفلتين.

«أتعرفين! عندما تقدمت بطلب للحصول على اختصاص في جراحة الأعصاب، لم تكن لديهم رغبة بمنحها لامرأة. قال اثنان من المقيمين ذلك، بشكل مباشر، أنني سأضيع التدريب، حين أتزوج وأنجب الأطفال، فلا أمارس ما تدربت عليه مطلقاً».

ارتفع صوتها وقسا. كان بإمكاني الجزم أن عقلها، في تلك الغرفة، عاد بها إلى هناك، في مواجهة الرجال الذين أرادوا حرمانها من المستقبل الذي أحبته من كل قلبها.

«لكن المقيم الثالث، الذي كان رئيس القسم. كان يعلم بحصولي على الدرجات الأعلى من أي شخص في السنة التي تميزت فيها خلال

فترة التدريب. قال لي، يا دكتورة سأسألك سؤالاً واحداً فقط: هل هناك أي شيء، أي شيء في العالم، يمكنك أن تتخيليه لنفسك، بخلاف كونك جراحة أعصاب؟ فإن كان الجواب نعم، فأنا أحثك على سحب طلبك».

فتحت عينيها ثم نظرت إليّ. «لم أتردد لثانية، حنا. لم يكن هناك أي هدف آخر، بالنسبة لي. لا شيء. لا أرغب بالزواج، لا أريد إنجاب طفل. هجرتُ الرغبات الطبيعية والعادية جميعها. حاولت أن أفهمك ذلك، حنا، يا له من شعور مدهش ورائع، أن يمتلك المرء القدرة على إجراء عمليات الجراحة الأصعب، الجراحة الأكثر أهمية. أن يعرف أن مصير أفكار الأشخاص وشخصياتهم متعلق بأطراف أصابع يديه، بمهارته - أنا لا أنقذ حياتهم، حنا. أنا أنقذ السمة التي تصوغنا بشراً. أنقذ الأرواح. لكنك أبداً...».

تنهدتُ مرة أخرى، تحركتُ في مقعدي. عادت المبشرة إلى منبرها. سمعت كل ذلك من قبل، كما أنني أعرف نهايته، لكنه لم يكن المكان الذي أردت الذهاب إليه. غيرت الحديث فجأة.

«عندما حملتُ، اعتبرت ما حدث خطأً جسيماً، استأتُ من نفسي كثيراً. لم يكن لدي أي نية لإنجاب طفل. لكن سعادة هارون المفرطة، ساقتني إلى فرحٍ غامرٍ بدوري». ما انفكتْ تأسرني بنظرة زرقاء مباشرة، حتى بدأت عيناها باللمعان.

«بطريقة أو بأخرى، حنا، كنا العشاق الأكثر استحالة. مازال يسارياً مهاجماً للمعتقدات جميعها، وكنتُ -» توقفت. كانت يداها تعبِّر باضطراب فوق الملاءة، تمسد التجاعيد غير الموجودة.

«قبل مقابلته، حنا، لم أطمع بأي شيء مطلقاً. لم أقض طوعاً دقيقة من وقتي في أي حدث، لا يقودني نحو هدفي في المجال الطبي. لكنني بعد أن صرتُ طبيبة، الطبيبة الأفضل. قدمني للسياسة والطبيعة والفن - عرفني على كل تلك الأشياء. لا أؤمن بالكليشيهات كالحب من النظرة الأولى، وما إلى ذلك. لكن هذا ما كان عليه الأمر بيننا. شعور دافئ لم

يزرني من قبل، ولم أختبره من جديد منذ ذلك الحين، منذ دخوله غرفة العمليات الجراحية، أعرف -».

دخل مساعد أحد الممرضين الغرفة يجر عربة الشاي. أمسكتُ بالكأس لأن يدي أمي ترتعشان، رشفتْ بضع رشفات ولوحت بإبعادها عنها. «لا يمكن للأميركيين أن يصنعوا شاياً لائقاً». قمت بتمسيد الوسائد خلفها، عدّلت جلستها بتعب.

«هل تريدين أن أطلب لك شيئاً آخر؟».

هزت رأسها بالنفي. «دائخة بما فيه الكفاية الآن»، قالت. أخذت نفساً عميقاً، جمعت قواها، ثم استأنفت. «في اليوم الأول، إبان عودتي إلى المنزل، وجدتُ لوحة هناك بانتظاري - تلك المعلقة على خزانة جانبية في غرفة الطعام».

صفرتُ متعجبة. لا بد أن تلك اللوحة ذات ثمن باهظ. «أتعلمين، إن معظم ما حصلت عليه من الخاطب الراغب، لا يتعدى حفنة من الزهور، الذابلة، في الواقع».

رسمت شفتا أمي ابتسامة واسعة. «نعم»، قالت. «إن الأمر يعود للنية والعزم. رافقتِ اللوحة ملاحظة منه. مازلت أحتفظ بها معي. إنها في محفظتي. يمكنك أن تقرأيها، إذا أردت».

مشيت إلى خزانة ملابسها وأخرجت حقيبة يدها.

«افتحي السحاب. نعم، هذا صحيح، هناك خلف رخصة القيادة».

فتحت السحاب، عثرتُ عليها. كانت ملاحظة قصيرة مكونة من سطرين فقط، مكتوبين بقلم فحم فني بأحرف كبيرة.

ما أقوم به يمثلني، لذلك أتيت.

تعرفت على المقولة، إنها من قصيدة جيرارد مانلي هوبكينز. كتب هارون أسفلها:

سارة، أنت من يمثلني. ساعديني لأقوم بما جئتُ من أجله.

حدقتُ في الكلمات، في محاولة تخيل اليد التي خطّتها. يدُ أبي، التي لم أمسك بها أبداً.

«اتصلت به لأشكره على اللوحة. طلب مني المجيء إلى المرسم الخاص به. بعد ذلك... بعد ذلك، قضينا كل لحظة فراغ معاً. حتى النهاية. لم تدم تلك السعادة طويلاً، بضعة أشهر فقط. لطالما تساءلتُ غالباً: هل ستستمر، ماذا ينتظرنا، لو عاش... ربما، من يدري، قد ينتهي به الأمر كارهاً لي، مثلك تماماً».

«أمي، لم أفعل».

«حنا، ما من داعٍ للإنكار. أعلم أنك لم تغفري لي حقيقة عجزي عن ممارسة أمومتي معك صغيرة على مدار الساعة، وطوال أيام الأسبوع. حتى بحلول الوقت، حين كبرتِ، أضحيتِ مراهقة شرسة شائكة السلوك بما أقلقني. لطالما راقبتك تتجولين كالفراشة تضحكين مع غريتا. لكن كلما صعدت إليك تتجهمين. إن سألتك عن النكتة، تردين بملامح متحجرة: لن أخبرك».

هذا صحيح، هذا بالضبط ما فعلته. إنه أسلوبي المتواضع لمعاقبتها. أسدلت يدي باسترخاء في حضني في لفتة من الاستسلام. ثم قلت: «هذا كله منذ زمن طويل، الآن».

أومأت برأسها. «كله. منذ وقت طويل»...

«ماذا حدث، بشأن العملية؟».

«لم أخبر أندرسون بعلاقتنا حين أحلتُ هارون إليه. كنت حاملاً في ذلك الحين، لكن لم يعلم أحد بذلك. مدهشٌ ما يمكنك إخفاؤه تحت معطف أبيض. على أي حال، دعاني أندرسون كمساعدة جراح، لكنني رفضت، لذتُ ببعض الأعذار الواهية. أتذكر كيف حدق بي. كيف لا وهو يدرك أنني عادة ما أسير فوق الجمر في سبيل الحصول على فرصة خاصة بهذا النوع من الورم، حيث الجراحة تبدأ من قاعدة الجمجمة. تقشر فروة الرأس و-».

توقفتُ. أدركتُ حينها أنني رفعت يدي قسرياً إلى أذنيّ لأحجب عن مسمعي الوصف المريع. حدقتْ بي بنظرة جارحة. أنزلتُ يدي مثل طفل مذنب.

«اخترتُ في النهاية ألا أساعده. لكنني وجدت سبباً لأتسكع حول غرفة العمليات. حين رمقتُ أندرسون يسحب قفازيه، لن أنسى ملامح وجهه أبداً، توقعتُ أن هارون مات على السرير. استجمعتُ قواي كلها لأستقيم كما يجب. «إنه ورم سحائي حميد، وفق تشخيصكِ. إلا أن غمد العصب البصري مصاب على نطاق واسع» حاول تجريف الورم عن الأغماد لإعادة إمداد الأعصاب بالدم، لكن الكثير منه هناك. لعلي فهمتُ مما قاله؛ لقد أصيب بالعمى. أدركتُ حينها أن هارون لن يعتبر حياة بمثل هذا الوضع حياة، لا أعتقد أنه سيستيقظ أبداً لمعرفة أنه ضرير. أصيب في تلك الليلة بنزيف، غفل عنه أندرسون. بحلول الوقت الذي أعادوا فيه والدك مرة أخرى، إلى غرفة العمليات لمعالجة التخثر».

وصلت الممرضة أثناء الحديث. حدقت بأمي بنظرات متفحصة، كان واضحاً للعيان حالتها المهتاجة. التفتت الممرضة إلي. وقالت: «أعتقد أنه من الأفضل أن تسمحي للمريضة بالاستراحة لفترة من الوقت».

«نعم فعلاً. اذهبي» بدا صوت أمي متوتراً، كما لو أن هاتين الكلمتين الصغيرتين تتطلبان جهداً هائلاً. «حان الوقت. حان الوقت كي تكوني مع الشارانسكيين».

«حنا هيث؟» استدرتُ مبتعدة عن اللوحة المعلقة على حائط دليلة شارانسكي ووجدتني أنظر إلى قسماتِ رجل مألوفة لي، ملامحي ذاتها، مترجمة على وجه رجل أكبر سناً.

«أنا ابن دليلة. ابنها الآخر: يونان».

مددتُ يداً لأصافحه، لكنه أحاط كتفي بذراعيه وشدني إليه. شعرت بحرج كبير. كم تقتُ منذ الصغر للعيش في كنف عائلة عطوفة. كنتُ طفلة أمي الوحيدة. أمي البعيدة عن أهلها. عن والدها الذي بعد أن حصل على

تأمينه التقاعدي أخذ زوجته للاستمتاع في مدينة نوسا، حيث شغفه لعبتا الغولف والتنس قبل ولادتي. أذكر أنني قابلت جدتي لمرة واحدة قبل وفاتها بنوبة قلبية، ليتزوج جدي على عجل من مدربة تنس. زواجٌ لم يلق موافقة أمي، فتوقفنا عن زيارتهما بشكل كامل.

فجأة أرى نفسي واقفة، محاطة بغرباءٍ من لحمي ودمي. عدد غير قليل منهم هناك: ثلاثة أبناء عم وعمة. عمة أخرى، تعمل على ما يبدو، مندوباً تجارياً في يالطا. هنا العم يونان، المهندس المعماري الذي قام بتجديد هذا البيت لدليلة.

«شعرنا بالارتياح لسماع أن والدتك تتعافى»، قال وهو يقلب ضفيرة من الشعر الأسود المنسدل في إيماءة عصبية كانت، كما أدركت، مرآة لعصبيتي ذاتها.

«لم يرغب أي منا أن تتابع أمي القيادة بعد أن بلغت الثمانين من عمرها، لكنها خفاش مسن عنيد». عاشت والدته أرملة لأكثر من خمسة عشر عاماً، اعتادت خلالها على بسط سيطرتها التامة على ما يخصها. «حصلت على درجة الدكتوراه، منذ عشر سنوات مضت و- أعتقد من المفهوم لم لا تسمح لنا بإملاء ما يتوجب عليها القيام به. لكننا نشعر جميعاً بالأسف حيال والدتك. هل هناك أي شيء يمكننا القيام به...».

أكدت له أن أمي تحصل على القدر الكافي من العناية. كيف سارعت، بمجرد الحديث عن اجتماع جراحي عصبي، شبكة الأطباء بأكملها إلى العمل، كأنها أحد الذين يخصهم شخصياً. أشك في وجود مريض في بوسطن يتلقى العناية المركزة ذاتها.

«حسناً، ستكون روحُ والدتي مطمئنة، حيث جاءت هذه المأساة بكِ إلينا في النهاية».

«نعم، إنه لأمر سيئ للغاية، أنكَ ووالدتكَ لم تقيما في أستراليا - وإلا لكان من الجيد أن أحظى بجدة في طفولتي».

«أوه، لكننا بقينا هناك، لبضع سنوات. أرادت أمي حصولي على فرصة لمتابعة دراستي في الهندسة المعمارية. حيث كنتُ طالباً ليلياً في معهد التكنولوجيا، بينما أعمل مهندساً معمارياً تابعاً لحكومة نيو ساوث ويلز خلال النهار. صممتُ المراحيض في حديقة حيوان تارونجا، لا أدري إن حصلتِ، في أيِ وقت مضى، على فرصة للتبول هناك...» ابتسم ابتسامة عريضة. «حسناً، في الواقع التصاميم جميلة حقاً، مثلما يحدث...» وضع كأسه ونظر إليّ، كما لو كان يقرر متابعة حديثه من عدمه.

«يجب أن تعرفي أن أمي توسلت لسارة عساها تسمح لنا برؤيتك، ومباركة انضمامك للعائلة. لكن سارة رفضت تماماً. ثم أصرت على عدم التواصل».

«لكنك ذكرتَ للتو أن والدتك لا تأخذ الأوامر من أي شخص... فلماذا تستمع إلى سارة؟».

«أعتقد أن الأمر كان صعباً بالنسبة لها. لكنها تعلم أننا عائدون إلى هنا. أفترضُ أنها فكرت بكمِّ الظلم، حين نخلقُ اضطراباً كبيراً في حياتك، لنختفي ببساطة بعده. لكنها عثرت على موقع مدرستك التمهيدية، داومت على الذهاب هناك ومراقبتك كلما أتت مدبرة المنزل لتقلك، في فترة ما بعد الظهيرة. أصابها القلق بشأنك على الدوام. بدوتِ لها كطفل صغير حزين...».

«حسناً، كانت تلك بصيرة تُحسب لها»، قلتُ بصوتٍ مرتبك، لم أتمكن من إيقاف الارتعاش عن شفتيّ. يا للقسوة اللعينة. قسوةٌ مارستها أمي على دليلة، لا بد أن الجدة كانت تتوق إلى حفيدتها، آخر ما تركه لها ابنها. قسوةٌ مارستها علي أيضاً. ربما لو عشتُ في ظل هذه العائلة لأضحيت شخصاً مختلفاً.

«لكن لماذا بقيت أمي على اتصال معها، إذاً؟ أعني، لماذا كانتا معاً الليلة الماضية؟».

«شؤون تخص المؤسسة. وصية هارون - لقد أوصى لها فيما يخص أملاكاً تعود إلى مؤسسة شارانسكي».

«بالطبع»، قلت. إنها إحدى مهمات أمي. أمي الحريصة على قيادة الهيئات - التعاونية، الخيرية. حيث تحصل على سطوة إلى جانب أجر تتقاضاه كمديرة. لكنني لم أفهم على الإطلاق المعنى من اهتمامها هذا. أما عن مؤسسة شارانسكي، فبدت، على الدوام، مؤسسة غريبة عنها. لم تتماش اهتماماتهما تماماً معاً.

كتب هارون وصية قبل موعد عمليته، مؤسساً المؤسسة. عيّن دليلة وسارة أميتين. أظن أنه اعتقد أنه سيربطهما بهذه الطريقة». جاءت امرأة أثناء حديثه، فاستدار يونان للتحدث معها. حدقتُ في الصور على رف الكتب. عدد قليل منها، محاطة بإطارات من الفضة الخالصة. إحداها كانت لدليلة، بدت امرأة شابة بعينين واسعتين داكنتين. ترتدي فستاناً أبيض من الأورجانزا مع طوق فضي لامع، أياً كانت المناسبة التي تأنقت لأجلها، فقد بدت متألقة وفاتنة جداً. هناك صورة لهارون، في مرسمه، ملطخاً بالطلاء، يفكر في اللوحة المنتصبة أمامه، كما لو أن المصور ليس موجوداً. حفل جماعي عائلي هنا، أعتقد أنه بار متسفا[119]، بريزيس[120]، ربما... أناس ذوو مظهر جيد يمسكون بعضهم بأذرع بعض، بعيون مبتهجة، ولغة جسد تخبر عن سعادة اجتماعهم معاً.

عاملوني جميعاً بدفء غامر - اهتموا بي، قدموا لي الطعام وعانقوني كثيراً. لست معتادة على العناق. كنتُ أحاول إعادة صياغة نفسي، كشخص ينتمي إلى هذا المكان، شخص نصفه يهودي روسي. شخص كان يمكن أن يعبر الحياة باسم حنا شارانسكي.

119- بار متسفا (بالعبرية: בר מצוה) حفل يهودي ديني يقام عند بلوغ الشاب اليهودي 13 من عمره، أي عندما يُعتبر مكلفاً بأداء جميع الفرائض المفروضة عليه حسب الشريعة اليهودية (الهالاخاه).

120- (brises) الحفل اليهودي للختان.

استقامت زجاجة الفودكا على الطاولة الزجاجية، كنتُ منجذبة نحوها لدرجة فقدتُ معها القدرة على إحصاء الكؤوس التي ارتشفتها، كنتُ مبتهجة بالشرب حتى الثمالة. بدأ الجميع يروون قصص دليلة، أما زوجة يونان فأوضحت كيف، أول زواجها، تابع يونان شرحها عن كرات الماتزو التي لم تكن مثل التي تصنعها أمه. «حاولتُ ضرب بياض البيض بشكل منفصل، ومزج كل شيء باليد بلطف، وصنع كرات ماتزو جميلة وشهية، لكن لا، لم تكن أبداً مثل تلك التي تصنعها دليلة.

سئمت ذات يوم وألقيتها في الخلاط. كانت قاسية جداً مثل كرات الغولف، ماذا يقول يونان؟ تماماً مثل دليلة!».

قصص أخرى دارت في نفس السياق. لم تكن دليلة أماً يهودية نمطية، أو جدة، بما يخص هذا الشأن. تحدث ابن يونان الأصغر سناً مني بقليل، عن المرة الأولى التي تركه فيها أبوه وحده لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، حيث كان من المفترض أن يقيم مع الجدة دليلة.

«قابلتني عند الباب بوجبتين جاهزتين من الدجاج بأطباق من القصدير. أعطتني إياهما وقالت: اذهب الآن إلى المنزل واقض عطلة نهاية أسبوع لطيفة مع أصدقائك. لكن احرص ألا تضع نفسك - أو تورطني - في أي مشكلة. كان حلماً فائق العناية لفتى يبلغ من العمر أربعة عشر عاماً، كما أقول لكم».

دفن يونان وزوجته وجهيهما بأيديهما مدعين صدمة زائفة: «لو علمنا بالأمر».

استأذنتُ بالذهاب بعد ذلك بفترة طويلة. بحجة العناية بأمي، التي لم يكن لدي أي نية للقيام بها. لكن يتوجب علي الخروج من المكان. كنتُ أترنح، جزئياً بفعل الفودكا، جزئياً فقط. لا بد أن الأمر يستغرق أكثر من ليلة واحدة، للحاق بثلاثين عاماً من المعلومات التائهة. من الحب الضائع.

تلاشت، في درب عودتي إلى الفندق، المشاعر الجديدة المربكة

التي أحسستها تجاه والدتي منذ أن أصيبت في الحادث، لتحل محلها الأحاسيس النزقة المألوفة لديّ معظم حياتي. لم تسعفها معرفتي بأنها امرأة استطاعت ذات يوم منح حب كبير. نعم، عانت بالتأكيد حين فقدت حب حياتها، متابعة العمر مثقلة باللوم الذاتي. كما أنني، لم أكن فتاة كاملة بأي حال من الأحوال، مراهقة متطلبة لا ترحم. مع ذلك، ما اختبرتْه من ألمٍ غير كافٍ. فهي في النهاية التي اتخذت جميع قراراتها، وأنا من دفع الثّمن.

ذهبتُ إلى الحمام وتقيأت - بفعل الإفراط في شرب الخمر- أمرٌ لم يحدث معي منذ كنت طالبة جامعية. استلقيت على السرير مع منشفة مبللة على وجهي في محاولة التهرب من دوران الغرفة. مع بدء الصداع، قررت التوقف عن إلغاء عرض ورقتي في تيل. ليقم أصدقاء أمي الأطباء بالعناية بها. أعرف أنهم سيفعلون. هي من كانت تضع عملها أول الأولويات...

على عملي أن يفعل الأمر ذاته معي. صدح صوتٌ في رأسي، صوتها:

«أنا الشخص الذي اختار العمل بدل الحب. المخاطرة بحياة حافلة في سبيل عملية خطيرة. عاشق، عائلة وطفل في الطريق، لديّ الكثير، لكنهم جميعهم الأقل أهمية مقارنة بعملي».

حسناً إذاً، ماذا بوسعي فعله؟ علي المضي قدُماً كما أنا، وكما اختارت أن تكون.

أصاب رأسي صداعٌ ملعون، أكثر ما لا يريده المرء في رحلة جوية تستغرق سبع ساعات. لكنني على الأقل كنت في مقدمة الطائرة، تناولت من باب المجاملة كامرأة ثرية، قطعة سمك السلمون المرقط الذي قدمته لي مضيفة الطائرة. فكرتُ بجميع الأحشاء الفقيرة خلفي التي تجاهد بتناول الدجاج القاسي والمعكرونة المطاطية. حتى في الدرجة الأولى، اعتبر طعام شركات الطيران مجرد هراء. فالسمكة أمامي محروقة، حسناً. مشوية حتى النضوج، ثم تُركت على الصينية لساعة ونصف. بكل

الأحوال، فالماء حقاً، كل ما أردته. ريثما يأتي شخص ما فيأخذ الصينية، التقطت المملحة البلاستيكية الصغيرة، سمحتُ لبعض الحبيبات بالانسكاب في باطن كفي. مضى وقت لم أتمكن من العودة إلى مختبر راز بسبب حادث أمي. لا بد أنه افترض، من عدم حضوري، أنني ما زلت منزعجة منه. لا. فقام، كبادرة حسن نية، بإجراء التحليل أثناء غيابي. ثم ترك رسالة مكتوبة باليد على طاولة الفندق. إنها هنا فوق صينية الطاولة المغطاة بالكتان أمامي.

كنتِ على حق: إنه كلوريد الصوديوم. لكنه بحري، وليس صخرياً. من دون أي إضافات. كيف صنعوا ملح كوشير في القرن الخامس عشر؟ السادس عشر؟ ربما ليس ملح طعام؟ لعلها مغامرات بحرية؟ بما يتواءم مع سنين المواقع المعروفة، كإسبانيا والبندقية؟؟؟

أعتذر عن تصرفي الأرعن ليلة أمس. أعلميني كيف ستجري الأمور في لندن.

صديقك،

راتوس راز

ابتسمتُ، إنه راز النموذجي. يبحث عن الحمير الوحشية مرة أخرى. بطبيعة الحال، فإن هوسه بحطام السفن سيؤدي به للتفكير في حوادث بحرية. لكنني سأعمل بنصيحته وأنظر في الأمر. ما الذي أتى بملح الكوشير بأي حال؟ لا فكرة لدي. وميضُ استفسار جديد، موضوعٌ آخر للمتابعة. ربما يشي لي جِنيُّ الكتاب بلمحة عن شيء ما. تركتُ الذرات البيضاء تتساقط من يدي فوق أوراق الخس الهشة.

تماوجت، على بعد آلاف الأقدام في الأسفل، الأمواج المالحة للمحيط غير المرئي وتكسرت في الظلام.

المياه المالحة

تاراغونا، 1492

أشرقت كلمة يهوه[121] كما يشرق الذهب والفضة.

أينما توهجت الأحرف الأربعة، تسكب ضوءها، بريقها المنقوش بدقة، سناها رأت إسرائيل كلها الحروف تحلق عبر الفضاء في كل صوب، ترسو، تنقش ذاتها فوق الألواح الحجرية.

• كتاب الزوهار[122]

لم يكن داود بن شوشان رجلاً فظاً، لكن طبعه ليس سوى ارتقاء بتفكيره نحو الأمور الأسمى. كثيراً ما كانت زوجته، مريم، تقرعه، حين يلتقي بأختها في السوق من دون أدنى إيماءة بمعرفتها، أو لتجاهله أصوات بائعي سمك الأسقمري البحري المنادين على أسماكهم بنصف السعر المعتاد.

121- YHVH الترجمة الأكثر شيوعاً لاسم الله بالعبرية «يهوه»، الذي يمثل الأحرف الأربعة لاسم الله: Yod، Heh، Vav، Heh («YHVH»).

122- كتاب الزوهار (זהר) (بالعبرية)، تعني الإشراق أو الضياء، أهم كتب التراث الكابالي، وهو تعليق صوفي مكتوب بالآرامية عن المعنى الباطني للعهد القديم. يعالج الكتاب طبيعة الإله، وأسرار الأسماء الإلهية، وروح الإنسان وطبيعتها ومصيرها، وأهمية التوراة، والماشيح والخلاص. ظهرت أولى طبعات الزوهار خلال الفترة من 1558 إلى 1560 في مانتوا وكريمونا في إيطاليا.

لذلك بدا عاجزاً تماماً عن شرح السبب الذي دفعه لملاحظة ذاك الشاب. الذي جلس بصمتٍ تام، بعكس المتسولين الآخرين والباعة المتجولين، بعينين تتقصيان وجوه الحشود المارة. لعل سكونه هو ما لفت انتباه بن شوشان. بدا الكائن الوحيد الهارب من الصخب والضوضاء بهدوء متمايز. ربما لم يكن الأمر كذلك على الإطلاق. لعلّه مجرد خيط رقيق من أشعة شمس الشتاء، المتوهجة فوق الذهب.

حصل الشاب على بقعة صغيرة من أرضٍ متاخمة للسوق، محاطةٍ بسور المدينة. كانت الرقعة رطبة وعاصفة في هذا الوقت من السنة. ومكاناً سيئاً لجذب الزبائن، لهذا السبب تركه التجار المحليون متجهين صوب الباعة المتجولين، أو إلى مجموعة الأندلسيين هنا وهناك، الفارين من المدينة. ساهمتِ الحروب في الجنوب في قتل أمنيات الكثير من الناس، حتى القيمة الضئيلة التي يمتلكونها، فقدوها بحلول الوقت الذي وصلوا فيه إلى هذا الحد، كلاجئين وجدوا أماكن على أطراف السوق، محاولين بيع أشياء رخيصة: كالخيوط والمعاطف أو بعض السلع المنزلية البالية. لكن الشاب لديه قطعة من الجلد منشورة أمامه، اصطفت فوقها مجموعة فاتنة من اللوحات الخشبية الصغيرة المرسومة.

توقف بن شوشان وشق طريقة عبر الزحمة لإلقاء نظرة أقرب. جلس الشاب القرفصاء، مستنداً بأصابعه إلى الأرض الموحلة الباردة ليحافظ على توازنه. كانت الصور مبهرة كما اعتقد. حدق بن شوشان بمنمنماتٍ متوهجة في كتب صلاة للمسيحيين، لم يسبق أن رأى لها مثيلاً. انحنى وأنعم النظر، غير قادر على تصديق عينيه. شخص ما على دراية جيدة بالمدراش[123] قام بذلك، أو على الأقل وجّه الفنان. خطرت فكرة لبن شوشان، فكرة أسعدته للغاية.

«من صنع هذه؟» سأل. حدق الشاب في وجهه، بعينين بنيتين فاتحتين

123- المدراش: بالعبرية (מדרש). مجموعة من التعليقات القديمة على كل أجزاء التناخ. بهدف التفسير، والسعي نحو الأجوبة عن الأسئلة الدينية، وسبر المعاني في التوراة.

خاويتين من الفهم. مفترضاً أنه لم يفهم اللغة المحلية، تحول بن شوشان إلى التحدث بالعربية، ثم بالعبرية. لكن التحديق الخاوي لم يتغير.

«إنه أصم» أجابه فلاحٌ متجولٌ أكتعُ، يحملُ حوضاً صغيراً للعجن وزوجاً من الملاعق الخشبية.

«قابلتُه مع عبده الأسود على الطريق». نظر بن شوشان إلى الشاب عن كثب. بدت ملابسه ملطخة بفعل السفر، لكنها من نوعية فاخرة.

«من هو؟».

هز الرجل كتفيه. «أخبر العبد عن حكاية عجيبة - مدعياً أنه ابن طبيب خاص بالأمير الأخير. لكنك تعرف كيف هو الحال مع العبيد، فهم يحبون تلفيق الحكايات، إيه؟».

«هل الصبي يهودي؟».

«بما أنه مختونٌ، فهو ليس مسيحياً، ولا يبدو كأنه موريّ»[124]

«أين هو ذاك العبد؟ أود معرفة المزيد عن هذه الصور». «هرب بعد ليلة واحدة من وصولنا إلى ساحل أليكانتي. في محاولة العودة إلى إفريقيا بلا شك. أخذت زوجتي تتقرب من الشاب؛ بادلها الرغبة بروحه اليافعة، لكنه لم يدفع لها ولم يدلِ بأي محادثة بالطبع. عندما وصلنا إلى هنا، أفهمتُه أنه مضطر لبيع شيء لدفع ما يترتب عليه. كانت الصور كل ما لديه، إنها تحتوي على ذهب نقي، كما ترى، هل ترغب بشراء إحداها؟».

«أريدها جميعها» قال بن شوشان.

صفعت مريم اللحم فوق الطاولة بشدة لدرجة تهشمت فيها شريحة الخبز الخاصة بداود، وتركت أثراً قليلاً على الطاولة. «الآن انظروا إلى ما قمتَ به، أيها الرجل القذر!».

«مريم...» كان يعلم أن سبب غضبها لا يتعلق بقطعة الخبز المكسورة. سارعت ابنته روتي وبدأت بمسح البقعة. رمق داود كتفي الفتاة تنحنيان

124- المورو أو المور: مصطلح ذو استخدام شعبي وعامي يطلق على كل سكان شمال أفريقيا أي المنطقة المغاربية. يطلق من دون تميز عرقي أو ديني أو ثقافي واضح.

بينما تواصل زوجته التوبيخ. تكره روتي الأصوات المرتفعة. أو الدوري، كما يدعوها داود لأنها تذكره بطائر صغير نزق.

إنها، مثل الدوري، جسدٌ بُنِّيَّة باهتٌ، بعيونٍ غير ملونة وبشرة موحلة، أما رائحتها فكريهة في معظم الأحيان، ناجمة عن مراقبتها للغلايات، حيث يغلي العفص والراتنجات وزاج النحاس الذي يصنع منها أحباره. يا لها من دوريّ مسكين. فتاة لطيفة، نشيطة في الخامسة عشرة من العمر، كان من الممكن أن تتزوج من شاب لطيف، بعيداً عن لسان والدتها القارص. لكن روتي تفتقر للحظ والوجه الجميل، كما أنها تنتمي إلى أسرة توراتية ملتزمة، لا تضع في حسبانها مثل هذه الأشياء خاصة بعد رفضها من مجتمعها، جراء سلوك شقيقها.

مريم، التي كانت قاسية كسرج قديم، لم تكن لتصبر حيال تردد الفتاة. دفعت ابنتها بخشونة وانتزعت الخرقة من يدها، ثم فركت الطاولة بقوة شديدة. «أنتَ تعرف أكثر مني، النقود القليلة المتوفرة لديك، مع ذلك تذهب وتنفق دخلاً لمدة شهرين على الصور! تقول راشيلا أنك لم تساوم الصبي مطلقاً». حاول داود قمع أفكاره غير المجدية حول راشيلا، التي بدت دائماً على دراية بأعمال كاهال بأكملها وبأدق التفاصيل.

«مريم».

«كما لو أننا لا نتحمل أعباء نفقات كافية، مع اقتراب موعد زفاف ابن اخيك!».

«مريم» قال داود رافعاً نبرة صوته بطريقة لم يعتد عليها. «الصور مخصصة لحفل الزفاف. أنت تعرفين أنني أقوم بصنع هاجادا اليوم الأخير من عيد الفصح لابن يوسف وعروسه. ألا ترين؟ يمكنني الحصول على كراس يضم الصور محزوماً مع الكتاب، بالتالي ستتمكن من تقديم هدية ثمينة».

زمت المرأة شفتيها. ثم دست خصلة شعر تحت غطاء رأسها الكتاني. «حسناً، في هذه الحالة...» تفضل مريم تجرع المرارة بدلاً من التراجع في

جدالها، لكن هذه المعلومة جلبت معها سهولة في حلّ الوضع غير المناسب. كانت مضطربة حول هدية الزفاف هذه. من الصعب للمرء أن يأتي حاملاً هدية ضئيلة، أثناء حضور حفل زفاف ابن يوسف الأكبر وابنة عائلة سانز. كانت تشعر بالقلق من أن الهاجادا البسيطة من صنع يد داود قد تبدو هبة تافهة لتلك العائلات العظيمة. لكن مع هذه المنمنات، المضاءة بالذهب واللازورد والملكيت، لا بد أنها تتمتع - عليها الاعتراف - بمقام رفيع.

لم يكن داود بن شوشان يهتم بالمال ولا بالمكانة؛ إنه الرجل الأكثر فقراً في عائلة بن شوشان بأكملها، لكن ذلك لم يضايقه على الإطلاق. ما يهمه السلام الذي يخيم على أهل بيته. يعتبر سعادة زوجته العنيدة مصدر ارتياح له. الفكرة بحد ذاتها تشعره بالرضا. قبل عقد من الزمن، كان متردداً في حيازة الصور، حتى تلك الدينية مثل هذه. لكن شقيقه أحد رجال الحاشية الملكية: يقيم المآدب ويستمتع بالموسيقى وكان - بالرغم من أن داود لم يقلها في وجهه - بالكاد يمكن تمييزه عن الوثني. لماذا لا ينبغي أن يكون لابنه كتاب ينافس سفر المزامير المسيحي الأفضل؟ أصر الحاخام دوران العظيم، بعد كل شيء، على تعليم طلابه معتمداً على الكتب الجميلة. الكتب هذه، كما قال الحاخام، تقوي الروح: «من أهم فضائل أمتنا؛ أن الأغنياء والمسؤولين في كل جيل، حاولوا إنتاج مخطوطات جميلة».

حسناً، لم يكن غنياً ولا مهماً، ولكن بمساعدة الله القدير، سُلمت المنمنمات الجميلة بين يديه - من يدين لا بد أنهما وُسمتا بالموهبة، بالمهارة كي تبدعا هذه المخطوطة المتناغمة. كان ينوي أن يصير الكتاب الذي ألفه فَخاراً. خاصة أنه في أغلب الأحيان، يجد صعوبة في الشرح لزوجته أن عمله كسوفر - ناسخ للغات الله المقدسة - سيجعله غنياً، بالرغم من قلة عدد المرافيدي[125] التي جناها حتى الآن. لكن عندما رمق ابتسامتها بينما تمسح الطاولة، شعر بالسرور أنها بدأت تتفهمه.

125- رافيدي: عملة نحاسية إسبانية من القرون الوسطى ووحدة نقدية.

باشر العمل مع أول ضوء فضي في الصباح، لوّح لمريم عندما جاءته مع وجبة الإفطار في منزلهم، مثله مثل معظم المنازل في كاهال، الضيق المائل، غرفتان تعلو إحداهما الأخرى. لذلك فإن بن شوشان مضطرٌ للعمل في الخارج، حتى أثناء الشتاء القارص. في مكان يبعد عشر خطوات من باب المنزل إلى الشارع. ضمن مساحة مكتظة بأحواض من الجلد المنقوع بالكلس، نُشرت قطع غيرها فوق إطارات في انتظار أشعة الشمس القليلة الشاحبة، عساها تجففها ببطء. جلودٌ في المكان، مغطاة بالدهون والأوعية الدموية، في انتظار التقشير الدقيق بشفرته المدورة. لديه كذلك كومة صغيرة من جلود مكشوفة، وقد فرزها بعناية، بحثاً عن جلود غنم الجبال، كي تتواءم مع الرق المصور المُضاء. اختار الجلود المثالية، طلب من روتي العمل على فركها بسلاسة بالأحجار الاسفنجية والطباشير. قام بغسل يديه بالماء البارد من نافورة الساحة، وجلس بتثاقل قرب الرق، خطّ بعناية الصفحات الجاهزة مستخدماً قلمه العظمي. تدلت حروفه بخطوط باهتة. عندما أنهى النسخ، مر بيديه على وجهه.

«*Leshem ketivah haggadah shel Pesach*» همس، ثم أخذ ريشة الديك الرومي وغمسها في الحبر وكتب:

הא לחמא עניא

Ha Lachma an'ya ***هذا هو خبز الآلام...***

بدت الأحرف النارية تتوهج في الرق.

... الذي أكله آباؤنا في أرض مصر. كل جائع، دعه يدخل ويأكل...

هدر بطن بن شوشان احتجاجاً على تفويته فطوره.

كل محتاج، دعه يدخل ويحتفل.

زادت أعداد المحتاجين هذا العام، بفضل الضرائب التي فرضها الملك والملكة على حروبهما التي لا تنتهي في الجنوب. حاول بن شوشان كبح جماح أفكاره. يجب أن يملأ الخطاط عقله بالأحرف المقدسة فقط. لا يمكن أن يهذر بالأحداث اليومية.

«*Leshem ketivah haggadah shel Pesach*» همس لنفسه مجدداً، محاولاً تهدئة دماغه. خطّت يده حرف شاين - حرف العقل. ما السبب الكامن خلف هذا الصراع المستمر مع المغاربة؟ ألم يتشارك المسلمون واليهود والمسيحيون هذه الأراضي بطمأنينة وسلام - في الأندلس - لمئات السنين؟ ما الذي قيل؟ المسيحيون يُنشئون الجيوش والمسلمون يرفعون المباني أما اليهود فيجمعون المال.

هذا العام هنا، العام المقبل في أرض إسرائيل.

هذا العام هنا، بفضل الدون سينيور والدون ابرافانيل. قد يتم نقش اسميهما لجلب البركة. إنهما من أذهل عيني فرديناند بالذهب، فحافظا على الآذان الملكية صماء أمام تذمر البورغر[126] الغيورين.

العبيد في هذا العام...

فكر بن شوشان في العبد الذي خدم الشاب الأبكم. كم تمنى لو تمكن من التحدث معه، لاكتشاف شيء عن تاريخ اللوحات الرائعة تلك. انتقلت يد السوفر من زجاجة الحبر إلى الرق حيث استحضر خياله شخصية سوداء هزيلة، تتجول مع أحد الموظفين على طول طريق صاخب مغبر نحو مستوطنة من المنازل المبنية من الآجر، حيث تقيم أسرة لطالما ظنته ميتاً. حسناً، من المحتمل أنه قد مات الآن، أو أنه مقيد بالسلاسل إلى مجداف سفينة، مع ظهر مثقل بالتقرحات الدامية.

استمر على هذا المنوال طوال اليوم، حتى فشل الضوء بمحاربة

126- بورغر: لقب أوروبي منذ العصور الوسطى، لمواطن في مدينة، ودرجة اجتماعية يمكن من خلالها اختيار مسؤولي المدينة.

اضطرابات عقله المزدحم، كي يتمكن من رسم الحرف بعناية تلو الحرف. طلب من الدوريّ عند الغسق أن تحضر له رداءً نظيفاً، ومشى إلى المكفاه[127] مع أمل أن يخلص نفسه عبر الانغماس الشعائري، من الصخب اليومي ويفتح ذهنه تماماً أمام عمله المقدس. عاد منتعشاً، ثم طلب من الدوريّ ملء المصباح بالوقود حتى يتمكن من العمل ليلاً. عندما اشتمت مريم عبق الرائحة الغنية للفتيلة المضاءة، انطلقت تحلق من المنزل كدبور، مثرثرة بكلمات لا تنتهي عن سعر النفط. لكن داود قرّعها بحدة غير معتادة، فتراجعت متمتمة.

ما زالت الساعات الأولى للمساء، حين توهجت السماء المعتمة بالنجوم. صيامه، البرد، والتوهج اللامع للمصباح: أمورٌ ارتفعت بالأحرف فجأة لتدور في حلقة جليلة. حلقت يده عبر الرق. توقد كل حرف بدوره. ارتقت كل شخصية بنفسها، رقصت، طافت في الفراغ. ثم اندمجت الحروف في تألق واحد كبير، أربعة منها تكشفت فقط، توهجت بهالة اسم الله المقدس. القدرة التي بانت والعذوبة التي تبدت، كانتا أكثر من قدرة بن شوشان على الاحتمال، أغمي عليه.

وجدته روتي في الصباح فاقداً الوعي محتضناً المخطوطة. مع صقيع خفيفٍ راسٍ فوق لحيته. لكن بدا كل حرف وكل كلمة في المخطوطة نقشاً مثالياً، قام بنسخ صفحات أكثر مما يمكن للسوفر أن ينجزها بأسبوع من العمل الشاق. وضعته روتي في فراشه ذاك الصباح، لكن في فترة ما بعد الظهر، أصرّ على النهوض ومتابعة عمله. عادت يده، يد سوفر عادية من جديد، تشابكت الأفكار الجامدة كعادتها في عقله، لكن قلبه ظل متأثراً ببركة الليل الغامضة. دام الشعور معه حتى اليوم التالي، مع تقدّم ثابت ومتقن النسخ للنص.

العمل الذي يستغرق إنجازه أسابيع، اقترب من الاكتمال في اليوم

127 - المكفاه: حمام ديني يؤديه الرجال وفقاً لطقوس خاصة بليلة السبت من كل أسبوع، وفي الاعياد وبمناسبة الزواج وتقوم السيدات وفق طقوس خاصة بهن.

الرابع. نقرٌ على الباب الخارجي. هسهس بن شوشان بسخط. تسللت روتي بصمت، تنقلت بخطوات شبيهة بالطيور، عبر فوضى الفناء، رفعتِ العارضة وفتحت الباب. تعرفت على المرأة الواقفة هناك، استقامت وعدلت غطاء رأسها بيدين مرتعدتين. كانت حدقتا عينيها، عندما التفتت إلى والدها، واسعتين ومذعورتين.

تحركت المرأة لتخطي العتبة، أسقط بن شوشان قلمه غاضباً. كيف تجرأتْ، من لا يمكن له ذكر اسمها، كيف تجرأت على دق بابه؟

انسكب غضبه في بطنه الفارغ كحامض نافذ، مما تسبب بألم شديد في أمعائه.

اندهشت روتي من تعابير وجهه، رفرفت مرة أخرى من باب الشارع، متجهة صوب المنزل.

كانت المرأة تتحدث بصوت ناعم داعر. تمتم بن شوشان بالعبرية، مصمماً على عدم سماعها: «تقطر شفتا المرأة الغريبة بالعسل، لكن نهايتها الآثمة مريرة كالشيح».

كانت الكاديش[128]، الكلمات الأخيرة التي تلاها على ولده، قرة عينه وجذوة قلبه! - قبل أن يغادر عبر هذا الباب بالذات، ليذهب إلى جرن المعمودية ثم إلى المذبح. استأجر داود بن شوشان ثوب حداد في ذلك اليوم. عامان مرا الآن، لا تزال حيثما التفت، تطفو لولده ذكرى حية وحيوية. هنا هذه المرأة، المتسببة بحسرته، تتلفظ باسم لم يعد منطوقاً في منزله.

«ليس لدي أي ابن!» صاح، أدار ظهره وتبع روتي نحو الباب الداخلي.

خطوتان ثم توقف. ماذا قالت؟

«جاء المأمور مع المحضّر في الليل. قاومهم، صفعوه. عندما صرخ،

---

128 - الكاديش: صلاة تمجد الرب، وتتضمن الشكر والعرفان له والاعتراف بعظمته، تتلى على روح الميت.

وضعوا لجاماً معدنياً في فمه - قبض عليه أحدهم، بينما قام الآخر بلف البراغي لتوسيعها حتى أوشكوا على كسر فكه». لا بد أنها تبكي الآن، فلم يعد صوتها رخيماً بل متقطعاً. ما زال يرفض النظر إليها.

«احتجزوه في كازا سانتا - تبعتهم حتى هناك، توسلتُ لمعرفة تهمته، لإعلامي بالمشتكي - لكنهم التفتوا نحوي حينئذ، وأخبروني أنني مذنبة في تلويث الدم المسيحي بالحمل من مارانو زنديق. تصرفتُ بجبنٍ، إذ سارعتُ بمغادرة المكان وهربت. لكنني لا أستطيع تحمل فكرة أن يولد طفلي في زنزانات محاكم التفتيش. جئت إليك لأنني لا أعرف أين أتجه. لا يملك والدي مالاً مقابل الفدية».

بدا صوتها المقطر عذوبة رقيقاً يهدل كصوت الطفل، أثناء إدلائها بهذه الكذبة.

حدق داود بن شوشان في بطنها المتفخة. بدت أنها وشيكة الولادة. عمل مزيج الحب والفقدان اللذين شعر بهما تلك اللحظة على تفتيت نخاع عظامه. إنه حفيده، الذي لن يولد يهودياً. ترنح، كما لو أنه تجرع الكثير من النبيذ. اجتاز الفناء الصغير نحو الباب الخشبي الثقيل. أغلقه في وجهها الغارق بالدموع.

تحدث الشاب بصعوبة. بعد فك الكمامة، وسحب اللقمة المعدنية من فمه التي انتزعت معها أربع أسنان مكسورة. ممزقة زوايا شفتيه. حين فتح فمه محاولاً التحدث، دفق جديد من الدماء انسكب على ذقنه وصولا إلى سترته الملطخة. حاول أن يرفع يده ليمسح فمه، لكن القيود منعته.

«كيف يمكنني أن أعترف، يا أبتي، مع جهلي بما أنا متهم به؟».

أحضروه إليهم مرتعداً في ثوب النوم. كانت الغرفة داخل كازا سانتا بلا نوافذ، أما جدرانها فمعلقة بقطع قماش سوداء. نور وحيد ماج من شمعات ستٍّ نُصبت على جانبي صورة المسيح المصلوب. احتجبت الطاولة بدورها، باللون الأسود.

كان وجه المحقق غير مرئي خائرٍ في ظل قلنسوته. تكشفت في ضوء الشعلات يداه الشاحبتان، وأطراف أصابعه المتشابكة معاً تحت ذقنٍ مخفي.

«روبن بن شوشان».

«ريناتو، أبتي. تعمدتُ باسم ريناتو. اسمي ريناتو ديل سلفادور».

«روبن بن شوشان»، كرر الكاهن، كما لو أنه لم يسمع.

«من الأفضل أن تعترف الآن من أجل خلود روحك الخالدة» توقف مؤقتاً لفترة طويلة، مع أصابع تنقر بخفة. «ومن أجل جسدك الميت. لأنك إن لم تعترف لي بخطاياك بحرية، ستفعل ذلك، بالتأكيد، في مكان الاسترخاء». شعر ريناتو بمحتويات أمعائه تسيل. قبض على بطنه بشدة بيديه المصفدتين. حاول بلع ريقه، لكن لا لعاب في فمه. أتى صوته خشناً.

«لا أعرف حقاً، ما الذي تظن بأني فاعله!».

قام الكاتب، الجاثم في الزاوية، بخط كل كلمة يقولها ريناتو. حمله صوت كشط القلم إلى منزله، إلى ساحة كاهال، إلى حفيف قلم أبيه فوق الرق.

لكن والده يخط حروف التمجيد المقدسة. ليس مثل هذا الرجل، الذي تتجلى مهمته بتدوين كل نداء يائس، كل أنين وصرخة مقهورة يصدح بها المتهم.

«لماذا تفعل ذلك بنفسك؟ اعترف، ليغمرك الصلاح. فعل الكثيرون ذلك قبلك، وغادروا من هنا. من الأفضل، بالتأكيد، أن ترتدي سانبينيتو[129] التوبة لموسم أو اثنين، بدلاً من أن يصطلي جسدك في النار؟».

تسلل تأوه من ريناتو. عبق أنفه بالدخان الكثيف المنبعثِ من موكب «فعل الإيمان»، حين جالت رائحة الحرق النتنة فوق المدينة في يوم

129- سانبينيتو: ملابس التوبة التي كان يرتديها المدانون بواسطة محاكم التفتيش في موكب «فعل الإيمان».

رطب. ستة ذهبوا إلى النار. ثلاثة منهم اعترفوا بالهرطقة في اللحظة الأخيرة، لكنهم اختنقوا بالدخان أثناء إيقاد النيران. أما الآخرون، الذين أُحرقوا أحياء، فقد صاتوا بصرخات طاردت أحلامه أشباحها. تنهدٌ مبالغ فيه جاء من أسفل القلنسوة. ارتعشت الأيدي البيضاء. رجل ثالث، طويل القامة، برأس مغطى بقناع جلدي، تحرك إلى الأمام من قلب الظلمة.

«ماء؟» سأل الكاهن، مومئاً برأسه الملثم. استقام ثم غادر الغرفة. وصل الرجل الضخم لريناتو، جرده من سترته بقسوة.

أمضى روبن بن شوشان طفولته كطالب محنّكٍ في الصف. كما تدرّب على متابعة مهنة والده. لكن خلال السنتين اللتين بدأ فيهما ريناتو، بالخروج يومياً، ليقوم بعمل بدني شاق في بساتين والد روزا، أو في معصرة الزيتون. بات رغم توسط قامته، ذا ذراعين قويتين، مصطبغتين بلفحات الشمس. مع ذلك بدا عارياً ضعيفاً مهزوماً أمام الرجل المقنع. كدمات تفتحت على كتفيه بفعل ضربات المأمور.

حثه الحارس للمضي قدماً نحو الأمام، خروجاً من الغرفة السوداء، أسفل الدرج باتجاه مكان الاسترخاء. رأى ريناتو السلم يميل فوق الحوض الحجري الكبير، لا تزال الأصفاد ملطخة بالدماء من تعذيب السجين الأخير، والأسافين الخشبية التي حُشي بها منخاراه، لم يعد بإمكانه التحكم بعاصرته. رائحة رهيبة عبقت بالغرفة.

ارتدى داود بن شوشان، بعناية، رداء كهنوتياً رثاً، رتب زوايا الكتفين بحيث ينسدل بأناقة على طول قامته. مسحت روتي دموعها، بينما كانت تكافح لتتخلص من ثقب صغير في جورب والدها الوحيد. «أعطني هذا، فتاة غبية»، قالت مريم تختطف الجورب من يدها. لم تكن يد روتي، الخشنة بفعل عملها في الجلود، ماهرة في الحياكة المتقنة كوالدتها. سرعان ما رتقت مريم النسيج بغرز صغيرة بالكاد تُرى. «علينا أن نعجل!» قالت، قاذفة الجورب لزوجها. «من يعرف ماذا يفعلون بالصبي!».

«ليس لديك ولد». قال داود «لا تنسي ذلك». أقمنا الشيفا لابننا الميت. أما اليوم فأذهب لأقوم بما بوسعي لشخص غريب، وقع في مصيبة خطيرة».

«أخبر نفسك بما يجلب لها السلام، أيها الأحمق»، قالت مريم. «لكن توقف عن تأنقك واذهب، أتوسل إليك!».

عبر داود الأزقة الضيقة متجهاً إلى منزل شقيقه مع مرارة في حلقه. لم يشعر مسبقاً أن فقره يثقل كاهله. يعرف كل يهودي أن محاكم التفتيش تدور حول ملء المحفظة الملكية بقدر تطهير الكنيسة الإسبانية. كان القيام بدفع غرامة كبيرة، يساعد معظم السجناء على الخروج سائرين أو عرجى أو محمولين على النقالات، اعتماداً على المدة التي يحتجزون فيها - داخل أبواب كازا سانتا. لكن هل يرغب يوسف في إنفاق مثل هذا المبلغ على ابن أخيه المرتد، الذي أعلن والده موته؟

تصفّد داود بعاره وأحزانه أمام بوابات بيت أخيه الثري، قبل أن يتعرف على الاهتياج الجاري داخل المنزل. يوسف، الذي افتخر بتهذيبه، بمنزله الهادئ على الدوام، وعبيده المتحفظين الصامتين. يضج فناؤه في هذا اليوم، بأصوات حادة على غير العادة. راجع داود التاريخ في ذهنه - موعد العرس في الشهر القادم. لا يمكن أن يكون الصخب جزءاً من الاستعداد لهذا الاحتفال. تعرف حارس بوابة شقيقه عليه وقاده إلى الداخل. رأى أفضل خيول يوسف قد تم جلبها من الاسطبل، بينما حُمّلت خيول الحراس والخدم تحضيراً لرحلة ما.

خرج يوسف من المنزل في تلك اللحظة، عابراً الطريق، في محادثة عميقة مع رجل مرهق، ملطخ بالسفر. استغرق الأمر لحظة لداود للتعرف على المسافر، إنه سكرتير الدون إسحق أبرافانيل. كان يوسف، في البداية، غارقاً جداً في حديث جدي، بحيث وقعت عيناه مباشرةً على أخيه الواقف وسط حشد الخدم المشغولين. عادت نظراته بعد ذلك، إلى الرجل الحاني بوجه أقل جدية. يحب يوسف بن شوشان شقيقه الأصغر

المتدين ويوقره، بالرغم من أن قرابتهما، وضعت حاجزاً بينهما أمام الناس مؤخراً. قام الرجل الأكبر سناً بمد يده للأصغر وجذبه محتضناً.

«أخي! ما الذي أتى بك إلى هنا مع هذا الوجه الجنائزي؟».

بعد أن تدرب داود بن شوشان، على طلبه طويلاً أمام الفيلا، وجد نفسه فجأة معقود اللسان. أما شقيقه فبدا من الواضح أنه منشغلٌ بعمله التجاري الهام بما تكشف عن قلق عظيم أعلى جبينه.

«إنه... إنه شخص يعاني – أي، وقع في محنة» تلعثم.

مع ملامح من نفاد الصبر تلبست وجه يوسف قال:

«المحن تحيق بنا من جميع الجهات!» «لكن تعال، أنا على وشك تناول الخبز قبل رحلتي. تعال كُلْ وجبة سريعة معي، وأخبرني بماذا أساعدك».

عرف داود أن «الوجبة السريعة» لشقيقه ما هي إلا مأدبة بالمقارنة مع مائدته الضئيلة. ها هو اللحم طازجٌ وليس مملحاً، مقدماً مع معجنات خفيفة، هناك فاكهة أيضاً، يصعب العثور عليها في فصل الشتاء. لم يتمكن داود من دفع نفسه لتذوق أيٍّ منها.

هز يوسف رأسه وتنهد. بعد أن أفضى داود بما يجيش في صدره، وقال «كان بإمكاني تقديم فدية لإنقاذ الشاب، في أي وقت آخر، لكن قدره يتفوق عليه في يوم شرير. أخشى أنه علينا في هذا اليوم أن نفكر في اليهود أولاً – سامحني يا أخي – لكن دع الذين ارتدوا عن ديننا يواجهون العواقب التي جلبها اختيارهم. سأغادر الآن إلى غرناطة، بأسرع وقت ممكن مع كل كروساتا[130] يمكنني حملها معي. السكرتير دون «أبرافانيل هنا» – أومأ إلى الرجل الذي استرخى، منهكاً، بين الوسائد – أذهلني بأخطر الأخبار. يقوم الملك والملكة بإعداد أمر طرد –».

توقفت أنفاس داود.

130– عملة قشتالية قديمة.

نعم، كما توقعنا. اعتبروا استسلام غرناطة دليلاً على الإرادة الإلهية بأن تُعلن إسبانيا دولة مسيحية. لذلك فهم يعتزمون أن يشكروا الله على انتصارهم، بإعلان إسبانيا أرضاً مطهرة من اليهود. الخيار يكمن في اعتناق المسيحية أو المغادرة. خطة وضعوها في الخفاء، ثم قامت الملكة أخيراً بكشف سرها لصديقها القديم دون سينيور.

«لكن كيف يمكن للملك والملكة فعل شيء مثل هذا؟ إنها الأموال اليهودية - أو على الأقل جباية الأموال اليهودية - التي جلبت لهم النصر على المغاربة!».

لقد تم حلبنا يا أخي. والآن، سنرسل إلى المسلخ كبقرة جافة. يعد كل من الدون سينيور والدون أبرافانيل عرضاً أخيراً - رشوة، لنكن صريحين - في محاولة لإلغاء الخطة. لكنهما ليسا متفائلين». لوح يوسف بعظمة الحمل للرجل المنهك في الزاوية. «أخبر أخي بماذا قالت الملكة لدون إسحق».

دار الرجل بيده فوق وجهه: «أخبر سيدي الملكة أن تاريخ شعبنا يُبدي جلياً أن الله يدمر أولئك الذين يدمرون اليهود. فأجابت أن هذا القرار لم يصدر منها أو من زوجها».

«الرب من أرسى هذا القرار في قلب الملك». قالت «قلب الملك بين يدي الرب، مثل أنهار الماء، إنها تتدفق بمشيئته حيث يشاء». «الملك من جانبه» - قاطع يوسف - «يلقي بالمسؤولية على الملكة. لكن أولئك المقربين من الزوجين الملكيين، يعلمون أن كلمات الملكة ما هي إلا صدى لكاهنها، ربما سيتم الإفصاح عن اسمه».

«ما الذي يمكن أن نقدمه لهم أكثر مما قدمناه في الماضي؟».

«ثلاثمئة ألف من الدوكات». دفن داود وجهه في يديه.

«نعم أعرف أنه مبلغ صاعق. فدية الناس أكثر من فدية الملك. ولكن لا خيار آخر أمامنا؟» وقف يوسف بن شوشان حينها وقدم يده لأخيه. «هل ترى لم لا أمتلك رصيداً خاصاً بك هذا اليوم؟».

أومأ داود. خرجا معاً عائدين إلى الفناء المزدحم. كان الفرسان المسلحون قد امتطوا للتو خيولهم بينما انتهى الخدم من تحميل المتاع. رافق داود أخاه إلى حصانه. ركب يوسف، ثم انحنى من صهوة الحصان هامساً في أذن أخيه. «لست بحاجة أن أنبهك، مع أني متأكد، أنك لن تشي بأي شيء عن حديثنا. قد يسود ذعر مع تسلل مثل هذه الأخبار إلى الخارج. لا داعي للدموع والعويل إن كنا قادرين على استمالة جلالتهما مرة أخرى صوبنا». تحرك الحصان المفعم بالحيوية المضطرب المتأهب للمغادرة. جذب يوسف بحدة عنان الفرس وصولاً إلى يد شقيقه. «يؤسفني حال ولدك».

أجاب داود، «ليس لدي أي ابن»، إلا أن كلماته الهامسة تبعثرت، ذهبت بها حوافر الخيول المغادرة بسرعة عبر البوابة.

لأربعة أيام، تنقل ريناتو فيها بين حالة الوعي وفقدانها. ليستيقظ أخيراً بخد مُلقى على أرضية حجرية مكتظة بالقش المبلل بالبول وبراز الجرذان. سعل، خثرات دموية تدفقت من فمه، شرائط طويلة من أنسجة كتانية التقطها بين أصابعه أيضاً. بدا الأمر كما لو أن داخله ينهار، جسده يتهاوى بعيداً عن روحه. كان عطشاناً، لكنه، عجز عن الوصول إلى جرة الماء. حين أدركها بمشقة لاحقاً. سكب بيد مرتعشة القليل في فمه، لكن آلام البلع جعلته يخرجها كلها. مشهد سبق أن رآه في منامه. كان مربوطاً على السلم المائل، يتدفق الماء في فمه، يبتلعُ ويبتلعُ بشكل غير طوعي بينما يمتد الكتان ويتكوم داخل أحشائه.

لم يكن ريناتو يتخيل أن مثل هذا الألم قابل للتحمل. دعا بصمت، حيث الكلام مستحيلٌ، صلى ليموت. لكن صلواته لم تستجب، ها هو يستيقظ ولا يزال راقداً في هذا المكان البغيض، حدقت به العيون القرمزية للفئران في الظلام. مع حلول اليوم الخامس، كان مستيقظاً أكثر من كونه واعياً. تمكن في اليوم السادس، من جر نفسه لوضعية الجلوس، مستنداً إلى الحائط. كل ما عليه فعله الآن هو الانتظار والتذكر.

بعد إبريق الماء الخامس، بينما الكتان يحتشد أعلى حلقه، وصل المحقق إلى مكان الاسترخاء. قاموا بعدها بتقويم السلالم، هناك حيث كان يتقيأ ويختنق ويتلوى في حالة من الذعر. عثر ريناتو، في النهاية، على الدليل المسجل ضده، عرف أخيراً ما كان عليه الاعتراف به. أمسكه الكاهن بين إصبعين، كما لو كان قطعة من القذارة، إنه سوار جلدي بني طويل، مع مربع صغير. بداخله كلمة الله، مدونة بيد والده التي لا تشوبها شائبة.

«نقاشاتك الزائفة، ليست سوى عفنٍ جاف تتناوله في قلب الكنيسة». «تصلي صلواتك القذرة في الخفاء، ثم تلوث كنيستنا بحضورك المنافق بيننا». لم يستطع ريناتو الرد، إما الاعتراف أو التنصل من التهم. الكلام متعذر مع قطعة القماش المحشورة في حلقه. وقف الكاهن هناك أثناء قيامهم بنصب السلم، سكب آنية أخرى من الماء، ثم أخيراً، بقوة مفاجئة وصادمة، سحب قطعة القماش التي اخترقت أحشاءه. شعر ريناتو وكأن أحزانه يتم سحبها عبر حلقه. أغمي عليه.

حين استعاد وعيه، وجد نفسه وحيداً مرة أخرى في الزنزانة.

Shin. Fe. Kaf

اُسْكُبْ غَضَبَكَ عَلَى الأُمَمِ الَّتِي لَمْ تَعْرِفْكَ

مع جهل بالذي يتوجب عليه فعله، رجع داود بن شوشان إلى كتابه معاوداً العمل في Shefoch Hamatcha، موشكاً على إنهاء الهاجادا. لكن عقله، مثل وعاء حبره، يغلي في قدر مسموم. ارتعدت يده، خط حروفاً غير متقنة. كان بإمكانه سماع صوت مريم، الصادح من داخل المنزل، المتصارع مع غضبها، وهي تصب سيلاً من الشتائم على شقيقه، صارخة بوجه الدوريّ المسكينة، التي تسعى جاهدة لتهدئتها لكن من دون جدوى. لم يقل شيئاً عن مهمة أخيه الكبيرة، أو عن المصير المتربص بهم جميعاً الآن. تبعثرت أفكاره بين روبن في سجن الاضطهاد، ومحنتهم الخاصة التي تسبب بها الأعداء، أوماً لعصفورة الدوري الصغيرة البائسة.

«انهضي، يا حبيبتي، وتعالي». كان عليه أن يجد لها زوجاً وبسرعة. إن كانوا سيعبرون التهجير غير المؤكد إلى المنفى، ستحتاج إلى حماية أكبر من قدرته على توفيرها لها. جال عقله عبر قائمة المرشحين المحتملين. كان لأفرام المُطهّر، ابن بعمر مناسب. صحيح أن الصبي يتلعثم، ولديه حول في عينيه، إلا أنه بشخصية جيدة بما فيه الكفاية. لكن أفرام قد يعجز عن التغاضي عن العار الذي حملته روتي كأختٍ لمرتد. أما مويس، الشوشيت، فرجل قوي ولديه أبناء أقوياء، من الأفضل لو كانوا مدافعين، لكنهم جميعهم عنيدون وسيئو المزاج. مويس بدوره يعبد المال، الذي لن يتمكن داود من تأمينه.

لم يحدث لداود أن تشاور مع روتي حول هذا الموضوع مسبقاً، أو حول أي مسألة أخرى. لو فعل ذلك، لكان فوجئ بالنتيجة. لكنه لا يدرك ذلك، لطالما سار حبه لابنته جنباً إلى جنب مع نوع من النظرة الدونية لها. ينظر لابنته كحنونة، وودودة، مطيعة لكنها بذات الوقت صاحبة روح غامضة ضعيفة. كان داود، مثل الكثير من الناس، واقعاً في فخ الخلط بين «الطيب» و«الضعيف».

تحتفظ روتي بحياة سرية لا يمكن لوالدها تصورها. حيث انغمست لأكثر من ثلاث سنوات، في دراسة كتاب زوهار، كتاب الإشراق. ثم أصبحت وحدها، في السر، من ممارسي الكابالا. خاصة بعد أن حُظرت هذه الدراسات عنها، نظراً لعمرها وجنسها. من المفترض ألا يقترب الرجال اليهود قبل سن الأربعين من عالم الصوفية الخطير. أما النساء فلا يجوز لهن الاطلاع عليه مطلقاً. لكن عائلة بن شوشان أنتجت اثنين من الكاباليين المشهورين، حيث أدركت روتي منذ طفولتها، قوة زوهار وأهميتها في حياة والدها الروحية. حيث داومتِ الفتاة، كلما اجتمعت مجموعة صغيرة من الطلاب الموثوق بهم في المنزل للدراسة، على النضال من أجل الإصغاء لهم أثناء مناقشتهم النص الصعب، مدعية النوم. إن كانت حياة روتي سرية لهذا الحد، فلا بد أن جسدها البدين له خصوصيته أيضاً.

لم يتسن لها أن تدرس من كتب والدها: إذ من المحظور عليها ذلك. لكنها اطلعت على المجلدات التي تحتاجها في دار التجليد، حيث تقوم بإيصال أعمال والدها إلى هناك. كان ميخا، عامل التجليد، شاباً غزته التجاعيد فبدا أكبر سناً، مع وجه شاحب وشعر قليل. تصيبه نوبة من الغضب كلما دخلت زوجته إلى ورشته. زوجته السمراء الضعيفة، المريضة أغلب الأوقات، المرهقة من الاهتمام بالأطفال، الذين يلحقون بها إلى كل مكان، يصرخون.

تذكرت روتي نظرة عامل التجليد الغريبة لها حين علم بما تريد. أخبرته في البداية، أن والدها من يسعى لاستعارة الكتب، لكن ميخا كشف كذبتها في الحال. الجميع في كاهال يعلمون أن داود بن شوشان، فقير الحال لكنه يمتلك مكتبة مذهلة. سرعان ما خمن الرجل ما يدور في ذهن الفتاة. كحال درايته بثقل المحرمات التي تنتهكها. فكر؛ بأن الفتاة التي تجرؤ على خرق هذه القواعد الجليلة، لا بد أنها مستعدة للانغماس في غواية محرمة أخرى، عرضَ عليها في مقابل استخدام الكتب، الاستلقاء فوق قصاصات ناعمة مختبئة متهاوية عن طاولة عمل المجلِّد.

مازالت روائح الجلد الفاخر تعبق في أنف الفتاة، بينما تتلمس يدا المجلِّد، الماهرتان في التعامل مع الجلد الغض، أماكن جسدها المخفية. ذعرٌ غريب أصابها في لقائهما الأول بعد موافقتها على الصفقة. ارتعاش هائل أضوى مساماتها، حين رفع ميخا صوف تنورتها البني الخشن مباعداً بين فخذيها الداكنين. لمسات بالغة الرقة، سحلتها لجذلٍ لم تخمن وجوده يوماً. أما لسانه الذي يلعق عضوها كقطة، فتهادى بها صوب عالم النشوة الجسدية المذهلة، نشوة شبيهة بتلك التي مارستها في ليالٍ نادرة في كهفها، عندما تكشّفت لها الحروف المقدسة، ساميةً في فضاء وضاء.

بطريقة أو بأخرى، كانت تفكر في الأمر على نحو صحيح. يتوجب الربط بين النشوتين المحرمتين: فأنوثتها، التي منعتها من الدراسة المقدسة، هي ذاتها التي أتاحت فعل ما ترنو إليه؛ ما انفكّ الاستسلام

لرغبات الجسد، الدرب الوحيد لنشوة الروح. أدركت أنّ اختبارها لسطوة الشهوة وملذات الجسد، ما هي إلا رؤيا جليلة لتقبل، إن لم يكن لمسامحة، خيانة شقيقها لعائلته وديانته.

لو أن والدها قلل من تشدده وصرامته، كما فكرت، فأرشد روبن في وقت سابق، إلى رياضِ الأسرار والظواهر في الزوهار، لما تهاوى شقيقها في عرش ديانة أخرى.

لكن روبن تمرد بفعل ضغط النظام اليهودي. روبن الذي لطالما احدودب ظهره فوق النص كل يوم، ليقوم بأكثر الأعمال روتيناً، بينما يعثر والده من دون كللٍ على خطأ له. الهادئ الهامس أغلب الأوقات، صوتُ والدها تصغي إلَيه منهالاً بالنقد والتقريع: «على المساحة الواقعة في وسط الحرف، أن تتساوى تماماً مع عرض الخطوط العلوية والسفلية. هنا، على هذا الخط، انظر؟ لقد جعلتها ضيقة جداً. اكشطه وخُطّ الصفحة مرة أخرى، يجب أن تعلم يا روبن أن الزاوية اليسرى السفلى من الحرف tet (ט)[131] مربعة، أما الزاوية اليمنى فمدورة. لقد عكستها هنا، أترى؟ قم بخط الصفحة من جديد». افعلها مراراً وتكراراً.

لم يفتح والدها البوابة أمام روبن، ولو لمرة واحدة، ليختبر البهاء الكامن داخل الحبر الداكن. الضياء الذي يتوقد فكرها به. إنّ كل حرف صغير، بالنسبة لها قصيدة، صلاة، وبوابة إلى عظمة الرب. لكل حرف دربٌ، سرٌّ خاص به. لماذا لم يتشارك والدها بعضاً من هذا السطوع مع أخيها؟

عندما تمعنت في الحرف beit[132] (ב'ת)، لم يكن تأملًا بثخانة الخطوط أو دقة المسافات. كان تفكراً بالألغاز: اثنان، مثنى؛ البيت، بيت الله على الأرض. «سيبنون لي معبداً، سوف أسكن فيه». فيهم، وليس فيه. سيسكن بداخلها. هي بيت الله. بيت السمو. كيف يمكن لحرف، مجرد حرف، واحد صغير، ويقطن فيه الدرب كله، السبيل البديع نحو الفرح.

131- Tet: -الحرف ط بالعربية.

132- يشير الحرف العبري beit، لكلمة «بيت»، المقصود هنا بيت الله

فتحت روتي قلبها لعامل التجليد، حتى نمت العاطفة بينهما أكثر فأكثر. اقترح الرجل استخدام شيفرة سرية يمكن استخدامها حين يرغب أي منهما بلمس الآخر، فاقترحت عليه الحرف المتحد، beit. كلما لمحت الحرف مخربشاً على زاوية أحد فواتير والدها، ستعلم حينها أن زوجة ميخا قد خرجت من المنزل. ستضيفها إلى مذكرات التعليمات التي يرسلها والدها إلى دار التجليد، لتخبر من دون كلمات، أن هناك زبائن آخرين، وأن لديها الوقت الكافي كي لا يفتقدها أحد في المنزل إن تأخرت. تساءلت عما إن كان لدى روبن إشارة سرية مع حبيبته، علامة على شجرة؟ أو قطعة قماش عُلقت بمكان ما. لا بد أن هناك شيئاً من هذا القبيل. حيث أنّ روزا، مثل معظم المسيحيات، فتاة أميّة.

لقد عاش روبن لأجل لحظة محددة، لحظة كامنة في نهاية النهار، حين يتم إطلاق سراحه أخيراً للقيام بمهمات لطالما أحبها. لحظت روتي حبوراً في كيانه يلتهب فجأة. ابتسامةً عريضة تصبها مهمة معينة على وجهه وتُنبت ربيعاً خاصاً لخطواته، حين يحلق لشراء زيتون أو زيت من مزرعة والد روزا. كيف لم يكن يلاحظ الأب ابنه التي تنضج بدورها؟ بإمكان روتي أن تخمن بالضبط ما الذي حدث، بالرغم من أن شقيقها لم يكن ليلوث أبداً أسماع براءتها بأسرار مشاعره الجسدية.

بعد الردة والزواج والانفصال عن العائلة، التقت روتي بشقيقها مصادفة في السوق. من المفترض أن تقوم بتجاهله، كأي شخصٍ آخر غريب، كوثنيٍّ تعبره بعينين منخفضتين. إلا أن قلبها عاجز عن القسوة تلك. سمحت للحشد بدفعها نحوه، مدّ يده تحت وطأة ثقل ما جرى، صافحها. يا لملمس يده المختلف، يا لخشونة الكف، الأصابع التي انعتقت من القلم، المأسورة بمنجل التقليم. ضغطتْ عليها، سكبت وجدانها كلها في إيماءة الوداع، أسرعت بعيداً.

التقته من جديد بعد أسبوعين، كان مرتقباً حضورها. دفع ملاحظة في راحة يدها، مناشداً إياها لمقابلته. سمى مكاناً واقعاً جنوب المدينة،

Esplugües. Esplugües تعني «الكهوف» التي يكتظ بها التل الأبيض الجاف. أحد الكهوف على وجه الخصوص، عميق ومخفي، كان الملاذ المفضل لهما أثناء طفولتهما، ثم أضحى في وقت لاحق، عشّ المغازلة إبان العلاقة المكتومة مع روزا. لم يكن يعلم أنه الكهف ذاته الذي تقطنه روتي الآن لممارسة دراساتها السرية. وُسِم اجتماعهما الأول بالتوتر: بقدر ما كانت تحبه، لكنها لم تستطع تجنب إلقاء اللوم عليه بسبب الألم والخزي اللذين جلبهما للأسرة. لكن شقيقها رجل طيب، تدرك هذا في أعماق قلبها. لم تكن والدتها كثيرة التذمر والشكوى أو والدها شارد الذهن، ليقدما لطفلة اللطف والمودة كما فعل أخوها دائماً. داوما على اللقاء مرة أسبوعياً. حين أخبرها عن قدوم ابنه في الربيع، ثم بكى بحرقة.

«لا يمكن أن تشعر بما يشعر به أبوك، حتى تصير أباً» همس. دفعت روتي رأس أخيها إلى حضنها وداعبت شعره. سأل بصوت مكتوم: «ألا يتحدث أبداً عني؟».

«لا أبداً» أجابت بلطف قدر الإمكان. «لكنني أعتقد، لا تمر ساعة عليه من دون أن يفكر بك». جالت بيدها على الحجر الأبيض المنقور. ذكّرها المكان بالعظام، بمدفن رفات الموتى غير المحبوبين. سيزول اللحم المحموم لكفها المتورد لا محالة. جميعهم أموات في نهاية المطاف، ستجف عظامهم بعد فترة كافية، ستنفذ مساماتها كما الدانتيل. من سيهتم حينها إن سمح أخوها للكاهن بسكب ماء على مقدمه مرتلاً بضع صلوات لاتينية؟ في هذا الكهف بالذات، شعرت روتي بتجلي الرب. قدسية هزت كيانها، أودت بالماء اللاذع بعيداً، كتمتْ أنفاس الكاهن.

خطرت ببالها فكرة في تلك اللحظة. كم بدا الأمر نقياً «غير مؤذٍ» إن وهبت شقيقها تذكاراً يحتفظ بالساعات المشتركة بين أب وابنه، واقفين معاً في محراب الرب.

«يمكنني أن أحضر لك شيئاً». فعلت الأسبوع التالي.

نظر داود بن شوشان حوله بفارغ الصبر في انتظار ابنته. «دوريّ! أحتاجك يا فتاة. هلمي إلي، ألا يمكنك الإسراع ولو لمرة واحدة».

ألقت روتي فرشاة التنظيف في السطل وارتفعت على يديها وركبتيها، فركت المكان الذي تلطخ به جلدها من قذارة البلاط. «لكنني لم أنته من تنظيف البلاط بعد يا أبي» قالت بهدوء.

«لا تهتمي لذلك، لدي مهمة لن تنتظر». «لكن أمي سوف -».

«سأتدبر أمر أمك». سمعت نبرة غاضبة في أسلوب والدها لم تشهدها روتي من قبل.

كانت عيناه تحدقان بباب الشارع. «أريد منكِ أن تأخذي هذه الحزمة إلى المجلّد. أرفقتُ تعليمات مفصلة للتو. إنه يعرف ما يتوجب عليه فعله. عليه أن ينجز الكتاب لأقدمه إلى الدون يوسف فور عودته. يتوقعون رجوعه يوم السبت على الموعد. اذهبي الآن بسرعة يا ابنتي. لا أريد منح الأوغاد ذريعة بسبب التأخر».

سارعت روتي نحو البئر. بسرعة لكن بحذر، غسلت وجففت يديها قبل أن تأخذ الحزمة، ملفوفة بقطعة قماش من يد أبيها، التي عادة ما تكون ثابتة، لكنها ترتعش الآن! حينما تلمست شكل المعدن الملفوف بالنسيج، تعرفت عليه في الحال. فهي من صقلته بما يكفي وبحرص شديد، خشية أن تسقطه أو تتلف الثقوب الفضية. إنه الملك الأغلى قيمة للعائلة. اتسعت عيناها.

«إلام تحدقين؟ الكتاب لا يعنيكِ».

«لكنها الحقيبة المزخرفة لـــ(ketubah)[133] الخاصة بوالدتي» صاحت.

133- Ketubah – بالعبرية: (כְּתוּבָּה) اتفاق ما قبل الزواج اليهودي. يعتبر جزءاً لا يتجزأ من الزواج اليهودي التقليدي، ويحدد حقوق ومسؤوليات العريس، فيما يتعلق بالعروس.

الكِتوبا كان من أجمل ما رأته روتي. داود من صنعه بنفسه، ذاك الخطاط الشاب المفتون بعروس بالكاد يعرفها، كتب كل حرف من كلمات عقد الزواج، معتبراً ما يقوم به تكريماً تاماً للمرأة التي اختارها لتمسي رفيقة روحه. عندما رأى والده العمل، شعر بالفخر بابنه، لدرجة أنفق أكثر مما ينوي لشراء حقيبة فاخرة له.

«أبي» صرخت روتي. «أنت لا تريد أن أعطي هذا الكتاب للمجلّد، في مقابل ثمن مادي؟».

«لا ليس الأمر كذلك!» دفع شعور داود بالذنب وعدم اليقين للإيجاز بحديثه. «يجب أن نغلف الهاجادا بغلاف لائق، من أين سنحصل على الفضة لزخرفتها؟ عثر المجلد على صائغ من خارج تاراغونا، سيقوم بالعمل من دون مقابل لأنه يريد أن يقدم نفسه لأسرة سانز. إنه ينتظر في ورشة التجليد، لذلك اذهبي الآن. ولا تزعجيني أكثر!».

فكر أولاً في بيع حقيبة الكتوبا كجزء من الفدية لابنه. لكن كلمة الرب منقوشة عليها. سيكون بيعها لمسيحي يذوبها لصك عملة فضية أمراً مخزياً، وربما خطيئة كبيرة. مع ذلك، تكمن في صميم معتقده، تعاليم جوهرية، مفادها أن إنقاذ حياة الإنسان يجب أن تتولى الأسبقية على جميع الميتزيفات، أو الوصايا. ثم رأى السبيل. يمكنه استخدام الفضة لتزيين الهاجادا، حتى يظل المقدس مقدساً. من المؤكد أن الهدية ستفتح يد أخيه. كيف لها أن تعجز عن ذلك؟ أيقن داود بهذا الأمل الضئيل، تشبث به. ثم لاحظ بانزعاج شديد أن روتي لا تزال متسمرة أمامه، قابضة على الحزمة كما لو أنها على وشك إعادتها إليه.

«لكن أمي لا يمكنها أن توافق على ذلك... أنا... أنا... أخشى أنها ستغضب مني».

«بالتأكيد، يا دوريّ، ستغضب. لكن ليس منك. هناك سبب عظيم، لا تقلقي، كما قلت لك. عجلي بالذهاب الآن، قبل أن يتخذك ذاك المحتال كذريعة لتأخير العمل».

حدث كما توقع والدها، فلا شيء هناك يدعو للقلق. أياً كان ميخا، فهو لا يزال حرفياً مختالاً بعمله، يدرك تماماً أن الزخارف والنصوص التي قدمها له بن شوشان تحمل وعداً بكتاب ذي جمال استثنائي. يمكن أن يسهم في نشر سمعته بين أغنى اليهود في المجتمع. مثل هذه الفرص لا تأتي كل يوم، لذا ألقى جانباً جميع واجباته الأقل أهمية، لإنجاز هذه المهمة. وضع الهاجادا على منضدة العمل المغطاة بغلاف أبدعه من جلد الجدي الأرق والأنعم، نقشه بأدوات معقدة. مساحة فارغة هناك في مركزه بين الدفتين.

بالرغم أن صائغ الفضة شاب قد أنهى تدريبه المهني حديثاً، لكنه موهوب في التصميم. أخذ الرزمة بفارغ الصبر من روتي، قام بفكها ثم فحص حالة الكتوبا. «جيد جداً. من العار التراجع عن هذا العمل. لكني أعد أمك أن أصمم لها شيئاً يوازي تضحياتها». بسط رقاً صغيراً بحوزته، على طاولة العمل، موشوماً بتصميم للمساحة الدائرية المركزية للغلاف؛ جناح عائلة سانز متشابكاً بالورود، كرمز لعائلة بن شوشان. صمم أيضاً مجموعة من المشابك الجميلة، التي صيغت ببراعة من الأجنحة والورود.

«سأعمل طوال الليل، إن لزم الأمر، حتى يكون الكتاب جاهزاً قبل حلول السبت، كما يرغب والدك». قام بتغليف الكتاب والحقيبة بعناية. غادر حريصاً على عبور الأميال إلى تاراغونا في وضح النهار، قبل أن يبدأ قطاع الطرق بمهماتهم الليلية.

جالت روتي بإصبعها على قسم من خيوط الرتق، متظاهرة بفحص الخياطة، مواربة حتى مغادرة الصائغ للورشة. رأت حرف لاتحدث حرفهما السري، مخربشاً على قصاصة رق على طاولة العمل

استدار المجلّد قادماً من المدخل. لاعقاً شفته. شعرت بيده أسفل ظهرها، تدفعها برفق نحو الكوة. أثارتها رائحة الجلد الغنية المألوفة في الداخل، التفتت نحوه أحاطت وركيه النحيلين بذراعيها المستتير.

سحلت بعيداً مئزره، ثم عملت على التخلص من الثوب تحته. أحست بطعم عضوه حاداً ومالحاً.

لا تزال النكهة عالقة بفمها مع تسمرها أمام باب المنزل. لا بد أنها تأخرت عن وجبة العشاء، لكنها تخشى الدخول. لا بد أن حرباً بين والديها بشأن الحقيبة المفقودة دائرة الآن. لكن عندما استجمعت شجاعتها أخيراً ودخلت. ترقبت أن تصغي لوالدتها المتذمرة على الدوام، تشكو أوجه التقصير اليومية لأبيها. لكن لم يكن هناك عاصفة، مد وجزر منخفضان اعتياديان. جاهدت روتي لإبقاء عينيها تتأملان قطعة خبزها، متحاشية النظر إلى والدها رغم رغبتها الجامحة بذلك. تساءلت أي كذبة راوغ بها أمها، تاقت لمعرفتها. بعض الأشياء على الأرض ممكنة، بعضها مستحيل، تعرف روتي الفرق.

مع المساءلة الثالثة لريناتو، بدا جسده أوهن من أن يقدر على الوقوف أو المشي. قام رجلان بجره، كل واحد من جانب. ليقعداه في الغرفة المغطاة بالأسود، العابقة برائحة الشمع الذائب وأريج خوفه.

«روبن بن شوشان، هل تعترف بأن في حوزتك الأشياء المطلوبة لأداء الصلاة اليهودية؟».

حاول أن يتكلم، لكن صوت حنجرته همس خافتاً. أراد أن يقول إنه لا يصلي كيهودي، كما تفترض العبارة. وإنه هجر الصلاة العبرية مع مغادرته منزل أبيه. صحيح أنه عشق روزا قبل محبته لكنيستها. لكن الكاهن الذي عمده أوضح أن يسوع يُعمل فينا إرادته، وأن الحب الذي يشعر به إزاء روزا ما هو إلا ذرة من محبة الرب، هبته الممنوحة بحلاوة الخلاص. تصارعت المعتقدات في ذهنه، حتى تمكن من تصديق أن يسوع بالفعل، ليس سوى مسيح اليهود المُنتَظر. أغرم برواية الكاهن المأمولة عن السماء. لعل الأهم من ذلك كله، سحره بفكرة جسد الزوجة الذي سيكون حراً بحيث يمكنه الاستمتاع به في أي وقت، بدل

الانضباط الصارم والتقشف الجنسي، الذي ينتظره نصف شهر كل شهر مع عروس يهودية.

لا يحتفظ بالتمائم لأنه يؤدي الصلاة اليهودية، بل لأنه يفتقد والده الذي يحبه من قلبه. حين قام للنوم، عانق الرق الجلدي، ليس بقصد الصلاة، وإنما لاستعادة لحظة محببة مع والده، للغرق بالحب الموشى الرق به. لكن محبة يهودي وأعماله، تعد بحد ذاتها خطيئة، وفقاً لرؤية هؤلاء الكهنة في محاكم التفتيش.

أومأ برأسه بالاعتراف.

«دع المدون يكتب أن اليهودي، روبن بن شوشان، اعترف بالتهويد. الآن، اعترف أنك أفسدت زوجتك بهذه الأشياء. يقول المخبر أنه رآكما تصليان معاً».

جرعة ذعر جديدة أغشت ناظري ريناتو. زوجته. زوجته البريئة الجاهلة. بالتأكيد لن يتسبب بأذيتها. هز رأسه بقوة للحد الذي سمحت به حالته المزرية.

«اعترف بذلك. علمتها صلواتك الدنيئة وأرغمتها على الصلاة معك. هناك شاهد».

«لا!» بصوت خشن. عثر ريناتو أخيراً على صوته. «إنهم يكذبون!» سحب الكلمات من حنجرته الممزقة. «صلينا باتر نوستر وأفي ماريا. فقط هاتين. ليس لدى زوجتي أي فكرة عن إحضار أشياء يهودية إلى منزلنا».

«هل كانت الأشياء هذه معك عندما تعاقدتما على الزواج المقدس؟».

هز ريناتو رأسه نافياً.

«منذ متى تهودت إذاً؟».

فتح شفتيه المتصدعتين وهمس، «منذ شهر واحد فقط». «أنت تدعي أنك تهودت لشهر واحد فقط؟».

أومأ.

«ثم من أمدك بهذه الأشياء؟» جفل ريناتو، لم يتوقع هذا السؤال. «من زودك؟ اسم الرجل!».

شعر ريناتو بأن الغرفة بدأت بالدوران فاتكأ على كرسيه.

«سمه! ها أنا أعطيك فرصة جديدة».

أشار الكاهن، فاهتز الهيكل الملثم حوله. فهم رجل الشرطة ما أراد، فقبضوا على ريناتو وجروه بقوة عن الكرسي. احتفظ بسلامه أسفل الدرج الخافت، حيث ربطوه بالسلالم وقلبوه فوق الحوض. ضربت تنهدات جافة جسده المصغي لمياه البئر تتدفق في الأكواز. لا يزال حتى اللحظة محتفظاً بسلامه. التقطوا البياضات، أجبروه على فتح فكيه، صرخ.

كان وجع كلمة واحدة، اسمٌ أحرق حلقه:

«دوريّ!».

حين ينفذ المأمورون توقيفاً في الأحياء المسيحية، كانوا يحرصون على فعل الأمر في جوف الليل. بهذا الأسلوب، ستكون ضحيتهم في أدنى حالاتها، ضعيفة، مرتبكة، ومن غير المرجح أن تُبدي مقاومة كبيرة، أو تثير ضجة بين الجيران الذين قد يعقدون المهمة. لكن المكتب المقدس لمحاكم التفتيش لم يرسل جنوده إلى كاهال. حيث يركز جل اهتمامه على اقتلاع جذور الهرطقة بين أولئك المتظاهرين باعتناق المسيحية، وليس مع أولئك المجاهرين بمعتقدهم الآثم القديم. أما الجرائم التي يرتكبها اليهود الذين يتدخلون بالمسيحيين ويجذبونهم من الديانة الحقيقية، فكانت مسألة خطرة بالنسبة للسلطات المدنية، لذلك لم يتوانوا عن إرسال جنودهم في أي وقت يشاؤونه.

كان ذلك بعد الظهر، ما زال ضوء هناك، حين كسر ضجيج فجائي، سلام منزل بن شوشان. داود فقط في الداخل؛ مريم ذهبت إلى المكفاه، أما روتي فمضت إلى دار التجليد لمعرفة ما إذا كان والدها سيحصل

على العمل كاملاً ذلك المساء، منجزاً في الوقت المناسب المتوقع لعودة شقيقه. لتسليمه إياه. لاحظ داود، مستاء، تأخرها في العودة من المهمة، كالعادة.

مشى متثاقلاً نحو الباب، يصرخ شاتماً حين همّ لرؤية من يقوم بمثل هذه الضربات الخرقاء على الباب. رفع الدعامة للخلف، رأى من يقف هناك، تلاشت اللعنات من فمه. أخذ خطوة نحو الوراء.

تدفق الرجال إلى الفناء. بصق أحدهم في البئر. استدار آخر ببطء وبطريقة هادفة، سار بغمد سيفه على حافة الطاولة التي تحمل أدوات الكتابة الحساسة لداود. تهاوت زجاجات الحبر على الأرض.

«سلمنا راث بن شوشان»، أمره أطول الرجال المسلحين.

«روتي؟» قال داود بصوت مرتجف، بينما اتسعت عيناه على حين غرة. كان متأكداً من أن الرجال قد أتوا من أجله.

«لا بد أن هناك خطأ ما. لا تريد روتي بالتأكيد».

«راث بن شوشان. الآن!»، قام الرجل برفع قدمه ثم ركل مسند الرق الخاص بداود.

«إنها... ليست هنا!» قال داود، اقشعرت فروة رأسه من الخوف.

«لقد أرسلتها لتنهي مهمة لي. لكن ما الذي يمكن أن تبغيه من الصغيرة روتي؟».

رفع الجندي قبضته، للرد، ثم لكَم السوفر في وجهه. ترنح داود، فقد توازنه وتراجع للخلف، ثم هبط بقوة على ردفيه. أراد أن يصرخ من الألم، لكن النفس خذله، فتح فمه، لم يصدر أي صوت.

انحنى الجندي إلى الأسفل نحوه، مزق غطاء رأسه، ثم قبض على عقدة شعره الفضي وسحله إلى الأرض.

«إلى أين ذهبت؟».

صرخ داود جافلاً مشدوهاً بأنه لا يعرف. «زوجتي أرسلتها وأنا».

قبل أن يتمكن من إنهاء جملته، قام الجندي برفعه من شعره، ثم رماه على الأرض. ثم هبط بالحذاء بقوة على جانب رأسه.

جعجع الصوت داخل أذنه وأصدر طنيناً. حرقة أصابت وجهه، ثم شعر برطوبة دافئة.

ركلة أخرى تهاوت على فكه. أصغى لصوت العظام تطحن بعضها بعضاً.

«أين ابنتك؟».

حتى لو أراد النطق، لم يكن ليساعده فكه المكسور على تشكيل الكلمات. حاول رفع ذراعه لحماية جمجمته المتصدعة، إلا أن ثقلاً من الرصاص بدا وكأنه أرساها بلا حراك. لا قدرة له الآن على تحريك الجانب الأيسر من جسده. استلقى هناك، بلا حول ولا قوة تحت وقع الضربات، تسرب الدم إلى دماغه من دون رحمة، أطفئ الضوء بالكامل.

لم تتمكن روزا ديل سلفادور من النوم لأيام. حيث لا يسمح لها بطنها الضخم بالعثور على وضعية مريحة للإغفاء. ما زاد الوضع سوءاً هو وجهها المتوهج بفعل صفعات والدها، في وقت مبكر من هذا المساء. حتى إن نال منها الإرهاق وغلبها النعاس لا يزال يراودها كابوس فظيع كل مرة. حلم هذه الليلة عن حصان طفولتها المسن، أسودُ موشومٌ بنجمة بيضاء على جبينه. كان الحصان المعصوب العينين الملجوم في معصرة الزيت، يطوف بتثاقل بدوائر لا تنتهي. ذات يوم، سقط الحصان كسيحاً، ليسارع والدها بإرساله إلى القصاب. تذكرت روزا كيف وضع الرجل الكتلة الحديدية على رأس صديقها القديم، مباشرة فوق النجمة، ثم تهاوى بضربة مطرقة كبيرة. صرخت حينها مذعورة من وفاة الحصان.

لم يمت الحصان في حلمها، بل شبَّ، صهل، مع مطرقة معدنية مثبتة في رأسه، بينما تتطاير الدماء من عُرفه المصاب.

استيقظت روزا مع عرق يتصبب من جسدها كله. جلست في الظلام مصغية إلى أصوات الليل في بيت عائلتها الريفي. لا تعرف المزرعة الصمت أبداً. هناك على الدوام صرير العوارض القديمة، شخير والدها في سباته الثمل، خدش الفئران بين الجرار حيث تم تخزين الحبوب.

تقوم هذه الأصوات، عادة، بتهدئتها، لكن ليس الليلة. تلمست بيديها أنحاء بطنها. هذه الأحلام بالتأكيد قد تخثر الدم الماضي لتغذية طفلها. كانت تخشى أن يؤثر ذلك على الطفل فيُولد مشوهاً. لماذا سمحت لنفسها أن تعشق يهودياً؟ لقد حذرها والدها. «لا تثقي به. يدعي أنه سيتخلى عن دينه لأجلك، لكنهم لا يفعلون ذلك أبداً. لا بد سيلومك في النهاية، لتصبغ المرارة سنواتك الأخيرة».

«حسناً، فيما لو حدث هذا كله، لا ضير أن يصيب بعض البؤس المألوف الزواج في سن متأخرة. من المحتمل، الآن، ألا يرى أي منهما الشيخوخة. من دون الفدية، التي رفض والدها دفعها، سيواجه زوجها الموت حرقاً. طلبت من أبيها أن يشتري حياة زوجها، لكنها تلقت بدلاً من ذلك ضربات مبرحة، وتقريعاً بسبب اختيارها العنيد لزواج بيهودي قد يعرّضهم جميعاً للخطر. يشتبه الآن بانتماء الأسرة بأكملها لليهود السريين. أي جار يغار يرغب في منافسةٍ أقل في سوق الزيت، أي رجل جشع يتطلع إلى بساتينهم الجميلة، يمكنه توجيه اتهام ضدهم. أي شيء تافه يمكن له أن يودي بهم: إن غصت والدتها بقطعة من لحم الخنزير، إن بدل والدها قميصه يوم الجمعة، أو أنها، روزا، أضاءت الشموع مبكراً في المساء. كان جلياً أن والدها بات يخشى ذلك كله. يعاني كل مساء، يبحث في قوائم منافسيه، في أسماء العملاء إن كان لديهم أي شكوى، مع الأقارب الذين لم يساعدهم بما فيه الكفاية في أوقات حاجتهم. قام بتوبيخ والدتها، لأنها اشترت مرة، منذ فترة طويلة، اللحوم الكوشر لأنها تُباع في السوق، بسعر أرخص من لحم الجزار المسيحي. في مثل هذه الأوقات، جهدت روزا أن تبقي نفسها في أي مكان من البيت الريفي

بعيدة عن مجال بصره. عندما ضربها، صرخ بأمنيته إجهاضها، كي يولد رضيعها، الملوث بدم يهودي، ميتاً. إنه ذنب روزا العظيم، مع سقوط الضربات عليها، بدأت ترغب في ذلك أيضاً.

قامت من سريرها مرتبكة. الهواء ما تحتاجه. صرَّ باب المزرعة الثقيل أثناء دفعه. كان الليل يجول بنسيم لطيف. أما رائحة الأرض الطينية فتحمل تباشير الربيع الأولى. خرجت مع عباءة حول كتفيها، بلا مصباح بين يديها. يعرف مشط قدمها الطريق صوب البستان، الأرض التي قضت فيها أيام حياتها. تحب أشجارها، عُقد جذوعها القوية. تعشق مظهرها، ملمسها. يصقعها برق، تتفحم بعد كل احتراق، تبدو ميتة تماماً، لكنها من قلب الخشب القديم تتبرعم بأوراق غضة، واهبة الحياة بالرغم من كل شيء. قررت أن تُمسي مثل شجرة زيتون. تلمست بيدها اللحاء القاسي.

ما زالت هناك، تتجول بين البساتين، مع وصول المُحضر وحاجب المحكمة على ظهر الطريق القادم من المدينة. راقبت، مخبأة في ظلال الأشجار، توقد المصابيح المتأخرة في المنزل. سمعت صرخات والدتها المذعورة، وصيحات والدها المحتجة، بينما بدأ حاجب المحكمة بجمع معلومات عن محتويات المزرعة. سيخسرون كل ما يمتلكونه لمصلحة العرش، إن ثبتت التهم الموجهة إليهم. انكمشت على الأرض، شدت العباءة الداكنة الضيقة حولها بإحكام لإخفاء ثوبها الأبيض، غطت نفسها بالتراب وفضلات الأوراق، خشية أن تتحرك المشاعل باتجاه البساتين. لا بد أن يكون والدها أخبر المأمور ببعض الأكاذيب عن مكان تواجدها، لأنه لم يقم حتى ببحث سريع عنها. راقبت، بعجز اعتقال والديها. حاولت الركض، لكن خطوات جسدها الحامل للطفل، كانت بطيئة متثاقلة مترنحة. عبرت البساتين، اجتازت حقول الجيران. هل تطلب مساعدتهم؛ ليست متأكدة أنهم ليسوا مخبري محاكم التفتيش. خارج حقول الجيران، ارتفعت الأرض فجأة نحو Esplugües. بوسعها الاختباء هناك، في الكهف حيث التقت وريناتو في مغازلة سرية. لماذا انجرفت

إليه؟ لماذا جلبت هذا البؤس على رؤوسهم؟ ضغط جسد الطفل على رئتيها، التقطت أنفاسها بصعوبة أثناء صعودها. حجر حاد كشط قدميها العاريتين. شعرت بالبرد، لكن الخوف سارع بها قدماً نحو الأمام.

مع وصولها إلى فم الكهف، انهارت لاهثة. ثم شعرت بالوخزة الأولى، ظنت أنه تشنج بسيط. لكن الألم عاودها مرة أخرى، ليس شديداً، لكنه وجع لا لبس فيه؛ ضغطاً كحزام مشدود ضيق جداً. صرخت، لم يؤلمها التشنج بقدر وجعها من طفلها، الموشك على القدوم، الذي لا تريده. سيأتي الطفل الذي ربما تحول إلى وحش، بينما تجثو هنا بمفردها مع ذعر لا مثيل له.

روتي وميخا معاً في غرفة التخزين، حين سمعا فتح باب دار التجليد. شتم المجلّد وخاطب روتي: «ابقي هنا، صامتة بحق السماء». أغلق الباب الثقيل للمكان وخرج، أسدل مئزره محاولاً عبثاً إخفاء الانتفاخ تحته. خنق انزعاجه، مسد ملامحه لتحية الزبون.

تغيرت تعابيره حين وجد أن من دخل ورشة العمل كان جندياً، وليس زبوناً. حطّت الهاجادا، كاملة، رائعة، بمشابكها البراقة ومركزها الدائري المصقول، على المنضدة، حيث كان وروتي يستمتعان بسحرها قبل أن تغلب عليهما الرغبة.

تحرك ميخا بين الجندي ومقعده، مقدماً تحية مهذبة، ثم دفع الكتاب بمرونة تحت كومة من الرق.

لكن الجندي لم يهتم بالكتب، حيث لاحظ بالكاد ما يحيط به. فأحضر إبرة سميكة من منضدة العمل، يتنقل بها تحت أظافره منتزعاً المادة الشحمية في سلسلة صغيرة من الحركات، فوق قطعة من الرق لاحظ محتوياتها ميخا بفزع.

«راث بن شوشان»، قال الجندي، بلا مقدمات.

ابتلع ميخا ريقه بجهد ولم يُجب. عبّر ذعره الداخلي عن نفسه بملامح مشدوهة، سرعان ما كشفها الجندي.

«تكلم، أيها المغفل! أبلغَ جارك، بائع النبيذ، أنها جاءت إلى هنا لا جدوى من إنكار ذلك».

«ابنة السوفر، تقصد؟ آه نعم، الآن، تذكرت. جاءت بالفعل في مهمة لأبيها. لكنها غادرت مع... آه... صائغ الفضة... أعتقد من بيريلو. يبدو أن عائلتها تعمل معه».

«بيريلو؟ لقد ذهبت إلى هناك إذاً».

ارتجف مُجلّد الكتب. صحيح أنه لم يشأ أن يخون روتي. لكنه مع ذلك ليس برجل شجاع. من الأسلم له الإدلاء بمعلومات خاطئة للسلطات حتى لو تم اكتشاف الأمر لاحقاً... لكن إن تم العثور على روتي في قعر متجره، فهذا سبب كاف لإدانته. «إن... إنها لا تشي لي بخططها. يجب أن تعلم، يا سيدي، أن النساء اليهوديات غير المتزوجات لا يتحدثن مع رجال خارج أسرهن، إلا لفترة وجيزة، حول الأمور الضرورية للعمل».

«كيف لي أن أعرف ما الذي تفعله عاهرات يهودك؟»، قال الرجل، ثم التفت إلى المدخل.

«هل لي أن أسأل... أي...، هلا أخبرتني سيدي، لماذا يهم الضابط بنفسه بالتقصي عن ابنة السوفر الوضيعة؟».

لم يستطع الشاب، كحال معظم المتنمرين، مقاومة الفرصة لبث الذعر. جال ببصره في الورشة بضحكة بغيضة.

«وضيعة، ربما، لكنها ليست ابنة السوفر بعد الآن. إنها بالفعل في طريقها نحو الجحيم مع بقية جنسك اللعين، ستنضم إليه قريباً. ستلتهب مع أخيها في المحرقة. لقد اعترف بأنها تحاول إغواءه بالتهويد».

نجت مريم من مشهد زوجها المضرج بدمه فوق حجارة فناء دارهم. سمع الزقاق كله الأصوات المرتفعة، وعرفوا جيداً ما تشير إليه. فقام

الجيران بمجرد مغادرة الرجال المسلحين لكاهال، بفعل الواجب الصحيح تجاه جارهم.

حين رأت مريم منزلها مجهزاً للشيفاه، فكرت بروبن على الفور. لقد سبق أن أقاموا الشيفاه لروبن لمدة سبعة أيام، بعد معموديته كمسيحي، للإشارة إلى أنه مات بالنسبة لهم. لكن الآن هوى قلبها، هاهو ابنها قد مات بالفعل. بينما رجع والده في قراره بأن يودعه وفق الطقوس اليهودية. امسكت مقبض الباب.

سندها الجيران، أحضروها إلى الداخل، ثم شرحوا لها ما جرى تدريجياً. كيف قاموا بغسل جسد داود وإلباسه الأبيض. كفن الجيران الجثة بقماش من الكتان وحملوه إلى المدفن. اقترب يوم السبت، بما يتطلب وفق القانون اليهودي، دفنه من دون تأخير.

بعد الانتهاء من مراسم دفن زوجها، أشعلت مريم شمعة يزكور[134]. أرادت أن تسلم نفسها للأحزان. زوجها مات، أذين ابنها وحكم عليه بالإعدام في كازا سانتا، ابنتها... أين هي؟ قام الجنود بلا رحمة، بانتهاك حرمة المقبرة، ثم قاموا باستجواب المشيعين بوقاحة، لمعرفة الأماكن التي قد تتواجد بها ابنة المتوفى. جاهدت مريم بالتفكير بجلاء. بمأساتها الأولى، موت داود، لم تستطع فعل شيء سوى الحزن. بمأساتها الثانية، ابنها المسجون، ليس بوسعها تقديم شيء سوى الصلاة. لكن الثالثة، روتي، إنها مسألة أخرى. لعلّ الأوان لم يفت بعد. إذ من الممكن العثور على الفتاة أو تحذيرها أو إخفاؤها أو تهريبها خارج المدينة...

كانت تفكر في هذه الأشياء حين تفرق الجيران، متباعدين لإفساح المجال ليوسف بن شوشان، الذي لا يزال مرتدياً ملابس سفره، عبر إلى زوجة أخيه لتقديم التعازي. كانت عيناه حمراوين من تعب الطريق ومن الحزن.

134- يزكور(yizkor) تأبين يقيمه اليهود في بعض الأيام المقدسة لأمواتهم.

«أعلمني الخدم بالخبر لدى وصولي إلى منزلي. جئت مباشرة إلى هنا. أي حزن يفوق الحزن. داود! يا أخي... لو أنني خلصت ابنكَ كما طلبت مني... لا بد أن ما حدث...» انهار صوته.

ردت مريم على عجالة بقسوة أذهلت الرجل المفجوع. «لكنك لم تفعل، وما حدث قد حدث، سيقوم الله بمحاسبتك عليه. لكن يجب عليك الآن حماية روتي -».

«أختي»، قاطعها يوسف. «تعالي معي الآن إلى منزلي. أنا استقبلك تحت حمايتي».

حدقت مريم، بعينين فارغتين مشدوهتين، لم تستطع التركيز على ما يقوله. لا يمكنها مغادرة منزلها خلال الشيفاه، لا بد أنه يعرف ذلك. لم تكن تنوي الابتعاد عن منزلها، بحالها المزري هذا، لتصبح - حالة إحسان- في منزل أخي زوجها. كيف يظن أنها ستتخلى عن منزلها الصغير وذكرياتها كلها؟ بدأ صوت مريم المتذمر يعود إلى طبيعته أثناء سرد أسباب ممانعتها ليوسف.

«أختي» قال بهدوء. «قريباً، قريباً جداً، سنضطر جميعاً إلى مغادرة منازلنا وذكرياتنا، ستتشارك كلنا - حالات الإحسان - أتمنى لو أقدم لكِ ركناً في منزلي. لكن ما يمكنني تقديمه، ليس سوى مكان بجانبي على الطريق المجهول الذي يواجهنا الآن».

شرح يوسف بهدوء ووجع، تفاصيل أحداث الأسابيع السابقة للأشخاص المزدحمين بالغرفة. أزواج وزوجات لم يكونوا ليمسوا بعضهم بعضاً في العلن، انهاروا متعانقين منتحبين. لعل أي شخص يمر قرب المنزل الصغير مصغياً للرثاء، سرعان ما يظن أن داود بن شوشان بالفعل رجل طيب وورع، لكن من كان يعلم أن وفاته، ستثير مثل هذا التدفق الهائل من الدموع؟

لم يخبر يوسف جيران مريم، الأناس البسيطين كتاجر الأسماك وغازل الصوف، عن جميع الحجج والحيل التي جُربت في الكفاح،

الذي دام شهراً في مخاطبة قلب وروح الملكين. أخبرهم، ببساطة، أن قادتهم بذلوا قصارى جهدهم.

أما من حيث الضغط بشأن قضية اليهود؛ فكان الحاخام أبراهام سينيور، البالغ من العمر ثمانين عاماً، صديق الملكة، الذي ساعد في التفاوض بشأن زواجها السري من فرديناند. والذي شغل منصب أمين صندوق قوات الشرطة الخاص، ومحصل الضرائب لمصلحة قشتالة. كان سينيور رجلاً ثريًا ومهماً لدرجة أنه حين سافر، احتاج لثلاثين بغلاً لنقل حاشيته. رافقه إسحق أبرافانيل، حكيم التوراة المشهور والمستشار المالي للمحكمة. الذي فاز بمنصبه في عام 1483، العام ذاته الذي تم فيه تعيين كاهن الاعتراف الخاص بالملكة، توماس دي توركويمادا، كبير المحققين في محاكم التفتيش المقدسة ضد الهرطقة المفسدة.

كان توركويمادا المحرض على قضية طرد اليهود. الكاهن الذي لم يكن له سطوة لتفعيل ضغينته أثناء الغزو، حيث كان العرش الملكي يعول على الأموال اليهودية والضرائب المحصّلة لتمويل الحرب ضد المغاربة؛ بينما قام التجار اليهود بتزويد القوات على بعد أميال من التضاريس الجبلية المنحدرة. أما المترجمون اليهود، الناطقون بالعربية بطلاقة، فقد عملوا على تسهيل المفاوضات بين المملكتين المسيحية والإسلامية.

لكن مع غزو غرناطة، وانتهاء الحرب؛ تغيرت المصالح فلم يعد هناك المزيد من الحكام العرب للتعامل معهم؛ كما أمكن العثور على مهارات كافية، من ترجمة ومعرفة علمية، وحرف يدوية وطب، بين الكونفرسوس[135]، كبدلاء لليهود.

أربعة أسابيع مرت، بين اليوم الذي وقّع فيه الملكان مرسوم الطرد، والنهار الذي أمرا أخيراً بالإعلان عنه. طلبا، خلال ذلك الوقت، الحفاظ

135- الكونفرسوس: (بالإسبانيَّة: conversos) مصطلح يعني المتحولين ويشير في الدرجة الأولى إلى اليهود وذريتهم الذين اعتنقوا المسيحية الكاثوليكية في إسبانيا أو البرتغال، خاصّة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

على السرية التامة بما يخص هذا الشأن. زمنٌ ظن فيه سينيور وأبرافانيل أن الملكين غير نافذين برأييهما، بما يشي بأمل في تغييرهما. عمل الرجلان، كل يوم خلال هذا الوقت، على جمع المزيد من الأموال، وحشد الكثير من المؤيدين. في النهاية، ركع أبرافانيل وسينيور أمام الملك والملكة في قاعة العرش في قصر الحمراء.[136]

انسكب ضوء طفيف، من نافذة مغزولة بالمرمر خلف الملكين، فوق ملامحهما المضطربة. مناقشين كل منهما، بدوره، القضية: «فيما يتعلق بنا، أيها الملك». قال أبرافانيل «لا تحكم على رعاياك بقسوة، لماذا تختار هذا المصير لمن خدموك؟ نعرض عليكم الذهب والفضة الآن، حتى كل ما يمتلكه بيت يهودي، إن أمكننا البقاء في هذا البلد». ثم قدم أبرافانيل عرضه: ثلاث مئة ألف من الدوكات. نظر فرديناند وإيزابيلا بعضهما إلى بعض، لاح التهدج في ملامحهما.

باب خفي فُتح في جدار الردهة. إنه توركويمادا، حيث كان يسترق السمع، ردّ، على كل كلمة تمدح الولاء اليهودي وتشيد بالمساهمات اليهودية في المملكة، مجتاحاً قاعة العرش. سقط النور المنبعث من النوافذ العالية على الصليب الذهبي فانتصب به عالياً بين يديه.

«ها هو المسيح المصلوب الذي باعه يهوذا الإسخريوطي بثلاثين قطعة من الفضة!».

«هل يبيعه أصحاب الجلالة من جديد؟ ها هو، خذوه» وضع الصليب على طاولة أمام العرش. «خذوه، وقايضوا به بعيداً». استدار فالتفّ معه رداؤه الأسود، ليخرج بخطوات فجة من القاعة، من دون انتظار إذن الملكين بالخروج.

136- قصرُ الحمراء: قصرٌ أثري وحصن. شَيَّده الملك المسلم العربي أبو عبد الله محمد الأول محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن نصر بن الأحمر بين 1238-1273 في مملكة غرناطة خِلالَ النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي. أستغرق بناؤه أكثر من 150 سنة.

نظر أبرافانيل إلى صديقه القديم الحاخام سينيور فلمح نظرة الهزيمة. بعد سماع الملكين، في وقت لاحق، نفّس عن غضبه وقال: «كما يصّم الأفعوان أذنه بغبار، كي لا يصاب بفتنة الأفعى، كذلك قسّى الملك قلبه ضدنا، برجس ذاك المحقق».

كان مجلّد الكتب، آخر من وصل من معارف داود بن شوشان المقربين، لتقديم التعازي في الشيفاه. انتظر حتى قامت ساعة السبت بسحل آخر المشيعين إلى منازلهم. أراد التحدث إلى مريم على انفراد قدر استطاعته.

نجحت استراتيجيته، حيث رفضت مريم المغادرة مع الدون يوسف بالرغم من التماسات صادقة من شقيق زوجها، فبقيت وحدها باستثناء وجود خادم طلب منه الدون يوسف الاهتمام بها. اغتاظت حين أعلن الخادم عن قدوم ميخا. فهي بحاجة إلى مزيد من التفكير. كيف بإمكانها مغادرة كاهال؟ العالم الوحيد الذي عرفته أبداً؟ ولدت هنا. عاش والداها هنا وماتا، هنا دفنت عظامهما، جثة زوجها الآن تستلقي في المقبرة اليهودية. كيف يمكن للناس أن يتركوا موتاهم من دون معاناة؟ بين المسيحيين! حين يغادر اليهود، سيقومون بحرث الأرض لمنافعهم، بما يزعج موتانا العزيزين. ماذا عن كبار السن، المرضى، أولئك العاجزين عن السفر، ماذا عن النساء اللواتي على وشك الولادة؟ تخطى عقلها نحو زوجة ابنها المدان. ستكون، على الأقل، آمنة. قادرة على الإنجاب في منزلها، مع أسرة تحبها. ستنجب الحفيد الذي لن تراه جدته أبداً. بدأت دموعها تنهال من جديد، الآن هذا الأحمق مجلد الكتب، حاولت ضبط نفسها.

أعرب ميخا عن تعازيه الحارة، ثم اقترب من مريم عن كثب، أكثر من المناسب. وضع وجهه على أذنها. ثم قال: «ابنتك»، تيبست، تستعد لتلقي صفعة من الأخبار السيئة. أخبرها ميخا على عجالة بزيارة الجندي. لو أن

الحديث جرى في أي وقت آخر، لكان دماغ مريم الفطن قادها للتساؤل عن السبب الذي جعل روتي تجلس لفترة طويلة في ورشة التجليد، فالغرض الوحيد من وجودها هناك هو إخبار والدها عن موعد تسليم الهاجادا. ستطلب معرفة ما الذي تفعله روتي في كوة التخزين الخاصة بالمجلد. إلا أن الحزن والقلق أضعفا مريم، فكان تركيزها منصباً على ما قاله المجلد بعد ذلك.

«ماذا تقصد بـ «ذهبت؟» كيف يمكن لفتاة شابة أن تمضي وحدها، على الطريق الجنوبي، ليلاً، مع بداية يوم السبت؟ ما هذا الهراء؟».

«أخبرتني ابنتك أنها تعرف مكاناً آمناً للاختباء، يمكنها الوصول إليه قبل يوم السبت. تنوي التخفي هناك، وإرسال كلمة إليك عندما تكون قادرة على القيام بذلك. زودتُها بالخبز وجعبة جلدية معبأة لكنها أخبرتني بتوفر الطعام هناك».

استقل ميخا طريقه على عجل في شوارع كاهال الضيقة، مغادراً مريم غارقة في قلقها - أي مكان سري يمكن لروتي أن تعرفه؟ - فاتها أن تسأل ميخا عن الهاجادا.

لكن عامل التجليد أعطى الهاجادا لروتي، بناء على إصرارها. تساءل أثناء توجهه صوب منزله، إن كان ما فعله هو الصواب. وصل إلى بابه مع ترنم النغمات معلنة بداية يوم السبت. تخطى الباب، اختلطت نغمات الشوفار[137]، مع بكاء أطفاله الصغار في الداخل، دفع تفكيره بالفتاة ومشاكلها بعيداً. لديه ما يكفيه من المشاكل.

مع اقتراب مألوفٍ لخطوات روتي نحو كهفها، سمعت عويلاً خافتاً. روتي بقدمها الراسخة في الظلام، التي تنقلت بهذه الرحلة الليلية الصعبة مرات عديدة، بعد تسللها من غرفة والديها، لخطف بضع ساعات من الدراسة السرية. جعلها الصوت غير المتوقع تتسمر بذعر، تناثرت بقع

137- الشوفار: قرن كبش يستخدم كآلة موسيقية لأغراض دينية.

من الحجارة الملساء تحت قدميها، فأخذت تفتش عن المسار وعن الصخرة الصلبة في الأسفل. توقف البكاء فجأة. «من هناك؟» همس صوت ضعيف. «حباً بالمخلص، ساعدني!».

بالكاد تعرفت روتي على صوت روزا. أصاب الجفاف لسان المرأة بالتورم، بينما استنفد الرعب والألم قواها. عشرون ساعة متواصلة تلوّت روزا بمفردها بفعل تقلصات رحمية لا خلاص لها. مسكونة بطمأنينة، متحسسة المصباح وأحجار القدح المخبأة، اندفعت روتي إلى الكهف.

جال ضوء اللهب فوق الجسد البائس المكدوم. كانت روزا جالسة بظهر مستند إلى الجدار الصخري، مع ركبتين مشدودتين بقوة على صدرها. أما ثوب نومها فملطخ بالدم وسوائل أخرى، لتنبس شفتيها المتشققتين بكلمة ماء. سرعان ما رفعت روتي جعبة الجلد إلى فمها. ابتلعت روزا الكثير منه، ثم انحنت تتقيأ. تقلص جديد غافلها أثناء حالتها المزرية تلك.

حاولت روتي التهدئة من روعها. لكن في الواقع، كيفية إنجاب طفل إلى العالم، الفكرة الأكثر غموضاً لديها. إذ حرصت والدتها على التكتم فيما يخص أمور الجسد، معتبرة أن روتي لا تحتاج إلى معرفة هذه الأشياء حتى تتم خطبتها. وصل إلى مسامعها، في كاهال المزدحمة، حيث التصقت المنازل بعضها ببعض، صراخ النساء الموشكات على الولادة، أدركت أنها عملية مؤلمة، وخطيرة في بعض الأحيان. لكنها لم تتخيل أنها ستشهد هذا الكمّ من الدم والغائط.

نظرت حولها بحثاً عن شيء لمسح القيء عن وجه روزا. فما عثرت إلا على بعض الأقمشة النافذة الرائحة التي لفت فيها بعض الأجبان الجافة لقوتها خلال ليالي الدراسة الطويلة. مع اقتراب يدها من وجه روزا، أوشكت المرأة على التقيؤ مرة أخرى. لكن من دون جدوى، فقد أفرغت ما في معدتها كله.

امتد الليل. تتالت الآلام من دون تمهل. صرخت روزا حتى تسلّخ

حلقها فعجز عن التعبير بحرف سوى العويل. لم يكن باستطاعة روتي أن تفعل شيئاً سوى مسح جبهة روزا وتهدئة كتفيها أثناء التشنجات. ألن يولد هذا الطفل أبداً؟ كانت تخشى معرفة ما يحدث بين ساقي روزا، لكن مع صيحات الوجع والتلوي في معاناة جديدة، تحركت روتي على مضض من موضعها، وركعت بمواجهة المرأة التي أحبها شقيقها كثيراً. فكرت به، بالآلام التي يمر بها في اللحظة نفسها، بما أسكب عليها بعضاً من الشجاعة. باعدت بلطف بين ركبتي روزا مع شعور مختلط من الرهبة والهلع. كانت جمجمة الطفل الداكنة تشق طريقها وسط الجلد المشدود. مع انقباض روزا التالي، تغلبت روتي على خوفها ولمست رأسه، محاولة إدخال أصابعها حتى تتمكن من إمساك الجمجمة الصغيرة وتسهل مرورها، لكن روزا كانت أضعف من أن تدفع الطفل. مرت دقائق، وصلت إلى ساعة، ولا تقدم على الإطلاق. ثلاثة كائنات محاصرين في الكهف. الرضيعُ في قناة الولادة الصلبة، روزا في معاناتها، وروتي في رعبها.

زحفت على يديها وركبتيها وصولاً إلى وجه روزا المحمَر. «أعلم أنك منهكة. أعرف أنك تعانين»، همست بينما روزا تئن. «لكن لهذه الليلة نهايتان فقط، إما أن تجدي القوة لدفع هذا الطفل إلى الخارج، أو تموتان كلاكما هنا».

صرخت روزا ورفعت يدها في محاولة لصفع روتي. لكن الكلمات أثرت بها. مع هجوم التشنج التالي، التقطت القليل من القوة المتبقية في جسدها. رأت روتي الرأس وهو يجاهد خارجاً ممزقاً الجلد. قامت برفع يدها حول الرأس وسحبته. من بعده الكتفين. وبعجالة غير متوقعة كان الطفل كله بين يديها.

إنه صبي. لكن ولادته العسيرة كان لها وقع سيئ عليه. هوت ذراعاه وساقاه الصغيرتان بين يدي روتي، لكنه لم يصرخ ولم تبدُ أي حركة في وجهه. قطعت روتي بنفور الحبل بسكينها الصغيرة، ثم لفت الرضيع في قطعة قماش مزقتها من عباءتها.

«هل هو... هل هو ميت؟» همست روزا.

«أعتقد ذلك»، قالت روتي بحدة.

«جيد»، زفرت روزا.

نهضت روتي على ركبتيها وحملت الطفل بعيداً صوب عمق الكهف. تقرحت ركبتيها من ضغط الحجر، لكن ذلك لم يكن السبب لامتلاء عينيها بالدموع. كيف تجرؤ أم على الابتهاج بموت طفلها؟

«ساعديني!» صاحت روزا. «هناك شيء ما» - صرخت. «إنه الوحش! إنه يخرج!».

التفت روتي. كانت روزا تتلوى محاولة الزحف إلى الجدار بعيداً عن مكان ولادتها. رمقت روتي كتلة لامعة ترتعش. ثم تذكرت القطة التي أنجبت صغارها في زاوية من الفناء، وفوضى ما بعد الولادة التي خلفتها. هذه المسيحية الغبية العاهرة، فكرت، مطلقة العنان لكل الغضب والغيرة اللذين شعرت بهما تجاه المرأة. وضعت الصرة في الأسفل، اتخذت خطوة نحو روزا، كانت على وشك ضربها، بالرغم من الكدمات البادية على وجهها، المرئية في ضوء المصباح الخافت، لكنها لم تثر شفقتها عليها.

«لقد نشأتِ في مزرعة... ألم تتعرفي على ما يحدث بعد الولادة من قبل؟» غضب روتي وحزنها جعلا من الحديث مع روزا أمراً مستحيلاً. ثم قامت بصمت، بتقاسم المؤونة القليلة في الكهف - من جبن وخبز وماء أخذته من ميخا. وضعت نصفاً بجانب روزا.

«نظراً لعدم اهتمامك بابنك، فلا أظن أنه من المهم جداً لك إن دفنتُه وفقاً للطقوس اليهودية. سآخذ الجثة وأواريها الثرى، بمجرد انتهاء يوم السبت عند غروب الشمس».

حررت روزا تنهداً عميقاً. «طالما أنه لم يعمّد، فذلك لا يحدث فرقاً».

عقدت روتي صرة المؤونة بإحكام داخل ما تبقى من عباءتها. ثم أسدلتها من كتف واحد. وضعت على الجانب الآخر كيساً يحتوي على حقيبة صغيرة، ملفوفة بعناية بطبقات من الجلود المحزومة بسير جلدي.

ثم اقتربت من جثة الطفل الميت. تحرك الجسد بين يديها. نظرت روتي إلى أسفل فلمحت عينيّ شقيقها، اللطيفتين، الواثقتين، تحدقان في وجهها، تومضان بدفء. لم تقل شيئاً لروزا، التي تكورت بجسدها على وشك إغفاءة منهكة. سارعت روتي بالخروج من الكهف. سلّمت للدرب الوعرة خطواتها، انحدرت محاولة الحفاظ على أحمالها بهدوء، خشية أن يبكي الطفل ويفضح سرّ نجاته من الموت.

في أحد أيام الآحاد، بعد رنين جرس الظهيرة، جالت الرُّسل الملكية في جميع أنحاء إسبانيا، بينما تجمع المواطنون في ساحات البلدات لسماع تصريح ملك أراغون وملكة قشتالة.

روتي، المتنكرة بزي امرأة مسيحية غير ملائم، سرقته من صندوق في غرفة نوم روزا، شقّت طريقها وسط الحشد المتجمّع في الميدان الرئيس لقرية الصيد، اقتربت بما يكفي لسماع النبأ.

كان نصاً مطولاً، أعلن تخوين اليهود، وعدم كفاية الإجراءات المتخذة، حتى الساعة، لوقف إفسادهم للمعتقد المسيحي.

«لذلك نأمر... جميع اليهود واليهوديات، أياً كانت أعمارهم، الذين يعيشون ويقيمون ويسكنون في ممالكنا وأماكن سيطرتنا المذكورة... بحلول نهاية شهر يوليو- تموز المقبل، من العام الحالي 1492، أن يغادروا ممالكنا... كما لا يفترض بهم العودة إليها أو الإقامة فيها، وإلا يعرضون أنفسهم لعقوبة الإعدام». لم يكن على اليهود ترك الذهب أو الفضة أو الجواهر؛ إنما توجب عليهم دفع الديون المستحقة عليهم، بينما لا يسمح لهم بتحصيل أي أموال مستحقة لهم. وقفت روتي هناك، بينما ألهبت أشعة الشمس الحارة غطاء رأسها غير المعتاد، شعرت كما لو أن الهاوية انفتحت على مصراعيها أمامها. هلل الحاضرون حولها، يمجدون اسمي الملك فرديناند والملكة إيزابيلا. لم تشعر بالوحدة يوماً كما أحست تلك اللحظة.

لا يهودي في القرية، لهذا اختارت روتي الذهاب إليها، بعد أن حزمت ما استطاعت حمله من بيت سلفادور الريفي. لم تعتبر ما فعلته سرقة، حيث الأشياء التي حصلت عليها تخص حفيد العائلة. بحثت في القرية، كانت تبحث عن مرضعة تلفق لها قصة غير معقولة، عن فقدان أختها في البحر. جاهلة كانت المرأة التي وجدتها، لحسن الحظ وكليلة، لم تشكك في رواية روتي، ولم تتساءل على الإطلاق عما تفعله امرأة، ولدت طفلاً للتو، داخل البحر!

حين تفرق الحشد يغنون ويهللون بشتى الشتائم المسيئة لليهود، خطت روتي متعثرة عابرة الساحة صوب النافورة، جلست بتثاقل فوق أحجارها. كل درب أمامها مسارٌ نحو الظلام. إن اختارت الرجوع إلى المنزل لوالدتها فهي تضع نفسها بين أيدي المحققين. أما العيش هنا، مع الاستمرار في الادعاء بكونها مسيحية. فقد يخدع فلاحةً بسيطة، لكن إن اضطرت للبحث عن مسكن أو شراء طعام، فإن الحبكة المهلهلة لقصتها ستنكشف بكل تأكيد. أن تصبح مسيحية - أن تعتنق، كما حث الملوك جميع اليهود على القيام بذلك - كان أمراً غير وارد.

مكثت روتي هناك لما بعد الظهر. أي شخص ينظر عن كثب إلى الفتاة المكتنزة سيلاحظ ارتجاجها برفق، ذهاباً وإياباً، تصلي لله من أجل التوجيه. لكن روتي لم تكن تنتمي قط إلى أولئك النسوة اللاتي يلتفت إليهن الناس.

أخيراً، حين استحال الضوء المائل برتقالياً فوق الحجارة البيضاء، ارتفعت من مكانها. خلعت غطاء الرأس المسيحي وألقت به إلى النافورة. أخرجت من الكيس المجاور وشاحها الخاص ومعطفها المزيّن بالزر الأصفر المميز لليهود. عبرتِ الساحة برأس منتصب، مروراً بالمسيحيين الذين كانوا يحدقون بها باستهجان، التقطت نظراتهم، ثم ردتها بحدة، بغضب وعزم. شقت طريقها إلى رصيف الكوخ، حيث تنتظر المرضعة بصحبة الطفل.

حين لملمتِ الشمس ضياءها، ستار من الظلام أحاطها، أخفاها عن أعين الفضوليين، سارت راث بن شوشان نحو البحر، تشد رضيعاً بلا اسم بإحكام نحو صدرها، وصولاً إلى عمق يغمر خصرها. أرخت يديها، رمت قطعة القماش المتشابكة عن الطفل. حدقت عيناه البنيتان بها، تحركت قبضتاه الصغيرتان تتلمسان الهواء.

«آسفة يا صغيري»، قالت بلطف، ثم ألقته فوق السطح المظلم.

انغلق الماء حوله لامساً كل شبر من جسده. حررت قبضة قوية عن ذراعه العليا. أفلتته بالكامل. تلقى الماء جسده الصغير.

نظرت إلى الأسفل نحو التكوين الصغير المتصارع مع الماء. كانت ملامحها حادة، عازمة على كتم شهقاتٍ غافلتها. ارتفعت موجة وصفعتها. كانت شدة الموجة المتراجعة على وشك سحب الرضيع بعيداً. مدت روتي يدها وقبضت عليه بقوة. انسابت المياه المالحة من جسده أثناء رفعه من بين الأمواج، لمعَ الجسد الغض بوابل من الضياء. علت به صوب النجوم. صدح هدير في رأسها أعلى من ضربِ الأمواج. صرخت، في مهب الريح، حدثت الرضيع بين يديها بكلمات:

.«*Shema Yisrael, Adonai eloheinu, Adonai echad*»

«اِسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ: اَلرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ[138]» .

سحبت القماش عن رأسها ولفت الطفل.

أُجبر اليهود، في جميع أنحاء أراغون تلك الليلة، على التعمد، مدفوعين بالتحول الديني خشية النفي. لكن روتي، الجذلة، الجريئة، جعلت من الصغير الوثني يهودياً. بما أن والدته ليست يهودية، بات من الضروري غمره بالطقوس. الأمر تم بسلام الآن. رغم الانفعال المتزامن مع اللحظة التي أترعت قلبها، لكن روتي تحصي الأيام. لم يكن لديها

138- الكتاب المقدس: الاصحاح السادس من سفر التثنية. الآية (تث 4:6)

المزيد من الوقت. لا بد من العثور بحلول اليوم الثامن، على مختص للقيام بختان الصبي. إن سارت الأمور على ما يرام، سيكون ذلك في أرضهم الجديدة. عندها في ذاك اليوم، ستمنح الطفل اسمه.

عادت باتجاه الشاطئ، معانقة الطفل على صدرها بإحكام. تذكرت أنها تحمل كتاباً ملفوفاً بالجلد ومغطى بحقيبة كتف. سحبت الأشرطة لرفعها بعيداً عن متناول الأمواج. بضع قطرات من المياه المالحة وجدت طريقها إلى داخل غلافها الدقيق. حين يجف الماء على الصفحة، سيترك بقعة، وبقايا من البلورات تحيا لخمس مئة سنة قادمة.

ستبدأ روتي، في الصباح، بالبحث عن سفينة. تدفع مقابل الأجرة عن نفسها وعن الطفل بالميدالية الفضية المتمركزة في الغلاف الجلدي، حالما يصلان إلى اليابسة - هذا إن وصلا إلى اليابسة - حينها يستقران بين يدي الله.

لكنها الليلة ستزور قبر والدها. تقرأ له الكاديش، وتعرفه على حفيده اليهودي، الطفل الذي يحمل اسمه عبر البحار، نحو مستقبل يرسو على ضفافه بهما مركب الله.

حنا

لندن، ربيع 1996

مغرمةٌ بتيت. أحب هذا المكان حقاً. بصرف النظر عن مجموعته الضئيلة جداً من الفن الأسترالي. إذ ليس هناك أي لوحة لآرثر بويد، الأمر الذي أزعجني كثيراً. بالطبع ذهبت من فوري لأعمال شارانسكي. كنت مُنقادة بالبحث عن أعماله جميعها. أعلم أن تيت لديه شيء يخصه، لا بد من رؤيته، لكنني لم أستطع تذكر اسم اللوحة. حين عثرت عليها أخيراً، عرفتُ السبب. لم تكن قابلة للتذكر بسهولة حيث كانت لوحة صغيرة، مبكرة، بالكاد تلمِّح لأثرٍ عن أشياء قادمة. أعتقد أن متحف تيت النموذجي قد حصل على العمل الأسترالي بثمن زهيد. لكنها لا تزال لوحته. وقفت هناك، فكرت: والدي من أبدعها.

لماذا لم تخبرني؟ كنت على الأقل نشأت مع هذه الكفاءة، التي ليست بالشيء القليل: كنت كبرتُ مع القدرة على التمتع بالجمال الذي خلّفه وراءه. أن أشعر بالفخر بوالدي، بدل أن يجرفني العار الذي رزحت أفكاري تحت وطأته طيلة هذه السنين. أطلتُ التحديق باللوحة، أستعين بأكمامي على مسح الدموع المنسكبة المتذمرة، لكن لم يكن ذلك كافياً. خاصة مع وصول مجموعة من أطفال المدارس الإنكليزية يرتدون التنورات الاسكتلندية والسترات الفضفاضة يحومون حولي، فقدتُ سيطرتي على أعصابي ثم بدأتُ بالنشيج. إنها المرة الأولى في حياتي. أفزعني ما يحدث. انتابني الذعر، مما جعل الأمر يزداد سوءاً. إحراج

كبير أصابني بفعل العويل المتنامي. استندت بظهري إلى الحائط محاولة أن أحاصره، مجاهدة من أجل ضبط نفسي. عجزت تماماً، شعرت بقلبي ينزلق ببطء حتى تهاويتُ بكلي على الأرض. جثمت هناك، مع كتفين مرتعشتين. ابتعد البريطانيون بحلقة واسعة عني، كما لو كنت إشعاعاً.

بعد بضع دقائق، جاء إلي أحد الحراس وسألني فيما لو كنت مريضة، أو أنني بحاجة إلى المساعدة. نظرتُ إليه، هززتُ رأسي، التقطتُ نفساً عميقاً في الهواء، محاولة التوقف عن البكاء لكن من دون جدوى. جلس بجانبي مربتاً على ظهري: «شخصٌ مات؟» همس بصوت لطيف للغاية. بنبرة محلية قوية، لعلها يوركشايرية. «نعم»، أومأت. «والدي».

«حسناً، إذاً». قال «مؤلم يا عزيزتي».

مد ذراعه، بعد برهة قصيرة، أمسكت به متعرشة على قامته. تمتمتُ بالشكر، تركت ذراعه وخطوت متعثرة في المعرض، محاولة العثور على طريقي للخروج.

لكن بدلاً من ذلك، وجدت نفسي في غرفة تضم جميع لوحات فرانسيس بيكون. واجهتُ الشخص الذي لطالما عشقته. ثم أوقفتني لوحة ليست معروفة جيداً ولا يتم تعليقها على الدوام. رجل يمشي بعيداً، يميل مع الريح، بينما يقوم كلب أسود بمطاردة ذيله الذي يدور أمامه. أمرٌ ينذر بالشؤم والبراءة في الوقت ذاته. ركز بيكون على الكلب الذي تسمر في لوحته. لكن بعينيَّ الدامعتين، غاب الكلب تماماً عن ناظري، سلبني مشهد الرجل، الرجل الماضي بعيداً. حدقت به لفترة طويلة.

استيقظت، في اليوم التالي، في غرفتي في فندق بلومزبري مع شعور بالإشراق والارتياح. كنت أرتاب من فكرة اجترار النحيب كعلاج جيد لأي شيء. لكنني أشعر حقاً بتحسن كبير. لا أزال مصممة على التركيز على المؤتمر. هناك في الواقع مثنى من الأوراق المفيدة، إن أمكن التغاضي عن لهجات الأشخاص الذين يسلمونها. إن عالم الفن في إنكلترا هو مغناطيس جذاب للجيل الثاني من أمراء راحلين، أو نساء

يدعين أنابيل شيء ما - شيء ما يرتدين الجوارب السوداء والكشمير البرتقالي المعطرات باللبرادور الرطب. أجد نفسي أغلب الوقت متأرجحة في العصر الحجري القديم كلما أحاطوا بي، مستخدمين كلمات لم أتخيل يوماً استخدامها في الحياة الحقيقية، مثل الكوبر والبونزا. تجري الأمور على وجه نقيضٍ في الولايات المتحدة، إذ بالرغم من بذل قصارى جهدي، كي لا أقع بما يسمونه «التكيف اللغوي». إلا أنني بدأت أفقد حرف t بكلمة water. وأقحم a بديلاً، كما بدأت بلفظ «sidewalk» و«flashlight» حين أقصد «footpath» و«torch». أعتقد أنني أقاوم ذلك بمنتهى الجدية في إنكلترا، لأن أمي تحدثت على الدوام بتلك اللهجة الأرستقراطية البريطانية المترافقة مع خيلائها. في طفولتي، كانت تجفل كلما تحدثت إليها. «حقاً، حنا، تبدو حروفك الصوتية، كأنما دُهست بشاحنة مسرعة. هل تريدين أن يعتقد الناس أنني أرسلك إلى الضواحي الغربية كل صباح، بدلاً من دور الحضانة الأغلى في دبل باي».

بكل الاحوال، لإخراج نفسي من الإحراج الذي سمحت لنفسي بالوقوع فيه، قررت التركيز على بيان مقالة الهاجادا. حيث إنني بسبب الدراما التي وقعت في بوسطن تأخرتُ عن الكتابة، في حين انتهى الوقت المقرر للطباعة. حالما اختتم المؤتمر قدمت ماريان، صديقتي العائدة لزيارة أسرتها في أوز، كوخاً لي في هامبستيد. حيث اختبأتُ ليومين. كان منزلاً خشبياً رائعاً بجوار مدفنٍ وعر، مع ليلك أزرق داكن، وورود متسلقة لجدران الحديقة المخضرة بفعل الطحالب. كوخٌ قديم الطراز، ذو أبعاد منخفضة - المداخل منخفضة، كذلك عوارض السقف المموجة التي قد يهوي مسارها نحو الرأس فجأة. ماريان قصيرة القامة بعكسي تماماً. الويل لأي شخص يزيد طوله على خمس أقدام - وهو ذروة سقف المطبخ. كنت أذهب إلى الحفلات هناك حيث يمضي الضيوف طويلو القامة محدودبو الظهر طوال الليل، كعفاريت ماكرة.

ظننت أنه علي الاتصال بأوزرين وإخباره أين وصلت بالبحث. لكن مساعدة أمين مكتبة المتحف، أجابت بعبارة: «ليس هنا».

«متى تتوقعين مجيئه؟».

«لا أعرف بالضبط، ربما يأتي بعد الغد. وقد لا يأتي». جربت الاتصال بشقته، لكن الهاتف رن بخواء.

أحببت الكتابة في مكتب ماريان الصغير، وهو غرفة صغيرة أسفل الإفريز في الجزء العلوي من المنزل. كان مضاءً بشكل جيد، مطلاً على طول الطريق نحو لندن. في الأيام النادرة، حين يتوقف المطر أو يتلاشى الضباب المحدد للرؤية، يمكنك رؤية ضواحي جنوب داونز.

كنت واثقة جداً من نتائج البحث. بينما لم أتوصل إلى قرع الطبول الكبير الذي طالما أملتُ فيه، شعرت أن التبصر حول بارناسيوس والمشابك المفقودة بدأ يفتح آفاقاً جديدة. تركت وضع اللمسات الأخيرة، لما يلي القيام بفحص عينة الشعر الأبيض التي استخرجتها من الغلاف. قمتُ بسؤال أملي سوتر عن ذلك. فأخبرتني أنه بإمكاني الحصول على رقم أحد علماء الحيوان في المتحف للجوء إليه. «لكن الأشخاص الذين يعرفون الشعر حقاً - للحيوان، أو الإنسان - هم الشرطة». فكرت أن مختبر الطب الشرعي سيكون المكان الأنسب للبحث. بعد قراءة عدد كبير جداً من روايات P. D. James، قررتُ تأجيل الأمر حتى الذهاب إلى لندن. ما انفك الولهُ لدي، بمعرفة كيفية تقاطع الحدث الحقيقي مع الخيال.

من حسن حظي أن ماريان على علاقة جيدة بشرطة العاصمة. إنها محررة مساهمة في لندن ريفيو أوف بوكس (London Review of Books) كتبت الكثير عن سلمان رشدي، مباشرة بعد إعلان الإيرانيين عن هدر دمه. كانت واحدة من الأشخاص القلائل الذين وثق رشدي بهم، التقاها بانتظام خلال أسوأ سنواته، حتى انتهت بها الحال إلى التورط بجدية مع إحدى شخصيات جهاز الشرطة البريطانية (Scotland Yard) لتتبع

التفاصيل. التقيتُ بالرجل لمرة واحدة أثناء حفلة في منزل ماريان- كان بالتأكيد يقف بقامة محنية في المطبخ، يبلغ السادسة والعشرين من العمر، بإطلالة مشرقة، رغم الضجيج الذي يثيره حوله. قام بتحديد موعد لي في مختبر الشعر والألياف في متروبوليتان. «إنه لا يحب السياسة» حذرتني ماريان. «لذلك احرصي على التحفظ معه حيال ذلك. لكن من الجلي أن المسؤولة عن المختبر، مفتونة حقاً بالرواية المتعلقة بالكتاب، أرادت أن تقوم بالفحص لأجلك أثناء وقتها الخاص».

ما زلتُ حريصة على التعرف، فيما لو تتاح الفرصة لأوزرين لمتابعة البارناسيوس، على القرية الجبلية التي اختبأت بها الهاجادا خلال الحرب العالمية الثانية. أو إن كان لديه معلومات ما فأدرجها في المقال. غالباً ما تكون المقالات من هذه النوعية، جافة كبحيرة آير الملحية. تقنية للغاية، مثل تقرير مارتيل، الرجل الفرنسي في فينا. مذكرات مرفقة بعدد من الاقتباسات وعدد صفحات الكراس، وحالة خيوط الغلاف، وعدد ثقوب الخياطة وما إلى ذلك وذلك، أوووف. أريد أن تكون مقالة مختلفة. أردت أن أمنح إحساس أهل الكتاب، الأيادي المختلفة التي ابتكرتها، استخدمتها، قامت بحمايتها. أردت تقديمها كرواية جذابة ومشوقة. لذلك كتبت، ثم أعدت صياغة أقسام معينة من الخلفية التاريخية لاستخدامها كتوابل فاصلة عن مناقشة المسائل التقنية. حاولت أن أهب مشاعر التعايش الأندلسي، أثناء الحفلات الشعرية في ليال صيفية في أحضان حدائق جميلة منسقة، هناك حيث يختلط اليهود الناطقون بالعربية بحرية مع جيرانهم المسلمين والمسيحيين. بالرغم من أنني لم أتمكن من معرفة قصة الناسخ أو فنان المنمنمات، فإنني حاولت أن أنقل ما يشعره كل منهم عبر شرح تفاصيل عن حِرَفهم ومظاهر معيشتهم في العصور الوسطى آنذاك، أو لأي وسط اجتماعي يندرجون. أردت بعد ذلك، صياغة توتر حتمي، جراء الانعكاسات المأساوية الرهيبة لمحاكم التفتيش والطرد. أن أعبر بتوقد النار وتحطم السفن والذعر.

توقفتُ عن الكتابة، وأجريت مقابلة مع حاخام هامبستيد المحلي لأستفسر منه عن الملح - ما الذي جعله كوشير؟ قال بكلل ضئيل: «تندهشين من عدد الأشخاص الذين يسألونني هذا السؤال». «بشكل عام، ليس الملح هو كوشير، في الحقيقة، إنه نوع من الملح المناسب لكوشير اللحم - بتعبير آخر، للتخلص من آثار الدم، لأن اليهود الملتزمون بالكوشير لا يستهلكون الدم».

«ما تعنيه إذاً، أن أي ملح يحتوي على بنية بلورية كبيرة يمكن أن يكون ملح كوشير؟ لا يهم إذا كان الملح صخرياً أو بحرياً متبخر الماء، أم ماذا؟».

«هذا صحيح». قال «يجب ألا يحتوي، كذلك، على مواد مضافة. على سبيل المثال، الملح المحتوي على سكر العنب، المضاف إلى بعض الملح مع اليود، يشكل مشكلة في عيد الفصح، لأن سكر العنب يأتي من الذرة».

لم أكن مضطرة للاستفسار عن سبب عدم إدراج الذرة ضمن الكوشير في عيد الفصح، لأنني كنت متأكدة تماماً أن سكر العنب لم تتم إضافته لأي ملح يمكن استخدامه حول الهاجادا. اعتمدتُ على حقيقة أن بقع الملح جاءت من ملح البحر كوسيلة لوصف رحلة الهاجادا البحرية، ربما إبان الطرد للمنفى، اقتبست بعضاً من القصص المعاصرة الحية لتلك الرحلات القسرية الرهيبة.

وصلتُ إلى حدود البندقية، حيث كان اليهود يقطنون في غيتو في الأصل، كتبت عن ضغوط الرقابة على المطبوعات بشكل عام، وعلى الكتب اليهودية بشكل خاص، ذكرتُ طرق التجارة والثقافة التي تربط المجتمعات اليهودية في إيطاليا بتلك الموجودة في أنحاء البحر الأدرياتيكي جميعها، كما أنني افترضتُ أن الكتاب لعله وصل البوسنة بصحبة قائد جوقة إيطالي يدعى كوهين.

كنتُ منغمسة جداً في الكتابة - تجري الأمور على هذا النحو في

الأيام الجيدة، عندما تهوي داخل حفرة أرنب لتختفي بقية العالم من حولك - لدرجة كدت أنفجر مع رنين جرس الباب.

وقعت عيناي على سيارة ساعي البريد المتوقفة في الممر، نزلت لفتح الباب، غاضبة بشكل غير معقول من الرزم الخاصة بماريان التي عملت على تشتيت تركيزي. لكن الساعي ذكر أن المغلف يخصني، إنه من تيت.

وقعت باستلامه ثم فتحته، مستغربة، ما الذي يتضمنه؟ وجدتُ في الداخل خطاباً صريحاً أُعيد إرساله من بوسطن. الشيء اللعين يطاردني في جميع أنحاء العالم.

فتحت المغلف، يا للغرابة. كانت في الداخل نسخة أمبروتايب ودليل بخط يدوي فتان من فراو زوينغ. كانت الصورة رسمية لرجل وامرأة. المرأة جالسة، بينما يقف الرجل خلفها، بيد على كتفها. شخص ما، لعلها فراو زوينغ، رسمت دائرة حول رأس المرأة، التي تحولت إلى صورة شخصية بثلاثة أرباع. أشارت بسهم إلى قرطها.

لم يكن لرسالة فراو أي مقدمة أو تحية. كانت مكتوبة كصريخ حاد.

«تحققي منها!!!». «هل ترتدي تلك السيدة جزءاً من قفلنا المفقود؟؟؟ تذكرتُ وصف مارتيل للجناح؟؟؟ تبين أن ميتل توفي متسمماً بالزرنيخ بعد عمله على الهاجادا. المصاب بمرض السيلان (مثله مثل ما لا يقل عن نصف مواطني فيينا!) أما زوج السيدة، الدكتور فرانز هيرشفيلد، طبيبه المعالج. حقائق تمكنت من الإلمام بها، لأنهم في الحقيقة قاموا بالتحقيق مع هيرشفيلد إبان مقتل ميتل. أطلقوا سراحه - فقد حاول ساعدة الرجل فقط - لكن القضية تم تداولها مؤخراً كجزء من بحثنا الروحي المؤجل، منذ فترة طويلة لتفادي معاداة السامية النمساوية.

«اتصلي بي عندما يصلكِ هذا!».

بالطبع، سأفعل. أدرت سماعة الهاتف مباشرة.

«اعتقدت أنك لن تتصلي! أعلم أن الأستراليين يتأخرون بالرد، لكن أيّ سأم لديكِ؟».

شرحت عن الرسالة، وكيف تلقيتها تلك اللحظة فقط. «الآن، إن استطعنا العثور على القطعة الأخرى - الورود. ما زلت أطاردها، صدقيني. إنه العملُ الأكثر متعة من أي شيء آخر علي القيام به هنا».

ألقيت نظرة على ساعتي وأدركتُ أنه إن لم أفعل ذلك الآن، فسوف أفقد موعدي في الساحة. ألقيتُ شكراً من القلب لفراو زوينغ، باحثة في جيوب سترتي عن رقم سيارة الأجرة. تأخرت كثيراً بالوصول إلى هناك. انتظرتُ أن تظهر الكابينة من بعيد، حاولت الاتصال بأوزرين مرة أخرى. أردتُ إعلامه بالأخبار الجديدة عن المشابك، ربما أفاجئه قليلاً حول أسلوبي بالكتابة. لكن المُساعدة في المتحف ردت ببرودة شديدة، كما في اليوم السابق:

«ليس هنا. اتصلي لاحقاً».

طلبتُ سيارة أجرة غير مرخصة، لأن أجرة السيارات السوداء في لندن أضحت مرتفعة لحد يبعث على السخرية. كدت أتعرض لأزمة قلبية أثناء خروجي من مطار هيثرو حين وصل عداد الرحلة لما يعادل مئة دولار أسترالي، ولم نكن قد تجاوزنا مطار هامرسميث بعد. صعدتُ الكابينة الصغيرة الفواحة برائحة المارجوانا[139] والتي تحولت إلى سيارة فان رمادية اللون، أصيب سائقها ذو الملامح الهندية الغربية بالرهبة والقلق بعد مناولتي لكتاب مزدوج، حين أعلمته إلى أين أريد الذهاب.

«أنت (Babylon)مام؟».

«ماذا؟».

139- المارجوانا أو الماريغوانا: نوع من العقاقير ذات تأثير نفساني، يستخرج من نبتة القنب الهندي.

«هل أنت (filth)؟».

«آه. تقصد ضابط شرطة؟ أبداً، يا صديقي. إنها مجرد زيارة لضباط الشرطة».

توقف على بعد بضعة أبنية عن العنوان الفعلي، كيفما اتفق.

«لديهم كلاب بوليسية هناك، مام». نظراً لأنه لم يتقاض مني سوى عشرة جنيهات مقابل الرحلة، بينما تُقلّني السيارة السوداء بستين جنيهاً، لم أتذمر، رغم أنها كانت تمطر. المطر في لندن لا يشبه المطر في سيدني. لا تمطر كثيراً هناك، لكن عندما تفعل، فالهطول يهوي غزيراً جداً بحيث يحيل الشوارع إلى سيول. أما في لندن، فالرذاذ ثابت إلى حد ما، لا يكاد يحتاج رفع مظلة، إنها أمطار لطيفة. لطالما راهنت وربحت بالفعل مشروبات من أناس في لندن، عن أيٍّ من المدينتين لديها أعلى معدل من الأمطار.

امرأة تحوم داخل المدخل الرئيسي. خرجت حالما بدأت أتسلق الدرج.

«دكتورة هيث؟».

أومأتُ.

امرأة خشنة تبلغ من العمر ستين عاماً تقريباً، بدا جسدها كأنه مبني من طوب الآجر. تشبه الصورة النمطية لحارس السجن، أكثر من كونها عالمة. صافحت يدي بقبضة قاسية، من دون أن تتركها، استدارت بي نوعاً ما على الدرجات ودفعتني برفق إلى الأسفل باتجاه الشارع.

«أنا كلاريسا موناتاغو مورغان». أمرٌ آخر - أمرٌ مبالغ به - بالرغم من افتقار المرأة إلى الشكل النخبوي ويفوح منها عبق خفيف لمواد كيميائية مختبرية: «أعتذر للغاية لأني لا أستطيع دعوتك» قالت كما لو كنت وصلت إلى شقتها لتناول الشاي الثمين أو شيء من هذا القبيل. «لكن هناك بروتوكولات صارمة للغاية لحماية سلسلة الأدلة وما إلى ذلك. من الصعب حقاً الحصول على إذن لزائر غير موظف، بشكل غير قانوني».

أصابتني خيبة أمل شديدة؛ كم رغبتُ في معرفة تفاصيل تقدمها في اختبار الشعر، استفسرتُ منها فأجابت:

«حسناً، يمكنني إعلامك بهذا كله». قالت «لكن دعينا نخرج من تحت هذا المطر؟ لدي استراحة شاي، تصل لحوالي خمس عشرة دقيقة». جلسنا حول طاولة خارج متجر ساندويتش، صغير ممل. لا زبائن آخرين عدانا. طلبتِ الشاي. عموماً حتى في المحلات الرخيصة في لندن، يمكنك الحصول على الشاي في كأس لائق، بعكس الكيس الموجود بجانب كوب الماء الفاتر الذي يُقدم غالباً، في الأماكن الأمريكية الراقية. مع وصول الشاي المكثف ببخاره الساخن، بدأت كلاريسا في شرح موضوع تحليل الشعر. تحدثت بسرعة مستخدمة جملاً واضحة ودقيقة للغاية. لكني لم أحبذ أسلوب حديثها كمحققة ضدي في المحكمة.

«السؤال الأول الذي نطرحه، إن كان الأمر يتعلق بمسرح الجريمة، علينا معرفة إن كانت شعرة إنسان أم حيوان؟ وهو أمر سهل التحديد. نظر أولاً إلى الطبقة الخارجية للشعرة. تتميز سمات الشعر البشري بنعومة وسلاسة إلى حد ما، لكن شعر الحيوانات مختلف - إذ يكون على شكل تويجي، أو شوكي - وفق نوعه. يمكنكِ قياس نمط الشعرة لرؤية أكثر وضوحاً. إلا أن المقاييس في حالات نادرة، تكون غير محددة، هنا نحلل النخاع - اللب المركزي للشعر. حيث تنتظم الخلايا للغاية في الحيوانات بينما تظهر غير متبلورة في الشعر البشري. كما علينا عدم تجاهل الصبغة. حيث توزع حبيبات الصبغة في شعر الحيوانات صوب النخاع، بينما تتجه في البشر نحو القشرة الخارجية. هل لديك عينة هنا؟».

سلمتها لها. وضعت نظارتها، أمسكت المغلف في الضوء الفلوري، حدقت فيه: «مؤسف» قالت. «ماذا؟».

«لا يوجد جذر. تحت التكبير يمكن للجذر أن يكشف ثروة من المعلومات. حيث الحمض النووي كامن هناك، لذلك أعتقد أنك غير

محظوظة بهذه الشعرة. الأنسجة الجذرية مترافقة مع الشعر المتساقط بشكل طبيعي، كما تعلمين... لكنني أرى أن هذا الشعر قد تم قصه؛ لم يتساقط، لم يُنتزع. سأتحقق من كل هذا عندما أعود إلى المختبر».

«هل سبق لك أن كشفتِ جريمة بفعل عينة من الشعر؟».

«أوه، في مراتٍ قليلة. أقلها تحدياً تلك التي حصلتُ فيها على شعر بشري فوق جثمان الضحية، يمكنكِ من خلاله مطابقة الحمض النووي مع المشتبه فيه. بما يؤكد وجود المشتبه به في مسرح الجريمة. أما حالاتي المفضلة الأكثر تشويقاً فكانت عن شاب خنق زوجته السابقة. انتقل إلى إسكتلندا بعد الانفصال، بينما أقامت المرأة في لندن، كان حريصاً للغاية على بناء ذريعة جيدة. حيث أثبت أنه في منزل والديه طوال اليوم.

حسناً، في الحقيقة بقي هناك لجزء من اليوم. حيث لاحظ ضابط التحقيق أن لدى الوالدين كلباً صغيراً. شعرة من ذلك الكلب تطابقت مع الشعر الموجود على ملابس الضحية. لم يكن ذلك، بالطبع، دليلاً قاطعاً لإدانته، لكنه بالتأكيد جذب انتباه ضابط التحقيق. كشفت عملية البحث في حديقة الرجل في غلاسكو عن سرير زهور مزروع حديثاً. قمنا بحفره فوجدنا الملابس التي كان يرتديها أثناء الجريمة مدفونة هناك، مغطاة بشعر كلب بكيني».

نظرت كلاريسا في ساعتها، أشارت إلى ضرورة عودتها إلى العمل. «سوف أنظر بأمرها الليلة لأجلك. اتصلي بي في المنزل حوالي الساعة التاسعة مساءً - إليك الرقم، سأخبرك بما أجده».

عدتُ مع الأنبوب مرة أخرى إلى هامبستيد، لم أكن في عجلة من أمري، تابعتُ التجول فوق المروج في نزهة لطيفة. توجهتُ بعدها إلى كوخ ساريان، قمت بتسخين قدر من الحساء، ثم صعدتُ للطابق العلوي لأنقح مقالي. فكرتُ إن كان بإمكاني الوصول إلى أوزرين في شقته.

التقط شخص ما الهاتف من الرنة الأولى. صوتُ رجل ليس بأوزرين، أجابني هامساً:

«موليم؟».

«عفواً، أنا لا أتحدث البوسنية. هل أوزرين هنا؟».

تحول الرجل بسهولة إلى اللغة الإنكليزية، لكنه أبقى صوته منخفضاً لدرجة، بالكاد تمكنت معها من فهم ما كان يقوله. «أوزرين، إنه هنا، لكنه لا يتلقى أي مكالمات الآن. من معي، من فضلك؟».

«اسمي حنا هيث. أنا زميلة أوزرين - أعني، عملت معه لبضعة أيام في الشهر الماضي، أنا» -

«الآنسة هيث». قاطعني. «هل يمكنني مساعدتك باقتراح شخص آخر في المكتبة؟ الوقت ليس مناسباً لصديقي الآن، ليفكر في عمله».

شعرت بذاك الشعور المضني، حين تكون على وشك طرح سؤال تعرف الإجابة عنه، ولا تريد سماعه.

«ماذا حدث؟ هل هو إليا؟».

اختنق صوت الطرف الآخر بتنهيدة طويلة. «نعم، آسف لذكر ذلك. تلقى صديقي مكالمة من المستشفى الليلة الفائتة، كان الصبي يعاني من ارتفاع في درجة الحرارة. أصيب بالتهاب شديد، لم يتمكنوا من السيطرة عليه، ليفارق الحياة هذا الصباح. سندفنه قريباً».

ابتلعتُ بصعوبة. لم أعرف ما علي قوله. أعرف الجملة التقليدية للمواساة في اللغة العربية: «عساها خاتمة الأحزان». لكن ليس لدي أدنى فكرة عما يقوله المسلمون البوسنيون بعضهم لبعض تعبيراً عن تعازيهم.

«هل أوزرين على ما يرام؟ أعني -».

قاطعني مرة أخرى. يبدو أن السرايفين لا يملكون وقتاً كافياً للإصغاء لمشاعر الغرباء. «أب فقد ابنه الوحيد. لا، إنه ليس - لكن إن كنت تقصدين فيما إن كان سيحضر إلى ميلجاكا فلا، لا أعتقد ذلك».

شعرت بالغم وبوجع في معدتي، أحال التهكم غير المبرر هذا مشاعر الحزن كلها إلى غضب. «ليس هناك داعٍ للتحدث بهذه النبرة، أنا أحاول فقط -».

«آنسة هيث، أقصد دكتورة هيث. قال خبير الكتاب الآخر إنك الدكتورة هيث، ينبغي علي تذكر ذلك. آسف إذ كنت فجاً. لكننا جميعاً متعبون للغاية هنا، ومشغولون جداً بترتيبات الجنازة، بينما بقي زميلك فترة طويلة».

«أي زميل؟» جاء دوري لأسأله لتكون المفاجأة.

«الإسرائيلي الدكتور يمتوف».

«كان هناك؟».

«افترضتُ أنكِ تعرفين. قال إنكما تعملان معاً على الهاجادا».

«أوه، آه، نوعاً ما». ربما ترك أميتاي رسالة في مختبري في سيدني يُعلمني بقدومه إلى سراييفو، ونسي أحدهم أن يخبرني. لكني أشكك في ذلك. وجوده في المدينة محير. لم أستطع تفسير السبب الكامن خلف زيارته إلى شقة أوزرين. لمشاركته الحزن على ابنه المتوفى، لا بد أن الأمر أبعد من المواساة. لكنني لن أحظى بأي معلومة أكثر من هذا الرجل، بدا ذلك واضحاً عندما وضع سماعة الهاتف في مهدها، حيث كنتُ في منتصف طلبي أن يخبر أوزرين بأسفي.

اتصلتُ مع شركة الطيران بمكالمة استغرقت فترة طويلة، قمتُ بعدها بعدة اتصالات خارجية. وبمجرد أن وضعتُ السماعة، رن الهاتف.

«دكتورة هيث؟ معك كلاريسا موناتاغو مورغان من وحدة الطب الشرعي في شرطة العاصمة».

«أوه مرحبا. كنت سأتصل بك عند التاسعة، أنا...» تساءلتُ كيف حصلت على رقم هاتف ماريان، كوني لم أقم بإعطائه لها. لكن أن تعمل في جهاز الشرطة، فمن السهل معرفة هذا النوع من المعلومات.

«لا بأس يا دكتورة هيث. أعتقد أن نتائج التحليل مثيرة للاهتمام إلى حد ما، فأردت مشاركتها معك. إنه شعر قطة، نحن متأكدون من ذلك. قشور الشعرة بروتينية حادة ومدببة. لكن هناك شيئاً غريباً تماماً حول عينتك».

«ما هو؟».

«يوجد فوق القشرة أثر لجزيئات لا يمكن وجودها عند الحيوانات، نوع من الأصباغ القوية للغاية بلون أصفر لامع. قد نلحظ مثل هذه الجزيئات في شعر الإنسان إن قامت المرأة على سبيل المثال، بصبغ أو تفتيح شعرها. لكنني لم أرها في عينة حيوانية من قبل. أعتقد أنك تتفقين معي أن القطط، بشكل عام، لا تصبغ شعرها».

الشعرة البيضاء

إشبيلية، 1480

عَيناكَ دَمْعُهما سَروبٌ.
كأنَّ شَأنَيهِما شَعِيبُ

• عبيد بن الأبرص

يا لهذه البلاد، لا نشعر بالشمس بين أنحائها!. حتى بعد مرور سنين طوال، لا يزال هذا الأمر الأصعب بالنسبة إلي. نهاراتُ الوطن شديدة السطوع. تسخّن الأرض الصفراء وتجفف سقف القش حتى التصدع. أما هنا فالحجر والبلاط باردان على الدوام، حاله كذلك في منتصف النهار. أما الضوء فيتسلل بيننا كعدو، عابراً طريقه الضيق بين مشابك النوافذ، أو منهاراً من الأجزاء القليلة المرتفعة لقطع الزمرد والياقوت الباهتة.

من الصعب إنجاز عملي في مثل هذا النور. يتوجب علي تحريك الصفحة باستمرار للحصول على مربع صغير من سطوع وافٍ، يعملُ التململ المتواصل على تشتيت تركيزي. وضعت الفرشاة ممدداً يديّ للأمام. انتصب الولد بجانبي من دون سابق إنذار، لدعوة فتاة المشاريب. إنها جديدة هنا في منزل نتانيل ها ليفي، أتساءل كيف أتى بها.

ربما كانت حالها كحالي، هدية مقدمة من مريض ما كتعبير عن امتنانه. إن كان الأمر كذلك، فالهدية سخية. إذ إنها خادمة ماهرة،

تبحر عبر البلاطات صامتة كوشاح من الحرير. أومأتُ، ركعت تصب سائلاً بلون الصدأ لا أعرفه. «إنه عصير الرمان» نطقت بلهجة قبلية غير مألوفة. للفتاة عينان زرقاوان كالبحر، أما بشرتها فتلمع بوميض الأراضي الجنوبية. انسدل وشاح يلف عنقها، بينما تنحني فوق الكأس، تكشفت رقبتها المصطبغة بلون بني ذهبي لحبة خوخ غضّة مكدومة. تساءلت أي ألوان يمكنني مزجها للحصول على لون يماثل هذه البشرة. كان الشراب جيداً، خلطته فتناثرت أجزاء الثمرة وحموضتها في كأس العصير اللذيذ.

«بارك الله يديكِ» قلتُ وهي تقوم.

«ليجعل الله البركات وفيرة، كمطر يهطل فوق يديك»، همهمتْ. ثم لمحتُ عينيها تتسعان بعد أن وقعتا على عملي. استدارت، مع شفتين تمتمان. لستُ متأكداً، إذ إن لهجتها لصعبة الفهم، لكنني أعتقد أن لصلاتها أهمية مختلفة تماماً. نظرتُ إلى أسفل الرق، محاولاً التحديق بعملي كما بدا لها. نظر الطبيب في وجهي، ومال برأسه، رافعاً يده يداعب لحيته، مثلما يفعل أثناء انشغاله ببعض أمور تهمه. إنه هو، لا شك في ذلك، فالشبه لا ريب فيه، حيث يمكن للمرء مشاهدته حياً يرزق.

لا عجب أن الفتاة جفلت. أستعيد بدهشتها ذهولي حين أطلعني هومان على تشابه التصاوير في لوحاته التي أغضبت رافضي الأيقونات الدينية. لكن هومان هو الذي سُيفاجأ إن تمكن من رؤيتي بما أنا عليه الآن: مسلمٌ، في خدمة يهودي. لم يفكر يوماً أنه يدربني لأحظى بمثل هذا المصير. صحيح أنني اعتدت الأمر. لكن في البداية أول مجيئي إلى هنا، شعرت بعار عبوديتي ليهودي. لكن العار الأشد الذي يقتلني الآن هو العبودية بحد ذاتها. شعور أسبغه اليهودي نفسه علي.

كنتُ في الرابعة عشرة من عمري عندما تبدّل عالمي. ولدٌ محترم لرجل مهم، لم يفكر أبداً أن يجد نفسه يُباع ويُشترى في أسواق النخاسة. في اليوم الذي ساقني به التجار إلى هومان، بدا لي أننا مررنا بجميع ورشات

التجارة المعروفة في العالم. غطوا رأسي بكيسٍ حتى لا أحاول الهرب، لكن عبر خيوط القنب تلك تمكنت من التعرف على الروائح والأصوات الصادرة عن الأماكن التي مررنا بها. أتذكر الرائحة الكريهة المنبعثة من الدباغين، والعبق النافذ المفاجئ لعشب الإسبارتو في شارع صُناع أحذية الإسبادريل، قعقعة صانعي الأسلحة، خفقات نول السجاد، والطرقات الشاردة غير المتناغمة لصُناع الأواني في محاولة لاختبار سلعهم.

وصلنا، أخيراً، إلى جناح الكتاب. انتزع الحارس الكيس المعصوب عن عيني، فرأيت أن منصة الخطاطين تحتل أعلى الأرض بمواجهة الجنوب، لتحظى بضوء فاخر. بينما تموضع الرسامون والخطاطون أسفل الجناح. عندما قادني التاجر عبر صفوف الشخصيات الجالسة، لم يرفع أحد رأسه عن عمله ليلقي نظرة علي. كان المساعدون في ورشة هومان على دراية بأوامره عن التركيز الكامل، ومدى قسوة عقابه في حال الفشل.

زوج من القطط تكورتا نائمتين على زاوية سجادة حريرية. ماج بيده، فأطلقهما بعيداً، ثم أشار لي بالركوع مكانهما. تحدث ببرود مع الحارس، ثم انحنى الرجل لقطع الحبل القذر الذي ربط معصمي. مدّ هومان يديه، حرر يدي واستدار بهما إلى الأمام، محدقاً بالأماكن التي جرحتها الحبائل بعمق. صرخ بقسوة في وجه الحارس قبل طرده. ثم التفت إلي.

«إذاً، تدعي أنك مصور». أتى صوته هامساً، كحفيفِ الفرشاة على ورق مصقول.

«تعلمتُ الرسم مذ كنت طفلاً». أجبته.

«منذ ذلك الوقت؟» ضاقت الخطوط حول عينيه بمرح.

«سأكون في الخامسة عشرة من عمري قبل نهاية شهر رمضان».

«هل هذا صحيح؟» مد يده وجال بأصابعها الطويلة على ذقني غير الملتحية. جفلت بعيداً عنه، رفع ذراعه بحدة، كما لو أنه أراد صفعي.

لكنه أرخاها إلى جانبه وصولاً إلى جيب ردائه. لم يقل شيئاً، حدق بي لفترة طويلة، حتى شعرت بتوهج في وجهي، فأخفضتُ رأسي وقلت لكسر الصمت اللعين: «أتقن رسم النباتات بشكل خاص».

سحب يده فلمحتُ حقيبة صغيرة من الحرير المطرز عالقة بين إبهامه والسبابة. قبض على حبة أرز طويلة القوام، أرز فارسي. ناولني إياها.

«قل لي، يا مصور، ماذا ترى؟».

حدقت في الحبة، بوجه مشدوه لأبله فاغرٍ فمه. رُسم عليها مباراة كرة البولو - لاعب يركض، يرتفعُ ذيل حصانه بينما ينحني نحو الأهداف المرصودة بدقة، يسند آخر مطيته كخادم يحمل له عصاه. يمكنك عدّ الضفائر في عرف الفرس كما تشعر بملمس سترة الديباج. كأن هذا كله، ليس بمذهل بما فيه الكفاية، فتراءى لي نقش دقيق:

مئات الغلال، هنا في حبة واحدة،

قلب واحد، يحتضن العالم كاملاً.

استعاد الحبة، ووضع في كفي حبة ثانية. حبة أرز كأي حبة عادية.

«نظراً لأنك متمرسٌ في النباتات بشكل خاص، يجب أن تقدم لي حديقة هنا. أريدها مكتظة بأوراق الشجر والزهور التي تعتقد أنها تكشف أفضل قدراتك. لديك يومان. خذ مكانك هناك، بين الآخرين».

التفت ملتقطاً فرشاته. كان عليه إلقاء نظرة على المكان، ليقفز صبي، مع القرمزي المتوهج كالنار، لاعقاً جانبي الوعاء الذي يحتضنه بحرص بين يديه.

ليست بمنزلة مفاجأة كبيرة إن نوّهت أنني فشلت في اختباره. لقد أمضيت أيامي، قبل وقوعي في الأسر، برسم صور النباتات التي عرفها والدي نظراً لفضائلها الطبية. وبالتالي، فإن المعالجين الذين انفصلوا عنه بأميال عديدة، وبلغات غريبة، سيعرفون بالضبط أيّ نبات يقصد،

بغض النظر عن الاسم الذي يستخدمونه لتسميته. لطالما فكرت بأنه عمل دقيق، وانتابني الاعتزاز بثقة والدي بقدرتي على القيام به. والدي، إبراهيم الطارق، كان رجلاً مسناً حينما ولدت.

نشأتُ في منزل مزدحم بذرية عديدة، لدرجة لم أتوقع معها أن أفوز منه بأي اهتمام. أما محمد، الأخ الأكبر لأخوتي الستة، فقد بلغ من العمر حداً ليكون أكثر من والدي؛ لكن في الواقع، ولده الذي يفوقني بعامين أثبت لي، لفترة طويلة، أنه المعذب الرئيسي لطفولتي. كان أبي رجلاً طويل القامة رغم انحناءته الطفيفة؛ وسيمٌ وإن غار لحم وجهه بين التجاعيد. كان يأتي، بعد صلاة العشاء، إلى فناء الدار ويجلس على الحصيرة الممدودة أسفل شجرة الأثل، مصغياً لثرثرة نسائه عن يومهن، معجباً بنسيجهن، مستفسراً بأسئلة لطيفة عنا - نحن الأصغر سناً - عما نقوم به طيلة النهار.

كان يجالس أمي لفترة أطول منهن جميعاً، لطالما سرني رغم فهمي المتواضع لمكانتها الخاصة لديه. يهدأ صوتنا كلما جاء. لا تتوقف ألعابنا لكنها تنخفض بشدتها. قد نجد أنفسنا، في مراتٍ عديدة، نلعب بالقرب من المكان الذي يتواجد فيه، متجاهلين تقطيب وجوه أمهاتنا، وإيماءات أياديهن بالرحيل بعيداً. ليمد ذراعه الطويلة، أخيراً، فيُقعد أحدنا بها. ليحظى الطفل ذو الحظ السعيد بجلسة في جواره وحوار لطيف. في أوقات أخرى، إذا لعبنا الغميضة، كان يسمح لطفل منا أو لآخر باستخدام الطيات الطويلة لردائه كمكان للاختباء، ويضحك طويلاً من صرخاتنا عندما ينكشف أمرنا.

في غرفته - الصومعة البسيطة التي ينام فيها، مكتبة مكتظة بالكتب والمخطوطات، غرفة للعمل مزدحمة بالجرار والأكواب البالغة الهشاشة، الغرفة المحظورعلينا دخولها. لم أكن لأتجرأ على القيام بذلك، لو لم تفلت السحلية، التي أصبحت رفيقتي السرية، من جيبي بعد ظهر أحد الأيام وانطلقت بسرعة على طول الأرضية وتسللت إلى غرفته، لتجعلني في حالة مطاردة هناك.

توفيت أمي قبل سنة من بلوغي السابعة من عمري. حاولت النساء الأخريات أن يعاملنني بطيبة، خاصة زوجة محمد، الأقرب لعمر أمي من زوجات أبي. لكن بالرغم من رعايتهن، فإن التوق إليها التهم فؤادي. لعل السحلية الصغيرة كانت إحدى الطرق، التي حاولت من خلالها ملء الأخاديد المحفورة فيه.

كنت خارج الغرفة، عندما أمسكت بها أخيراً. مسّدت بأصبع جلدها المصقول. خفق قلبها الصغير بقوة. أخفضتُ يدي، سكبتْ بلحظة ما يشبه السائل فوق أصابعي، قلصت نفسها وتملصت، لتنسلّ تحت باب المكتبة. كان والدي في الخارج، أو هكذا ظننت، لذلك ترددت للحظة قبل أن أدفع الباب وأدخل.

أبي رجلٌ منظمٌ بشكل عام، لكنها سمة لم تشمل مكتبه. حين عملت معه، فيما بعد، تعرفت جيداً على سبب الفوضى التي استقبلتني في مكتبته بعد ظهر ذاك اليوم.

اتكأتْ لفائفه على أحد جدران الغرفة، ممتدة من الأرض حتى السقف، بحيث تموضعت النهايات الدائرية بشكل أفقي مسطح، لتماثل خلايا قرص العسل. لا بد أن هناك تنظيماً معقوداً في رأسه، إذ كان ينتقل بإصبعه من دون تردد، ليتناول ما يريد، يفتحه على طاولة عمله، ثم يميل إلى أسفل مع ذراعين تحيطان بها. يمكث كذلك، لعدة دقائق أو لحظات، ثم يستقيم فجأة لتُغلق اللفافة من فورها. يدفعها جانباً ثم ينتقل إلى الجدار الآخر، حيث يحتفظ ببعض العلامات، أو نحو ذلك من المجلدات المحزمة. عند اختياره لواحدة، يلقي نظرة على صفحاتها، ينخر، يسرع بعض الشيء، يدفعها بدورها جانباً، متلمساً طريقه إلى أدوات الكتابة، ينوء ببعض الأسطر على رق بجواره، يرمي الفرشاة، ثم يكرر سلسلة ما فعل من جديد. بحلول نهاية العمل، سيكون هناك العديد من المواد على الأرض، كما هو حالها فوق الطاولة.

اختارت سحليتي مكاناً ممتازاً لمراوغتي، حيث إنني زحفت أسفل

الطاولة أباعد الأوراق جانباً، دافعاً قطع الرق المتساقطة. كنتُ لا أزال ساجداً حين ظهر الصندل محيطاً بقدمي والدي. توقفت عن مطاردة سحليتي، حاولت البقاء ساكناً قدر استطاعتي، آملاً أنه جاء باحثاً عن لفافة واحدة يغادر بعدها، مانحاً الفرصة لي بالتسلل من دون كشف أمري.

لكنه لم يغادر. غصنٌ من بعض النباتات الخضراء اللامعة يحمله في يده. وضعه جانباً وشرع في أداء الطقوس المضطربة التي وصفتها. مرت نصف ساعة، ثم ساعة. تصلبتُ، بينما ثقلت قدماي، اللتان استقر عليهما ثقل جسدي وتخدرتا تحتي. مع ذلك لم أجرؤ على الحراك. بدأت صفحات كتابات والدي تتدافع جانباً، تهاوى الغصن عن الطاولة. هوى أحد أقلامه قربي. جرفني الملل بما يكفي فتجرأت واستطعت الوصول إلى القلم. تفحصتُ ورقة من الغصن. أحببتُ الشكل الذي تشابكت به الأضلاع، وفق نمط بدا منتظماً ومتقناً كما الفسيفساء المصطفة على جدران الغرفة الخاصة بوالدي وأخويّ الأكبر والمخصصة لاستقبال ضيوفهم. في زاوية من صفحة أبي المهملة، بدأتُ في رسم تلك الورقة. أضحت الفرشاة أعجوبة بين أصابعي - عدد قليل من الشعر الناعم المنتصب داخل عمود خشبي. مع ذلك، إن ثبّت يدي وركزت فكري، يمكنني أن أدرك بالضبط حساسية الشيء الذي أرسمه. عندما جف الحبر عن الريشة، قمت بتجديده من البقع الهاطلة بحرية على الأرض، جراء خربشات والدي النافدة الصبر.

لعلّ عينيه التقطت حركتي. فمد يده الكبيرة وأمسك بيدي. ارتجف قلبي حين رفعني وأوقفني أمامه. لم أرفع عيني عن الأرض، كنت أخشى أن ألمح غضباً في وجهه الحبيب. نطق اسمي بهدوء بلا ضغينة.

«ألا تعلم بأنه لا يُسمح لك بالتواجد هنا».

أخبرته بصوت مرتعش عن سحليتي متوسلاً أن يغفر لي: «أخشى أن إحدى القطط قد أكلتها». تخففت قبضته أثناء حديثي. وضع يدي بين كفيّه الواسعتين، وربت عليها بلطف. «حسناً، السحلية لها مصيرها، لنا

مصائرنا كذلك» ثم أردف متسائلاً: «لكن ما هذه؟» رفع يدي الأخرى بعد ذلك، حيث ما زلت أمسك قطعة الرق الموشومة عليها رسومي. تفحصها للحظة ولم يقل شيئاً. ثم أخرجني من الغرفة.

في الفناء ذلك المساء، تراجعتُ إلى الوراء من دون التماس ملاحظته لي، على أمل أن ينسى ما حدث. في وقت لاحق، حين غدوت نحو الحصيرة مع الآخرين من دون عقاب، هنأتُ نفسي بنجاح الخطة. في اليوم التالي، بعد أن تولى إمامة الأسرة في صلاة الفجر، ناداني والدي للوقوف بين يديه. أصابني مغص في بطني، لا بد أن وقت العقاب قد آن! لكن بدلاً من ذلك، أحضر قلماً دقيقاً، بعض الحبر، ومخطوطاً قديماً مخربشاً ببعض ملاحظاته. «أريدك أن تتمرن»، قال. «إن طورت مهارتك بالرسم، يمكنك أن تساعدني كثيراً».

بذلت قصارى جهدي لإنجاز الرسومات. كنتُ كل صباح، أضعُ جانباً اللوح الخشبي الذي تعلمت فيه خَطّ آيات القرآن الكريم - التي أصر والدي على جميع أبنائه حضور هذه الدروس اليومية - لا أشارك كذلك اللعب معهم أو القيام بالأعمال المنزلية، أُخرج الرق، أرسم وأرسم حتى تتخدر يدي. تلذذتُ بملاحظة أبي وتمنيت أن أصير ذا فائدة. حين بلغتُ الثانية عشرة من عمري، طورت بعض المهارات. لأقضي كل يوم تقريباً بعدها، جزءاً من وقتي بصحبته، أساعده في إعداد الكتب التي تعمل على معالجة صحة الغرباء عبر مجموعة من الدول.

في وقت متأخر من بعد ظهر اليوم الأول في مرسم هومان، شعرت كما لو أن السنوات الحلوة تلك وما تعلمته فيها قد هجرتني بالكامل. مع تلاشي ضوء النهار بدأت يدي ترتعش مجهدة بفعل النقش غير المجدي. استلقيت برهة، بحيث لم يتمكن أحد المراقبين من ملاحظتي، فوق حصيرة في زاوية الورشة، مع شعور بالخوف والعجز. لطخت الدموع عيني المتعبتين، شهقة تسللت مني صوب الرجل الجالس على الحصيرة بجواري، فهمس بفظاظة: «لا تهتم، بل كن سعيداً لأنك لم تُرسل إلى

ورشة التجليد». «هناك، يجب أن يتعلم المتدربون كيفية غزل حبل من الذهب الدقيق، بحيث يمر عبر ثقب في بذرة خشخاش».

«لكن هومان لن يحتفظ بي هنا، إن لم أتمكن من القيام بهذا العمل، مع ذلك لا تنفك هذه المهارة الوحيدة في جعبتي». في الرحلة التي قمت بها وصولاً لهذا المكان، بعد إلقاء القبض علي، قابلتُ شباناً أجانب في نفس عمري، يتشبثون مذعورين بحبائل الصواري لسفينة في بحر هائج، غيرهم يكسرون الصخور في الوهج الأبيض الحارق في المقالع، أو يعودون محدودبي الظهر قذرين، من أفواه المناجم المظلمة.

«لستَ الفاشل الأول، صدقني. سيجد لك بعض المهام».

كذلك فعل. بالكاد ألقى نظرة على حبة الأرز قبل إلقائها جانباً. ثم أرسلني للعمل مع «مهيئي وجه الرق»- مع الرسامين والخطاطين الذين ضعُفَت أبصارهم أو فَقدت أياديهم ثباتها. وهكذا جالستُ الرجال الخائري القوى طوال اليوم، فركتُ كل رقّ بالأصداف لمئة مرة وأكثر. حتى غدت الصفحات ملساء ناعمة. بعد بضعة أيام من هذا العمل، تغضنت أصابعي وتقشر جلدها متمزقاً. شيئاً فشيئاً فقدت القدرة على حمل فرشاة الرسم. حدث ما حدث حينما أفسحت المجال لليأس أن ينال مني، الإحباط الذي أحجمت عنه منذ وقوعي في الأسر.

لطالما منعتُ نفسي عن التفكير بالوطن، أو كيف غادرناه، أو بالاحتفال حين أطلقت زوجات أبي الزغاريد بفرح مع مغادرة قافلة الحجيج المترافقة مع صوت الطبول والصنج. لم أسمح لنفسي بالتفكير بوالدي في آخر مرة لمحته بها. لكن صورته لا تغادر خيالي، شعره الفضي الملطخ بالدم والمناديل الرمادية الشاحبة. لا تُمحى من ناظري الفقاعات القرمزية المنهالة من شفتيه محاولاً التفوه بآياتِ صلاته الأخيرة. بدأت عيناه، يا لعينيه اليائستين، تبحثان عن وجهي عندما حملني البربر، بذراعين حول حلقي، واسعتين كغصني شجرة عملاقة. جاهدتُ، بطريقة ما، للفرار من هذه القبضة لفترة طويلة، بما يكفي لأصيح بكلمات

والدي، الكلمات التي لم تعد أنفاسه قادرة على همسها: «لا إله إلا الله، لا حول ولا قوة إلا بالله!» شعرتُ بضربة فسقطت على ركبتي، ما زلت أصرخ منادياً له: «حسبي الله ونعم الوكيل!» ضربة أشدُّ قوة أفقدتني الوعي. عندما صحوت، تذوق فمي طعم الحديد. تم القائي منكباً على وجهي بين بضائعنا المنهوبة، في عربة متجهة نحو الشمال. رفعتُ رأسي المتصدع، بوجع لأحدق عبر المسافات حيث كنا. استلقى والدي بعيداً، حزمة من الخرق تحركها الرياح الصحراوية الحارة: خرقٌ نيلية اللون، على رأسها ريش أسود لامع لنسرٍ متأهب.

أمضيتُ ثلاثة أشهر مع مهيئي وجه الرق. أنا قادرٌ الآن، على النظر إلى الوراء، للزمن الذي مضى بلا حضورٍ وافٍ للخوف - ها أنا أقضي حياتي بأكملها في ضجر الطرق والفرك والذكريات المريرة - أستطيع تقبل تعلمي للكثير هناك، خاصة من فارس. فارس، مثلي، وُلِد خلف البحر في إفريقيا. لكنه بخلافي أبحرَ إلى هنا طوعاً، لممارسة فنه في الولاية الرديفة، التي كانت كل ما تبقى من بلاد الأندلس العظيمة. لم يتباه، بعكس الآخرين الذين فعلوا على الدوام، بالمهارة العظيمة التي امتلكها ذات يوم. كما أنه لم ينخرط في التذمر المستمر والخصومات الدائمة، غير المنقطعة كأزيز الذباب الأزرق.

كانت عينا فارس غائمة كسماء شتوية. أصاب بصره مرض حين كان صغيراً جداً.

سألته، بعد أن تعرفت إليه عن قرب، عن سبب عدم زيارته لأحد أكبر الأطباء في المدينة. كنت أعلم أن عملية تُجرى فتعيد في بعض الأحيان الرؤية للعيون المشوشة البصر. لم أشهدها بنفسي. لكن والدي عالج المشكلة بالنباتات بدلاً من استخدام المجسات، مع هذا فقد أظهر لي مرة، سلسلة رائعة من الرسومات حول كيفية القيام بمثل هذه العملية من قبل شخص ماهر: بدءاً من تشريح دقيق لمقلة العين، وانتهاءً بدفع الجزء الغائم خلف الحدقة نحو الفراغ الخلفي.

«لدي هذا القطع». قال فارس، «لقد أجريته لمرتين من قبل جراح الأمير. لكن كما ترى، لم يكن العمل الجراحي ناجحاً».

«وضعه الله في الضباب وأبقاه هناك تكفيراً عن اللوحات التي رسمها». جاء صوت حكيم، الخطاط المسن، الذي لا ينفك يتباهى أنه قام بنسخ عشرين نسخة من القرآن خلال مسيرته، وأن الكلمات المقدسة باتت محفورة في قلبه. إن كان الأمر كذلك حقاً، لماذا إذاً لم تسكب الرحمة في وجدانه. فالكلمات اللطيفة الوحيدة التي صدح بها فمه المزموم هي صلواته. أما بقية خطابه فتيارٌ لا هوادة فيه من القسوة. قام عن الحصيرة، حيث كان يغفو، متجاهلاً نصيبه من العناء. مستنداً إلى عصاه، وصل حيث جلسنا نعمل. رفع ما بيده ولكز فارس بقوة. «أردتَ أن تخلق ما يخلق الله، وقد عاقبك الله على ذلك».

لمستُ ذراع فارس بلطف على ذراعه مستفسراً، لكنه هز رأسه بالنفي. «جهل وخرافات»، تمتم. «الاحتفال بخلق الله، ليس تنافساً مع الخالق». رفع الرجل العجوز صوته قائلاً: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة، الذين يضاهئون بخلق الله». «هل أنت متغطرس إلى درجة تشكك فيها بكلام النبي؟».

« صلى الله عليه وسلم، لا يمكنني أن أشك في كلامه». تنهد فارس. من الواضح أنه تعرض لمثل هذا الجدل لمرات عديدة. «لكني أشك في أولئك الذين يزعمون أن هذا القول حقيقي. القرآن، السليم من التحريف، خارج كل الشكوك، لم يذكر مثل هذه الأمور».

«لم يغفل عن ذكرها!» بدأ الرجل العجوز بالصياح، مال برأسه بغضب، حتى أصابت لحيته المصفرة رأس فارس المنحني. ألا يستخدم القرآن كلمة صوّر لوصف خلق الله الإنسان من نطفة؟ لذلك، فالله مصور. أما أن تطلق على نفسك مصوراً فأنت تغتصب عرشَ من كوّننا جميعاً!».

«كفى!» رفع فارس صوته. «لماذا لا تخبر الصبي الحقيقة الكامنة

خلف وجودك هنا؟ لا رعشة في يده، أما بصره فحاد كنظرة صقر. لقد تم طرده لتشويهه فن الرسامين».

«رُفض لأنه قام بعمل الله!» صرخ الرجل العجوز: «لقد ضربتُ أعناقهم! قطعتُ رؤوسهم جميعاً! قتلتهم لأنقذ روح الأمير!» قال ساخراً، كما لو أنه يلقي نكتة لاذعة.

كنتُ في حيرة من أمري. نظرت إلى فارس، كانت قامته ترتعش بكلها، أما العرق فتصبب من جبينه غزيراً. هوت حبة منه فوق الورقة المصقولة أمامه، بما أفسد مجهود الصباح المضني. وضعت يدي على ذراعه، رفعها عنه. قذف بصدفته بعيداً، ارتفع على قدميه، ثم دفع الرجل العجوز بقسوة بعيداً عن طريقه.

أرسل هومان في طلبي بعد يومين. خطوتُ عبر المرسم، لاحظت الأشياء التي اكتنفني الذعر من غموضها في المرة الأولى: بدءاً من القطع اللامعة من اللازورد، تنتظر أن تصير صبغة أرضية زرقاء، توهج الضوء على رقائق الفضة، وانتهاء بالرجل العجوز في كوة مظللة، المحمية من أدنى نسيم، ملتقطاً بقع اللون المتلألئة من أجنحة الفراشات المكدسة أمامه. أشار هومان إلي بالركوع حيث ركعتُ من قبل، في زاويةٍ من سجادته. قطة تسترخي بدلالٍ بين ذراعيه. رفعها إلى ذقنه، دفن وجهه في الفرو الكثيف للحظة، ثم، بشكل مفاجئ، رماها نحوي.

«خذها!» قال: «أنت بالتأكيد لا تخشى القطط، هل تفعل؟» هززت رأسي ووصلت إليها. غرقت يدي- القاسية الخشنة بفعل العمل - في نعومتها الفائقة. بدت قطة ضخمة، إلا أن جسدها في الحقيقة صغير محاط بسحابة من الفراء. ماءت لمرة، مثل رضيع، ثم تكورت فوق ركبتي. استل هومان سكيناً حادة، قابضاً عليها باتجاهي. جفلتُ. لا يريدني الرجل أن أقتل قطته بالتأكيد؟ ارتسم الفزع فوق وجهي. تقلصت، للحظة، الخطوط حول عينيه.

«من أين تعتقد أننا نحصل على شعر ناعم لفُرَشِنا؟» سألني. «القطط

لطيفة بما يكفي لتزويدنا بها». رفع القطة الأخرى إلى حضنه، مسد تحت ذقنها حتى انبسطت رافعة عنقها. لم ينشل أكثر من خمس أو ست من شعرات الرقبة الطويلة ثم انزلق بالسكين فوقها.

حين نظر إليّ مرة أخرى، تمددت القطة في حضني، سحبت كمّي فخدش المخلب الأبيض على طول ساعدي.

«جلدك»، قال هومان بهدوء. محدقاً في وجهي. حاولت سحب كمّ ثوبي حتى معصمي، لكنه وضع يده ليمنعني. واصل التحديق من دون ملاحظتي. أعرف هذه النظرة. إنها الطريقة التي كان والدي يدرس بها الورم، متناسياً خلال الفحص أن ثمة شخصاً يقف بين يديه. عندما تكلم هومان من جديد، لم يكن الحديث موجهاً إلي، إنه حديث ذاتي «... لون الدخان الأزرق... لا... إنه مثل البرقوق الناضج، مع شحوب ينسكب منه». تململتُ بغضب متذمراً من النظرة المتفحصة تلك. «ابق هادئاً!» أمرني «يجب أن أبتكر هذا اللون».

وهكذا مكثتُ هناك حتى تلاشى الضوء. ثم طردني على نحو مفاجئ حين أدركه الظلام. ذهبتُ إلى فراش شاغر في زاوية من المرسم، من دون أن أعرف سبب استدعائي.

في اليوم التالي، سلمني هومان الفُرَش الجديدة التي أمر بصنعها، شعر القطة المثبت في مقبض الريشة. فُرَش من أحجام مختلفة. عدد قليل منها يحتوي على شعرة واحدة، لصنع أدق الخطوط. سلمني قطعة من الرق أيضاً. «أعطني صورة»، قال. «يمكنك اختيار أي شخص في المرسم ليكون موضوعاً».

اخترتُ الولد المساعد لطارقي الذهب، معتقداً أن وجهه الأملس اللطيف يشكل مع عينيه اللوزيتين الوجه المثالي للشاب المُصوّر في العديد من الكتب الفضلى. بالكاد ألقى هومان نظرة على الصورة، ثم وضع الرق جانباً. وقف فجأة، ثم أشار إلي للحاق به.

يقع الجناح الخاص بهومان على بعد مسافة قصيرة من المرسم،

أسفل دهليز مرتفع. دخلنا غرفة كبيرة، في داخلها ديوان مفروش بالديباج ومكدس بالوسائد. وقفت، في الزاوية مجموعة من الخزائن الصغيرة، وصناديق لحفظ الكتب. ركع هومان أمام أجملها وفتح غطاء منحوتاً. رفع منه كتاباً صغيراً بتوقير جليل، ثم وضعه على منصة القراءة وقال: «هذا عمل لسيدي، لؤلؤة العالم، مولانا، بفرشاة مرهفة». فتح الكتاب.

أومضت منمنمة في الحال. لم أشاهد لوحة بمثل بهائها من قبل. خلق الرسام عالماً من الحياة والحركة ضمن حدود صفحة صغيرة. فشلتُ في قراءة النص باللغة الفارسية، لكن الزخرفة كانت بليغة بما فيه الكفاية. يصور المشهد حفل زفاف ملكي. المئات من الشخصيات هناك، مع ذلك لم تكن اثنتان منها متماثلتين: كل عمامة من نسيج معين، معقودة بشكل مختلف. كل رداء بتصميم متمايز، مطرز أو مزخرف بمئات الأنواع من الأرابيسك. حين تحدق في اللوحة، يمكنك سماع حفيف الحرير والهمهسة الدمشقية، بينما يحوم الحشد حول العريس الملكي. لطالما اعتدت رؤية الأشخاص في لوحات تصور وجهاً لوجه أو بمظهر جانبي، لكن هذا الرسام لم يقيد نفسه. فالرؤوس التي رسمها استدارت في كل جانب - بالتفاتة لنحو ثلاثة أرباع الوجه - بعضها مال نحو أسفل، بينما رفعت رؤوس أخرى الذقن. قام الرسام بقلب رأس رجل بالكامل، بحيث يصير كل ما نلمحه منه، الجزء الخلفي من الأذن. إلا أن الأمر الأكثر لفتاً للنظر، هو أن كل وجه رُسم فريداً كما في الحياة. تعابير متباينة في العيون حتى أني شعرت بقدرة فائقة على قراءة أفكار هؤلاء الرجال. كان أحدهم مبتهجاً، فخوراً بوجوده في الوليمة. تكلّف آخر بالابتسام، لعله ازدراء من التباهي المفرط. ثالث يحدق بأميره بفزع. كشر رابع قليلاً، كما لو أن وشاحه ضاق على عنقه.

«هل تدرك الآن كيف يكون الرسام أيقونة؟» نطق هومان أخيراً.

أومأتُ، غير قادر على انتزاع عيني عن المنمنمة. «أشعر... هذا هو،

على ما يبدو...» اضطربت أنفاسي بينما أحاول جمع أفكاري. «إن ما يرسمه له أبعاد، كما في الواقع. يبدو هؤلاء الرجال، أن بإمكان أي منهم الخروج من الصفحة ومتابعة الحياة».

التقط هومان أنفاسه بحدة وقال: «بالضبط»، «والآن سأوضح لك سبب امتلاكي لهذا الكتاب، ولماذا لم يعد من ممتلكات الأمير، التي صنعت لأجله».

هبط بإصبعه إلى أسفل ثم قلب الصفحة. ظهرت المنمنمة التالية مبهرة بالقدر ذاته، مصورة الموكب الذي أحضر العريس إلى بيت العروس. لكن هذه المرة تحولت شهقات إعجابي إلى حالة من الفزع. كان الفارق بين الصفحة السابقة والأخيرة، أن كل واحد من المحتفلين مطوق بخط أحمر قاس مائل فوق رقبته.

«أولئك الذين فعلوا هذا يطلقون على أنفسهم محطمي الأيقونات[140] - الثائرين على الأوثان - وهم يعتقدون أنهم يقومون بعمل الله». أغلق الكتاب، غير قادر على متابعة النظر إلى جريمة انتهاكه. «يضعون الخط الأحمر كرمز إلى قطع الرقاب، كما ترى. هكذا، وفق قناعتهم، قاموا بسرقة الحياة من الصور فلم تعد تنافس خلق الله الحي. قبل خمس سنوات، قامت فرقة من هؤلاء المتعصبين بنهب الجناح الخاص بالكتاب، مدمرين العديد من الأعمال البارزة. لهذا السبب لا ترى أي صور يتم رسمها هنا. لكن جاءني طلبٌ لن أتمكن من رفضه. أريدك أن تجرب يدك مرة أخرى لأجله» أخفض صوته قليلاً. «أسعى إلى تشابه. هل تفهم؟».

شددتُ العزم على عدم الإخفاق في الاختبار الثاني، قمت بمسح الوجوه في المرسم. وقع اختياري، في النهاية، على الرجل العجوز

140- تحطيم الأيقونات: Iconoclasm هو التدمير المتعمد للأيقونات الدينية وغيرها من الرموز أو الآثار، لدوافع دينية أو سياسية. وهو يمثل عنصراً رئيسياً متكرراً للتغيرات السياسية أو الدينية البارزة.

المشتغل بأجنحة الفراشات. حدة ملقاة فوق تعابيره، أظن أنه بإمكاني التقاطها جيداً. أما رباطة جأشه، واقتصاد حركاته، فسيكونان عوناً لي.

استغرق الأمر ثلاثة أيام. حدقت في الرجل العجوز، في محاولة لرؤيته كما تعلمت عبر رؤية نبات غير مألوف، حيث كنتُ أفرغ عقلي ليس من جميع النباتات التي رسمتها من قبل فحسب، بل من الافتراضات لدي عن ماهية النبات بحد ذاته - هذا بساق، ذاك تساقطت أوراقه. آخر لا تزال أوراقه معلقة بتلك الزاوية خضراء. بهذه الطريقة، نظرت إلى وجه رجل الفراشة. حاولت رؤيته كنمط من الضوء والظلام، من الفراغ والكتلة. صنعتُ شبكة ذهنية فوق الصفحة، قسمت وجهه، كما لو أن كل مربع في الشبكة، كيان منفصل، يحتوي على معلوماته الفريدة.

كان علي أن أطلب صفحات عديدة أخرى، قبل أن أعثر على درب يوصلني إلى صورة تبدو حية. ارتعشت يداي وأنا أمرر عملي إلى هومان. لم يقل شيئاً، ولم تتغير ملامح وجهه، لكنه لم يلق بالعمل جانباً. عندما نظر إليّ، قام بتفحص وجهي، ثم جال بيده على ذقني، كما فعل في لقائنا الأول.

«فرصة غير متوقعة تقدم نفسها لك، أعتقد أنك الأنسب لهذه المهمة. يرغب الأمير في تعيين مصور للحريم. بما أنه يتوجب خصي هذا الشخص، فمن الأفضل أن يكون شاباً لم يصل إلى مرحلة الرجولة بعد، مثلك تماماً».

شعرت بالدم ينفذ من وجهي. كنت متوتراً للغاية، وأنا أتلقى ضربة أو اثنتين قبل عودتي إلى الجناح. صوتٌ كموجات متكسرة ضربت رأسي، إنه صوتُ هومان يأتي عميقاً: «... حياة بأقصى درجات السهولة، من يدري ما هو النفع الفعلي... ثمن بخس، على المدى الطويل... المستقبل مجهول... العديد هنا، الذين يرسمون على الأقل مثلك، سيفعلون...».

يجب أن أحاول الوقوف على قدمي. قبل سقوطي مباشرة، رأيت

ذراعي تجتاحان طاولة هومان، تقلب الأوعية، لتنسكب موجات اللازورد الأزرق فوق الأرض.

عندما استيقظت، وجدت نفسي فوق الديوان المقوس في الجناح الخاص. وقف هومان فوقي، مع خطوط عينيه المجعدة كرقّ متغضن. «يبدو أننا لن نضطر إلى إزعاج المختص بالخصي بعد الآن». ثم أردف «يالحسن الحظ، كم نحن محظوظون حين تمكنت من خداعنا لهذه الدرجة».

كان فمي جافاً. حاولت التحدث فلم يسعفني بخروج أي كلمة منه. أعطاني هومان كأساً من النبيذ. تجرعته كله.

«على رسلكِ أيتها الطفلة. من المؤكد أن الفتيات المسلمات في إفريقيا، لا يتجرعن النبيذ بتعطش شديد. أم أنكِ تخدعيننا، بما يخص ديانتكِ أيضاً؟».

«لا إله إلا الله، محمد رسوله»، همستُ. «لم أتذوق النبيذ حتى هذا اليوم. أشربه الآن لأنني قرأت أنه يمنح الشجاعة».

«لا أعتقد أنكِ تفتقرين إلى هذا الشيء. لا بد أن الأمر تطلب شجاعة كافية، لأن تعيشي هذه الكذبة بيننا كما فعلتِ. أخبريني كيف وصلتِ إلى هنا، في جلبابِ صبي؟».

كان هومان يعرف جيداً أنه قد تم بيعي لخدمته من قِبل بانو مارين، الذي خطفني من قافلة الحج. «إنها رغبة أبي أن أتنكر بعد مغادرتنا لمدينتنا». تابعت: «كان يعتقد أني سأكون أكثر راحة في عبور الصحراء، إن تمكنتُ من الركوب بجانبه، بدلاً من البقاء محجوزة طوال اليوم في هودج لا تهوية فيه. كان يظن أنني سأكون أكثر أماناً تحت ستار الصبي، وقد أثبتت الأحداث أنه على صواب في تفكيره ذاك...»، عمل النبيذ في معدة خاوية بالتآمر مع الذكريات المتهاوية، على القبض علي عبر دوار هائل. وضع هومان يداً على كتفي ودفعني بلطف فوق وسائد ديوانه. حدق في وجهي وهز رأسه. «لطالما اعتقدت أنني أكثر الرجال يقظة

وفطنة. الآن بعد أن عرفت حقيقة، كان من المستحيل اقتناصها. فلا بد أنني، بالفعل، قد تقدمت بالعمر».

مد يده وتلمس وجهي من جديد، لكن برقة كما النسمة هذه المرة، غار في الديوان بجانبي. ثم أرخى ملابسي على الفور، لتعثر يده بسهولة على ثديي.

بعد ذلك الوقت بزمن طويل، بعد أن تمكنت من التفكير بجلاء فيما حدث، بدأتُ بمواساة نفسي، إذ كنت من المحتمل أن أتعرض لأعنف أنواع الاغتصاب. خشيتُ ذلك، في الواقع، منذ اللحظة التي ظهر فيها الغزاة البربر على قمة الكثبان الرملية. لكن يدي هومان الرقيقتين الشهيرتين، لم تتركا أي علامة علي. حين قاومته وصفعته في محاولة التحرر منه، أخضعني بقبضة ماهرة، حاصرتني من دون أذى. حتى عندما اخترق عذريتي، لم يقم بذلك بعنف. لكن وقع الصدمة مما حدث، كان أشد عليّ من الألم.

أعتقد أن معاناتي، في الواقع، لا تزال أقل بكثير مما تقاسيه العديد من العرائس على فراش زفافهن. مع ذلك، حين سمح لي بالارتفاع أخيراً، وشعرت برطوبة دافئة تنسكب بين فخذيّ، طويتُ ساقيّ تحتي وركعت فوق ديوانه وتقيأت النبيذ على سجادته الفاخرة، حتى آخر قطرة في معدتي. تنهد بعمق، جمع أثوابه وخرج.

وحدي مكثتُ في جناح هومان، انتحبتُ لفترة طويلة، أُحصي قائمة خسائري، من وفاة والدتي إلى مقتل والدي وصولاً إلى استرقاقي. أما الآن، فأجد نفسي في مكان جديد أكثر ظلمة. حيث تم انتهاك جسدي تماماً. ألاّ يعرف والدي الميت، شيئاً عن العار الذي لحق به، فكرة مواسية إلى حد ما. إلا أنني سرعان ما أدركت أنه لا بد من أنه قد توفي مع توقعٍ للمصيبة. راودني الغثيان من جديد، لكن لم يتبق شيء لأتقيأه.

الخصي الذي أرسله هومان إلي، كان صغيراً جداً. ذكرني مظهره أن هناك آخرين عانوا خسائر أسوأ مني بكثير. بدأ جيشان الشفقة على نفسي

يهدأ. إنه ولد فارسيٌّ لا يتحدث اللغة العربية. أتوقع أن هومان قد أقام للأمر اعتباراً باختياره لمن يرسله. قام بإزالة السجادة الملوثة بحرص عالٍ، ثم عاد مع إبريق فضي وحوض من ماء الورد الدافئ. أشار أنه سيساعدني على الاستحمام، لكني صرفته. كان التفكير في لمسة من أي شخص آخر، مثار اشمئزاز لي. أحضر ثوباً لأرتديه، ثم أخذ ثيابي القديمة، بأصابع تمسكها بعيداً على طول ذراعه، كما لو أن رائحتها نتنة كريهة. أعتقد في الواقع أنها كذلك.

لم يغفُ لي جفن طوال تلك الليلة. حين أسدلت السماء وشاح فجرها، أدركت بارتياح أن هومان لن يعود، فتهاويت في غفوة مرهقة مثقلة بالكوابيس، عاد بي الزمن إلى حصيرة القش من جديد، أصغيت لنداء والدتي يلوح في الأفق. ركضتُ بمرح، تلمست طرف ردائها، حاولتُ جذب انتباهها، التفاتة وجهها الدافئ الصبور المبتسم، ملامحُ جثة مشوهة حدقت بي!

انتشلني الولد من الذعر، حين أيقظني مُحَّملاً بمجموعة جديدة من الملابس. لم أكن على دراية بما يتوجب توقعه. هل عليّ الاستعداد للتوجه إلى جناح الحريم كجارية في حُلة ذل جديدة؟ لكن الملابس التي أحضرها، بدت ملابس خاصة بالنبيلات: ثوب بسيط من الحرير الوردي الفاتح، الملائم جداً للون بشرتي، مع أطوال من الشيفون التونسي بلون وردي داكنٍ تنسدل فوقه، أما النسيج الناعم فاضطرني لمضاعفته أثناء لفه كحجاب يغطي شعري. في النهاية ارتديتُ حايكاً[141] أسود مزرقاً من صوف المارينو الخفيف، هبط من تاج رأسي حتى أطراف أصابع قدميّ.

جلستُ بحلتي الجديدة على الديوان، لكن لا مفر من اليأس الخانق. أتاني صوت هومان، بما أوقف انسكاب الدموع، كان واقفاً في الخارج

141- الحايك أو الحائك لباس تقليدي مغاربي ذو أصل أندلسي، تلتحف به المرأة لتستر سائر جسدها مع إضافة العجار وهو قطعة صغيرة من القماش تضعها المرأة لتغطي وجهها.

يطلب إذناً مني للدخول. دهشت من تصرفه، لم أجب. أعاد بلهجة أعلى. لم أتمكن من التحكم بحبائلي الصوتية، فصمت.

«جهزي نفسك»، قال، ثم دفع الستارة جانباً. أصابني الذعر، فتراجعتُ بعيداً عنه.

«كوني مطمئنة. من غير المرجح، بعد اليوم، أن نلتقي بعضنا ببعض مرة أخرى. إن كانت لديك استفسارات تتعلق بعملك، أو مسائل خاصة بالمادة أو التقنية، عليكِ أن تكتبي لي عنها - لستُ مخطئاً في قناعتي أنك تتقنين خطّ الرسائل، أيتها الفتاة لأكثر غرابة، التي تمكنت من خداعنا ببراعة. عليك أن ترسلي لي من وقت إلى آخر، عينات من عملك للمراجعة. وأنا سأرد عليكِ وأرشدك قدر المستطاع، فإن لحظتُ حاجة لأي تحسين، سأكتبها إليك. بالرغم من أنك ما تزالين بعيدة عن بلوغ منزلة سيدة الحرفة، إلا أنك مشرفة على تولي مكانة توازي هذه المرتبة. بغض النظر عن مشاعرك تجاهي، حاولي ألا تطعني بمهاراتي أو تشوهي مهاراتك. العمل الذي نقوم به هنا سيعيش أكثر من أعمارنا كلنا. تذكري ذلك. إنها ذات أهمية أكبر بكثير من أي... مشاعر شخصية».

تنهدتُ بعمق. جفل، ثم تابع ببرود:

«هل تظنين أنكِ الشخص الوحيد الذي تعرض للأسر والإذلال؟ أميرتنا الحالية نفسها أسرت واقتيدت عبر أبواب المدينة هذه، مكبلة بالسلاسل، مساقة حتى ذروة الرمح، أمام فرس الرجل الذي أصبح زوجها».

لا حاجة لإعلامي بالقصة، ففضيحة أسر الأميرة الجميلة كانت موضوعاً للثرثرة الداعرة بين رجال مهيثي وجه الرق. تلقيتُ القصة بفتور، كما كانت ردود أفعالي طوال الأشهر الماضية، لكن الرواية استلت اهتمامي، حيث تطرقت إلى جوانب معينة من تاريخي. الجميع، على ما يبدو، لديهم رأي في هذا الشأن.

باكراً منذ توليه العرش، رفض الأمير الشهير دفع الجزية المعتادة

للمدينة إلى القشتاليين. «من الآن فصاعداً»، قال: «لا يمنح النقدُ الملكي إلا فوق نصال السيوف». المناوشات المستمرة كانت النتيجة. في إحدى هذه المعارك، دخل الأمير إلى قرية مسيحية وقام بأسر ابنة الجابي الضريبي فيها. لم يعترض أحد حين استولى الأمير على غنيمة الحرب تلك. فجيش الإسلام نفسه، قام بأسر النسوة من اليهود والمسيحيين إبان انتصاره عليهم. كان سائداً انضمام الأسيرات إلى جناح الحريم من وقت لآخر، أما الزواج بهن فهو تصديق شرعي للاغتصاب. لكن ما صدم المدينة، ما أمر به الأمير بما يخص زوجته الأميرة الإشبيلية النبيلة، ابنة عمه وأم وريثه. حيث تم نفيها من القصر إلى منزلها خارج الأسوار، بفعل وشايات عن تآمرها عليه، طالبة الدعم من أبو سراج، الرجل الأشد ضراوة بما يخص شؤون الدين. تقول الإشاعات إن التصدع تجاوز جدران الحرملك في المدينة، وصولاً إلى عرش قشتالة الذي بحث عن وسائل عديدة لاستغلال ما يحدث.

دخل الخصي الفارسي آنذاك، مع كأسين من الشراب. أشار هومان لي بأخذ واحدة.

«كلفني الأمير بأمر سأتلوه عليكِ بتفاصيله، كي لا يساء فهمي».

«الأمير، كما تعلمين، غالباً ما يغادر في حملات خارج المدينة. لقد أخبرني بفقده العظيم للأميرة خلال هذه الأوقات، إنه يرغب بصورة مشابهة لها، تُسلي قلبه إن راوده الحنين.

«سترسمين، بالتالي لمشاهدٍ واحد. الصورة سيراها الأمير وحده، حين ينفرد بذاته. أؤكد لك بأن عملك سيحظى بحماية من محطمي الأيقونات، ولا داعي للخوف من الهرطقة».

لم تفارق عيناي يديّ، الملفوفتين حول الكأس طيلة فترة حديثه، غير قادرة على تحمل النظر إلى ملامح وجهه. لكن مع كلماته الأخيرة نظرتُ إليه بحدة. ليحدق بدوره في وجهي، كما لو كان يتحداني لأتكلم. حين قابلته بصمتي، رفع الحايك، وناولني إياه.

«ضعي هذا الآن. حان الوقت لاصطحابك إلى القصر».

علمتني أمي أن أخطو في حجابي كما لو لم يكن لدي أقدام، لطالما خطوتُ فوق الأرض برشاقة كما تتنقل الطيور المائية بخفة فوق الموجات. لكن بعد عدة أشهر من التجول كصبي، فقدت هذه المهارة. تعثرتُ عدة مرات بينما كنا نشق طريقنا عبر الأزقة المزدحمة للمدينة. بدا التجار، المتجمعون في ساحة القوافل، بملابسهم الصيفية ملونين كحقل من الزهور، منهم رجال يرتدون البياضات الفارسية المخططة، أفريقيون في جلابات نيلية وزعفرانية اللون، أما اليهود بسراويلهم المصفرة فيتحركون هنا وهناك، برؤوس عارية من العمائم حتى في ظل شمس الظهيرة، كما يقتضي القانون.

مشينا تحت أشعة الشمس الملتهبة حتى وصلنا أخيراً إلى القصر. جدرانٌ طُليت بلون أبيض، منذ مئة عام ولمرة واحدة. لكن الأرض الغنية بالحديد وجذور الفوة نزفت على الجص، وألبسته حلة وردية. نظرت بعيني إلى أعلى عبر البرقع، فلمحتُ النقوش المنحوتة على المدخل الكبير المقوس، بأعداد لا حصر لها، كما لو أنها أصوات آلاف المؤمنين المحاصرين في هذا العمل الحجري المدور، واقعين في الشرك أثناء تحليقهم نحو السماوات... تصيح:

«لا إله إلا الله المُنجّي».

عبرتُ الأبواب الخشبية الضخمة لذلك المكان مع إدراك أنني قد لا أغادره أبداً. امرأة عجوز، تشقّق وجهها كوادٍ جاف، رافقتني إلى جناح النساء.

«هذه إذاً ال- مورا؟» قالت العجوز، قاصدة دعوتي بلقب المرأة المغاربية. يبدو أنني لن أملك حتى اسماً، في حياتي الجديدة هذه.

«نعم»، أجاب هومان. «أتمنى أن تقدم خدمة جيدة».

فارقتُ كل شيء، عدا فكرة واحدة تجول في رأسي عن أدواتي

اليدوية. ابتعدتُ عن هومان من دون أن أرد وداعه لي. مع ذلك، أثناء إغلاق المرأة العجوز الباب، اشتعلت لدي رغبة حثيثة في الالتفاف والركض، نحو هومان، عبر البوابة، لأعتنق ذراعه المهينة، متوسلة لإخراجي من القصر، الذي تلوّح جدرانه بسجن مؤبد.

منذ أسري، وعقلي يختبر جميع أنواع المخاوف. لم أنفك أتصور نفسي أقوم بأعمال شاقة في أكثر الأماكن تعرضاً للاستنزاف والضرب والإيذاء. الآن، تلتقط السيدة العجوز طرف الحايك، تنقله إلى يد فتى جميل يحوم خلفها، لا يتجاوز عمره سبع أو ثماني سنوات. أشارت إلي بخلع صندلي. زوج من النعال المطرزة جاهزة على العتبة. أومأت لي باللحاق بها، انتقلنا من الرواق إلى غرف يخطف بهاؤها الكلمات من أفواه الشعراء.

بدا الأمر في البداية، كما لو أن الجدران نفسها تتحرك، أو أن السقف يميل نحوي. رفعتُ يدي في محاولة للتوازن وتهدئة نفسي، أغلقت عيني في وجه هذا الانبهار. ثم أجبرت نفسي على النظر إلى منطقة واحدة صغيرة من الغرف، أطرقتُ نحو البلاطات المصقولة الملونة بالأزرق المخضر والبني، بالأسود والأرجواني، التي انتظمت كما لو أنها تدور بكياسة حول الثلث السفلي من الجدار. حين تمكنتُ من النظر إلى أعلى، رأيت أن السقف الصاعد ليس في الواقع، سوى قبة عالية، تنحدر منها غابة من الجص رأساً على عقب، كل منحوتة تترنم بصدى منسجم مع جارتها.

يبدو أننا تجولنا عبر سلسلة لا تنتهي من الحجرات الجميلة بقدر اختلافها. انزلقت بيننا، مرة أو مرتين، خادمة شابة أومأت للمرأة المسنة، مطلقة نظرة سريعة فضولية علي. مررنا بنعالنا الناعمة بصمت، عبر متاهات من الأعمدة الهيفاء، بجوار أحواض مائية طويلة تومض كالمرايا، تعكس النقوش المتشابكة التي لا حصر لها في الأعلى.

في النهاية، بدأنا بارتقاء السلم الحجري صوب قسم مرتفع من

القصر، ضاقت الدرجات مع كل صعود. وصلنا إلى القمة، التقطت المرأة العجوز أنفاسها بصعوبة، اتكأت على الحائط، تتلمس ثنايا ثيابها للعثور على مفتاح نحاسي كبير. حركته داخل القفل وفتحت الباب. كانت الغرفة مستديرة، تعرت جدرانها البيضاء من الزخارف، باستثناء بعض الأعمدة الحجرية الرائعة المنحوتة والمطلية المحيطة بزوج من النوافذ المقوسة والمرتفعة في الجدار البعيد. هناك القليل من الأثاث: سجادة صلاة من الحرير الفارسي الناعم، ديوان ضيق مغطى بالوسائد المشرقة؛ طاولة منخفضة مطعمة بالصدف؛ حاملُ كتاب وصندوق من خشب الصندل المنحوت. خطوتُ صوب النوافذ، وقفتُ على رؤوس أصابعي، وبيد مستندة إلى عتبة النافذة، رفعت جسدي كي أتمكن من إلقاء نظرة إلى الخارج. حدائق كثيفة معتمرة بالأشجار المثمرة، تكشفت أمام ناظري. ميّزتُ من بينها: التين، والخوخ، واللوز، والسفرجل، والكرز الحامض، أما أغصانها المحملة بالفواكه فتشابكت بتناسق بديع حتى أخفت الأرض تحتها.

«هل تلائمك؟» تحدثت السيدة العجوز لأول مرة بصوتها المتهدج بفعل تقدمها في العمر. نزلتُ عن العتبة، ثم التفتُّ مع شعور بليغ بالإحراج.

«أخبروني بمهمتك، فكرت أنه من الجيد، أن نجد لك حجرة منعزلة لراحة وخصوصية عملك. لم تستخدم هذه الغرفة منذ رحيل الأميرة الأخير عن القصر».

«ملائمة لدرجة كبيرة». قلت.

«ستقوم فتاة الضيافة بخدمتك. عليكِ إخبارها بأي شيء معين تبغينه. ستجدين تلبية لمعظم الاحتياجات هنا». التفتت السيدة العجوز مغادرة، مشيرة للغلام بتتبعها. «من فضلك»، قلت بسرعة، رأسي محشو بالأسئلة. «من فضلك، إذا سُمح لي بالسؤال، لماذا هناك عدد قليل للغاية في جناح النساء؟».

تنهدت المرأة العجوز، وضغطت بعقب يدها فوق صدغها. «هل يمكنني الجلوس؟» سألت. ثم سرعان ما استرخت بجسدها الضعيف فوق الديوان. «لا أعتقد أنك قضيت فترة طويلة في المدينة».

كان تأكيداً أكثر من كونه استفساراً.

«أتيتِ إلى هنا في وقت مضطرب. ليس لدى الأمير حالياً سوى فكرتين في دماغه: الحرب مع قشتالة وشهوته للفتاة التي يدعوها الآن نورا». حدقت بي عيناها، المدفونتان في الوجه المجعد، كزوج من الحصى المشرقة، ثم تفحصتني عن كثب. «قام، من شدة حماقته، بإقصاء ابنة عمه سحر وجميع أفراد أسرتها. لا يثق الأمير بأحد. إنه يعرف ابنة عمه وشغفها بتدبير المكائد والمؤامرات. أبعد المحظيات كذلك - وزعهن على عجل على ضباطه المفضلين، خشية أن تصبح أي منهن أداة للانتقام من قبل سحر وابنها أبو عبد الله، الذي انقلب ضد والده، بعد الإهانة الشديدة لأمه.

«لم تصل نورا إلى هنا، بالطبع، إلا بثوب ممزق منسدل فوق جسدها. وُضع الآن في خدمتها، حاشية صغيرة؛ مكونة مني مع مجموعة من فتيات قبليات نصف مدربات لا ولاءات لهن في المدينة».

أدهشتني صراحتها، فعجزتُ عن الإدلاء بأي حرف. نظرتُ بقلق إلى الولد المعمم الواقف بجانب الجدار. «لا تقلقي بشأنه»، قالت. «إنه شقيق نورا. كان من المفترض أن يُؤخذ إلى جناح الغلمان، ولكن لخاطر أخته، حظر الأمير استخدامه. أدربه الآن ليعمل وصيفاً» تنهدتْ مرة أخرى، لكن وميض ابتسامة أشرق بعينيها.

«تظنين أنني لا أضمر التوقير للأمراء؟ من الطبيعي أن تفقدي تقديسك للأمراء عندما ترينهم مترهلين لاهثين كما الكلاب. كنت محظية لجد هذا الأمير. لطالما كان جسد ذاك الشبق المسن يعبق برائحة الموت كلما اصطحبني إلى فراشه، أما هذا»، مالت برأسها تجاه غرفة العرش، «أنا من أرضعته وقمت برعايته منذ ذلك الحين. لقد نشأ كولد شقي وطاغية

دموي. ثم قام بقطع رأس كل شاب في المدينة ارتاب في تحديه للعرش. لكنه بعد أن وصل إلى الحكم ونال السلطة، ها هو يرمي تاجه بعيداً ويلقي بالمدينة في خضم الخطر، في سبيل شهوة تلتهب بين ساقيه».

أطرقت رأسها ثم تنهدت. «هل صدمتك! لا تهتمي للساني الجلف المسن. فعل العمر فعله في ظهري، فلا سبيل لمزيد من الانحناء. استقامت بنشاط بما أودى بكلامها كله عن السقم: «سوف تدركين ماهية الأمر عما قريب. عليك مقابلة الأميرة غداً. سأرسل فتاة لإحضارك بين يديها».

أردت أن أشكرها على صراحتها، لكن مع فغر فاهي بأول حرف، لم أعرف بماذا أخاطبها. «هلا سمحتِ لي بالتعرف على اسمك؟».

ابتسمت وتنحنحت. «اسمي؟ لدي الكثير من الأسماء، بالكاد أعرف أي واحد منها أخبركِ به. مني، الاسم الذي دعاني به الأمير العجوز حين كانت ذراعه صلبة بما يكفي لتطوي جسدي كل ليلة - لو أن الأمنيات خيولٌ، لامتطاها الأشداء - أليس كذلك!» خمد صوتها، وتغضن وجهها فوق ملامحه. «ثم نادوني أم حرب، حرب، ولدي شديد البأس، أحد الشبان الشجعان الذين ماتوا بنصل سيف أخيهم غير الشقيق. إلا أن الاسم بات عصياً في الحلق. كبيرا... هو اسمي الآن».

كبيرا - العجوز - العجوز كانتْ، وكنتُ المرأة المغاربية، لن يُنظر إلى أي منا كإنسانٍ، أبعد من جسد منتهك، وبشرة داكنة. تلقيت لمحة مفاجئة عن مستقبلي هنا في هذا السجن المشرق، عن مصير مرير، لشخص وضيعٍ بلا اسم. لا بد أن ملامحي أفشت بوجع الفكرة، حيث اتخذت خطوةً مفاجئة نحوي، عانقتني باحتضان سريع، حتى العظم.

«كوني حذرة يا ابنتي»، همستْ، ثم انزلقت بعيداً، تبعها الصبي كظل.

تسلل إلى أنفي، في صباح اليوم التالي، عبق الورد الكثيف كالشمس التي تلاشت حرارتها فوق الجدران الخارجية الصلدة الضخمة. عطر شذي لم يأتِ سوى بالمزيد من ذكريات الإحباط. سحلتُ جسدي عن

الديوان، اغتسلتُ، ارتديتُ ملابسي، أديتُ صلاتي وانتظرت. جاءت فتاة بالماء الدافئ وأخرى مع صينية يعلوها عصير المشمش، بخار الخبز الطازج، طبق من لبن الزبادي الدسم، مع ست حبات من التين الناضج. أكلتُ حتى الشبع، ثم انتظرت من جديد. حرصتُ على عدم مغادرة الغرفة، خشية استدعائي للمثول بين يدي الأميرة أثناء غيابي.

حان موعد صلاة الظهر، ثم المغرب لينتهي نهاري بصلاة العشاء، قمت من السجود مباشرة وتوجهت للنوم. لم يستدعوني ذلك اليوم، ولا في اليوم الذي تلاه. أخيراً، ما بعد ظهر اليوم الثالث، قدمتْ كبيرا والوصيف إلى غرفتي، بدا وجه كبيرا المجعد كالحاً وقلقاً. أغلقت الباب واستندت إليه. «لا بد أن الأمير فقد عقله»، قالت بنبرةٍ سريعة وهمسٍ متقطع، بالرغم من المساحات الخاوية في القصر لكن من الصعب التنبؤ بمن يحاول التنصت. «امتطى جواده الليلة الماضية في وقت متأخر. أمضى مع الأميرة الليل حتى ما بعد صلاة الفجر، اجتمع مع النبلاء. حسناً، أنهى أعماله معهم، ثم أمرهم بالبقاء والانضمام إليه في الفناء لمشاركته بعض الترفيه. «هذا»، قالت تزم شفتيها أثناء همسها للكلمات. «تبين أن ما يقصده من ترفيه، هو مراقبة زوجته وهي تغتسل».

«استغفر الله العظيم!» لم أتمكن من تصديق كلماتها. كيف لرجل أن يلقي نظرة على زوجة آخر، إنها مسألة تكشف النقاب عن كارثة. أما عرض جسد الزوجة المقصود للآخرين فهي إهانة لا يمكن تصورها؟».

«أي رجل يمكنه أن يقوم بمثل هذا الفعل المشين؟ رددت كبيرا: «الرجل السيئ المتغطرس». «أصيب النبلاء بالذعر- حتى أن معظمهم ارتابوا في أنها خطة من قبل الأمير لتمسي ذريعة لإعدامهم؛ غادروا المكان متلمسين رقابهم. بالنسبة للأميرة، حسناً...

سترين بنفسك كيف تجري الأمور معها. عرف الأمير أنكِ هنا، يأمرك برسم صورة لها لترافقه في حملته غداً بعد صلاة الفجر».

«لكن هذا مستحيل!» صرخت.

«مستحيلٌ أم غير مستحيل، يتوجب عليكِ القيام بذلك. كان حانقاً من عدم القيام بأي شيء حتى الآن. تعالي معي سريعاً». أما الوصيف الوسيم، فكان منتظراً خارج الغرفة حاملاً علبة الأصباغ التي أرسلها هومان لي.

عندما وصلنا إلى البهو، طرقت كيبرا الباب وقالت: «لقد أحضرتها».

فتحت خادمة الباب وانزلقت بسرعة كبيرة كأنها خرجت عبري. كان أحد جانبي وجهها أحمرَ، كما لو أنها صفعة حديثة. دفعتني كيبرا إلى الأمام بيد على أسفل ظهري. تسرب الولد ورائي، ووضع الصندوق، وخرج ثانية.

سرعان ما أدركتُ أن كيبرا نفسها لن تدخل الجناح، وشعرت بالذعر حين عرفت أنها لا تخطط لتقديمي للأميرة، أو لتخفيف وطأة اللقاء الأول بأي طريقة كانت. سمعتُ الباب يُسحب بلطف ليغلق خلفي.

وقفت الأميرة بظهر أدارته لي. امرأة طويلة ترتدي ثوباً مطرزاً هوى منسدلاً عن كتفيها منسكباً فوق البلاطات حتى القدمين. تدلى شعرها، الذي لا يزال رطباً قليلاً، بحرية وصولاً إلى أسفل ظهرها. خصلاتٍ بألوان رائعة، ألوان متعددة متمايزة: جدائل ذهبية متوهجة معقودة برقة، مضاءة من الخارج بخطوط حمراء كألسنة لهب مفاجئة. بالرغم من توتر أعصابي، كنت أفكر بالفعل في كيفية رسمها. التفتتْ. نظرتُ في وجهها بما شتت كل هذا التفكير بعيداً عن ذهني.

بدت عيناها بلون آسر أيضاً: ذهبيّ داكن كالعسل. كانت تبكي، من الواضح الاحمرار حول عينيها، أما القطرات المتناثرة فوق بشرتها الشاحبة فشاهدة على ذلك. توقفتْ عن البكاء، لتكشف ملامحها غضباً تلاشى معه الحزن. حاولتِ الاستقامة بقامتها بصلابة، كما لو أنها تستعين بسارية حديدية. رغم هذا، لم يستطع الجهد الذي تبذله للتظاهر بالهالة الملكية، أن يخفي ارتعاشاً بالكاد يمكن ملاحظته.

حييتها، متسائلة إن كان علي الانحناء أو الركوع. لم تقل شيئاً في الرد، حدقت في وجهي، ثم رفعت يداً طويلة بإيماءة من الازدراء.

«تعرفين ما يتوجب عليك القيام به. باشري بعملكِ».

«لكن ربما تود الأميرة الجلوس؟ يستغرق هذا بعض الوقت...».

«سأقف!» قالت بعينين مترعتين بالشرر. وقامت بالوقوف غير المنتهي لبقية بعد ظهر ذلك اليوم. ارتعشتْ يدي بتأثير نظرتها الشرسة الجريحة، فتحت صندوقي ورتبتُ المواد. حاولت بكامل إرادتي إفراغ ذهني من الأفكار الصاخبة، ورفع بصري نحوها، وتفحصها كما يتوجب علي.

لا حاجة للإخبار عن فتنتها، حيث نُظمت قصائد عديدة وأغانٍ شهيرة بالتغزل بجمالها. عملتُ من دون انقطاع، بينما لم تتحرك أو تبعد عينيها عني. وصلتْ دعوة المؤذن للصلاة خافتة ومخفية عبر الجدران السميكة، سألتها عن رغبتها في التوقف والصلاة، لكنها هزت عرف شعرها الكثيف وحدقت في وجهي. أخيراً، مع الحاجة لاستدعاء ضوء المصابيح، أدركت أنني حصلت على الصورة. أما ما تبقى من الديكور والزينة فيمكنني إكماله في غرفتي بكل بساطة. فما يتوق إليه الأمير هو صورة لزوجته - وجهها الجميل وقامتها الهيفاء. وهو مُنجزٌ هنا.

نهضت لأريها العمل، نظرت إليه بالنظرة الغاضبة ذاتها. لو أن شيئاً من تعابيرها تغير، لكان هذا وميضاً بسيطاً عن نجاح التصوير. لكنها ما زالت بقامة منتصبة، بينما أحزم أدواتي. حتى دخل الوصيف الشاب فتحركت ونادته: «بيدرو» مومئة له بالاقتراب صوبها. انحنت له، داعبت جبينه مع قبلة دافئة سريعة. ثم، أدارت ظهرها لنا من دون أن تهتم بمغادرتنا.

قضيتُ صلواتي المؤجلة، تناولتُ بعض الطعام والشراب، ثم نظرت إلى الرق برؤية وفكر صافيين. بدا جلياً ما أرادته الأميرة. وقفت لتظهر أنها لن تنحني أمام أي أفعال جنونية تتعلق بالانتهاكات التي يرتكبها الأمير. رغبتْ بصورة يحملها معه لملكة لم تُقهر، لصخرة لن يتمكن من كسرها. حين تفحصتُ الصورة، أدركت شيئاً آخر. لا وجود لأي تلميح بالدموع أو الارتعاش الذي يماشي الصراع الكامن لإظهار قوتها. كنتُ

على دراية أنها لا تود الكشف عن ذلك أمامه. حرصتُ على إخفاء ذلك، تآمرتُ معها ضمنياً بعدم الكشف عنه.

عملت طوال الليل لإكمال العمل الأول لسيدتي الجديدة. دقت كبيرا على بابي، قبل صلاة الفجر بوقت قصير. سلمت الرق لها بإنهاك شديد جداً لدرجة لم أهتم بما سيكون عليه رد فعلها. مع ذلك لم يفتني أنها ستقول رأيها سواء طلبته ام لا.

«لا تَدْخُلُ المَلائكَةُ بَيْتاً فيهِ كَلْبٌ أو صُورَةٌ، أليس هذا حديث نبوي شريف؟ إن كان الأمير يسعى لغضب الله، فأنت الوسيلة المناسبة لإغضابه. لكنني أتساءل إن كان الأمير يرغب فعلاً برضاه». ثم غادرتني مع ابتسامة مريرة مرفقة بقليلٍ من الرضا. سئمت من محاولة فهم ما إن كنت تعرضت للإهانة أو حصلتُ على المديح، قمتُ بأداء صلاتي من دون انتظار الأذان، ثم سقطت على ديواني في نوم عميق.

في الأسابيع التي تلت ذلك، بدا الأمر كما لو أنني أغط في سبات طويل أبدي. انتظرتُ حصولي على دعوات مزيدة إلى غرفة الأميرة، فأحظى بفرصة جديدة أعدّ بها الصورة بعناية وإدراك كامل أكثر من الجهد المحموم الأول. ولكن لا دعوة مطلقاً يوماً بعد يوم.

لم يكن الأمير قد غادر لقيادة جيشه في بعض المعارك وإنما، بقصد حصار طويل الأمد لمدينة مسيحية مرتفعة، هيمن على بعض طرق الإمداد الرئيسية للمدينة. كرست نفسي، خلال الأسابيع الأولى لغيابه، لتعلم خفايا عالمي الجديد، واستكشاف خبايا قصر النساء وإنجاز رسومات البلاط، والبحيرات، والنقوش المنحوتة. لكن رغم هذه التسلية الهانئة، أمضيتُ ساعات طوالاً بفراغ مقيت سواء من طول الانتظار، أو من قلة الصحبة.

تجولتُ بلا هدف من غرفة مذهلة صامتة إلى أخرى، مع توقٍ لتولي مهام هادفة مثلما فعلت مع والدي، اشتقت إلى صخب منزلنا ذي الجدران الطينية. حتى أن حنيناً راودني في بعض الأوقات، للمزاح

الداعر لمهيئي وجه الرق. في تلك الأشهر، كان لدي على الأقل الكثير من المجهود، فلا أتذوق سم الخمول هذا. أمضيت أياماً كاملة لم أغادر فيها غرفتي، أتنفس عبق الورد الخانق، حتى تلاشي الضوء، فأتهاوى فوق ديواني، خائرة القوى من كدح لم أقم به.

بعد عدة أسابيع، أرسلتُ فتاة السقاية للبحث عن كبيرا. توسلتُ إليها أن تطلب من الأميرة السماح لي برسمها، لكن طلبي قوبل بالرفض.

«حسناً، هل بإمكاني رسمك، أو رسم الوصيف الصغير؟» سألتُ المرأة العجوز. لطالما تبعني الصبي، بيدرو، واقفاً خلفي بينما كنت أرسم تماثيل منحوتة، يراقب أصابعي لساعات بسكون غريب لا يشبه سلوك طفل. لكن كبيرا رفضت الجلوس أمامي ولم تسمح للصبي بذلك.

«يمكنني التغاضي عن خطيئة الأمير المتمثلة بأمره برسم الصور، لكني لا أرغب في مواصلة المهمة هذه عن طيب خاطر». لم تكن قاسية بشأن هذا، إنما حازمة فقط. تساءلتُ عن قوة إيمانها، الذي صمد أمام سنوات عديدة من الأذى. تساءلتُ كيف تشعر الآن، إبان خدمتها لأهل الذمة [142].

ضحكت بلطف عندما سألتها. «بالنسبة للعالم، لم تعد الأميرة من أهل الذمة على الإطلاق. حيث نحاها الأمير حين اعتنقت الإسلام، ولله الحمد. لكنني أعلم أن الأمر ليس كذلك. لطالما سمعتها تصلي صلاتها الكافرة، تنادي يسوع وسانتياغو... لا يبدو أن أياً منهما يسمعها...» تنحنحت مرة أخرى وغادرتني.

استلقيتُ في تلك الليلة على سريري، أفكر في قلة معرفتي بالديانات الأخرى، أتساءل لماذا المسيحيون واليهود متشددون لدرجة يتعذر

---

142 - أهل الذمة. المستوطنون في بلاد الإسلام من غير المسلمين. اقتضت تعاليم الإسلام بأنه إذا أراد المسلمون فتح إقليم وجب عليهم أن يطلبوا من أهله اعتناق الإسلام. فمن استجاب منهم طُبِّقت عليه أحكام المسلمين. ومن امتنع تم التأمين على حياته وأمواله مقابل دفع الجزية

عليهم فيها، الاعتراف بخاتم الأنبياء. تساءلت عن الطريقة التي اختطفت بها الأميرة من المنزل، وما إن كانت تفتقد طقوس طفولتها المألوفة.

تلاشت رائحة الورد وتساقطت بتلاته مع عودة الأمير إلى القصر، عبرت فرسه البوابة ليلاً كي لا يراه الناس، ملطخاً بالدماء من إصابةٍ في المعركة. حين جاءت كيرا لتحضرني في الصباح، أخبرتني أنه أصيب بجرح في حاجبه برأس سهم خاب مرماه، تسبب الجرح بتقرح في جفنه وصديد ذي رائحة نتنة. مع ذلك، ذهب مباشرة إلى جناح نورا من دون أن يعبأ بمظهره، أو حتى يخلع ملابسه القتالية. طوت كيرا وجهها المتجعد أثناء حديثها، كما لو أن رائحته الكريهة معلقة في أنفها.

مثل المخبولة، رحبت باستدعائي إلى غرفة الأميرة، كنت أتضور لأرسم شيئاً. أسرعتُ عبر القاعات وأعلى الدرج الحجري، متلهفة لتحدي العمل الجديد. لكنني أدركتُ حماقتي منذ اللحظة التي لمحتها. بدت المرأة التي أواجهها متوهجة من الداخل بغضب أحرقها كالشعلة. كان شعرها متأنقاً بخيوط من اللآلئ والجواهر اللامعة، التي بدت كأنها تلتقط توهج خصلاتها القرمزية، إلا أنها كانت ترتدي حايكاً بسيطاً ملفوفاً بشكل فضفاض حولها.

انسحبت الخادمة التي أحضرت صندوقي برفق، نظرت إلى الأسفل محاولة تفادي غضب نظرتها المحدقة بي. أسدلت الحايك عن كتفيها. ليتهاوى أسفل قدميها، نظرت إلى أعلى، انتصبت أمامي عارية تماماً.

أخفضتُ بصري مرة أخرى، مع شعور بالخجل العميق.

«هذا» - أتت الكلمة بمنزلة هسيس أفعى - «ما يريده مليكي أن ترسميه اليوم. باشري عملك».

ركعتُ ووصلتُ إلى القلم. لكنه لم يستجب لي. لم تسمح الرجفة في يدي والحزن في قلبي بالقبض عليه. تتالت آيات القرآن في ذهني.

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا

﴿يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾[143]

كيف يمكن لي أن أرسم صورة لامرأة عارية؟ إن قمت بذلك فقد دنست ما أمرني الله به.

«قلت باشري عملك!» ارتفعت نبرة صوتها الآن.

«لا»، همست.

«لا؟» هسهستُ «لا».

«ماذا تقصدين، أيتها المومس الوقحة السوداء؟».

«لا»، قلت مرة أخرى بصوت متهدج. «لا يمكنني القيام بذلك. أنا أعرف ما هو الاغتصاب. لا يمكنك أن تطلبي مني مساعدة مغتصبك».

تقدمت نحوي، التقطت الغطاء الثقيل لصندوقي. أصغيت لصفير حركته قرب أذني حين رفعته. لم أحرك يداً لأدافع عن نفسي، لكنني انتظرت تكسراً فوق جمجمتي. ألقت الغطاء، فتحطم فوق الأرض الحجرية. ثم التقطت جرة الصباغ وألقت بها. مرغ السائل القرمزي البلاط وحواف الجدران. نظرت حولها بجنون، تتطلع إلى مادة تالية تلقي بها. وقفتُ، وقبضتُ على معصميها. كانت أطول بكثير مما كنتُ عليه، وأقوى، لكنني عندما لمستها، تراخت تماماً. انحنيت والتقطت الحايك وغطيتها. طوقتها بذراعيّ، وسقطنا معاً على ديوانها، استلقينا هناك، غارقين بوثار من أحزاننا.

منذ ذلك الصباح، ونحن نمضي النهارات والليالي معاً، رسمتُ لها العديد من الصور الجميلة. لها بشكل خاص، ولنفسي، لمتعة القيام بذلك. أوه، رسمتُ للأمير صورة ليعود بها إلى حصاره الفاشل، لكنها لم تكن صورة لزوجته. صوّرتُ امرأة مستلقية بحيث لا يمكن التعرف إلى وجهها؛ بوضعية خليعة للفخذين والثديين، بما لا يشبه نورا في شيء. لقد أخبروني أن الأحمق سرّ كثيراً بها.

143- سورة النور - من الآية 31

أتاني صوتها في الظلام. «أنتِ تبكين في نومك». وضعتْ يدها بلطف فوق صدري. «قلبك يرتعش كذلك».

«حلمت بأبي - النسر يمزق - لا، لا أستطيع التحدث عن ذلك».

اقتربتْ أكثر، عانقتني وغنت لي بهدوء بهمهمة منخفضة، بصوت أمي الناعم ذاته.

في ليلة أخرى. استيقظتُ واستدرتُ نحوها. أومض القمر في عينيها المحدقتين في الظلام. لمستُ يدها بلطف، التفتت إلي. توقدتْ عيناها الغارقتان بدموع غير مسكوبة. بدأت تتكلم ببطء. قاموا بتشويه والدها حياً، معلقاً فوق البوابة الحديدية لمنزله.

قتلوا والدتها أمامه بينما يتلوى الأب في آلامه اليائسة. كان عليها أن تصغي إلى صراخه من الوجع والحزن، مختبئة مع أختها وشقيقها في مساحة تحت ألواح الأرضية في المنزل. قام الغزاة بإشعال النار بعد ذلك في المنزل. خرجوا هاربين ممسكة شقيقها بيدها، متعثرة بدماء أمها. استمرت أختها في الركض بينما توقف شقيقها لمساعدتها. رأت الفارس يلتقط أختها ويسحبها إلى حصانه. ما حدث لها بعد ذلك، أمر عجزت عن معرفته.

حاولت الركض مع شقيقها، لكن من شدة اضطرابها فرت مباشرة نحو الساحة حيث تدور حرب الخيول. «اعتقدتُ أن الحوافر ستمزقنا إلى أشلاء». تنهدت.

لكن فارساً ترجل عن مطيته. «نظرتُ إلى أعلى فلمحتُ عينيه، تحدقان بي من خلال الشقوق في قناعه. قام بفك عباءته وألقاها علي ليغطيني».

أدرك الفرسان الآخرون أن سيدهم نال استحقاقه. فحاول شخص ما سحب شقيقها، تشبثتِ الفتاة بأخيها مناشدة الأمير لإنقاذه.

«منحني ذلك، وفي المقابل، سامحني الله، أتظاهر برغبتي به. لكن ليست لدي أي فكرة، حتى يومنا هذا عن كيفية ارتفاع معدتي، وتقلص

أجزائي الداخلية كلما اقترب مني. كل ما أشعر به، عندما يكون بداخلي هو أوجاع والدي، الذي تم تعذيبه كما لو كان وحشاً...».

وضعت أصبعاً على شفتيها بعدها. «يكفي»، همستُ. مسدت بشرتها بلطف قدر استطاعتي. لم أستطع رؤية يدي الداكنة في الظلام، ظلها فحسب يعبر بشرتها الحليبية. حاولت أن أجعل لمساتي ناعمة كما الطيف. وصلتْ بعد دقائق إلى يدي وقبلتها.

«بعدما... بعد أن ضاجعني، فكرت أنني لن أشعر بالبهجة مطلقاً بفعل أي لمسة لإنسان من بعده». التفتتْ ورفعت نفسها على كوع واحد ونظرت إلي. أعتقد أنني سمحتُ لنفسي، في تلك اللحظة، أن أتقبلَ استعبادي. من الخطأ القيام بذلك؛ هذا ما أدركه الآن.

بدأت الشائعات، خلال شهر، تتدفق إلينا من أماكن في القصر عن الاجتماعات الطارئة والمناقشات العنيفة. التي سرّبت أن العدو كسر حصار الأمير واستعاد السيطرة على التلة. كما تم إرجاع قواتنا إلى السهل المحيط، حيث كانوا يتزاحمون للاحتفاظ بالسيطرة على طريق الإمداد الرئيسي. كان من الأهمية بمكان ألا يتراجعوا، خاصة في هذا الوقت، لأنهم لو فقدوا الطريق قبل جلب ثمار الحصاد، سيضرب جوع شتوي شديد أهل المدينة.

أينعت ثمار الورود متفخة حانية أغصانها أعلى النافذة، بينما انحنت الأميرة فوق الديوان تحتها، لأرسمها تتلمس اللؤلؤ في عنقها، كنتُ أحاول مضاهاة توهج الثمرات الحمر مع وميض شعرها. بدا وجهها هادئاً، رغم ملامحها المثقلة بالحزن.

«أعتقد أن حرفتك ستجلب لك النجاة، كما أتمنى. سيكون لديك على الأقل شيء تقدمينه إلى الفاتح، إن سقطت المدينة».

أسقطتُ الفرشاة. تهاوت فوق البلاط، تلطخ الزجاج الشاحب بنثرات الزعفران.

«لا تندهشي كثيراً» «هذه الجدران سميكة، لكن حتى أكثر الجدران ثخانة يمكن آن تُنتهك بفعل الخيانة».

«هل لديك سبب لذكر ذلك؟» بالكاد استطعتُ النطق.

حركت رأسها ونبست بضحكة صغيرة. «أوه نعم، لدي سبب. ابن الأمير، أبو عبد الله، يأتي ويذهب إلى القصر، نما فصيله مقابل ثروات أبيه المتضائلة».

كانت طويلة بما فيه الكفاية، كما أشرت، للوصول بسهولة إلى حافة النافذة العالية. مدت يدها وقبضت على الغصن المتدلي بثمر الورد اليانع. مع حركتها، كشفت استدارة بطنها عن نفسها. كانت الأميرة تنضج كذلك. حاملٌ من هذا الرجل! تكتمتُ حول الموضوع، كذلك سأفعل. هل الطفل مثير لاشمئزازها كحال الفعل الذي منحها إياه؟ أتفهم مشاعرها حول هذا الأمر، اعتقدت أنه من الأفضل المحافظة على صمتي.

التفتت مع ثمار الورد بين يديها. «لا أعوّل على رؤية الورود في مهدها هنا، مرة ثانية في الربيع القادم»، قالت بنبرة لم تكن حزينة أو قلقة، عبّرت ببساطة عن أمر واقع. لكن بالمقابل لا بد أن تعابير وجهي بدت مرتاعة، حيث سارعت إلي. واحتضنتني بين يديها. «لا يمكننا معرفة المستقبل، ولا يمكننا تغييره»، همستْ بلطف. «من الأفضل أن نكون واقعين حول هذه الأشياء. ولكن الوقت الحالي ملك لنا، دعينا نقدره قدر ما نستطيع».

حاولت اتباع نصيحتها. تمكنت بالفعل من قضاء ساعات، وأحياناً أيام أدفع بها خوفي جانباً. أكثر ما أقلقني، فيما مضى، رحيل العمر بين جدران هذا القصر. أما الآن، فهذا كل ما آمله.

مرت الليالي باردة. استيقظت عند الفجر ارتعش. وجدتُني وحدي في السرير. كانت راكعة بجانب النافذة، تصلي بلغة غير عربية. مع كتاب صغير بين يديها.

«نورا؟».

انتفضت مذعورة وتحركت تحاول إخفاء الكتاب. تكشف وجهها عن ملامح صارمة جلفة.

«لا تناديني كذلك!» قالتها بنبرة مؤنبة بما أجفلني. «يذكرني الاسم بنتانة الأمير».

«ما الاسم الذي تودين مناداتك به؟».

«كنت إيزابيلا من قبل، إنه اسمي المسيحي».

«إيزابيلا...»، قلت، متذوقة الأصوات غير المألوفة على لساني. مددت ذراعي نحوها، ارتفعت. سألتُ ما إذا كان بإمكاني رؤية الكتاب، بعدما لمحتُ وميضاً من الألوان حين أغلقتِ الصفحات. نظرنا إليه معاً، كتابٌ ذو حجم صغير جميل، موشومٌ بالأضواء البراقة. لم تكن المنمنمات تهدف إلى نسخ الطبيعة تماماً كما أنها لم تكن تمثل تصويراً رسمياً مثالياً، إلا أن بعضها كان مثيراً للاهتمام بكلتا الحالتين. يتعذر تميز القديس عن الملاك في المنمنمة الواحدة، منمنمة تالية قد تهبك الفرق، بصحبة تفاصيل عديدة، مثل كلب صغير أو طاولة خشبية أو صندوق من الحبوب، قام الفنان بتصويرها تماماً كحالها في الحياة.

«يطلق عليه كتاب الساعات». قالت «تماماً كما الصلوات لديكم مثل صلاة الصبح وقت الفجر، وصلاة المغرب عند غروب الشمس، وهكذا، لدى المسيحيين أيضاً، صلوات باكر، عند الفجر، والغروب وصلاة النوم عند المساء. وهكذا يقسم اليوم عبر طقوس التعبد».

«هذا الفنان ماهر جداً». علّقت «هل يمكنكِ قراءة الكلمات؟». «لا»، قالت. «لا أستطيع قراءة اللاتينية. لكنني أحفظ أكثر الصلوات عن ظهر قلب، أما الصور فتساعدني في عبادتي. جلب الطبيب الكتاب لي. لطف كبير منه».

«لكن الطبيب... لا بد أنه يهودي؟».

«نعم بالطبع. تتانيل ها ليفي، يهودي متدين. لكنه يحترم جميع الأديان، كما يبحث الناس من جميع الديانات عن رعايته. وإلا كيف له أن يعمل مع الأمير؟ عائلة مريض مسيحي توفي لاحقاً، قدمتْ له الكتاب».

«لكن أليس من الخطورة، أن يعلم أنكِ تصلين لإله المسيحيين؟».

«أثق به»، قالت. «إنه الوحيد الذي يمكنني الوثوق به حقاً...

باستثنائك طبعاً».

حدقت عيناها الذهبيتان بعيني. تلمست يدها خدي برفق. ثم ابتسمت إحدى ابتساماتها النادرة والمشرقة. ألقيت برأسي على كتفها، على أمل التقاط بعض دفئها حتى آخره.

فرسان هناك. انتهكوا الجدران الخارجية، إنهم الآن يدهسون آس البلاط. جالت ضربات حوافر خيولهم فوق الحجر. صدح رنين المعدن، والصراخ.

شعرتُ بيدها باردة فوق كتفي الساخنة.

«كنتِ تبكين في نومك»، همستْ. «هل حلمت بوالدك مرة أخرى؟».

«لا» قلت. «ليس هذه المرة».

التزمنا الصمت لفترة في الظلام.

«أعتقد أنني أعرف ما تراءى لك في حلمك». قالت أخيراً «أنا أيضاً، تأثرتُ بتلك الأفكار. انتهى وقت الانتظار. يتوجب علينا وضع الخطط. كنت أفكر بقادم أفضل».

«الله أكبر»، غمغمتُ. «ما سيحدث، سيحدث. لكلّ أجلٍ كتاب».

التفتت نحوي ثم أمسكتْ يدي بكلتا يديها.

«لا!» قالت، بلهجة حازمة وعاجلة. «لا يمكنني التسليم بحياتي وفقاً لإرادة الله كما تفعلين. يتوجب توفير ما يلزم لخلاصي، وخلاص أخي، وما أحمله في أحشائي». وضعت يدها على بطنها المتفخ. اعترفت بذلك أخيراً. أحتاج إلى الحماية. لو أننا فقدنا المدينة كما يلوح في الأفق، فسيقوم أبو عبد الله بقتلي، متأكدة من ذلك. سيستخدم فوضى المعركة لتغطية فعلته. لا بد أنه لا يريد رؤية هذا الطفل مولوداً».

نهضتْ ومشت جيئة وذهاباً في الغرفة. «لولا بيدرو... هناك دير بالقرب من منزلنا. كانت الراهبات فيه لطيفات جداً معي. لطالما فكرتُ كم كن محظوظات، أولئك النساء، المنغلقات على أنفسهن معاً.

الآمنات. لم تتزوجن في شبابهن، فلم يختبرن ولادة تتلوها ولادة، لتنال منهن، الحمى والنزيف في النهاية. كم رغبت في الانضمام إليهن» مال رأسها عند تلك الجملة. «كنت سأصبح عروساً للمسيح، لكن بدلاً من ذلك» احتضنت بطنها بحنان. «أعتقد أن الراهبات سيقمن بالترحيب بنا. بالرغم من كل شيء. سنكون آمنين هناك؛ للأخوات حظوة لدى ملوك قشتالة».

جلستُ وحدقتُ بها غير مصدقة. لم أستطع تحمل فكرة قضاء حياتي مسجونة في دير غير مسلم. كيف يمكنها افتراض ذلك؟

«لن يسمحوا لنا أن نبقى معاً. ليس كما نحن عليه الآن»، قلت. «لا، أنا أعلم ذلك». أجابت «لكننا سنقابل بعضنا بعضاً، و...

نحافظ على حياتنا هناك».

لكن أي نوع من الحياة هذه؟ النفاق في دين لم أعتنقه. أن اضطر لعبادة الأصنام. أن أعيش من دون صلاة حقيقية، من دون الفن الذي أعشقه، بلا أي لمسة بشرية. لكنني اكتفيت بالقول: «لا يمكن لأخيك القدوم معنا».

«لا»، قالت. «لا يُسمح لبيدرو بالمجيء».

حين علم الأمير بحمل زوجته، أرسل الطبيب إليها مباشرة. سمعت عن هذا الرجل، نتانيل ها - ليفي، حتى في إفريقيا، كانت مهاراته العلاجية مشهورة مثل شِعره، كقصائده التي كتبها بأجمل المفردات العربية. لم أعتقد أن بإمكان يهودي تصدّر شِعرنا، أبياته التي نُقشت بلغة القرآن الكريم. لكن هذا وارد في الأندلس، حيث عمل اليهود والعرب جنباً إلى جنب، إنه لأمر ليس بمألوف لدينا.

جمعتُ بعض أشعاره وقمت بتفحصها بعين مرتابة، لكن تلك العين ذاتها، في نهاية الأمر، اغرورقت بالدموع من جمال كلماته والعاطفة التي تنسكب منها. كانت مشورات ها- ليفي لها صدى في البلاط، حتى فيما يتعلق بالأمور غير الطبية. أما كبيرا، فكان رأيها، أن ذلك غير ناجم

عن حكمة الطبيب وقدرته على تخفيف نبضات الأمير الوحشية، لكن حاكمنا هو الذي ضعفت سطوته على العرش منذ فترة طويلة.

كنت أعملُ على اللمسات الأخيرة لصورة بيدرو عندما حضر الطبيب. طلبت مني الأميرة، مؤخراً، أن أتوقف عن رسمها. أظن أن الرفض ناجم عن عدم رضاها بشكل جسدها المتغير مع نمو الطفل المتزايد. لكنها لا تزال بالنسبة لي، بوجهها الممتلئ، وثدييها المنتفخين فاتنة جداً. لكنها أصرت على منحها فترة راحة. في يوم من الأيام، رمتِ التمور من طبق التقديم الفضي المصقول الكبير وأسندته إلى الحائط. دفعتني نحوه وطلبت مني التحديق في انعكاس قامتي داخله. «ارسمي صورة لنفسك. أريدك أن تصوري ما أنتِ عليه، دعينا نرى العمل الأصعب من رؤيتك لذاتك». ضحكتُ. لكنها كانت جادة وأبقت عليّ رغم ترددي.

كرهتُ محاولتي الأولى.

«يجب أن تنظري بمحبةٍ أكثر إلى نفسك، انظري بحنان» قالت.

«أريد الصورة التي قد أرسمك فيها، لو كانت لدي مهاراتك في الرسم». حدقتُ في وجهي متجاهلة الأخاديد المحفورة فيه بفعل الفقد والقلق. رسمتُ تلك الفتاة الإفريقية، الابنة الآمنة، التي جافاها الخوف والنفي، الحرة التي لم تختبر الاستعباد. أعجبتها تلك الصورة. «أحبُّ هذه الفتاة. سأدعوها «منى» الأميرة، أي «أمنيات» الأميرة. ما رأيك؟».

منحتها ابتسامة متوترة محاولة مداهنتها والتظاهر بالقبول. عبرَ سربٌ من السنونو في تلك اللحظة، قرب النافذة العليا، بما حجب ضوء الشمس. شعرتُ ببرد مفاجئ. لم أعرف السبب حينها، لكنني أدركته لاحقاً. كبيرا التي أخبرتني، منذ يومي الأول في هذا القصر، الذي بدا بعيداً جداً، رغم أنه ليس كذلك؛ أن «منى» كان اسمها ذات يوم. أن «أمنيات» و«رغبات» الأشداء ليست سوى أحداثٍ متغيرة. كنت أعرف هذا. لكنني أدركه في بقعة عميقة جداً، هناك حيث يخفي المرء معرفة مرهِقة أو موجعة للغاية لا يمكنه الاعتراف بها، حتى لنفسه.

اعتدتُ الانسحاب مع حضور الطبيب. لكنه اليوم، طلب مني البقاء بينما كنتُ مغادرة مع عملي خارجاً. خطا نحوي لينظر إلى صورة بيدرو، أثنى عليها، وسأل سؤالاً عن تدريبي. أخبرته أنني كنت في خدمة هومان، بما أثار دهشته، آخذاً بعين الاعتبار جنسي الأنثوي. أوضحتُ له، من دون الخوض في التفاصيل، أنني تنكرتُ في هيئة غلام كي أحافظ على أماني. لم يذعن للتصديق، لكنه لم يظهر لي قناعته بما قلت.

«لا»، قال. «لا يتعلق الأمر بتدريب احترافي. أرى شيئاً أكثر في عملك. شيئاً ما... لا علاقة له بالممارسة... لا علاقة له بالتطور، ربما أو أعني... يتوجب علي القول، أكثر صدقاً؟».

أخبرته حينها عن والدي، عن الخبرة التي حصلت عليها أثناء تعلمي للرسومات الموضحة لنصوصه الطبية.

«هكذا إذاً، أعرف عملك»، قال بصوت مليء بالدهشة. «أنا من المعجبين به. أعشاب إبراهيم الطارق ليس لها مثيل» غمرني شعور مذهل بالفخر. «لكن ماذا حل بوالدك؟ كيف أتيتِ إلى هنا؟»».

سردت عليه قصتي باختصار. انحنى برأسه عندما أخبرته بنهاية أبي البغيضة، عن جسده المهجور غير المدفون. ألقى بيديه على عينيه وغمغم بالصلاة: «كان رجلاً رائعاً. أنقذ عمله العديد من الأرواح، أحزنتني وفاته المفاجئة».

حدق بي بعد ذلك، بنظرة طبيب متفحص. رأيتُ تعاطفاً كبيراً في عينيه، وفهمت سبب محبة مرضاه له. «كان والدك محظوظاً بالحصول على طفل مثلك، يمكنه مساعدته بكفاءة. لدي طفل واحد فقط وهو...» لم ينهِ الجملة. «حسناً، أتمنى لو كان لدي شخص بمثل مهارتك، للعمل معي».

تحدثت الأميرة آنذاك، وكادت كلماتها توقف الدم في عروقي.

«إذاً، عليك الاحتفاظ بها يا دكتور. المغاربية هذه هديتي لك

مقابل العناية الكبيرة التي تمنحها لي. ستقوم كبيرا بتحضيرها. يمكنك اصطحابها اليوم، لو أردت».

نظرتُ إلى نورا، بعينين ملتهبتين. لكن وجهها كان هادئاً للغاية. لم أعثر على نبضة طفيفة واحدة في وريد صدغها، تشي بأنها تشعر بأي شيء على الإطلاق، حين ألقت بي، كما لو كنتُ رداءً مستخدماً.

«اذهبي الآن واجمعي أشياءك الخاصة»، قالت. «يمكنكِ اصطحاب صندوق الأصباغ، والأوراق الذهبية والفضية. أريد أن يحصل الطبيب على أفضل ما لديكِ». أردفت بعد ذلك، كما لو كانت فكرة لاحقة، «سأرسل أخي بيدرو، يا دكتور، مع المورا، إن قبلتَ بأخذه يمكنه أن يكون متدرباً لديها، فهي كما قلتَ، ماهرة جداً». التفتت إليَّ، ثم أضافت بأخفض نبرة لديها: «علميه جيداً لأجلي».

وهكذا جرت الأمور. ها أنا من جديد، مجرد أداة، شيء للاستخدام، يتنقل بين أيادي الآخرين. لكنني هذه المرة، على ما يبدو، درعاً لحماية أخيها. ابتعدتُ، مصغية لصوت الطبيب، معرباً عن شكره بأكبر قدر من التقدير. فأنا، على حد تعبيره، «هدية سخية للغاية». الطبيب العظيم، المشهور جداً بتعاطفه. أين اختفى تعاطفه مع مشاعر العبيد؟

وقفتُ بعيداً عن حوارهما. لم تلتفت الأميرة بنظرة إلي. لوحت بيدها في وجهي، كما لو أنها تهشُّ ذبابة مزعجة.

«اذهبي»، قالت. «اذهبي الآن. لقد طردتك». تسمرتُ واقفة هناك.

«اذهبي الآن. إن كنتِ تريدين البقاء على قيد الحياة».

اعتقدتُ أنها كانت تنقذ حياتي. حياتي، وحياة شقيقها الحبيب. حسبتها أثناء استلقائها في الظلام. فكرت بكل شيء - متى؟ منذ متى؟ - من دون استشارتي. تدرك الأميرة أن وجودنا مع اليهود، سيمكننا من النجاة من المدينة، حيث إن عبد الله وفصيله يعتمدون بشدة على مهارات ها ليفي، كما أنهم يسعون على الدوام لطلب مشورته. ارتعشتْ

يداي وأنا أجمع أشيائي. أمسكتُ الصورة ذاتها التي لم تنته في يدي، انتزعتها مني أثناء تنقلها في الجناح.

«سأبقي على هذه. احرصي أن تتركي وراءك غيرها أيضاً - صورة مني» مع كلماتها تلك، أومضت عيناها.

أردت أن أصرخ، ليس بهذه الطريقة. رغبتُ أن أتوسل، أعطني المزيد من الأيام معك، أكثر من الليالي في جوارك. لكنها استدارت بعيداً عني. كنت أعرف قوة إرادتها. لن تتراجع عن قراراها أبداً.

هكذا، جئت إلى هنا، حيث أعيش وأعمل، منذ ما يقارب العامين. ربما كانت محقة في إرسالي بعيداً بهذا الشكل، لكنني لن أقبل عميقاً في قلبي بذلك. لقد حصل ما كانت تخشاه بالفعل: مع تسمم تصدعات العرش، انتهز عبدالله الفرصة للإطاحة بأبيه. كانت نورا قد اتخذت إجراءاتها أثناء ذلك الوقت، وغادرت مباشرة للمكوث تحت وصاية الراهبات. مع حلول موعد ولادتها، قام الطبيب بمساعدتها على وضع فتاة معافاة لا تثير قلقاً لعبد الله. لكن هذا لا يعني، دوام حكمه لفترة طويلة بما يكفي لتنشئة خليفة له: لأن أنفاس القشتاليين كانت أكثر حرارة. أما القادم الذي ينتظرنا فالله أعلم به.

لا يتحدث الطبيب عن ذلك عادة، لا توجد أي مؤشرات لاستعدادات جارية في حال الحاجة لمغادرة هذا المكان. أعتقد أنه يدركُ قيمة ذاته كرجل لا يُمكن الاستغناء عنه، أياً من كان صاحب السلطة. لكني لست متأكدة، أنْ يحظى القشتاليون بذكاء كاف لتقدير مهاراته. بالنسبة لي، لدي القليل من الشكوى في الوقت الحالي. فلم يعد لقبي هنا، المورا. إذ منذ وصولي للعيش في قصر الطبيب، حين سألني عن اسمي مقدماً إياي لزوجته. هز رأسه مع إجابتي: ال- مورا. «لا. الاسم الذي منحه والدك لكِ». قلت: «زهرة». آخر مرة سمعت بها اسمي كانتْ من شفتي والدي، حين صرخ محذراً إياي من قدوم الغزاة. «زهرة ابنة إبراهيم الطارق».

أعاد الطبيب إلي الكثير مما فقدته من ذاتي. حيث كان العمل الذي

أقوم به من أجله، إضافة لاسترجاع اسمي، عملاً قيماً، مرتبطاً بماضٍ خاص بأبي. كل نبات، كل خط، قدمته تمجيداً لله، لراحة روح والدي.

حرص الطبيب، بالرغم من كونه يهودياً متديناً جداً، على احترام دياناتي كما سمح لي بأداء الطقوس الإسلامية الخاصة بالصلاة والصيام. حين لمحني مرة أسجد في الطابق الخاوي من مكتبته، أرسل لي سجادة صلاة أكثر نعومة من تلك التي تركتها خلفي في القصر. أما زوجته، فهي لطيفة للغاية، تأمر موظفيها الكبار بتهذيب وهدوء بما خلق منزلاً يعج بالسلام والسكينة.

في الربيع، مع تمام اكتمال البدر، دعتني للانضمام إلى طاولة العائلة لإقامة أحد أعيادهم. بالرغم من أن الدعوة فاجأتني، فإنني لبّيتها احتراماً، لم أقرب الخمر الذي تسمح طقوسهم بمساحة كبيرة جداً له. أقيمت الطقوس باللغة العبرية، التي لم أفهمها بالطبع. لكن الطبيب بذل الكثير من الجهد ليشرح لي ما المقصود بالأشياء المختلفة التي قيلت وفُعلت. إنه عيد مؤثر للغاية، يحتفل بتخليص العبرانيين من العبودية في أرض تدعى مصرايم.

أفضى إلي، في إحدى مراحل الاحتفال، أن التقاليد تطالب الأب بتعليم ابنه هذه الطقوس، بكل تفاصيلها لكن، أدمعتْ عيناه بحزن شديد، ابن الطبيب الوحيد، بنيامين، مصابٌ بالصمم ولا يمكنه استيعاب الطقوس.

إنه فتى جميل، ليس ساذجاً على الإطلاق. يحب قضاء بعض الوقت مع بيدرو، الذي أصبح خادماً خاصاً له. ومتدربي، لكن في الواقع بالاسم فقط. كان من الجيد لبيدرو، رعاية هذا الشاب المحتاج. لقد منحته هذه المهمة، قيمةإنسانية أكثر مما وجده في عمله معي، إذ في الحقيقة لديه القليل من الكفاءة. أعتقد أنه خُلق ليحب هذا الصبي، كما ساعدته العلاقة الودودة هذه على تخفيف شوقه لأخته، التي حاولتُ ملء مكانها قدر استطاعتي من الحنان، لكننا كلينا نعرف، أنه لا يوجد ما يعوض عن خساراتنا تلك. ثم أخذتُ على عاتقي أن أقوم في الخفاء،

بمجموعة من المنمنمات لبنيامين التي تحكي له قصة اليهود في العالم، كما يعتقد بها اليهود.

يمتلك الطبيب العديد من الكتب عن عقيدته، لكنها تشرح بالكلمات فقط، لا ترفق بالصور كما تفعل كتب المسيحيين بحيث تساعدهم في فهم صلواتهم. يبدو أن اليهود كارهون للتصاوير كحالنا نحن المسلمين. لكن بالتعاطف مع بنيامين، مع الصمت القابع فيه، المنغلق عليه، مع حرمانه من الاحتفالات الجميلة الحركية المؤثرة لعقيدته، تذكرتُ كتاب الصلاة لإيزابيلا والتصاوير الموجودة فيه التي ساعدتها على القيام بالصلاة.

الفكرة التي خطرت لي أن مثل هذه المنمنمات ستكون ذات فائدة عظيمة لبنيامين. لا أظن أن الطبيب أو إلهه سيستاءان من صوري. داومتُ على الاستفسار من الطبيب أو زوجته من وقت لآخر، لطالما أسعدهم التوضيح لرؤية اليهود تجاه هذا الأمر أو ذاك. عملتُ على التبصر فيما يقولونه، ثم حاولت ابتكار طريقة لتوضيح ذلك بما يمكن الفتى الصغير من الفهم. ما أدهشني هو كثرة ما أعرفه عن دينهم. حيث بدا لي أن حسابات اليهود عن خلق الله، تختلف بجوانب قليلة فقط عن النسخة الصحيحة الواردة في القرآن الكريم لدينا.

رسمتُ صوراً تُظهر فصل الله النور عن الظلام، وتكوين البسيطة والمياه. رسمتُ الأرض التي خلقها الله كما لو كانت كروية. الفكرة التي وثقها والدي يوماً. أردفتها بمحادثة أجريتُها مؤخراً مع الطبيب حول هذا الموضوع. فأشار إلى أنه بالرغم من صعوبة فهم مثل هذا الشيء، فإن حسابات علماء الفلك من المسلمين أكثر تقدماً من غيرها. ثم أشار، لو أنه خَير بين رأي الفلكي المسلم وعقيدة القس الكاثوليكي، فلن يختار الكاهن. على أي حال، أنا أفضل التراكيب التي تستخدم الدوائر والمنحنيات. فهي متناغمة ومثيرة للاهتمام أثناء الرسم. أريد أن تكون هذه المنمنمات ممتعة، كي تجذب انتباه الصبي إليها. لتحقيق هذه

الغاية، ملأت بساتين الجنة بحيوانات من طفولتي، فهود مرقطة وأسود ضارية الفك. آمل أن يستمتع بها.

ها أنا أستخدم آخر أصباغ هومان المشرقة، في صناعة هذا الكتاب اليهودي، أتساءل ما الذي سيفكر فيه. سيتعين عليّ قريباً، إرسال طلب بالمزيد من الأصباغ من السوق، إلا أن الأعمال التي يحتاجها الطبيب، لنصوصه، تتطلب أحباراً بسيطة، ليست من اللازورد أو الزعفران، ولا تحتاج اللون الذهبي بالطبع. كم أشعر بالسعادة في استخدامي هذه الأصباغ لمرة قد تكون الأخيرة في حياتي. لا يزال لدي واحدة أو اثنتان من الفُرش المصنوعة من الشعر الأبيض الناعم لقطط هومان، ولكن هذه، أيضاً، بدأت تبلى وتتساقط.

عندما أسأل الطبيب عن عقيدته، في بعض الأحيان، تعمل قصة شعبه العنيد على اجتياحي، الشعب الذي عوقب مراراً من قبل إله خيبوا أمله بهم. رسمتُ قصة طوفان نوح، ومدينة النار في لوط، وتحول سيدتها إلى تل من الملح. ناضلتُ جاهدة من أجل ابتكار صور توضح جميع أحداث قصة عيد الربيع، التي كانت ببعض عناصرها فظيعة للغاية. كيف أظهرها؟ على سبيل المثال، لماذا استسلم ملك مصرايم في النهاية لموسى؟ كيف أنقل الرعب في الحكاية، أو الذعر من الأوبئة، أو موت الأبكار؟ أريد أن يفهم بنيامين أن الأطفال في المنمنمة قد ماتوا جميعاً، لكن في محاولتي الأولى، بدوا جميعاً نائمين. أومضت بالأمس في ذهني فكرة. تذكرتُ محطمي الأيقونات وكيف قاموا بتمرير الخطوط الحمراء عبر أعناق الصور الإنسانية في الكتب التي شوهوها. لذلك رسمت أشكالاً داكنة على فم كل طفل نائم، لتمثيل القوة المظلمة لملاك الموت، وسرقة نفَسِ الحياة. المنمنمات التي رسمتها كانت تعبر عن ذلك ووحشية للغاية. أتساءل ما إذا كان بنيامين سيفهمها؟

أضمرتُ على تقديم هذه المنمنمات إلى الطبيب بمناسبة العيد القادم قريباً. أعمل الآن على منمنمة العيد نفسه. لقد وضعت الطبيب

على رأس الطاولة مع بنيامين بجانبه، وزوجته، مرتدية ملابس أنيقة، وأخواتها القاطنات في هذا المنزل. ثم جاءت قامتي لتُضاف مع التجمع ذاك. ألبستُ نفسي ثوباً من الزعفران، اللون المفضل لدي دائماً، بالقيام بذلك استخدمتُ آخر ما أملك من هذا الصباغ. أبهجتني تلك المنمنمة، أكثر من جميع المنمنمات التي قمتُ بإنجازها. بدا الأمر رائعاً، أن أوقع العمل باسمي، اسمي الذي أعاده إلي الطبيب. استخدمتُ آخر فُرشي الدقيقة الخاصة للقيام بذلك، آخرها التي كانت مكونة من شعرة واحدة.

رسمتُ رأسي مائلاً بزاوية متيقظة، حيث تخيلتُ نفسي أتأمل بما يسرده الطبيب عن موسى، الذي تحدى ملك مصرايم، واستخدم عصاه السحرية لتحرير شعبه من عبودية هؤلاء. لو أن هناك عصا سحرية أخرى تحررني من عبوديتي! الحرية، في الحقيقة، هي كل ما أفتقده الآن. لدي في هذا المكان عمل مشرف، والكثير من الراحة. لكنها ليست بلادي. الحرية والبلاد. الأمنيتان اللتان التمسهما اليهود، وأكرمهم بهما الله، عبر عصا موسى.

وضعتُ فرشاة شعر القط وتصورتُ كيفية الحصول على مثل هذه العصا. ها أنا أرى نفسي، متجهة صوب الساحل. ينفصل البحر العظيم أمامي، سأعبره، وأقطع طريقي، بخطوات بطيئة، في نهاية جميع الطرق الترابية المؤدية إلى الوطن.

حنا

سرايفو، ربيع 1996

لم أجد أحداً، من مرافقي الأمم المتحدة، بانتظاري في مطار سرايفو، لسبب بسيط، أنني لم أعلم أحداً بقدومي.

كان الوقتُ متأخراً عندما وصلت. تم تأخير الرحلة من فينا ساعتين ونصف الساعة. كم كان من الصعب التوجه من مطار فينا، الذي يعد مركزاً تجارياً كبيراً ولامعاً، والوصول بعد نصف ساعة تقريباً إلى المطار المقتصد الخاوي الذي لا يزال مسلحاً في سرايفو. في الخارج، تنقلك السيارات من مدخل المطار إلى الشوارع التي لا تزال مظلمة بشكل غير معقول - رغم أنهم قاموا بإصلاح عدد قليل جداً من مصابيح الشوارع، التي كانت نعمة، على ما أظن، نظراً للمظهر البغيض المكتظ بالسكان في الأحياء المحيطة بالمطار. لم تراودني الحالة من الرهبة نفسها كما حدث في زيارتي الأولى، إلا أنني شعرتُ بارتياح شديد حين وصلت إلى غرفتي في الفندق وأغلقت الباب ورائي.

اتصلت في الصباح بهاميش ساجان في مكتب الأمم المتحدة، وسألته عما إذا كان بإمكاني إلقاء نظرة على قاعة العرض الجديدة في المتحف. حيث الاحتفال الرسمي لا يزال على بعد أربع وعشرين ساعة، فأجاب أنه متأكد من أن مدير المتحف لن يكون لديه مانع إن حضرتُ قبل توافد حشود من الشخصيات المدعوة.

إن الشارع الواسع، المعروف سابقاً باسم سنيبر آلاي، الواقع على

أطرافه المتحف، تم منحه أناقة قرية بوتيمكين خلال الأسبوعين اللذين غادرته فيهما. حيث نُقلت أكوام الأنقاض، ردمت أسوأ الحفر الموجودة فيه. كما سيِّر الترام من جديد، بما أعطى الشارع هيئته الطبيعية. صعدتُ الدرج المألوف للمتحف المودي إلى مكتب المدير لتناول القهوة التركية القسرية. جلس هاميش ساجان هناك، مبتهجاً. حيث حظيت الأمم المتحدة للمرة الأولى، على القليل من الفضل لقيامها بعمل مناسب في البوسنة. ثم اصطحبني، بعد مجاملات كافية، مع المدير إلى القاعة المفضية إلى الجناح الجديد، الذي يحرسه رجلان من الأمن. لكز المدير الرمز السري. فأمكننا سماع انكماش المغاليق الجديدة.

كان جناحاً جميلاً. بدا الضوء مثالياً: منتظماً، غير ساطع. بينما تدَوّن المستشعرات الحديثة الخطوط التي تتبع درجة الحرارة والرطوبة. راجعتُ الرسوم البيانية: 18 درجة مئوية، مثالية، درجة زائدة أو درجة ناقصة. الرطوبة، 53 في المئة، ملائمة تماماً كما ينبغي. فاحت الجدران برائحة نظيفة وحادة للجص الحديث. اعتقد أن التواجد في هذا الفضاء، سيكون بمنزلة دفع معنوي لمعظم سكان سرايفو، على نقيض كبير مع مدينتهم المدمرة بالخارج.

خزانة عرضٍ احتلت مركز الغرفة، صُنعت بشكل خاص لتحتفظ بالهاجادا داخلها، تحت هرم من الزجاج يقيها من الغبار والتلوث، من الناس كذلك. عُلقت على الجدران معروضات ذات صلة - أيقونات أرثوذكسية، خطوط إسلامية، صفحات سِفر المزامير الكاثوليكية. مشيت بجانب كل واحدة منها ببطء. كان الاختيار ممتازاً، ومدروساً. شعرت بذكاء أوزرين في العمل. كان لكل قطعة سمة مشتركة مع الهاجادا- مواد مماثلة أو أسلوب فني ذو صلة بها. الجانب الذي مفاده أن الثقافات المتنوعة تؤثر وتثري بعضها بعضاً ظهر ببلاغة صامتة.

التفتُّ أخيراً إلى الهاجادا. كانت خزانة العرض التي شكلها الصانع من خشب الجوز المعقد المليح. بدا الكتاب مفتوحاً عند منمنمة الخلق

- سيتم قلب الصفحات تباعاً وفقاً لجدول زمني محدد، حتى لا تعرَّض أي صفحة لضوء أكثر من اللازم.

نظرت إلى أسفل من خلال الزجاج، أفكر في الفنان، وبالفرشاة المنغمسة في صبغة الزعفران. في شعر القط الذي تعرفت عليه كلاريسا موناتاغو -مورغان - المقصوص بتساوٍ على كلا الطرفين، الملطخ بآثار الصبغة الصفراء - من فرشاة الطلاء الخاصة بالفنان. كانت الفرش الإسبانية الأكثر شيوعاً مصنوعة من شعر السناجب أو فراء السنور.

يؤخذ الفراء من منطقة الحنجرة ذات الشعر الطويل للسنور الشيرازي البالغ من العمر شهرين، الذي تتم تربيته خصيصاً لهذا الغرض، إنها المادة المفضلة للفنانين الإيرانيين، لصنع القلم الإيراني. «القلم» هو اسم لأسلوب الرسم، أكثر من كونه أداة. مع ذلك، لم تكن هذه المنمنمات فارسية على الإطلاق في الأسلوب أو التقنية. فلماذا قام أحد الفنانين في إسبانيا بإلقاء الضوء على العقيدة اليهودية على الطريقة المسيحية الأوروبية مستخدماً تقنية فارسية؟ كان تحديد كلاريسا لهذه الحالة الغريبة عظيماً في مقالي. فقد منحتني فرصة للتجول في الطريق الذي سارت فيه المعرفة مسافات مذهلة إبان الدولة الأندلسية، عبر دروب راسخة تربط الفنانين والمثقفين في إسبانيا، بنظرائهم في بغداد والقاهرة وأصفهان.

وقفت هناك، أحدق، متسائلة ما الرواية الكامنة خلف السفر - الفرشاة أو الفنان الذي صنعها. تخيّلت حجم الضجة في إسبانيا، التي أثارها الاستخدام الأول لشخص ما لإحدى هذه الفرش العالية الجودة، استشعرتُ حفيف الشعر الأبيض الناعم يتماوج فوق الرق المُحضر بعناية.

الرق...

أومض شيء في رأسي، اقتربت أكثر من الخزانة الزجاجية، مع ارتياب من الدليل الواقع أمام عيني. بدت الأرض وكأنها تتهاوى من تحت قدمي.

استقمتُ وتوجهت مباشرة إلى ساجان. انكمشت ابتسامته العريضة

حين رأى وجهي، الشاحب مثل الجص الطازج. حاولت التحكم في صوتي.

«أين الدكتور كارامان؟ أحتاج أن أراه».

«هل هناك خطب ما، الخزانة، درجة الحرارة؟».

«لا لا. لا يوجد شيء خاطئ... لا مشكلة في الجناح». لم أكن أرغب في اختلاق ضجة عامة. سنحظى بفرصة أكبر للتعامل مع الأمر إن تصرفنا بهدوء. «أحتاج إلى رؤية الدكتور كارامان - بشأنِ حول مقالتي. تذكرتُ أنني نسيت إجراء تصحيح ضروري».

«عزيزتي الدكتورة هيث، تمت طباعة الفهارس للتو. أي تصحيحات -».

«لا يهم. أريد فقط أن أقول له...».

«أعتقد أنه في المكتبة. هل أرسل له؟».

«لا، أنا أعرف الطريق».

خرجنا، أغلق الباب الجديد، وأقفل خلفنا بنقرة ناعمة. بدأ ساجان بترجمة وداع رسمي للمدير، الذي اختصرته بوقاحة حين ركضتُ بخطواتي بعيداً عنهم نهاية الممر. كان هذا ما يمكنني القيام به لتجنب نقاش معهم أثناء رحيلي. اجتزتُ أبواب البلوط الكبيرة للمكتبة، ومضيتُ مسرعة في الزقاق الضيق بين المداخن، ثم وصلتُ باب أمين المكتبة المساعد المشغول في إعادة ترتيب المجلدات. كان أوزرين في مكتبه، جالساً يتحدث إلى شخص مستدير بظهره لي.

اخترقتُ الباب من دون طرقه. وقف أوزرين، متفاجئاً من طريقة دخولي تلك. كان وجهه رمادياً هزيلاً. أما عيناه فأحيطتا بدوائر داكنة. نسيتُ للحظة أن ابنه ووري الثرى منذ أقل من ثمان وأربعين ساعة. تراجع قلقي للحظة خلف موجة من الشعور بالأسى. تقدمت إلى الأمام، أحطته بكلتا ذراعي.

بدا جسده صلباً للغاية. تراجع إلى الوراء، متفادياً عناقي.

«أوزرين، تعازي الحارة وأسفي على إليا، أعتذر حقاً عن اقتحامي مكتبك بهذا الشكل، لكنني -».

«أهلاً بكِ، دكتورة هيث». أتاني صوته مقاطعاً، مسطحاً وغير رسمي. «مرحباً، حنا!» قال الرجل الجالس على الكرسي منتصباً ببطء أثناء التفاتي نحوه.

«فيرنر! لم أكن أعلم، شكراً لله على وجودك هنا».

فيرنر هينرتش، أستاذي، الأفضل ممن يلتقطون التزوير حالاً في هذا العمل، أكثر من يمكنه مساعدتي.

«بالطبع أنا هنا، حنا ليبشن. لن أفوت حفل الغد. لكنكِ لم تخبريني أنك قادمة. تخيلت أنك عدت إلى وطنكِ الآن. إنه لأمر رائع أن تكوني هنا لحضور الحفل».

«حسناً، إن لم نتحرك بسرعة، فلن يكون هناك حفلٌ غداً. شخص ما سرق الهاجادا. لا بد أنه أميتاي، هو الوحيد الذي...».

«حنا يا عزيزتي، اهدئي...» وصل فيرنر إلى يدي، التي كنت أحركها بعنف. «أخبرينا بهدوء».

«هذا هراء». تحدث أوزرين مع فيرنر. الهاجادا في الخزانة. قمتُ بالتأمين عليها هناك بنفسي».

«أوزريـن، إنها مزيفة، تلك الموجودة في الفترينة، مزيفة بشكل متقن - الفضة المؤكـدة والبقع والأصباغ الملطخة. أعني، رأينا جميعاً مخطوطات مزيفة، لكن هذه رائعة جداً. إنها نسخة طبق الأصل، مثالية، كاملة باستثناء أمر واحد. الشيء الوحيد الذي لا يمكن قبوله، لأنه لم يكن موجوداً لثلاثة قرون مضت»، توقفتُ لبرهة محاولة التقاط أنفاسي. بينما كان فيرنر يربت على يدي كما لو كنت طفلاً هستيرياً. كانت يداه، يداه القويتان الحرفيتان، اللتان تنتهيان بأظافر مشذبة كما العادة. سحبت بعيداً يدي العارية الجافة القبيحة، ورفعتها نحو شعري.

أمسى أوزرين شاحباً تماماً. وقف.

«ما الذي تتحدثين عنه؟».

«المخطوطة. الأغنام التي صنعوها منها، تلك السلالة – أغنام أوفيس أراجونوسا أورناتا – انقرضت في إسبانيا منذ القرن الخامس عشر. هذا ما استخدموه، ثقوب المسام، كلها مختلفة... الحجم، التبعثر... إنها مخطوطة مصنوعة من سلالة مختلفة...».

«لا يمكنكِ الجزم بذلك، جراء تفحص صفحة واحدة فقط» تحدث أوزرين بتوتر شديد بشفاه مزمومة.

«نعم، أستطيع». أخذت نفساً عميقاً من دون زفير. «الأمر مستحيل، إلا إذا كنت ممن أمضوا ساعات في مقارنة المخطوطات القديمة. أقصد، الأمر واضح بالنسبة لي. فيرنر، ستلحظ ذلك على الفور، أعلم أنك سوف تفعل». تجعد وجه فيرنر الآن بقلق واضح. «أين أميتاي؟» سألتُ «هل غادر البلاد فعلاً؟ إن غادر فعلاً، فقد حلّت علينا اللعنة...».

«حنا. توقفي عن هذا!». تحول صوت فيرنر الناعم إلى نبرة صارمة. أدركتُ حينها أن تعبيري عن قلقي، جاء في الواقع اهتياجاً. فلم يأخذ ما أقوله على محمل الجد. لا أزال، بالنسبة إليه، تلميذة عبر القارات، فتاة لديها الكثير لتتعلمه. التفتُّ إلى أوزرين. لا بد أنه سيصغي إلي.

«دكتور. يومتوف موجود هنا في سرايفو». أجاب أوزرين. «إنه ضيف الجالية اليهودية لحضور الحفل غداً. لم يقترب أبداً من الهاجادا. حيث تم حفظ الكتاب في قبو البنك المركزي منذ اليوم الذي غادرتِ فيه الشهر الماضي، ثم نقلناه تحت حراسة مشددة بالأمس. لقد وضع في الصندوق المصمم وفقاً لمواصفاتك، التي شاهدتني أغلقه بنفسي، كما أنني قمتُ شخصياً بتحطيم شمع الأربطة لأضعه في الخزانة. لم يخرج من يدي للحظة واحدة خلال ذلك الوقت. الخزانة محصنة بأحدث المعدات، أما الجناح فمزود بأجهزة استشعار وكاميرا مراقبة تعمل طوال اليوم إضافة إلى حارس دائم. أنت تخدعين نفسك بهذه الاتهامات».

«أنا؟ يا أوزرين الودود؟ ألا يمكنك الانتباه؟ الإسرائيليون – لا بد

أنهم أرادوا هذا الكتاب العائد لعصور... لا بد أنك سمعت عن الشائعات خلال الحرب... عن أميتاي، أليس كوماندوس سابق، ألا تعلم ذلك؟».

هز فيرنر عرفه الفضي. «ليس لدي أي فكرة». حدق أوزرين في وجهي بلا أي تعابير. لم أستطع أن أفهم لماذا يتصرف بسلبية مفرطة. أردت أن أستثيره. لكنه لا يزال في حالة صدمة على إليا. ثم فكرتُ في المكالمة الهاتفية الغريبة لشقته.

«ما الذي كان يفعله أميتاي في شقتك، بكل الأحوال، في تلك الليلة؟».

«حنا». أتى صوته بارداً. متجمداً كلياً الآن. «خاطرتُ بحياتي لإنقاذ هذا الكتاب. إن كنتِ تعنين».

رفع فيرنر يده: «متأكد أن الدكتورة هيث لا تشير إلى أي شيء. لكني أعتقد أنه من الأفضل أن نجري اختباراً». كانت يداه ترتجفان. يبدو أن ما قلته عن أميتاي أقلقه بوضوح. «تعالي يا عزيزتي، فلنر ما الذي يزعجك».

أمسك فيرنر بلا توازن، ذراعي. شعرتُ بقلق مفاجئ عليه. سيصاب بصدمة عارمة حين يرى المخطوطة المزيفة.

نهض أوزرين من مكتبه وقاد الطريق إلى نهاية الممر الطويل، مروراً بقاعات العرض حيث كان العمال يستبدلون الأغطية البلاستيكية التي لا تزال تغطي العديد من نوافذ المتحف المدمرة بالزجاج الصلب. أومأ أوزرين إلى الحراس ثم لكز كلمة السر في لوحة المفاتيح.

«هل يمكننا إخراجها؟».

«ليس من دون تعطيل نظام التحصين بأكمله»، قال أوزرين.

«أظهر لنا ما تعتقد بأنه الأنسب».

أومأتُ.

انحنى فيرنر وأنعم النظر في الفترينة. تفحص المكان الذي أشرتُ إليه لعدة دقائق. ثم استقام.

«أشعر بالارتياح، لأنني لا أستطيع الاتفاق معك يا عزيزتي. إن الانتثار يتماشى تماماً مع العديد من الأمثلة التي درستها من هذا النوع من

الرق. يمكننا، على أي حال، مقارنة الصفحة بصور الوثائق التي التقطتها أثناء بحثك، كي يرتاح قلبك».

«لكنني أرسلت الصور السلبية إلى أميتاي! استخدمها، بالتأكيد، لصنع المخطوطة المزيفة هذه، ألا ترى؟ سيستبدل صوري بصور هذا... الشيء. يتوجب عليك الاتصال بالشرطة الآن، وتنبيه سلطات الحدود والأمم المتحدة...».

«حنا يا عزيزتي، أنا متأكد أنك مخطئة. باعتقادي، عليكِ أن تكوني أكثر حذراً، حول إلقاء مثل هذه الاتهامات الوحشية ضد زميل محترم».

تحدث فيرنر بنبرة منخفضة وهادئة، لا ينفك يعاملني كطفل شديد الانفعال. وضع يده على ذراعي.

«عرفت أميتاي يومتوف وتعاملتُ معه لأكثر من ثلاثين عاماً. إنه رجل ذو سمعه محترمة. أنتِ تعرفين ذلك». التفتَ إلى أوزرين بعد ذلك. «لعلنا من الأفضل دكتور كارامان، بهدف طمأنة الدكتورة هيث، أن ننزع نظام التحصين، ونقوم بفحص كامل للمخطوطة؟».

أومأ أوزرين برأسه. «نعم بالطبع. بإمكاننا فعلُ ذلك. لا بد أن نقوم بذلك. لكن علي إعلام المدير أولاً. تم تصميم النظام بحيث يتطلب منّا كلينا، إدخال الرموز التي تفوضنا بتقويض النظام».

كانت الساعة التالية، الساعة الأغرب والأشد تعباً في حياتي المهنية. جال فيرنر وأوزرين بصفحات المخطوطة صفحة تليها صفحة. أشرتُ في كل مكان إلى وجود حالة شاذة، لكنهما كليهما لم يلحظا أي شيء غير منتظم. أرسلا بالطبع للحصول على الصور، فبدت متفقة تماماً مع الكتاب، الأمر الذي كنتُ أتوقع حدوثه. لكن قناعة فيرنر كانت ثابتة، أما رأيي فلم يكن يستحق الكثير، مقارنة برأيه. بالنسبة لأوزرين، كما كرر، فقد خاطر بحياته من أجل الكتاب، مصمماً على أن أي خرق أمني حدثٌ مستحيل. في النهاية، شرعت الشكوك الذاتية تقضم أفكاري. انتفضت حبات العرق الحارة في جميع أنحاء بشرتي. ربما كان هذا اللبسُ ناجماً

عن الضغوط التي تعرضتُ لها خلال الأيام القليلة الماضية: حادث أمي، صدمة اكتشاف والدي، والأخبار عن إليا. حدثٌ آخر، لعلني حين رأيت أوزرين بعينيه البائستين ووجهه المنهك، شعرت بشيء ما. شيء غير مألوف بالنسبة لي، لكنني عميقاً أدركُ ماهيته. كنت على علم، أنني سأعود إلى سرايفو لأجله، ليس لأجل الكتاب فقط. كنتُ أفتقدهُ بشدة، ألا يقولون إن الحب أعمى. لكنني، على ما أظن، بدأتُ برؤية الأشياء».

في نهاية الفحص، التفت إلي أوزرين وفيرنر. «حسناً، ماذا تريدين أن تفعلي؟» قال أوزرين.

«أفعل؟ أنا؟ أريدكَ أن تحصل على أمر تفتيش، وتتحقق من كل حزام ومنديل في حقيبة أميتاي. أريدك أن تغلق الحدود في حال منح المخطوطة بالفعل إلى هيئة ما».

«حنا». أتى صوت أوزرين منخفضاً. «إن فعلنا هذه الأشياء، سنخلق معضلة دولية، حيث إن الدكتور هاينريش، الذي لا يُشك في خبرته، وأنا شخصياً، لا نعتقد أنها مزيفة من الأساس. بمجرد تقديم مثل هذا الادعاء، وبفعل التوترات الخاصة هنا، سيختار بعض الأشخاص تصديقه، حتى لو لم يكن له أساس من الصحة. سوف تهيجين انشقاقاً داخلياً حول القيمة التاريخية ذاتها للمخطوطة، التي من المفترض أن تدعم تعدد الأعراق المثالي في بلادنا. ستقللين من قيمتك الذاتية، وتدمرين سمعتك المهنية. إن كنت مقتنعة تماماً وبشكل كامل، بأنك تعرفين أفضل من فيرنر هاينريش، فقومي بإبلاغ الأمم المتحدة بذلك. لكن ثقي بأن المتحف لن يدعمك». توقف، ثم طرق ضربة خفيفة بمطرقة. «ولن أدعمك».

لم أستطع النطق بكلمة. حدقتُ بأحدهما تلو الآخر، ثم نظرتُ إلى الكتاب. مررتُ يدي فوق الغلاف. سعت أطراف أصابعي نحو مساحة صغيرة حيث قمت بإصلاح الجلد البالي. أمكنني الشعور بالتموجات الحديثة حيث تشابكت الألياف الجديدة مع القديمة.

التفتُّ ثم خرجت من الجناح.

لولا

القدس، 2002

إِنِّي أُعْطِيهِمْ فِي بَيْتِي وَفِي أَسْوَارِي نُصُباً وَاسْماً

• سفر إشعياء

ها أنا امرأة عجوزٌ الآن، حتى الصباح قاسٍ علي. أقوم باكراً هذه الأيام. أعتقد أن البرد هو الذي يوقظني، مثيراً الوجع في عظامي. لا يدرك الناس مدى برودة الطقس هنا. صحيح أنه لا يماثل البرودة في جبال سرايفو، لكنه كافٍ وافٍ.

ليست هذه الشقة سوى جزء من منزلٍ عربي قبل عام 48، حيث ترتشف الحجارة القديمة البرد من تصدعاتها. لا أستطيع تحمل الحرارة العالية كذلك. لعل السبب الحقيقي في استيقاظي المبكر هو خشيتي من النوم الطويل. أعلم أنني في يوم من الأيام، لا تبعد كثيراً عن هذه الأيام، سيتسلل البرد من شقوق الحجارة إلى جسدي الغارق، في هذا السرير الضيق. بعدها لن أستيقظ أبداً.

وماذا في ذلك؟ حصلتُ على ما يكفي من الحياة. أكثر حتى مما خططتُ له. أي شخص ولد حيثُ ولدت، حيث كنتُ، ما كنتُ عليه، لا يجوز له الشكوى من موت قادم، كموتي الآتي في موسمه المناسب.

أحصلُ على معاش، لكنه ضئيل، لذا ما زلت أذهب للعمل لبضع ساعات كل أسبوع، معظمها نهار السبت. إنه أسهل يوم للعثور على عمل إذا كنت غير متدين. لا يعمل الأرثوذكس في ذلك اليوم، أما أصحاب العائلات فيودون الاستمتاع بيوم العطلة. اعتدتُ منذ سنوات على التنافس مع العرب في سبيل الحصول على عمل السبت، لكن منذ الانتفاضة، فُرض الكثير من حظر التجوال، وتعددتْ نقاط التفتيش، بما تسبب بتأخيرهم أو غيابهم معظم الأحيان. فلم يعد أحد يرغب بتوظيفهم. أشعر بالأسف عليهم، أشفقُ حقاً. ويراودني الحزن بسبب معاناتهم تلك.

بكل الأحوال، الوظيفة التي أعمل بها هذه الأيام، عملٌ لا يرغبون به. لا يحبذه الكثير من الناس. أما بالنسبة لي، فقد صنعتُ سلامي برفقة الموتى. إن صور المرأة الواقفة على حافة الحفرة التي ستمسي قبرها، توهج اللهب المتصاعد من الأجساد البشرية، مشاهدٌ لم تعد تزعجني.

أقوم بتنظيف فيترينات العرض وأنفض عنها الغبار، وأفكر في النساء. من الجيد أن نفكر فيهن. أن نتذكرهن غير عاريات بمشاهد تقشعر لها الأبدان، كما هو الحال في الصور، لكن كما كن بمعيشتهن، في زمن غابر: نساء عطوفات، تقمن في المنزل بأشياء عادية في حياة تقليدية. أفكر أيضاً في الشخص الذي انكمش جلده بين ألسنة النار. أول منظر تراه أثناء دخولك إلى المتحف. لمحتُ بعض الزائرين، سرعان ما يتراجعون مع رؤيتهم للمشهد. ليخرجوا بوجوه كامدة كالحة. لكنني عندما أنظر إليه، ينتابني دفق من الحنان. ألا يمكن أن يكون جسد أمي! أو جسداً لأحد أعرفه. لو كانت الأمور مختلفة قليلاً، لكان هذا الجسد المحترقُ جسدي.

أعتقد أن تنظيف هذه الأجنحة، شرفٌ كبير. يمكنني القول إنني أهتم بهم بروية وحرص يشبهانني تماماً. أتأكد مع نهاية النهار، من عدم وجود بقعة من الغبار، أو أثر على الأرض أو مسحة لبصمة ما. هذا ما يمكنني تقديمه لهم.

اعتدت المجيء هنا، حتى قبل حصولي على هذه الوظيفة. ليس إلى المتحف، وإنما إلى الحديقة، لأقف طويلاً أمام لوحة خاصة بشريف كمال وزوجته ستيلا، في حديقة الصالحين، حيث وضع اسماهما بين أسماء غير اليهود الذين خاطروا كثيراً لإنقاذ أشخاص مثلي. لم أرهما مرة أخرى، بعد أمسية الصيف المتأخرة في الجبال خارج سرايفو. حيث كنتُ أتصارع مع خوفي، لدرجة لم أقل وداعاً وافياً لهما. لم أقم بشكرهما حتى.

كان الرجل الذي أخذوني إليه، في تلك الليلة، ضابطاً أوستاشياً. متزوجاً سراً من امرأة يهودية، بما دفعه لمساعدة أشخاص مثلي في ذلك الوقت. بدا الأمر بسيطاً بالنسبة له، حيث رتّب لي كل شيء. ورحّلني صوب الجنوب مع الأوراق المناسبة لأقضي في المنطقة الإيطالية، بقية الحرب بأمان. بعد ذلك، مع وصول تيتو إلى السلطة، أمسيتُ شخصاً مهماً للمرة الأولى والأخيرة في حياتي. كنا أبطالاً اشتراكيين كباراً لبضعة أشهر. مكونين من الشباب الحزبيين الذين كانوا معه في الجبال. أما حقيقة خيانته لنا، والتخلي عنا للموت هناك، أحداثٌ نسيناها تماماً ولم تذكر فيما بعد. حصلتُ على وظيفة في صفوف الجيش الجديد، تم تكليفي بالعمل كمساعدة للثوار الجرحى، في مبنى قديم بجوار البحر في سبليت. إنه المكان ذاته الذي التقيتُ فيه برانكو، قائدنا الذي تركنا بقلبٍ باردٍ للتهلكة. كان مصاباً بإطلاق نار في الفخذ والأمعاء. بدا مظهره مروعاً، بالكاد يمكنه المشي، مريضاً على الدوام بفعل التهابات جروحه المزمنة.

تزوجته. لا تسألوني لماذا. كنت فتاة غبية. لكن مع وحدتك، حيث لا شخص في جوارك، لا أحد يتذكرك على الإطلاق. حالةٌ يصبح فيها أيُّ شخص، تمتلك ماضياً مشتركاً معه، قريباً منك. حتى لو كان ذاك الشخص هو برانكو.

أدركتُ الخطأ الجسيم الذي ارتكبته، حتى قبل بلوغنا الذكرى

السنوية الأولى لزفافنا. حيث تسبب جرحه بضرر جسيم في ذكورته. مع ذلك، ألقى اللوم بشكل ما عليّ. طلبَ مني اتخاذ وضعيات خليعة وحركات غريبة لإرضائه. لستُ من النساء الخجولات جداً، لذا حاولتُ تلبية رغباته، لكنني ما زلتُ غرّة وبريئة لأقوم بأفعال كهذه، على الأقل... حسناً، كان من الصعب علي تنفيذ بعض الأشياء التي يريدها. لو أنه امتلك القليل من الحنان، لربما جرت الأمور بمسار أفضل. لكنه تنمر، حتى مع حالته المستعصية، بما أشعرني بأنه يستهلكني في معظم الأوقات.

عندما قرأت في الصحيفة أن شريف كمال ستتم محاكمته كمتعاون مع النازية، أخبرتُ برانكو أنني مسافرة إلى سرايفو للإدلاء بشهادتي لتبرئته. لا أنسى نظرته لي حينها. كان مستنداً إلى كرسي بجانب النافذة في غرفتنا الخاصة في ثكنات المتزوجين، التي حصلنا عليها بحكم وظيفتي، ولكونه بطلاً مصاباً في الحرب. انحنى نحو الأمام، وضرب بعصاه ألواح الأرضية. كان الصيف حاراً جداً. والضوء يموج بغزارة عبر النافذة الضيقة المطلة على الميناء.

«لا»، قال. تدفق وهج الماء الأزرق الداكن وصولاً إلى عيني، بما اضطرني إلى رفع يدي لتظليلهما.

«ماذا تعني بلا؟».

«لن تغادري إلى سرايفو. أنتِ جندية في الجيش اليوغوسلافي، كما كنتُ في البداية. لن تغامري بمكانتنا بالوقوف ضد إرادة الحزب. إن رأوا ضرورة لرفع دعاوٍ ضد هذا الرجل، بالتأكيد لديهم أسبابهم. ليس لأمثالك مساءلتهم».

«لكن كمال أفندي لم يكن متعاوناً! لطالما كره النازيين! هو من أنقذني يا برانكو، بعدما أدرتَ ظهرك لي. لستُ على قيد الحياة اليوم إلا بفضل مخاطرته لأجلي».

قاطعني بصوت عالٍ يرفعه كلما خالفت رأيه في جدال ما. حتى لو كان حول أمر بسيطٍ كحذائه إن كان بحاجة لصباغٍ أسود أم لا. بين

جدران الثكنات الرقيقة، كان يعلم باستيائي من سماع جيراننا لسوء معاملته. حيث اعتاد على استسلامي مع اللحظة التي يرفع فيها صوته. لكنني انتصبتُ بثباتٍ على الأرض في تلك المرة. أخبرته بإمكانية رفع صوته قدر ما يستطيع، فلن أفعل سوى ما أراه صواباً. أزبد وأرعد وشتم، من دون حصوله على خضوعي لأمره، فألقى عصاه في وجهي. رغم ضعفه إلا أن تصويبه كان مركزاً. أصابت الحافة المعدنية للعصا أسفل فكي وآذته.

في النهاية، رتبَ لوضعي تحت المراقبة أثناء محاكمة كمال شريف. حيث يمكنني الالتحاق بعملي والعودة إلى المنزل، لكن في ظل حراسة دائمة. كم كان الوضع مهيناً! لم تكن لدي أي فكرة عما قاله لهم، ما العذر الذي ادعاه كي يتم حصاري بهذا الشكل؟ لكنه نجح في احتجازي في سبليت. لا وسيلة أبداً للوصول إلى سرايفو.

كنتُ على يقين أن دموعي قد جفت تماماً في تلك الأيام. إذ عانيتُ الكثير خلال الحرب. الكثير حتى بعد وضعها أوزارها، حين علمت بمصير أمي وأبي، أختي الصغيرة، وعمتي. آه... قلب العمة الضعيف توقف عن النبض، في الشاحنة التي كانت تقلهم إلى كروسيا - مخيم العبور. بعد شهرين، توفيت دورا هناك، من الجوع والوهن. أما أمي فاستمرت على قيد الحياة، شاهدة على هذا الحزن كله حتى نهاية الحرب. أرسلوها بعد ذلك إلى أوشفيتز. اعتقدتُ أنني استنفدتُ دموعي كلها، لكنني بكيتُ هذا الأسبوع لأجل شريف. من المؤكد أنه سيتم شنقه أو إعدامه رمياً بالرصاص. لأجل ستيلا التي غادرها وحيدة مع طفلها الجميل. لأجل نفسي المُهانة على أيدي الغاشم، زوجي، الذي حولني إلى خائنة.

مات برانكو، جراء مضاعفات التهاب في المعدة عام 1951. لم أندب على فقده. سمعتُ أن تيتو يسمح لليهود بالذهاب إلى إسرائيل، فقررت مغادرة بلدي - لم يتبق لي شيء هنا - سأبدأ من جديد هناك. افترضتُ، عميقاً في ذهني، أنني قد أعثر على موردخاي، أستاذي القديم

من الأوصياء الشباب خلال السنوات الماضية. عندما كنت لا أزال حينها شابة، وما زلتُ، كما ترون فتاة غبية.

وجدتُ موردخاي، في النهاية، في مقبرة عسكرية على جبل هرتزل. سقط في حرب 48. كان قائداً في وحدة ناحال، مع الصبية والبنات من مزارع الكيبوتز، توفي على طريق القدس.

كان عليّ تأسيس حياتي الخاصة هنا، لم تكن حياة سيئة. صعبة، بالطبع، حيث الكثير من العمل، القليلُ من المال. ولكن ذلك لم يكن مزعجاً على الإطلاق. لم أتزوج أبداً مرة أخرى، لكن أقمت علاقة غرامية مع عشيق لبعض الوقت. سائق شاحنة كبيرة مرح، جاء إلى هنا من بولندا وينتمي إلى الكيبوتز في النقب. بدأت الحكاية، حين سخر من لغتي العبرية السيئة، أثناء شرائي بعض البضائع من كشك له في السوق. ظلّ يمازحني حتى أضحكني، بعدها، داوم على زيارتي كلما حمّل منتجاً من كيبوتز إلى المدينة. كان يجلبُ لي حبات التمر وثمار البرتقال التي يهتم بأشجارها. كنا نجلس معاً في فترة بعد الظهيرة، بينما تتدفق الشمس دافئة من النافذة. يتسرب من جلدنا عبق زيت الحمضيات، وتتحلى قبلاتنا بدبق التمرات اللذيذة. رغبتُ بالزواج منه، لو أنه طلب ذلك. لكنه أخبرني أن لديه زوجة في بولندا، تم نقلها من الحي اليهودي في وارسو. قال إنه لم يكن قادراً على معرفة ما حدث لها. لم يكن متأكداً إن كانت حية أم ميتة. ربما كان هدفه رسم حد ما، وسيلة للحفاظ على مسافة بيني وبينه. لستُ متيقنة. أعتقد أنه شعر بالذنب لأنه نجا من دونها. مع ذلك، أحببته أكثر، لأنه يكرم ذكراها بأمل اللقاء بها. على أي حال، في النهاية، حصل بعض الكيبوتزيين على وظيفة قيادة الشاحنة، قلّت زياراته للمدينة بعدها شيئاً فشيئاً، حتى توقفت تماماً. افتقدته كثيراً. ما زلت أفكر في فترة ما بعد الظهيرة تلك.

ليس لدي الكثير من الأصدقاء. كما أنني لا أجيد استخدام اللغة العبرية بأسلوبها المتقن، حتى اليوم. أوه، يمكن لأناس مثلي، فهم النغمة الأجنبية والأخطاء القواعدية لأن الجميع تقريباً توافدوا هنا من

مكان آخر. لكن إن أردت إعلام شخصٍ ما بقلبي، فتخذلني كلمات اللغة العبرية الضئيلة التي حفظتها، عن البوح بمكنوناتي.

اعتدتُ، مع مرور الوقت، على التعايش مع طقس الصيف الحار والجاف، على حقول القطن الناضج، والوهج الأبيض، على الارتفاعات الصخرية العارية من الأشجار. بالرغم من أن تلال القدس لا تشبه المرتفعات الجبلية في الوطن، فإن الثلوج تتساقط بعض الأحيان في فصل الشتاء. أغمض عيني، فأرنو بخيالٍ خصبٍ إلى سرايفو، أعود إلى تلك الأيام بكامل ذاكرتي. لعل العديد من أصدقائي يعتقدون أنني امرأة عجوز مجنونة حين أسترسلُ بذلك، خاصة مع زيارتي للحي العربي في البلدة القديمة، وارتيادي للمقاهي هناك، حيث تعبق القهوة بألفة دافئة، كما هو الحال في الوطن.

توافد بعض البوسنيين إلى هنا، إبان الحرب اليوغوسلافية، حيث استقبلت إسرائيل القليل من اللاجئين اليهود، تمكنت من التحدث بلغتي الخاصة لفترة من الوقت، فترة لا أصف الارتياح الذي انتابني فيها، إلا بالرائع. تطوعت فوراً في مركز إعادة التوطين لمساعدتهم على ملء استمارات بسيطة - هذا البلد يحب الاستمارات- أو قراءة جدول المواعيد في الحافلة، أو تحديد المواعيد لأطفالهم لرؤية طبيب أسنان. عثرتُ عن طريق المصادفة على مجلة قديمة لبوسني نسيها بمكان ما، لمحتُ نعوة لكمال أفندي، تشير فقط إلى أنه توفي مؤخراً.

سقط الخبر كالحجر في قلبي. عشتُ لسنوات مع فجيعة مقتله، حيث كان الإعدام الحكم المبرم بحق جميع المتعاونين مع النازية. لكن النعي أخبر إنه توفي جراء مرض عضال، بعد أن شغل منصب أمين المكتبة في المتحف الوطني، تماماً كما كان حين عرفته.

شعرت كأن جملة تريدُ مغادرتي، حالها حالُ رحيله. ها هي فرصة جديدة تتيح لي القيام بالفعل الصحيح؛ الإدلاء بشهادتي بحق الرجل الذي أنقذني. استغرق الأمر، ليلتين لأنجز كتابة أحداث ما فعله من

أجلي بعناية. قمتُ بإرسالها إلى متحف المحرقة، إلى ياد فاشيم. تلقيتُ، بعد زمن قليل، رسالة من ستيلا، تخبرني بها، أنها سافرت إلى باريس مع ابنها، بعد تدمير شقتها في سرايفو بقذائف الهاون الصربية. قالت إن السفارة الإسرائيلية في باريس أقامت احتفالاً مترفاً للغاية على شرفهم، وأنها فهمت الآن أسباب عدم مساعدتي لهم بعد الحرب، كما عبرت عن سعادتها أنني لا أزال على قيد الحياة وأبلي بلاء حسناً. ثم أنهت بشكري لإخبار العالم بأن زوجها كان صديقاً عظيماً لليهود، في زمن ندر فيه الصديق الحقيقي.

بعد أن علقوا لوحة لعائلة كمال في حديقة المتحف، بدأت بارتياد المكان أغلب الأيام. ما انفكت الزيارات تشعرني بالسكينة والسلام. استمتعتُ باقتلاع بعض الأعشاب الضارة في ظل أشجار السرو، ونزع بتلات الزهور الميتة عن شتلاتها. رآني وصيُّ المتحف أقوم بذلك ذات يوم، وسألني إن كنتُ أرغب في العمل هناك كعاملة نظافة.

يتسمُ المتحف بجو هادئ جداً أيام السبت. قد يظن بعض الناس أنه هدوء مسكونٌ بالأشباح. لكن الفكرة، في الواقع، لا تزعجني، فأنا أمقتُ حتى الضجيج الذي تحدثه الممسحة عند تنظيفي للأرضيات. أحبّ الساعات التي أتنقل فيها من جناح إلى آخر، بالملابس المغبرة التي أعمل بها بصمت تام. تستغرق المكتبة الوقت الأطول للتنظيف. أخبرني مساعد المكتبة، بعد استفسار عن محتوياتها، أن هناك أكثر من مائة ألف كتاب، أكثر من ستين مليون صفحة من المستندات. أعتقد أنه عدد جيد: عشر صفحات لكل شخص متوفى. نوع من النصب التذكاري الورقي للأشخاص الذين فقدوا شواهد قبورهم.

عندما تنظر إلى الأمر بإمعان، تجد أن كتاباً صغيراً بين الكثير، يبدو وكأنه معجزة، لعله في الحقيقة معجزة. بالنسبة لي على الأقل. نفضتُ الغبار عن تلك الرفوف لأكثر من عام. حيث اعتدت كل أسبوع على إنزال جميع الكتب ذات الفئة الواحدة عن الرف، أنظف الأتربة تحتها

وخلفها، ثم أزيل غبار قمم الصفحات. علمتني ستيلا فعل ذلك، عندما كنتُ أمسحُ رفوف الكتب المكتظة في شقة كمال أفندي. لذلك افترضتُ أن ذكراهم موجودة في المكان، بما سار بالوقت مسرعاً كلما قمت بالعمل. لعله السبب الكامن في رغبتي بالقيام بمهنة كهذه.

جئت إلى المكتبة في ذلك اليوم، توجهت نحو قسم الرفوف التي قمت بتنظيفها الأسبوع الفائت، ثم بدأت في إنزال الكتب في القسم التالي. كانت كتباً أقدم، معظمها عتيق جداً، لذلك حرصت على إسنادها بروية خاصة. حصلتُ عليه بين يدي. نظرتُ إليه. فتحته. عدت إلى سراييفو، إلى مكتب كمال أفندي، هناك حيث ارتعشت ستيلا بجواري. أدركتُ، بطريقة لم أفهمها جيداً في ذلك الوقت، أن كمال أفندي قد قام بفعل أرداها مذعورة. ثم جاء الأمر، كما لو أنني سمعتُ صوت كمال أفندي يقول: «أفضل مكان لإخفاء كتاب، هو ركنٌ في مكتبة».

لم أكن متيقنة مما يتوجب علي فعله. كل ما أعرفه أن الكتاب من المفترض أن يكون هنا، ولكن من الغريب جداً، أن توضع، مثل هذه المخطوطة القديمة الشهيرة على رف عادي مثل هذا.

هذا ما قلته لهم، عندما سألوني؛ أمين مكتبة، ومدير المتحف، ورجل آخر لم أكن أعرفه، بدا وكأنه جندي، لكنه يعرف كل شيء عن الكتاب، وعن شريف كمال أيضاً. كنت متوترة، لأنهم لم يصدقوا أن مثل هذه المصادفة يمكن لها أن تحدث في الحياة الطبيعية، تسربت من ذهني، بفعل انفعالي الشديد، الكلمات العبرية المعبرة عما أريد قوله. لم أستطع تذكر كلمة «بيليه»، التي تعني «معجزة»، فقلت «سيمان»، الكلمة الأشبه بمعنى رمز.

لكن في النهاية، الشخص الذي بدا وكأنه جندي، فهم ما أعنيه. ابتسم بلطف شديد لي. ثم التفت إلى الآخرين وقال، حسناً، لم لا نأخذ الأمور ببساطة طفولية؟ فالقصة الكاملة لهذا الكتاب، وبقائه حتى اليوم، ليست سوى سلسلة من المعجزات. فلم لا تكون هذه معجزة جديدة؟

حنا

أرنهيم لاند، غونوميلينغ، 2002

كنتُ ماكثة في كهف يعلو جرفاً صخرياً بارتفاع يصل إلى ستمئة متر، على بعد المئات عن أقرب خط هاتفي، حين تمكنوا أخيراً من الوصول إلي.

الرسالة التي أحضرها أحد أطفال السكان الأصليين بدت غريبة. لم أكن أعلم ما الذي أفعله بها. ظهر الطفل حذِقاً محتالاً بطريقة ما، لذا اعتقدت في البداية أنها نوع من المزاح.

«لا، سيدتي. ليست دعابة هذه المرة. فيلا من اتصالات كانبرا، يقول حاول الاتصال بكِ طوال اليوم. أخبرناه «لا»، أن هاتفك مغلق طوال الأسبوع، لكن «لا» اتصل «لا» ثم اتصل، حتى بعد تذمر بوتشر منه «لا».

بوتشر؛ هو عم الصبي ومدير محطة جابيرو ومنشأة للماشية حيث نقيم، في حال توقف العمل الميداني. «هل قال ما يريد؟».

مال الصبي برأسه بإيماءة غامضة قد تعني «لا»، أو «لا أعرف»، أو ربما «ليس لدي الحق في إخبارك».

«من الأفضل أن تأتِي، يا سيدتي، وإلا سيؤنبني بوتشر بدوري أيضاً».

خرجتُ من الكهف ومضيت في وضح النهار. حيث الشمس ليست سوى قرص كبير من الفوة اللامعة، توهجت خطوط المعدن السوداء المذهبة المنسوجة داخل الوجه الصخري. بينما تنسكب فوق السهل

في الأسفل، البراعم الأولى للأعشاب الرمحية السندسية الزاهية. أما الضوء الفضي فيومض على صفحات المياه التي خلّفها هطول الأمطار في الليلة الفائتة.

جاء فصل غونوميلنغ - أحد فصول العام الستة، التي حددها السكان الأصليون في السنة والتي ينقسم فيها الطقس بين ماطر وجاف. جلب فصلُ غونوميلنغ العواصف الأولى. في شهره الآخر، سيفيض السهل بأكمله بالمياه.

أما ما يسمى بالدرب الترابي المنحدر فلن يكون موجوداً حينها على الإطلاق. كنت آمل في العودة إلى هذا القسم من الكهوف الموثوقة الآمنة على الأقل، قبل هجمات الأمطار الغزيرة.

آخر شيء كنت بحاجة إليه هو رحلة تصل إلى ساعتين ونصف الساعة إلى المحطة للتحدث إلى بعض المهرجين في كانبرا. لكن عبر المسافة حتى نهاية الدرب الجبلي. أبرقت عيناي بلمعان الزجاج الأمامي لسيارة تويوتا المحببة لبوتشر. لم يكن بوتشر ليسمح للصبي بقيادتها، لو لم تكن الرسالة مهمة حقاً.

«حسناً، إذاً، أيها الأبطح. امضِ واخبر العمّ بأنني وجيم سنحضر بحلول وقت الشاي. سأنهي بعض خطوط السيليكون هنا، ثم نتبعك».

استدار الولد وتعرش على الجرف. كان جسده نحيفاً وصغيراً بالنسبة لمراهق يبلغ من العمر ستة عشر عاماً (هذا هو السبب لأن يطلق عليه الجميع اسم أبطح). مع ذلك فإنه يتمكن من الصعود والنزول على الجرف الصخري حوالي 20 مرة بسرعة أكبر مما أفعل. مضيتُ إلى كهف آخر حيث ينتظرني جيم باردايل، عالم الآثار الذي أعمل معه.

«على الأقل، سننام في السرير الليلة، أخيراً» قال ثم ناولني لفيفة السيليكون.

«آه، من يتكلم؟ يا للرقة! كنت دائماً تدوّي في سيدني، متحدثاً عن بلدك وحنينك إليه. ليلة ماطرة واحدة، أحالتك حالماً بالدفء والسرير، أيّ حنين يتغير بمثل هذه السرعة».

«يا لكِ من بالاندا لعينة!» أجاب جيم بابتسامة عريضة. كانت العاصفة التي وقعت الليلة الماضية، في الواقع بمنزلة السوط. حيث أشعل برق الصاعقة أشجار الصمغ البيضاء الملتوية. أما زوابع الرياح فعصفت بخيمنا بعيداً.

«ليس المطر السبب». «إنما البعوض اللعين».

لا يمكنني مجادلته فيما قال. لا شيء الآن يضاهي هدوء وسكينة غروب الشمس الرائع هنا. إلا أن الغسق، من جهة ثانية، ما هو إلا جرس إنذار العشاء للملايين من البعوض، أما نحن فكنا فريسته. مجرد التفكير في الأمر يثير بي الحكة في كل مكان. قمت بتصوير خط من السيليكون، كان يشابه نتوء علكة لزجة، عبر وجه الصخرة حيث كنا نحدد الجهة المحتملة لتدفق مياه الأمطار. أما الفكرة، فتحويل الماء بعيداً عن الذرات القابلة للذوبان في اللوحات.

هذا الجزء من الجرف غنيٌّ بالفن العتيق: لوحات «الميمي[144]». صورٌ مفعمة بالحيوية والبهاء لشخصيات رشيقة تقوم بالصيد. يعتقد شعب جيم، الميرار، أنها لوحات رسمتها الأرواح. بينما أثبت شعبه الآخر، المجتمع الأثري، أن أعتق اللوحات تم رسمها قبل ثلاثين ألف سنة. وطوال تلك القرون، تم تكليف بعض كبار السن المطلعين بالاحتفال بإحيائهم عند الضرورة. لكن بعد وصول الأوروبيين، توقف الميرار تدريجياً عن الإقامة في كهوف البلاد الحجرية. ثم انتقلوا للعمل لمصلحة البالاندا - المستوطنين البيض - في محطات الماشية، أو رحلوا للعيش في المدن. أما مهمتنا الآن فتنصب في حماية ما تركوه وراءهم.

144-لوحات الميمي، تركها شعب الميمي (من سكان المغاور في أستراليا)، رسوم جذابة مثلت الأرواح والحيوانات الخرافية وحيوان الكنغر.

لم أكن لأتخيل نفسي أقوم بمثل هذه المهمات سابقاً. لكن سرايفو دمرت ثقتي. ما انفك جزء صغير مني مصدقاً أن أوزرين وهينريش مخطئان في فحصهما. لكن لايزال الجزء الأكبر - الجبان الموجود بي - مترعاً بأفكار سامّة من الشك الذاتي. عدت إلى وطني مع شعور بالإهانة وعدم الكفاءة والارتياب من خبرتي الشخصية. قمتُ بالتجوال لشهر كامل حول مختبر سيدني، رافضة لأي مهمة تبدو صعبة للغاية. إن ارتكبتُ مثل هذا الخطأ المحرج في سرايفو، فمن أكون لأختبر أي شيء آخر؟

تلقيت بعدها مكالمة من يونان شارانسكي. كان لديه شيئان ليقولهما لي. أحدهما أن دليلة تركت لي ميراثاً كبيراً. والآخر هو أن الأسرة أرادت مني أن أتولى دور أمي في مؤسسة هارون. قام على ما يبدو أعضاء المجلس الآخرون بالتصويت بالفعل لمصلحتي. شعرتُ بحاجتي للابتعاد عن المختبر لفترة من الوقت. لذلك قررت التنفع من أموال الميراث، السفر وقضاء بعض الوقت لمعرفة ما يدور حوله عمل المؤسسة، لعلي أتمكن من المساهمة بأي جانب فيه.

أصيبت أمي بضيق شديد، حين علمت باستبعادها الأخير. حزنتُ لأجلها في أول الأمر، فقد افترضتُ أنها تنظر للشركة من الأساس، على أنها الرابط الأخير مع هارون، أمكنني تخيل مدى الألم الذي قاسته حين أقصتها عائلته بهذا الشكل.

عادت إلى سيدني، بعد بضعة أسابيع من عودتي،، انتقلت بعد خروجها من المستشفى، إلى أحد المنتجعات الفاخرة في كاليفورنيا للتعافي. قالت لي عبر الهاتف: «عليّ تحسين حالتي قبل الرجوع إلى سيدني». «لا بد أن النسور تحوم حولي في المستشفى» عندما قابلتها في المطار، بدت مدهشة ومستعدة لكل شيء. لكن عندما أوصلتها إلى منزلها، تكشفت خطوط التوتر حول فمها، والظلال تحت عينيها، يبدو أنها كانت تظهر بإرادتها القوية عكس ما تعانيه.

«يمكنكِ تمديد الإجازة أكثر يا أمي، تأكدي أنك قادرة بالفعل، كما تعلمين، على العودة للعمل».

جلستْ على السرير، ثم طلبت مني فكّ حذائها. - حين انطلقتْ أمي من مانولوس أو جيمي تشوس أو من أي مكان، لماذا أجبرت نفسها على ارتداء مثل هذه الأحذية المعذبة، التي ليس لدي أي فكرة عنها؟_ ثم استندت إلى الوسائد. «سأقوم بعملية جراحية، لشخص لديه ورم في العصب الثامن في موعد مخصص ليوم ما بعد الغد. هل تعرفين كيف ستسير العملية؟ لا، كيف لك معرفة ذلك. حسناً، إنه يشبه التقاط فتات الكلينكس الرطب من وعاء من التوفو».

«أمي، من فضلك... شعرتُ بالغثيان». لن أتمكن من تناول التوفو بعد الآن».

«أوه، بحق السماء يا حنا. هلا توقفتِ عن دورانك حول ذاتك لخمس دقائق فقط؟ أحاول فقط أن أوضح لك بطريقة يمكنكِ فهمها». (عزيزتي أمي القديرة. لا تترك فرصة أبداً من دون أن تثير شعوري بأنني المصباح الأشح ضوءاً في الثريا) «إنها عملية صعبة، تستغرق ساعات. سأقوم بإجرائها عن قصد، كي أظهر لتلك النسور أنني لم أمس جثة بعد». أغلقت عينيها. «سآخذ قيلولة الآن؛ مرري لي هذا الوشاح لو سمحتِ. افرغي بقية الحقائب. لا أحتاج بقاءك هنا... يمكنني أن أدير أموري بشكل جيد مع مدبرة المنزل».

بعد بضعة أيام سمعتْ والدتي من الشارانسكيين أنهم يريدون مني الاستيلاء على مكانتها في الشركة. استدعتني إلى ضاحية بلفيو هيل. كانت تجلس على الشرفة عندما وصلت، مع زجاجة هيل أوف غريس مفتوحة أمامها على الطاولة. كانت نوعية النبيذ بالنسبة لأمي مؤشراً على خطورة الحديث. مع هذا النوع يمكنني القول، فيما يخص الحديث، لا بد من أنه كارثي.

أخبرتني إبان رقودها بالمستشفى في بوسطن، أنها تريد إبقاء اسم أبي

سراً. اعتقدتُ أنها مخبولة. أعني، من يهتم مع من نامت طوال السنوات الماضية تلك. لكنها طلبتْ احترام موقفها، ففكرت في الأمر. أخذته بعين الاعتبار، فعلتُ حقاً. حرصتُ على الاحتفاظ بسرها مع ظهور قضية الشركة.

«إن انضممتِ إلى هذه الشركة، حنا، فسيثير هذا جميع أنواع التساؤلات».

ارتشحت الشمس عبر بتلات التيبوشايناس المزهرة، فهطل الضوء إزاءها بوميض بنفسجي. تساقطت أزهار البلوميريا متناثرة في الحديقة المشذبة، عابقة بعطرها النافذ. رشفتُ النبيذ الفاخر ولم أقل شيئاً.

«أسئلة محرجة بالنسبة لي. فقد وضعني الحادث للتو في موقف محفوف بالخطر داخل المستشفى. لم يستطع ديفيس وهارينجتون الانتظار لإثارة العداوة ضدي، هناك آخرون لم يوافقوا أبداً على تعييني رئيسة. اضطررت للعمل بشكل مضاعف أكثر من المعتاد، كي أوضح لهم أنني لا أذهب إلى أي مكان. سيكون توقيتاً سيئاً لو أن المسألة...» تركتْ الجملة معلقة.

«حسناً، لدي بعض المهارات لعلها تقدم نفعاً، كما تعلمين، لمؤسسة شارانسكي».

«مهارات؟ أي مهارات قد تكون لديكِ، يا حبيبتي؟ أعني أنكِ لا تعرفين شيئاً عن إدارة المنظمات غير الربحية، ولم ألاحظ أنك مهتمة في مجال الاستثمار من قبل».

قبضتُ على ساق الكأس وحدقت في النبيذ. رشفتُ الخمر واختبرتُ النكهة في فمي. كنتُ مصممة على عدم السماح لها بإثارة غضبي.

«مهارات الفن، أمي. يمكنني تقديم المساعدة في هذا المجال عبر برنامج الصيانة والحفظ».

وضعتْ كأس النبيذ الخاصة بها على الطاولة الرخامية بقوة، لدرجة فوجئتُ أنها لم تتحطم.

«إنه أمر سيئ بما فيه الكفاية، يا حنا. لقد قضيتِ هذه السنوات في اللعب بعجينة وقصاصات الورق. الكتب على الأقل لها علاقة بالثقافة. أما الآن تريدين الذهاب إلى منتصف اللامكان، لانتشال بدائيين أغبياء من الوحل؟».

نظرتُ إليها. تصورتُ أن فكي قد تحرر بالفعل.

«كيف تم ذلك»، أفشيتُ من غير تفكير، «كيف لرجلٍ مثل هارون شارانسكي أن يحب شخصاً مثلك؟».

بدأت الجدالات التي اعتدتها. عن إحدى النساء اللواتي أمضين حياتهن، تعساء كسمكة البغباء الزرقاء، عن الشجارات التي تدلقُ فيها كل فكرة سامة ارتشفتها منذ الأزل، تسكبُ رواسب الضيم كله، ثم تقوم بصبها في كأس أمام الشخص الآخر، وتجبره على اجتراعها. كان علي الإصغاء مرة تلو المرة لما أشعرني بخيبة أمل على الدوام؛ عن الشخصية القزمة الأنانية، المعتقدة أن ركبتها المخدوشة جديرة بالاهتمام أكثر من مرضى والدتها المصابين بأمراض خطيرة. عن الطفلة الشقية التي لا تطاق، المراهقة الوقحة الجانحة، أن اندفاعي نحو آل شارانسكي ناجم عن رغبتي في الاستشفاء من مشاعر الاستياء الطفولية لعدم وجود أقرباء لي. ومن ثم الضربة القاضية: حين أهدرتُ حقي في الانضمام إلى مهنة حقيقية، لأخسر حياتي بخياري الجديد للعمل «تاجرة».

عندما تقاتل شخصاً ما طوال حياتك، فأنت تعرف نقاط ضعفه تماماً. بحثتُ عن سلاح يمكنني استخدامه للانتقام، صوبتُ سهمي نحو تلك النقطة بالذات، مدركة أنه سيجرحها.

«إذن، ما الفائدة من كل ما لديك من خبرة طبية ثمينة، طالما عجزتِ عن إنقاذ الشخص الذي أحببته؟».

بدت مهزومة فجأة. شعرتُ بابتهاج، وتابعتُ جني انتصاري «عجزٌ يدور حوله كل شيء، أليس كذلك؟ يجب أن أعاني، طوال حياتي بسبب غياب الأب، والاسم، هذا كله لأنك تتخبطين بقضيتك الأكثر أهمية».

«حنا، أنت لا تعرفين عما تتحدثين».

«هذا هو الأمر، أليس كذلك؟ لقد أحلتِه إلى أندرسون العظيم ذي القدرة الفائقة، أندرسون الذي دمر كل شيء. كنتِ ستقومين بالعملية بشكل أفضل. هذا ما تفكرين به، حقاً؟ أنتِ متغطرسة للغاية، لكنكِ في المرة التي توجب عليكِ الوثوق بخبرتكِ الخاصة».

«اصمتي يا حنا. ليس لديك أي فكرة...».

«هل كان بإمكانك إنقاذه حقاً؟ هذا ما تعتقدينه، أليس كذلك؟ لو كان مريضك حقاً لأوقفتِ نزيفه».

«لقد أنقذته بالفعل».

لأن صوتي لا يزال صادحاً فوق رأسها، استغرق الأمر مني ثانيةً لاقتناص ما قالته.

«أنتِ... ماذا؟».

«بالطبع أنقذته. راقبته طوال تلك الليلة. كنت أعرف أنه يعاني من النزيف. مع ذلك لم أحاول إيقافه، كنت على دراية أنه سيرفض أن يستيقظ أعمى».

صُعقتُ لعدة دقائق، عجزتُ عن قول أي شيء. مر سربٌ من ببغاوات اللوريكيت مع صفيرٍ أخرق في الحديقة متلمساً طريقه نحو أغصان المبيت. علّقتُ حدقتي عليها تتبعها، حتى أمستْ ألوان أجنحتها - الزرقاء الملكية، الخضراء الزمردية، القرمزية - ضبابية فجأة بين دموعي. لن أخوض فيما قلته لها. لست متأكدة إن كنتُ أتذكر ذلك بدقة. لكن أخبرتها في النهاية، أنني سأبدل اسمي إلى شارانسكي.

لم أعد أقابلها أبداً. لم نلمح بعضنا بعضاً بعدها. كان أوزرين على صواب بشأن فكرة واحدة: بعض القصص لا تنتهي نهاياتٍ سعيدة.

توقعتُ أن أختبر مزيداً من الضياع، أكثر مما شعرتُ به على الدوام، خاصة بعد أن أمسيتُ وحدي تماماً. لكن إذا كان هذا الفراغ هو الأكبر في حياتي، فليس أوحش بكثير مما كان عليه دائماً.

لم تفهمني أمي أبداً، لم تدرك ماهية الاختيارات التي تهمني، أو الأفعال المحببة لقلبي. لم تع مطلقاً قيمة تلك التفاصيل. عدا ذلك كانت محادثاتنا كلها، ضجيجاً وضوضاء.

أقامت مؤسسة شارانسكي مشاريعها في أماكن بالكاد سمعت عنها، مثل أوينبيلي وبورروب، حيث أرادت شركات التعدين تحويل المناظر الطبيعية المحلية الرائعة والمواقع الثقافية القديمة، إلى حفر عملاقة في الأرض. قامت المؤسسة بتمويل البحث ومن ثم، إن استدعت الحاجة دعم القضية، سيقومون بمساعدة أصحاب الأرض الأصليين في رفع دعاوٍ قضائية ضد تلك الشركات. قد يساعدني الرحيل هناك في تنقية نفسي من كمدها.

لم يستغرقني الأمر وقتاً طويلاً، بين المناظر الطبيعية التي رسمها والدي، كي أدرك أنني بمقدار عشقي لبلادي، بالكاد أعرف شيئاً عنها. لقد قضيت سنوات عدة في دراسة فن الثقافات المهاجرة، لكنني بالكاد تعرفتُ أثناء تواجدي هنا على الثقافات الاسترالية المحلية. أعميتُ عيني في دراسة اللغة العربية الفصحى والعبرية التوراتية، بينما أعجز عن تسمية مجرد خمس لغات، من بين خمس مئة من لغات السكان الأصليين المتحدثين بها هنا.

أخضعتُ نفسي لدورة تدريبية مكثفة، لأختص في مجال جديد: الحفاظ على الإرث. باتت وظيفتي محصورة في التوثيق والمحافظة على الفن الصخري القديم للسكان الأصليين، قبل أن تتاح لشركات اليورانيوم أو البوكسيت الفرصة لتدميره وتحويله إلى أنقاض.

كان عملاً بدنياً شاقاً، حيث الوصول إلى المواقع البعيدة، لا يتم غالباً إلا سيراً على الأقدام، تحت درجة حرارة هائلة، مع حمل عدة كيلوغرامات من المعدات الثقيلة. أفضل شيء يمكنك القيام به، في بعض الأحيان، للحفاظ على قطعة من الفن الصخري، هو استخدام معول لاجتثاث جذور الأشجار الغازية.

صحيح أنني لا أستخدم المعدات الدقيقة العالية التقنية، لكنها أعمال أحببتها للغاية، بما أثار دهشتي. لأول مرة في حياتي، بدا جسدي مشدوداً ملوحاً بالشمس. قايضتُ الكشمير والحرير بقماش الخاكي المتين العملي. قمتُ في يوم حارّ، حين تصبب العرق من أنحاء جسدي كله، بقص جديلتي الفرنسية الطويلة. ها أنا اليوم باسم جديد، شكل جديد، وحياة جديدة. على بعد مسافة طويلة جداً من أي شيء يذكرني بجلود الأغنام الإسبانية المنقرضة، والأنماط المبعثرة للمسام على الرق.

سقطتُ من شدة الانهاك، نائمة في الشاحنة طوال الطريق المتجه إلى محطة جابيرو. لا يمكنني تسميتها بفترة استرخاء. حيث الطريق نقرات من الألواح المتضاربة، هذا إن تجاوزنا الحفر الرملية الكبيرة. أما قطيع الكناغر التي قد تظهر من أي مكان عند الغسق، فلا نجاة في الانحراف لتجنبها، إذ سينتهي بك المطاف إلى دروب متشعبة لا تنتهي.

لكن جيم اعتاد قيادة سيارته في مثل هذه الطرقات، كان بإمكانه النظر من قمة عجلة القيادة. وهكذا أوصلنا الطريق أخيراً إلى حيث نريد.

كان بوتشر يشوي الباراموندي الذي اصطاده ذلك اليوم، وتبله بالجوبي المجفف. هناك فطيرة التوت الحلو التي تتوسط مائدة الميرار كطبق رئيس. مع آخر لقمة طرية من السمك المعلق في شوكتي. رن هاتف المحطة.

«نعم، إنها هنا»، قال بوتشر وهو يسلمني الهاتف.

«دكتورة شارانسكي؟ معك كيث لوري، من DFAT».

«من أين، آسفة؟».

«DFAT وزارة الشؤون الخارجية والتجارة. أنت امرأة من الصعب التواصل معها».

«بلى. أعلم».

«دكتورة شارانسكي، كنا نأمل أن نحظى برجوعك هنا، إلى كانبرا،

أو سيدني إن كان ذلك أسهل لكِ. لدينا حالة خاصة، وتم اقتراح اسمك كشخص يمكنه تقديم المساعدة».

«حسناً، سأعود إلى سيدني في غضون أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، عندما يحل فصل غودجويغ - أعني، عندما يبدأ موسم الأمطار بالفعل».

«أوه للأسف. كنا نأمل أن تقلكِ طائرة للحضور هنا غداً».

«السيد. لوري، أنا في منتصف المشروع. تقتات شركة التعدين على أجساد أولئك الناس، سيقومون بحفر المنجم في غضون أسبوعين. بالتالي لا أنوي المغادرة إلى أي مكان في الوقت الحالي. هل تمانع في أن تخبرني ما السبب الكامن خلف كل هذا؟».

«لا يمكنني مناقشة الأمر على الهاتف، آسف».

«هل الأمر متعلق بإجراءات قامت بها شركات التعدين اللعينة؟ أعني، سيكون الوضع محبطاً جداً. أعلم أن بعض هؤلاء الممثلين يزحفون كالثعابين... لا بد أنهم يريدون إشراككم بالقيام بعملهم القذر».

«لا شيء من هذا القبيل. بقدر ما يتذمر زملائي في برنامج التجارة، من التأثير السلبي أحياناً لمؤسسة شارانسكي على عائدات تصدير التعدين، لكن هذا ليس شاغلنا هنا في مكتب الشرق الأدنى».

«أنا لا أتحدث عن عملك الحالي. الأمر متعلق بمهمة رفيعة المستوى، قمتِ بها منذ ست سنوات. في أوروبا».

بدأ الباراموندي فجأة بالتقلب في معدتي. «هل تقصد سرا -؟».

«من الأفضل مناقشة هذا الأمر شخصياً».

مكتب الشرق الأدنى. بدأت أشعر بالحرقة.

«أنتم تتعاملون مع إسرائيل، أليس كذلك؟».

«كما قلت لكِ، دكتورة شارانسكي، أفضل الحديث شخصياً معكِ. فهل ترغبين الآن، أن أرتب رحلتك في الغد، من داروين إلى كانبرا، أو إلى سيدني؟».

كان المشهد المطل من مكتب DFAT في سيدني كافياً لجعل

الدبلوماسي يرفض أي وظيفة خارجية. انتظرتُ كيث لوري في بهو الطابق العاشر، راقبتُ اليخوت تنزلق تحت أشعة شمس الميناء المتلألئ، تتعقب النسيم كما لو كانت الأشرعة البيضاء المرتفعة ترفرف إجلالاً لدار الأوبرا.

بدا الديكور الداخلي جذاباً جداً. تسعى الشؤون الخارجية لعرض أيقونات الفن المحلي. حيث عُلقت في قاعة الاستقبال على أحد الجدران؛ لوحة زيتية لسيدني بريشة الفنان نولان نيد كيلي. أما تقاطع المعابر الخرافي، لروفر توماس، فتصدرت الجهة المقابلة. كنت أحدق بجمال المغرة - أكسيد الحديديك في لوحة روفر، حين ظهر لوري خلفي.

«أعتذر لا نملك هنا إحدى لوحات والدك الرائع - الرسام اللامع... لكن الجمال المطلق أحلناه إلى كانبرا».

كان لوري رجلاً طويل القامة ذا شعر رملي اللون، مع اختيال لطيف وحماسة لاعب ركبي جاد. هذا منطقي. حيث لعبة الركبي رياضة عظيمة تمارس في مدارس النخبة الخاصة، لا تزال معظم العائلات الأسترالية تميل للحصول على تلك الخلفية، بالرغم من جميع أساطير المساواة لدينا.

«شكرا لحضوركِ هنا، دكتورة شارانسكي. أعلم أنها رحلة طويلة».

«نعم في الواقع. من الغريب أنه يمكنك الوصول إلى سيدني من لندن أو نيويورك في أربع وعشرين ساعة، لكن الأمر لا يزال يستغرق ما يقارب ضعف الزمن، من بعض أنحاء الشمال الأقصى للإقليم الشمالي، أليس ذلك عجيباً».

«هل الأمر كذلك فعلاً؟ لم أسافر إلى هناك مسبقاً».

إنه نموذجي، كما اعتقدت. ربما تجول في جميع متاحف فلورنسا، ولم يسبق له رؤية رجل البرق فوق صخور نورلانكي.

«أعمل عادة في كانبرا، لذلك قمت باستعارة مكتب هنا من أجل اجتماعنا. مارغريت... إنها مارغريت، ألستِ كذلك؟»، ثم تحول إلى

موظفة الاستقبال. «نحن ذاهبون إلى مكتب السيد كينسينغتون. هلا تأكدتِ أننا لا نسبب إزعاجاً من فضلك؟».

عبرنا خلال جهاز الكشف عن المعادن، وعلى طول الممر صوب مكتب زاوية كبير. لكز لوري الرمز لفتح الباب. ذهبت عيناي مباشرة نحو النوافذ، التي قدمت بانوراما أشد إثارة من تلك الموجودة في الردهة، مسحت المناطق الممتدة من الحدائق النباتية حتى الجسر بالكامل.

«لا بد أن زميلك السيد كنسينغتون مختالٌ كبير»، قلت، ملتفتة إلى لوري. مذهولة بالمشاهد المتكشّفة أمامي.

لم ألحظ مطلقاً وجود شخص ما في الغرفة. كان يجلس على الأريكة، سرعان ما انتصب على قدميه مع دخولنا، اتجه نحوي مع يد ممدودة.

«شالوم، شانا». بدا شعره أقل كثافة بعض الشيء، لكنه لا يزال يتمتع ببناء جسدي رياضي أسمر البشرة ما ميزه دائماً، عن أي شخص آخر في خط عملنا. ابتعدتُ خطوة عنه، وأخفيتُ يدي خلف ظهري. «ألا تردين التحية يا رفيقة؟ ألا تزالين غاضبة مني؟ حتى بعد مضي ست سنوات؟».

نظرت إلى لوري، متسائلة عن مدى معرفته بكل هذا.

«ست سنوات؟» أطلقتُ صوتي بارداً بقدر استطاعتي. «ست سنوات ليست شيئاً، مقارنة بخمس مئة عام. ماذا فعلتم به؟».

«لا شيء. لم أفعل شيئاً»، ثم سار عبر المكان صوب مكتب أنيق مصنوع من صنوبر جزيرة هون. صندوق أرشفة مخبأ هناك. حرر الأقفال. «انظري بنفسك».

عبرتُ الغرفة بنظراتٍ مرتابة. احتضنت يديّ الصندوق. رفعتُ الغطاء، كانت هناك. ترددت لحظة. لا يجوز لي مسها، من دون قفازات أو أدوات. لكن يتوجب علي التأكد، قمتُ برفعها من الصندوق بحرص شديد، ووضعتها على المنضدة. التفتُّ إلى منمنمات الخلق. إنها هي. شهدتُ الفرق بين الصواب والخطأ. بين الثقة بمهنيتي، والشك الذاتي اللعين.

اغرورقت مقلتاي بالدموع، التي سرعان ما انسكبتْ معبرة عن الارتياح والشفقة من البؤس الجاثم فوق قلبي، لاعتقادي بخطأ لم ارتكبه لست سنوات طويلة.

مع نظرتي إلى أميتاي، زال عدم اليقين، تبعثرت الشكوك الذاتية كلها، تحول كل شيء إلى خلاصة غضب هائج، لم أشهده طيلة حياتي.

«كيف استطعت؟».

ابتسم لي، لغضبي «لم أفعل».

ضربت بقبضة يدي بشدة فوق المنضدة بما آذاني.

«كف عن هذا!» صرختُ. «أنت لص ومحتال وكاذب لعين».

ظلت شفتاه محتفظتين بابتسامة ضئيلة، ابتسامة هادئة غاضبة ومضللة. أردت صفعه. «أنت عار على المهنة».

«دكتورة شارانسكي». أراد لوري، كما افترضت، أن أتعامل بدبلوماسية. اتخذ خطوة تجاهي ووضع يده على كتفي. تجاهلت ذلك مبتعدة عنه.

«لماذا هذا الرجل هنا؟ إنه مذنب بسرقة كبيرة. يجب أن يكون خلف القضبان. لا تقل لي إن هذه الحكومة اللعينة متورطة في الأمر... في هذه... السرقة... في هذه المؤامرة...».

«دكتورة شارانسكي، من الأفضل أن تجلسي».

«لا تطلب مني الجلوس! لا أريد أي شيء يتعلق بهذا. ولماذا هذا الكتاب هنا؟ كيف يمكنك بحق الشياطين تبرير قطع مخطوطة عمرها خمس مئة عام لمنتصف العالم وصولاً إلى هنا؟ إنه عملٌ أكثر من غير أخلاقي، إنه جرم. سأخرج من هنا وأتصل بالإنتربول. لا بد أنك تعتقد أنه يمكنك إخفاء الأمر خلف الحصانة الدبلوماسية لديك، أو بعض الحماقات من هذا القبيل».

وصلتُ حتى الباب. لم يكن هناك مقبض، لا ذراع مقبض. مجرد لوحة مفاتيح، لا أعرف رموزها.

«من الأفضل أن تسمحَ لي بالخروج من هنا وإلا... -».

«دكتورة شارانسكي!». رفع لوري نبرة صوته. بدا فجأة أشبه بقائد مجموعة أكثر من كونه دبلوماسياً سلساً.

«اصمتي لثانية واحدة، ألن تسمحي للدكتور يومتوف بنطق كلمة».

كان أميتاي قد توقف عن الابتسام. مد يديه كلتيهما كأنه يود التوسل.

«لم أكن أنا. لو أتيت إلي عندما لاحظتِ التزوير، لأوقفناهما معاً».

«نوقف من؟».

جاء صوته ناعماً جداً. همساتٍ تقريباً.

«إنه الدكتور هاينريش».

«فيرنر؟» شعرت كأن الهواء ينبثقُ من جسدي. هبطتُ فوق الأريكة. «فيرنر هاينريش؟» كررت بغباء. «من أيضاً؟» قلت للتو «أوقفناهما».

«أعتذر عن إخبارك أن أوزرين كارامان كان متآمراً معه. الأمر الذي لا يصدق أبداً».

أستاذي وحبيبي. وقف الاثنان ضدي، أخبراني معاً أنني لا أعرف ما الذي أتحدث عنه. شعرت بالخيانة التامة.

«لكن لماذا؟ كيف استرجعته الآن. هنا».

«إنها قصة طويلة». جلس أميتاي على الأريكة بجانبي. صبّ كوب ماء من وعاء على طاولة القهوة. ناولني إياه. صبّ آخر للوري الذي لم يلوح بأي شكر. احتسى أميتاي رشفة ثم بدأ في الكلام.

«قصة طويلة بدأت في شتاء عام 1944، عندما كان فيرنر يبلغ من العمر أربعة عشر عاماً فقط. تم تجنيده، كحال جميع اليافعين والشباب، في ذلك الوقت. الذين انتهى المطاف بمعظمهم إلى القيام بتزويد مدافع مضادة للطائرات، أو أشياء من هذا القبيل. لكنه كان مطلوباً لخدمة مختلفة. ذهب فيرنر إلى العمل في Einsatzstab Reichsleiter Rosenberg – هل تعرفين ما هذه؟».

سمعتُ، بالطبع، عن ذراع الرايخ الثالث الشائنة، اللصوص الأكثر كفاءة ومنهجية في تاريخ الفن. برئاسة ألفريد روزنبرغ المقرب من هتلر، الذي ألف كتاباً قبل الحرب يصف التعبيرية التجريدية الألمانية فيه، بأنها «مصابة بمرض الزهري». ثم شكل رابطة القتال في سبيل الثقافة الألمانية، التي تهدف إلى القضاء على أي شيء «فاسد»، وهو الذي يتضمن بالطبع كل ما كتب أو رسم من قبل اليهود.

«بينما كان الرايخ يسرع في الحل النهائي، كانت وحدة روزنبرغ تسارع لإنهاء تدمير جميع الفنون اليهودية التي صادرتها من المعابد، أو من المقتنيات الكبرى في أوروبا. كانت مهمة فيرنر هي نقل مخطوطات التوراة والانكونابولا[145] إلى المحارق وحرقها. كانت إحدى المجموعات التي أحرقها فيرنر هي أصول اليهود السرايفيين»، نظر إلى لوري. «تضم السجلات الكاملة للمجتمع اليهودي. التي لا يمكن الاستغناء عنها. مجموعة يهود سرايفو قديمة جداً. تحتوي على وثائق تعود إلى عام 1565».

«إذاً» قلت. «لهذا السبب تخصصَ في المخطوطات العبرية».

أومأ أميتاي برأسه. «بالضبط. كان شغفه ألا يضيع أي كتاب. خلال الأشهر الأولى من الحرب البوسنية، لجأ إلي حين بدأ الصرب بقصف المعهد الشرقي الذي عكس ذكرياته الماضية، والمكتبة الوطنية والجامعة. أراد من الحكومة الإسرائيلية، على وجه الخصوص، أن تقوم بمهمة إنقاذ الهاجادا. أخبرتُه عن عدم توافر أي معلومات استخبارية حول مكان وجودها. أو أنها ما زالت موجودة أساساً. ظنّ حينها أنني أخفي الحقيقة عنه. عندما قررت الأمم المتحدة بعد الحرب، الحفاظ على الهاجادا وعرضها، شعر بأنها واقعة تحت الخطر. إذ ليس لدى فيرنر يقينٌ بالسلام. أخبرني عن مخاوفه، إن فقد الناتو والأمم المتحدة

145- الانكونابولا (بالانكليزية Incunabula): أوائل المطبوعات، مصطلح يطلق على الكتب المطبوعة ما بين 1450 و1501.

اهتمامهما، ستبزغ فرصة قوية، يتمكن خلالها الإسلاميون البوسنيون المتشددون من سرقة الهاجادا. لقد خشي من تأثير العرب، الذين يحتفظون بسجل رهيب من تدمير المواقع اليهودية القديمة في شبه الجزيرة العربية. روّعته فكرة أن تتعرض الهاجادا للخطر من جديد».

احتسى أميتاي رشفة أخرى من الماء. «كان علي أن أصغي بعناية أكبر لما قاله. لم تكن لدي أي فكرة، أن ماضيه سيساهم في جعله متطرفاً. لا بد أنكِ تتوقعين أن إسرائيلياً في مثل عمري سيتعرف بسهولة على المتطرفين. لكن فاتني ذلك بالفعل».

«لكن ماذا عن أوزرين؟ لم يصدق بالتأكيد تلك الأشياء عن البوسنة؟».

«لم لا؟ لم تحم البوسنة زوجته. لم تنقذ ابنه الصغير. لقد قاسى أوزرين الكثير. رأى أشخاصاً قتلوا على أيدي قناصة، أثناء محاولتهم حمل كتب من المكتبة المحترقة. لقد خاطر بحياته في سبيل إنقاذ الهاجادا، كان يعرف البشر الأقرب إليه. أعتقد من السهل، في وقت معين، أن يجد فيرنر من أوزرين الشخص الأكثر تقبلاً لفكره».

لم أستطع حمل نفسي على الاقتناع بأن أوزرين فكر بهذه الطريقة. كان يحب مدينته. أحبها كما هي. لم أستطع أن أصدق أنه تخلى عن ذلك.

تدفقت أضواء سيدني عبر النوافذ الضخمة، وتهاوت فوق الصفحات المفتوحة للهاجادا. توجهت نحو المكتب، التقطت الكتاب. وضعتُ الهاجادا بعناية في حماية الصندوق الأرشيفي. كنت على وشك إغلاق الغطاء، لكنني توقفت مؤقتاً. تحسستُ حواف الغلاف، تلمستُ سطحه حيث تم دمج ألياف الجلد - الجديدة منها التي وضعتها - مع الألياف القديمة لفلورين ميتل. التفتُّ إلى أميتاي.

«كنت الشخص الوحيد الذي احتفظ بالصور السالبة».

«أقنعني فيرنر أنه قادر على إجبار الحكومة الألمانية، على تمويل إحداثِ نسخة هاجادا أفضل من النسخة التي كنا نخطط لها. بدا مقنعاً

جداً. كانوا مستعدين لمنح ستة أضعاف ميزانيتنا، بالإضافة إلى الطباعة على الرق... إنها لفتة من حسن النوايا لألمانيا الجديدة. ماذا أقول؟ لقد صدقته. قدمت الوثائق الخاصة بك له. بالطبع استخدمها لتقليد التفاصيل الممكنة كلها - حتى أعمال الصيانة التي اشتغلتِها. وبما أنه كان أستاذك، فقد عرف جيداً كيفية القيام بذلك».

«لكن لماذا كنت هناك، في تلك الليلة، في شقة أوزرين؟» تنهد أميتاي.

«كنت هناك، شانا، لأنني أيضاً فقدت طفلاً».

«ابنتي. كانت بعمر ثلاث سنوات».

«أميتاي». لم تكن لدي أي فكرة. لم أعلم بذلك مطلقاً. لم أدرك أن الأمر متعلق بطفل. أنا آسفة جداً. هل كان تفجيراً انتحارياً؟».

هز رأسه بالنفي، وارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة. «الكل يعتقد أن الإسرائيليين يموتون إما في الحروب أو بالتفجيرات. بعضنا تمكنوا من الموت على أسرّتهم. بالنسبة لها، لديها عيب في القلب. أي طفلٍ مفقود في النهاية - يترك الفراغ والأسى ذاته. سافرتُ هناك لتوصيل المواد التي تبرعت بها إسرائيل كجزء من مشروع ترميم المكتبة، وسمعت الأخبار عن ابن أوزرين. كأب، شعرت به».

ساد صمت محرج لبضع لحظات.

«لا ألومك، شانا، على الاشتباه بي. لم يكن لديكِ سوى الشك خياراً بديلاً».

تابع بعد ذلك ليخبرني كيف تم العثور على الكتاب وكيف اشتبه فوراً في فيرنر، خاصة مع النسخة المزيفة المعروضة في سرايفو.

«لكن لماذا اختار فيرنر ياد فاشيم؟».

«كان يعرف المتحف جيداً. عمل كباحث زائر هناك عدة مرات على مر السنين. بالتالي فأبسط فعل بالنسبة له هو وضع الهاجادا هناك. لم يعنه، كما ترين، ألا يعلم بها أحد، ألا يدرسها أو يحتفل بها أحد. كان

شاغله تأمين حمايتها فحسب، أخبرني بعدها أن ياد فاشيم هو المكان الأكثر أماناً في العالم. من وجهة نظره، حتى لو كانت إسرائيل في صراع وجودي، وتعرضت لمواجهات خطيرة، لكنه أيقن أننا سندافع عن هذا المكان قبل كل شيء». أطرق أميتاي نحو الأسفل.

«أعتقد أنه كان محقاً، على الأقل، في هذه القناعة».

«هل رأيته؟ هل هو رهن الاعتقال؟».

«نعم، رأيته. لا، ليس رهن الاعتقال».

«لكن لماذا؟».

إنه في مأوى العجزة في فيينا. رجل كبير في السن، شانا. ضعيفٌ جداً، مشوشُ التفكير. استغرق الأمر مني عدة ساعات لمعرفة ما أخبرتك به».

«حسناً، ماذا عن أوزرين؟ هل تم القبض عليه؟».

«لا. في الواقع تمت ترقيته. إنه مدير المتحف الوطني الآن».

«لكن لماذا تتركه يُفلت من هذا؟ لماذا لم يتم اتهامه؟».

حدق أميتاي في لوري.

«يرى الإسرائيليون أنه من الأفضل ألا تمسي هذه القضية مسألة عامة». أردف لوري. «إن حقيقة اكتشاف الكتاب في إسرائيل ستكون كافية ل... حسناً... مع استبعاد هاينريش كشاهد ذي مصداقية، لا يجد أحد ضرورة في إثارة المشاعر السلبية. أعتقد أن المصطلح الدبلوماسي المناسب لهذا هو الضجة المثيرة للاستياء».

«لم أفهم. أنت تقول إن الحكومة الإسرائيلية تدعم هذا الأمر، أليس كذلك؟ بالتأكيد يمكنكَ القيام بذلك، بدبلوماسية هادئة، داخل حقيبة دبلوماسية، شيء من هذا القبيل...».

أطرق أميتاي محدقاً بيديه. «هناك مثل قديم يقول، شانا؟ يهوديان، ثلاثة آراء؟ هل تعرفينه؟ هناك عصبة معينة في حكومة بلدي تصر على الاحتفاظ بهذا الكتاب داخل إسرائيل. سيكون وضعه مماثلاً لجميع الحانوكاهات التي وصلت في وقت واحد»، سعل ثم أمسك كأس الماء.

«عندما قال السيد لوري الإسرائيليون، لم يكن يتحدث عن الحكومة الفعلية».

التفتُّ إلى لوري. «إذن ما الذي تقوم به وزارة الشؤون الخارجية بحق الجحيم، بعد أن تورطتْ في مثل هذه الفوضى؟ ما هي الفائدة المرجوة لأستراليا؟».

تنحنح لوري. «رئيس الوزراء صديق شخصي حميم لرئيس إسرائيل، إنه في الوقت ذاته، رفيق عسكري قديم لأميتاي هنا. لذلك نحن نقدم لهم استثناء من خلالك، كنوع، حسناً، من الدعم». ابتسم ابتسامة عريضة. «بالرغم من اعتقادي أنّكِ لست من المعجبين برئيس الوزراء شخصياً، فإننا نأمل أن تنظري إلى القضية بعمق أكبر، عساكِ تقدمين يد المساعدة فيها».

أومأ أميتاي مصدقاً ما قاله لوري. «يمكنني تهريب الكتاب إلى سرايفو. نعم لا ريب، لكن ماذا بعد؟ صدقيني، أنا لم أحضر المخطوطة بهذه الطريقة إلى هنا بسهولة. اتخذنا القرار رغم المخاطر المحدقة بجلب الهاجادا إلى هنا، لكن ذلك بسببك يا شانا. حيث نعتقد أن لديكِ الفرصة الأفضل لإقناع أوزرين بإعادتها إلى مكانها الصحيح».

توقف أميتاي. لا بد أنه لمح نظرة فارغة في وجهي، وذهولاً حين حاولتُ معالجة ما قاله.

«بحكم طبيعة علاقتكِ الماضية به». أضاف لوري.

كان هذا أكثر من اللازم. «كيف بحق الجحيم عرفتَ عن علاقتي الماضية؟ كيف تجرؤ على التنقيب في حياتي الشخصية؟ ماذا حدث للحريات المدنية هنا؟».

رفع أميتاي يده. «لستِ وحدك مراقبة يا شانا. كان تواجدكِ في سرايفو في وقت حساس. هناك وكالة الاستخبارات المركزية، الموساد، الإدارة العامة للأمن الخارجي الفرنسي...».

«حتى منظمة الاستخبارات الأمنية الأسترالية»، تدخل لوري. «في

ذلك الوقت، كان أي شخص في جسده نبضٌ في يوغوسلافيا السابقة إما جاسوساً، أو متجسساً عليه أو كليهما معاً. لا تأخذي الأمر بشكل شخصي».

نهضتُ غاضبة. من السهل بالنسبة له قول هذا! ماذا سيكون شعوره لو التفتُّ وأخبرته مع من كان ينام قبل ست سنوات؟ حسناً، ربما في مجال عمله أتوقع حدوث هذا النوع من الأشياء. لكن الوضع أصابني بالذعر. فأنا مجرد عثة كتب؛ لا دبلوماسية، ولا جاسوسة. لستُ بالتأكيد السيدة المجندة في الكوماندوس للعمل لمصلحة إسرائيل. أو لمصلحة أي دولة أخرى بما يخص هذا الشأن.

مشيت نحو المكتب ونظرت إلى الهاجادا. كم نجت بالفعل خلال الكثير من الرحلاتِ المحفوفة بالمخاطر. لكنها ملقاةٌ الآن على مكتبٍ في أرض، ليست حتى جزءاً من عالم صانعيها المعروفين. إنها هنا بسببي.

منذ سنوات، إبان عودتي إلى الوطن من سرايفو، قمتُ بزيارة أرشيف المتحف الوطني الأسترالي واستمعت إلى ساعاتٍ من المقابلات المسجلة مع والدي. عرفت نبرة صوته الآن. صوتٌ مع العديد من الطبقات. العليا هي الطبقة المهيمنة، إنها الإيقاع الاحترازي المقتضب لنغمات المناطق النائية. الصوت الذي عثر عليه شاباً، عندما اكتشف ما أحبه وما أراد فعله. مع ذلك هناك طبقات أخرى تحتها. تلميحات من طفولته في بوسطن. هناك أثر ضئيل للكنة الروسية. يديشية عرضية في بعض الأحيان.

«ما أقوم به يمثلني، لذلك أتيت».

عرفتُ الآن ما الذي كان يقصده حين كتب هذا السطر من قصيدة هوبكنز. أسمع صوته مردداً العبارة يصدح في رأسي.

«ما أقوم به يمثلني».

هو صانع للفن. أما أنا فأنقذه. هذه مهمتي في الحياة. هذا ما أفعله.

لكن تكبد المخاطرة، مخاطرة كبيرة كهذه. فعل لن أقوم به بكل تأكيد. لست أنا على الإطلاق.

التفتُّ حولي وانحنيت فوق المنضدة. شعرتُ بالارتعاش قليلاً. كلاهما كانا يحدقان في وجهي.

«ماذا لو تم إلقاء القبض علي؟ بتهمة حيازتي لـ - وجهت إليهم طعنة وحشية - بقيمة خمسين أوستين مليون دولار من البضائع المسروقة. ماذا سيحدث؟».

بدا أميتاي فجأة مهتماً بيديه مرة أخرى. أما لوري، في هذه الأثناء فتحول بنظره نحو العاملين في مكتب الغداء، الذين تشمسوا على العشب في الحدائق النباتية. لم ينبس أيٌّ منهما بحرف واحد.

«لقد طرحت عليكما سؤالاً. ماذا لو تم القبض علي، واتهمتُ بحيازة قطعة أثرية مهمة للغاية من التراث الثقافي في العالم؟».

نظر أميتاي إلى لوري، الذي لم يبدُ قادراً على إشاحة نظره بعيداً عن المنظر.

«حسناً؟»، بدأ كل من أميتاي ولوري التحدث معاً.

«الحكومة الأسترالية».

«الحكومة الإسرائيلية».

توقفا كلاهما ونظرا بعضهما إلى بعض، بما جعل الإيماءات تنتهي بكلمة «ندعمك» بصوتٍ رهيف. كان الموقف كوميدياً حقاً. تهدج صوت لوري قائلاً.

«انظري إلى المكان هناك، تحت أشجار التين في خليج موريتون؟» أشار إلى ارتفاع معشوشب لشواطئ تعانق الميناء. «يا للمصادفة الغريبة، حقاً. هذا هو، بالضبط، المكان الذي صوروا فيه المشهد الأخير من الجزء الثاني من فيلم المهمة المستحيلة».

...

مطارٌ جديدٌ بُني في سراييفو. كل شيء بدا أنيقاً ومثالياً تماماً، باراتٌ لطيفة ومحال لبيع الهدايا. طبيعيّ. بالنسبة لي، لم ينتابني شعور طبيعي عندما وقفت في طابور المسافرين، اعتقدتُ أن حبوب بيتا التي قدمها لي أميتاي قبل ساعة من مغادرته في فيينا ستفعل فعلها: «هذه ستخفي مظهر القلق» كما قال «تعرق اليدين واللهاث. حيث يكون تسعة وتسعون في المئة مما يبحث عنه موظفو الجمارك هو السلوك المتوتر. بالطبع شعور القلق حاضر، ولن توقفه تلك الحبوب.» كان على حق. شعرت بالفزع. كان علي أن آخذ حبوب بيتا لمرتين. لقد رميت المجموعة الأولى.

أعطاني كذلك الحقيبة التي نقلت الهاجادا من إسرائيل إلى أستراليا. كانت حقيبة من البلاستيك الأسود، تبدو تماماً مثل أي حقيبة أخرى ذات عجلات. إنها من النوعيات التي بالكاد تناسب الخزائن العلوية للطائرة - لكنها مغلفة بلوحة خلفية مزيفة مصنوعة من بعض الألياف الفائقة السرية لترشيح الأشعة السينية.

«لا يمكن اكتشافها من قبل أي تقنية فحص حالية»، أكد لي.

«هل تنفع حقاً؟» سألته «أعني، لو كشف جهاز الأشعة السينية وجود كتابٍ في حقيبتي؟ فلن يعرف ماهيته أحد سوى المتخصصين. لكن ماذا لو علِقتُ بإحدى تقنيات كشف التهريب...؟».

«لماذا تتوقعين الأسوأ؟ أنتِ ذاهبة إلى سراييفو. هناك أشخاص في المدينة، يهود وغيرهم، حرصوا على اقتناء نسخاً طبق الأصل من الهاجادا، حتى لو عجزوا عن تحمل تكاليفِ طعام مائدتهم. إنها أكثر الأشياء المحببة هناك. قد يتعرف عليها أي شخص - أيِ موظف جمارك أو شخص في صف الانتظار خلفك. الحقيبة، هي حقاً أفضل ما يمكننا القيام به. اطمئني لن يقبض عليكِ أحد».

ستة من الرعايا الإيرانيين سافروا على متن رحلتي، كان ذلك، كما اتضح لي لاحقاً، ضربة حظ بالنسبة إلي. فقد استحوذ أولئك الرجال المساكين على الاهتمام كله في قاعة الوصول. خاصة أن سراييفو باتت

محطة دخول مفضلة للأشخاص، الذين يحاولون التسلل إلى أوروبا، حيث لا تزال حدود البوسنة سهلة الاختراق. بينما طلب الاتحاد الأوروبي من البوسنيين فعل شيء حيال هذا التدفق. فتح الإيراني الذي أمامي، حقيبته، وتم فحص مستنداته. أستطيع الجزم بأنه لم يستفد من حبوب بيتا مطلقاً. كان العرق يتصبب منه بغزارة.

حين تصدرتُ الصف، كانت الابتسامة كل ما حصلتُ عليه، و«أهلاً بكِ في البوسنة». خرجت مسرعة من المطار، لأجد نفسي فجأة، في سيارة أجرة. تجاوزت سيارتي مسجداً ضخماً بناه الخليجيون، ثم عبرت قرب متجر للجنس، تلته حانة أيرلندية تقدم «20 علامة تجارية من البيرة العالمية». تم تجديد فندق - هوليدي إن - الذي تعرض للقصف مراراً، فبدا متألقاً مثل برج ليغو للأطفال ذي الكتل الصفراء النابضة بالحياة. اصطفت شتلات الجميز، المزروعة لتحل محل الأشجار المقطوعة إبان الحصار- التي استخدمها الناس للتدفئة والوقود - على جانبي الطرق الرئيسية. مع دخولنا الطرق الضيقة للمدينة القديمة، وجدنا الأزقة مكتظة بالنساء والرجال، يرتدون أفضل الملابس الزاهية، متحدين الطقس البارد للتنزه بين بائعي البالونات والزهور.

أردت أن أسأل سائق التاكسي عما يحدث. أشرتُ إلى مجموعة من الفتيات الصغيرات في فساتين حفلة مخملية. «بيرام!» أجاب بابتسامة واسعة. إذاً هذا هو السبب. فاتني ذلك. شهر رمضان قد انتهى لتوه، لتحتفل المدينة بأحد أكبر الأعياد في التقويم الإسلامي.

كان متجر الحلويات في سويت كورنر مكتظاً تماماً. بالكاد تمكنتُ من الوصول إلى المحاسب مع حقيبتي ذات العجلات. لم يتعرف علي صانع المعجنات، لماذا عليه أن يفعل بعد ست سنوات؟ أشرتُ إلى الدرج الصاعد إلى العلية.

«أوزرين كارامان؟» سألت.

هز رأسه، ثم أشار إلى ساعته، ثم إلى الباب الذي دخلتُ منه، في إشارة بأن أوزرين سيعود قريباً. انتظرتُ الحصول على مقعدٍ شاغرٍ في

المتجر الصاخب. ثم جلستُ في ركنٍ دافئ، أقضمُ الحافة الشديدة الحلاوة لفطيرة حلوى اشتريتها، بعينين معلقتين بالباب.

انتظرتُ ساعة ثم ساعتين. بدأ صانع المعجنات ينظر إلي بشكل غريب، لذا طلبت قطعة حلوى أخرى مغمورة بالعسل، بالرغم من عدم تناولي للأولى.

أخيراً، في حوالي الساعة الحادية عشرة، فتحَ أوزرين الباب المغشى بالبخار. لو لم أكن أحدق في كل وجه باهتمام، لو مررتُ به للتو في الشارع، لما كنت متأكدة من أنني سأتعرف عليه.

ما انفك شعره أشعث طويلاً، لكنه اصطبغ فضياً بكامل خصلاته. أما وجهه فلا يزال هزيلاً، من دون غرام واحد من الدهون الزائدة - أخاديد قاسية حُفرت فوق خديه وجبينه. بينما كان يخلع معطفه - سرعان ما تذكرته، ذاك الرث ذاته الذي كان يرتديه منذ ستة أعوام - لمحت بذلة تحته.

البذلة هي أحد متطلبات وظيفة مدير المتحف - أعرف أنه لا يختار فعل ذلك طوعاً. إنها بذلة لطيفة من نسيج فاخر وتصميم جيد. لكنها بدت وكأنه ينام مرتدياً إياها. بحلول الوقت الذي استغرقني لشق طريقي بين الكراسي والطاولات، وصل إلى منتصف الدرج صعوداً إلى العلية.

«أوزرين». التفت ونظر إلي، مستفسراً. لم يتعرف إلي. أصابني التوتر من جديد، همسٌ من الغرور أخبرني أن السبب لا بد كامنٌ في الضوء الساطع، أو بشعري القصير. لا أحب الفكرة التي تشي أنني كبرتُ في السن.

«هذا أنا. حنا شار... حنا هيث».

«يا إلهي الطيب»، لم يقل أي شيء آخر. تسمر واقفاً حيث كان، محدقاً.

«هل يمكننا، كما تعلم، الخروج؟» قلتُ «أنا بحاجة للتحدث معك».

«آه، شقتي، ليست... الوقتُ متأخر جداً. ماذا عن يوم غد في المتحف؟ إنها عطلة، لكن سأكون هناك في الصباح». تعافى من مفاجأته، رتب نبرة صوته. فأتت لهجته صحيحة وهادئة ومهنية للغاية.

«أريد التحدث إليك الآن يا أوزرين. أعتقد أنك تعرف ما الذي أود الخوض فيه».

«أنا حقاً لا أعتقد أنني -».

«أوزرين. لدي شيء ما. هنا. في هذه الحقيبة». ملتُ برأسي نحو الحقيبة.

«شيء ما ينتمي إلى متحفك».

«يا إلهي الطيب» قالَ من جديد. بدأ يتصبب عرقاً، ليس من حرارة متجر المعجنات بالتأكيد. مد ذراعه. «بَعدكِ، بكل الوسائل...». اندفعتُ نحوه على الدرج الضيق، أصارع مع الحقيبة. قام بمبادرة أخذها مني، لكنني أمسكتُ بها بشدة حتى ابيضت مفاصل أصابعي. بدأ بعض الناس في المتجر، بمن فيهم ذلك الشيف، بالتحديق بنا مستشعرين شجاراً من نوع ما. توجهتُ إلى أعلى الدرج، صدحتِ الحقيبة بصخب ورائي. لحق أوزرين بي. لاحظتُ أن مستوى الضوضاء ارتفع ثانية، لعل الزبائن أدركوا أنه ما من مشهد مثير هناك، فعادوا إلى قهوتهم وأحاديثهم المبتهجة.

أوزرين الذي لم يرحب بي في عليته. أغلقَ الباب مُطلقاً الترباس القديم المصنوع من الحديد المطاوع، ثم استند بظهره إليه. أعاد شعره الفضي المتلمس بعض العوارض الخشبية ما مضى من ذكريات. الذكريات المشتتة. لمحتُ جمراً متأججاً في الموقد الصغير. الخشبُ، إبان تلك الفترة، كان نادراً في سرايفو. لم أحظ حينها مطلقاً برفاهية النار. انحنى أوزرين فوق الموقد. أضرم قطعة حطب واحدة داخله. ثم تناول زجاجة راكيا من الرف وسكب كأسين. ناولني واحدة بملامح باردة.

«لم شمل سعيد»، قال بجدية، وتجرع الكأس مرة واحدة. رشفت من كأسي.

«تصورتُ أنكِ أتيتِ لترميني خلف القضبان».

«لا تكن سخيفاً».

«حسناً، لِمَ لا؟ أستحق العقاب. كنت أتوقع حدوث ذلك كل يوم،

طوال ست سنوات. من الأفضل أن تفعلي ذلك بنفسك. لديك الحق أكثر من أي شخص آخر».

«لا أعلم ما الذي تعنيه؟».

«ما فعلناه بكِ كان فظيعاً. كنا السبب في ارتيابك بخبرتك المهنية. لقد كذبنا عليك»، سكب لنفسه كأساً ثانية من الراكيا. «كانت لديكِ رؤية كافية لوضع حد لتلك المسألة، لم أكن وقتها أنا نفسي، أما بالنسبة لفيرنر - فلا بد أنكِ تعرفين أنه فيرنر، صحيح».

أومأت.

«كان فيرنر مهووساً». «تغضّن وجهه فجأة، بما ليّن خطوطه القاسية. «حنا، لم يمر عليّ يوم، منذ مغادرة الكتاب لهذا البلد، من دون أن أعض أصابع الندم عليه. حاولتُ، بعد بضعة أشهر، إقناع فيرنر بإعادته. أخبرته أنني سأقوم بالاعتراف. فهددني إن فعلت، سينكر كل شيء. وأنه سينقل الهاجادا إلى مكان لا يعثر عليها فيه أحد. بحلول ذلك الوقت، بدأت رؤيتي تنجلي بشكل أوضح. لقد كان مجنوناً بما يكفي للقيام بذلك. حنا...».

اتجه صوبي ثم تناول الكأس مني، وضعها على الأرض، ثم قبض على يدي. «افتقدتك كثيراً. أردت بشغف العثور عليكِ، لأخبرك... لأتوسل المغفرة منك...».

شعرتُ بحلقي يغصّ بجميع المشاعر التي تتوهج داخلي تجاهه – منذ الماضي وحتى هذه اللحظة – منذ أن بدأت هذه الغرفة، تغرقني بذكرياتها. لكن يد النقمة على ما فعله بي، كانت أشد وأقوى. سحبتُ يديّ بعيداً.

رفع يديه، مواجهاً إياي براحتيه، مظهراً اعتذاره عن تجاوزه للحدود.

«هل تعلم أنني بالكاد لمستُ كتاباً منذ ست سنوات، بسببك؟ بسبب أكاذيبك. تخليتُ عن ذلك، حين أقنعتني أنني على خطأ». مشى صوب النافذة المطلة على رقعة من السماء والمدينة. أضواءٌ تومض خارجاً. أضواء لمدينة حية. افتقدت للسنا الوهاج قبل ست سنوات.

«لا عذر لما فعلتُه. لكن عندما توفي إليا، أصبتُ باستياء شديد من

بلادي. واستسلمتُ للقنوط. فيرنر كان هنا، يهمس في أذني، يخبرني أنه من الصواب أن يُعاد الكتاب هذا إلى اليهود تعويضاً عن كل ما سُرق منهم. أقنعني أن الهاجادا لهم، وأنهم الأقدر على حمايتها...

حمايتها بطريقة لن تتمكن هذه الدولة الضئيلة في منطقة ساخنة - اسمها بحد ذاته مترادفاً مع العداء والإجرام وعدم الفعالية -».

«كيف يمكنك التفكير بهذه الطريقة، أوزرين؟ أنت، السرايفي والمسلم، الذي أنقذها. بينما خاطر أمين المكتبة الآخر، شريف كمال، بحياته لحمايتها؟» لم يقل شيئاً. «ألا تزال تفكر بهذه الطريقة حتى الآن؟» «لا»، قال. «ليس الآن. أنت تعرفين أنني لست رجلاً متديناً. لكن يا حنا، أمضيت ليالي عدة، مستلقياً هنا في هذه الغرفة، مدركاً أن الهاجادا وصلتْ إلى سرايفو لسبب ما. كانت هنا لاختبارنا، لمعرفة ما إن كان ثمة أحد في هذا البلد مقتنع بأن ما يوحدنا أكثر مما يفرقنا، أن الإنسان أهم بكثير من كونه يهودياً أو مسلماً أو كاثوليكياً أو أرثوذكسياً».

صوتُ ضحكة جلجلت في الطابق السفلي، في متجر المعجنات.

سُحلت حطبة، ثم تهاوتْ في الموقد. «إذاً» قلت.

«كيف سنعيدها؟».

حين قابلتُ أميتاي في وقت لاحق، وأخبرته كيف فعلنا ذلك، ابتسم.

«الأمور تجري دائماً هكذا. تسعة وتسعون في المئة مما فعلته في الوحدة كان بهذه الطريقة. لكن الأشخاص الذين يرتادون السينما أو يقرأون روايات التجسس لا يريدون تصديقها. يحلو لهم الاعتقاد بأن العملاء يرتدون بدلات النينجا يتعلقون على الأسلاك داخل القنوات الخاصة بالتكييف، أن المتفجرات البلاستيكية، المخبأة... بما يشابه الأناناس أو شيئاً من هذا، تتشظى في كل مكان. لكن الحقيقة في كثير من الأحيان، تشبه تماماً ما تقوم به بشكل اعتيادي: أنت بحاجة لمزيج من الحظ، وحسن التوقيت، وقليل من المنطق السليم. ويوم عيد إسلامي - ممتنين له لأنه يوم العيد الأجمل».

لأنه يوم عيد الفطر، حارس واحد فقط في الخدمة لحراسة المتحف في تلك الليلة. انتظرنا لما بعد الساعة 4:00 صباحاً، مع العلم أن استبدال الحراس في الصباح يبدأ في الساعة 5:00. أخبر أوزرين الحارس أنه لا يستطيع النوم بعد الكثير من الاحتفالات، لذلك قرر القيام ببعض الأعمال. بما أنه «بيرام» (عيد الفطر) فقد أرسل الحارس إلى المنزل للحصول على قسط من الراحة، كي يتمكن من الاحتفال مع عائلته في وقت لاحق من اليوم. أكد له أوزرين أنه سيقوم بالإجراءات الأمنية اللازمة.

انتظرت بالخارج مرتعشة حتى لمحتُ الحارس مغادراً. أدخلني أوزرين. نزلنا بداية إلى الطابق السفلي، حيث اللوحة التي تتحكم بأجهزة الاستشعار في معرض الهاجادا. كمدير، امتلك أوزرين رموز التعطيل، بالتالي تمكن من تعطيل أجهزة استشعار الحركة مؤقتاً. أما شاشة كاميرا المراقبة فأمر آخر: إذ لا يمكن فصلها من دون إطلاق إنذار. لكن أوزرين رتب لذلك. مشينا في القاعات، عبرنا القارب العائد لعصور ما قبل التاريخ ومجموعات من الآثار، حتى وقفنا عند باب معرض الهاجادا.

بدأت يد أوزرين ترتجف قليلاً مع إدخال الكود، أخطأ في لكز أحد الأرقام.

«لدي فرصة واحدة للقيام بذلك. خطأ ثانٍ، ينطلق المنبه». أخذ نفساً عميقاً نقر أرقامه مرة أخرى. صدح صوت مخمّد: أ د خ ل. لكن الباب لم يُفتح. «إنه في وضعية ما بعد ساعات العمل، لذلك يتطلب الأمر منا شخصين. رمز كبير أمناء المكتبات مطلوبٌ أيضاً. هلا فعلتِ ذلك من فضلك؟».

لم ترغب يدي عن التوقف عن الارتعاش.

«لكنني لا أعرفه!».

قال من دون تردد: «خمسة وعشرون، خمسة، ثمانية عشر، اثنان وتسعون». نظرت إليه باستهجان، لكنه هز رأسه مشجعاً. فعلتُ. هسهس الباب مفتوحاً.

«لكن كيف عرفت الرمز السري؟» ابتسم. ما انفكت مساعدتي لتسع سنوات، بالرغم أنها مكتبية عظيمة، تفتقد ذاكرة الأرقام. الرقم الوحيد الذي يمكن أن تتذكره هو عيد ميلاد تيتو. الذي تستخدمه في كل شيء».

دخلنا الجناح، كان خافتَ الإنارة للغاية، بضوء ضئيل، بما يسمح لكاميرا المراقبة بالعمل فقط. حدقت العدسة بنا، وسجلت خطواتنا كلها. جلب أوزرين مصباحاً ضوئياً كيلا نضطر إلى تشغيل الأنوار. ربط قماشة حمراء اللون عليه لكتم السطوع. رقصت الذراع حول الجدران لثانية واحدة حين وصل إلى جيبه للكز المفتاح الرقمي الذي سيفتح خزانة العرض.

ضغط على المفتاح، ثم طوى لوح الزجاج للخلف. كانت نسخة فيرنر المزيفة مفتوحة عند المنمنمة المُضاءة عند السيدر الإسباني، للأسرة الثرية والمرأة الإفريقية الغامضة في ثوبها اليهودي. إنها الصفحة التي وجدتُ فيها الشعر الأبيض في الهاجادا الأصيلة. أغلق أوزرين نسخة فيرنر، ورفعها من الخزانة، ثم وضعها على الأرض.

بعكس اللحظة التي عبرت بيننا قبل ست سنوات، سلمته الهاجادا السرايفوية. أمسكها بكلتا يديه، ثم ضغطها على جبينه للحظة.

«أهلا بعودتكِ»، قال. ثم وضعها بعناية فوق القالب. قلبها بعناية فائقة، بحذر حتى وصل إلى منمنمة السيدر.

حبستُ أنفاسي من دون وعي، حين أوشك أوزرين على إغلاق الفترينة.

«انتظر». قلتُ «دعني أنظر إليها لثانية واحدة فقط.» أردتُ لحظة أخرى مع الكتاب قبل أن أغادره إلى الأبد.

لم أدرك، إلا لاحقاً، كيف تمكنتُ من رؤيته هناك، في ذاك الضوء الخافت، بينما فاتني ملاحظته سابقاً. لعل حرارة الضوء الأحمر المنبعثة من المصباح أحالته مرئياً. هناك علامات باهتة تتبع خط تنورة ثوب المرأة الأفريقية. استخدم الفنان لوناً أغمق بدرجة واحدة فقط من زعفران الثوب. أما خطوط النص فدقيقة جداً، رقيقة بشكل لا يصدق - لم لا، إن

كانت فرشاة من شعرة واحدة هي التي خطتها. لا بد أنني حين تفحصت المنمنمة في وضح النهار، أو في الضوء المعتدل للمصابيح الفلورية، بدت الخطوط الدقيقة مجرد ظلال يرسمها فنان ذكي بين طيات النسيج.

لكن في الضوء الدافئ لشعلة أوزرين المخففة، تمكنتُ من ملاحظة أن الخطوط الشعرية ليست سوى نقش. إنها نقشٌ عربي.

«بسرعة! بسرعة، أوزرين، أعطني عدسة مكبرة».

«ماذا؟ هل انت مجنونة؟ ليس لدينا وقت لذلك. ما الذي...».

ارتفعتُ لأعلى وسحبت نظارته عن وجهه. أخفضتُ العدسة اليسرى إلى السطر الدقيق من النقش مغمضة عيناً واحدة. ثم قرأتُ بصوت عالٍ:

«أنا من أبدعَ » - أو يمكن ترجمة الكلمة أنها «من صنع» أو «من رسم » - كان صوتي يتهدج. مددتُ يداً لأثبت نفسي على الفترينة. «رسمتُ هذه الصور لبنيامين بن نتانيل ها ليفي»، ثم هناك اسم. أوزرين، هناك اسم! زانا - لا، ليس زانا، إنها زهرة - زهرة بنت إبراهيم الطارق، والمعروفة في إشبيلية باسم المورا. «المورا»، تعني «المرأة المغاربية». «أوزرين، لا بد أن تكون هي، المرأة في ثوب الزعفران. إنها الفنانة».

انتزع أوزرين نظارته من يدي، أنعم النظر في النقش العربي، بينما أمسكت المصباح بثبات. «الإضاءة الغامضة لهاجادا سرايفو، من إبداع امرأة أفريقية مسلمة، لا نزال نحدق بصورتها الشخصية منذ خمس مئة عام».

شعرتُ بسعادة غامرة بهذا الاكتشاف لدرجة أنني نسيت أننا في حالة سرقة عكسية. نبهني الأزيز المنخفض لكاميرا المراقبة التي تقوم بمسح أوتوماتيكي للجناح. رفع أوزرين جانب الفترينة وأغلقه بنقرة نهائية.

«ماذا نفعل حيال ذلك؟» قلتُ، مشيرة إلى كاميرا المراقبة. أشار لي باللحاق به. اختار شريطاً من خزانة مقفلة في مكتبه، من رف مقاطع الفيديو، المرتبة وفق التاريخ. وضع الشريط المختار على مكتبه.

كان لديه بطاقة لاصقة معدّة سابقاً، تحمل تاريخ ذلك اليوم. استبدل اللصاقة ببساطة باللصاقة الحالية، بنفس الساعة لأسبوع فائت.

«يتعين علينا الآن إخراجك من هنا قبل وصول الحراس.» توقفنا في الطريق إلى الخارج، عند مكتب الأمن. ملأ أوزرين السجل، موضحاً أنه تم الانتهاء من جولته الساعة 4:30 من دون حدوث أي خطأ. ثم قام بالضغط على زر الخروج الموجود على شاشة المراقبة وتبديل مقاطع الفيديو. مع ارتعاش خفيف، قام بسحب شريط الإدانة من عبوته البلاستيكية.

«أتلفيه في طريق عودتك إلى سويت كورنر، هلا فعلتِ؟ في مكان ما غير واضح، حيث الكثير من القمامة. لا بد لي من إعادة ضبط مجسات الحركة والانتظار حتى قدوم حراس الصباح. سألتقي بعدها بك هناك. لا يزال يتعين علينا التخلص من الهاجادا المزيفة -».

أدركنا في نفس اللحظة كلانا، أن الهاجادا المزيفة - المزيفة حد الكمال - لا تزال في المكان الذي تركناها فيه، على أرض قاعة العرض. بقي لنا خمس إلى عشر دقائق. إن وصل أحد حراس الصباح أبكر من العادة، فستكون، كما يقولون بلغة الكلاسيكيات «وقعتِ اللعنة علينا». أعتبر الدقائق القليلة التالية من حياتي، الجزء الذي سأعجز عن تدوينه أبداً. إن قلت أن قلبي كان يقصف في صدري، فالتعبير بخس للغاية. توقعتُ أن تمدداً في الأوعية الدموية قد نال مني.

ركضتُ إلى مكتب أوزرين، متلعثمة بالمفاتيح، فتحت الخزانة، أمسكت بشريط بديل آخر، ثم اخترقت مكتب مساعده، أبحث عن لصاقة. لم أجد واحدة.

«اللعنة... اللعنة! لم أستطع أن أصدق أننا سنُعتقل بسبب عدم وجود لصاقة لعينة. قال أوزرين وهو يفتح صندوقاً خشبياً صغيراً: «إنهم هنا». تسابقنا مرة أخرى إلى معرض الهاجادا، وأعدنا الرموز، التقطناها معاً، ثم سارعنا إلى مكتب الأمن. انزلقتُ على الأرض الرخامية وخدشتُ ركبتي بشدة. انزلق الشريط فوق الأرض متدحرجاً. التفت أوزرين،

رفعه، ثم انتزعني بخشونة لأقف على قدمي، أحسستُ بيده تخلع كتفي. اغرورقت عيناي.

«لست معتادة على هذه الأشياء.» تنشجت.

لا تهتمي بذلك الآن، اتفقنا؟ اذهبي بسرعة. خذي هذا».

ناولني كتاب فيرنر المزيف. «سأراكِ في سويت كورنر». ثم دفعني خارج الباب.

كنتُ على بعد مبنى واحد من المتحف، عندما رأيت رجلاً يرتدي الزي الرسمي لحراس المتحف يمشي الهوينا صوبي، متثائباً. اضطررتُ، أثناء عبوره، لإجبار نفسي على متابعة المشي بشكل طبيعي بالرغم من ركبتي المُصابة. عندما وصلت إلى سويت كورنر، لمحت صانع المعجنات لا يزال يعمل، موقداً النار في أفرانه. رمقني بنظرة غريبة للغاية، مع خطواتي الصاعدة، لوحدها، نحو العلية.

أشعلتُ النار وفكرت في الفنانة زهرة الطارق. كيف تعلمت فن الرسم، كيف احترفت الكتابة. لا إنجازات تذكر لنساء في عصرها. الكثيرات من الفنانات المجهولات تعرضن للتهميش بذل الإشادة بأعمالهن. الآن، أخيراً، إحداهن ستكون معروفة. مشهورة. يمكنني تقديم ذلك لها. إنها البداية. هناك تالياً؛ الاسم الآخر، ها ليفي، إضافة للإشارة إلى مدينة إشبيلية - إن كانت قد عاشت مع عائلة ليفي في إشبيلية، فهذا يعني أن المنمنمات قد سبقت النقش تاريخياً... عدة أسطر من الاستقصاء انطلقت من هذه الكلمات القليلة، عدة كلمات ستفتح الأبواب للكثير من الاكتشافات، والمزيد من المعرفة. أسندتُ بضع وسائد لأوزرين على الحائط. سيدوم موسم الأمطار في أقصى الإقليم الشمالي لشهرين أو ثلاثة أشهر. استندتُ للخلف، وبدأت التخطيط لرحلة إلى إسبانيا.

بعد دقائق قليلة، سمعتُ أوزرين قادماً. كان ينادي باسمي وهو يصعد الدرج، درجتين في الخطوة الواحدة. استطعت سماع الصرير المتذمر

للدرجات القديمة. كان متحمساً للأمر مثلي تماماً. فهم وأخبرني أنه سيعمل على مساعدتي. معاً، سنبحث عن الحقيقة حول زهرة الطارق. معاً، سنعيدها إلى الحياة. لكن قبل كل شيء، هناك مهمة علينا القيام بها.

وقف أوزرين أمام النار، مع مخطوطة فيرنر المزورة في يده. لم يتحرك.

«بماذا تفكر؟».

«أفكر، لو أن أمنية واحدة وهبت لي، لتمنيت أن يكون هذا الكتاب هو الأخير الذي سيحرق في مدينتي».

إنها الساعة الأشد برودة، قبل شروق الشمس مباشرة. حدقتُ في النيران، فكرتُ في التشويه الذي نال من الرق في العصور الوسطى. بالوجوه النازية الشابة، المضاءة بنيران الكتب المحترقة؛ تذكرتُ مخلفات الدمار والركام، على بعد بضعة مبانٍ، من مكتبة سرايفو. استعدتُ حرائق الكتاب. جال في خاطري المبشرون على الدوام. المنذرون بالخطر، ذعر المقابر الجماعية.

«لا بد من إحراق كتبه»[146]. قال كليبان متآمراً ضد بروسبيرو. لم أستطع سرد بقية الحوار. لكن أوزرين تذكره.

«لا تنسَ تجريده من كتبه، لأنه بدونها
يصبح كالبهيمة - مثلي تماماً، لن يبقَ لديه
أية روح للسيطرة...».

عبر الزجاج المثلج لنافذة العلية، رمقتُ النجوم تتلاشى إبان توهج السماء ببطء بالألترامارين الثري، ألترا «الجانب البعيد». مارين، «بحري». اللون الملتصق بالرحلة اللازوردية، من الجانب البحري

146- مسرحية العاصفة: (المشهد الثاني، الفصل الثالث) مسرحية تقع في خمسة فصول للشاعر الإنكليزي وليام شكسبير وهي آخر أعماله التي عالج فيها قضية القدر والإرادة الإنسانية.

البعيد صوب لوحة زهرة الطارق. نفس الحجر الذي استخدمه فيرنر كأرضية لصنع الأزرق الغني الذي استحال لوناً أسود قريباً للكربون.

حدق أوزرين في الكتاب بين يديه، ثم في ألسنة النار. قال:

«لا أعتقد أنني قادرٌ على ذلك». نظرتُ إلى الهاجادا المزيفة. كما الأصلية تماماً، إنها تحفة فنية. خلاصة مثالية لكل فن تعلّمه فيرنر إبان حياته الطويلة، عن كل ما علمني إياه بدءاً من أهمية إتقان الحرف القديمة وصولاً لأدوات وأسرار الحرفيين القدماء. ربما يمكنني وضعها في حقيبتي ذات العجلات.

ربما أمضي بها إلى أميتاي. بعد فترة مناسبة، لعله يعلن أنها بمنزلة هبة، مغزولة بحب من قِبل العظيم فيرنر هاينريش من أجل شعب إسرائيل. لا بد أن الرجل، في النهاية، جزء من تاريخ الهاجادا الحقيقية. لكن، لا تزال هناك فترة تاريخية للمخطوطة، يجب أن تبقى سرية لفترة طويلة من الزمن. في يوم من الأيام، ربما، يأتي شخص، يوماً ما يرتاب لأمرها. حافظُ آثار في القرن المقبل، أو في القرن الذي يليه، حين يجد البذور التي أسقطتُها في غلاف الهاجادا الحقيقية، بين الصفحة الأولى والثانية. بذرة تين من خليج موريتون، ثمرة الأشجار الملتوية الكبيرة المصطفة على شواطئ ميناء سيدني. فعلت ذلك عن نزوة، في آخر يوم لي بسيدني. إنها علامتي. فكرة تحريضية، لشخص مثلي في المستقبل البعيد، قد يجدها، ويتساءل...

«إنها جريمة». قلتُ «تشكل خطراً عليك».

«أعلم. لكن تم حرق الكثير من الكتب في هذه المدينة».

«تم حرق الكثير من الكتب في العالم».

لم تسعفني ألسنة اللهب في النجاة من الارتعاش. وضع أوزرين الكتاب على رف في أعلى الموقد. اتجه صوبي. أحاطني بذراعيه.

لم أنسحب هذه المرة.

خاتمة

كلمة الكاتبة

أهل الكتاب... عمل خيالي مستوحى من القصة الحقيقية للمخطوط العبري المعروف باسم هاجادا سرايفو. في حين أن بعض الحقائق صحيحة في تاريخ الهاجادا المعروف، إلا أن المؤامرات بمعظمها والشخصيات بكلها وهمية.

سمعتُ أول مرة عن الهاجادا حين كنتُ مراسلة لصحيفة في سرايفو لتغطية الحرب البوسنية لمصلحة صحيفة وول ستريت جورنال. دخانٌ كثيفٌ، في ذلك الوقت، اكتنف مكتبة المدينة متصاعداً من الصفحات المحترقة بعد سقوط قذائف الفوسفور الصربية. كان المعهد الشرقي ومخطوطاته البديعة آنذاك، في حالة رماد تام. أما المتحف الوطني للبوسنة فكان مبعثراً بفعل شظايا القصف المتكرر.

كان مصير هاجادا سرايفو - الجوهرة التي لا تقدر بثمن بين التحف البوسنية - غير معروف، حيث ظلَّ محور التكهنات في الكثير من الصحف. بعد انتهاء الحرب تم الكشف عن إنقاذ المخطوطة من قبل أمين المكتبة المسلم، إنفر إماموفيتش، إبان القصف وإخفائها بحفظها في قبو بنك. لم تكن هذه المرة الأولى التي يُنقذ فيها الكتاب اليهودي هذا بأيدي المسلمين. في عام 1941، قام درويس كوركوت، وهو عالم إسلامي مشهور، بتهريب المخطوطة خارج المتحف رغم أنف الجنرال النازي، يوهان هانز فورتنر (الذي أعدم شنقاً، لاحقاً، بتهمة تورطه في

جرائم الحرب)، وانتقل بها بعيداً إلى مسجد في الجبال، حيث أعيد إخفاؤها بأمان لما بعد الحرب العالمية الثانية.

عمليات الإنقاذ البطولية هذه كانت إلهامي الأولي، إلا أن الشخصيات التي نسبت إليها هذه الأعمال في الرواية هي خيالية تماماً.

أثارت الهاجادا انتباه الباحثين لأول مرة في سراييفو عام 1894، حين عرضتها أسرة يهودية فقيرة للبيع. كان مؤرخو الفن مبتهجين بالعثور عليها، حيث كانت من أوائل الكتب العبرية المزخرفة التي ظهرت في العصور الوسطى. دعا اكتشافها إلى الاعتقاد بأن الفن الرمزي قد تم قمعه بين اليهود في العصور الوسطى لأسباب دينية. لسوء الحظ، لم يتمكن العلماء من تعلم الكثير حول صناعة الكتاب بخلاف أولئك الذين أتقنوها في إسبانيا، خاصة في وقت مبكر من منتصف القرن الرابع عشر، في نهاية الفترة المعروفة باسم الحكم الأندلسي، حيث تعايش اليهود والمسيحيون والمسلمون في سلام خاص.

لم يعرف شيء عن تاريخ الهاجادا، خلال السنوات الصاخبة المعاصرة لمحكمة التفتيش الأسبانية وطرد اليهود عام 1492. أما عن فصول الرواية «شعرة بيضاء» و«مياه البحر» فهي خيالية بالكامل. مع ذلك، لا تزال هناك امرأة ذات بشرة داكنة بثوب من الزعفران بالقرب من طاولة السيدر في إحدى لوحات الهاجادا. والتي ألهب غموض هويتها خيالي.

بحلول عام 1609، عثرت الهاجادا على طريقها إلى البندقية، حيث يبدو النقش المكتوب بخط يد الكاهن الكاثوليكي المدعو فيستوريني منقذاً إياها من الحرق في محاكم التفتيش التابعة للبابا. لا يوجد أي معلومة معروفة عن فيستوريني، خارج الكتب الناجية التي تحمل اسمه وطابعه. لكن العديد من العبرانيين الكاثوليك في تلك الفترة اعتنقوا اليهودية، واستخدمتُ الحقيقة تلك في «بقعة النبيذ». في هذا الفصل، أيضاً، شخصية يهوذا أريه استوحيتها من حياة ليون مودينا على النحو

الموصوف في سيرة حياة حاخام القرن السابع عشر، ترجمة وتحرير مارك ر كوهين. كما قدم ريتشارد زاكس مجموعة لا تقدر بثمن، من المقالات عن القمار في البندقية خلال القرن السابع عشر.

نظراً لأن البوسنة رزخت تحت نير احتلال الإمبراطورية النمساوية المجرية، عندما ظهرت الهاجادا هناك عام 1894، كان من الطبيعي إرسالها إلى فينا، إلى مركز الثقافة والمنح الدراسية، للدراسة والترميم. بالنسبة لجو المدينة في ذلك الوقت، خاصةً للحصول على تفاصيل مثل الأساليب المداهنة لمشغلي الهاتف، فإنني مدينة بالتاريخ السردي إلى (A Nervous Splendour) لفريدريك مورتون. وبالمثل، قدم براين هولز (The Dreamers and The Impossible Country) الحالمون والبلد المستحيل رؤى لا غنى عنها. في حين أنه من الصحيح، وفقاً للمعايير الحديثة، أن تغليف الهاجادا قد أسيء التعامل معه في فينا، لكن مسألة المشابك المفقودة هي اختراع روائي. قبل كتابة «جناح الحشرة» كان لدي العديد من المحادثات الطويلة مع أفراد من عائلة ديرفيس كوركوت، أنا مدينة بشكل خاص، لسيرفت كوركوت، التي وقفت إلى جانب زوجها في أعماله البطولية الكثيرة المقاومة للاحتلال الفاشي لسراييفو. آمل أن تجد عائلة كوركوت، عائلتي التي اخترعتها، عائلة كمال، منسجمة مع مُثلهم الإنسانية.

للحصول على تفاصيل حول تجارب الأحزاب اليهودية، اعتمدتُ على الرواية المؤلمة التي كتبتها ميرا بابو، الموجودة في ياد فاشيم، حيث كان أمناء المكتبات ذوي نفع كبير لي...

أمناء المكتبات في سرايفو ينتمون لسلالة خاصة جداً. وهبت إيدا بوتوروفيتش، إحداهم على الأقل، حياتها وهي تنقذ كتباً من مكتبة سراييفو المحترقة. بينما تعرض آخرون، مثل كمال بكارسيتش، لمخاطر هائلة، ليلة بعد ليلة، لإخلاء مجموعاتهم في ظل ظروف قاتلة. كما سبق أن ذكرتُ أنفر إماموفيتش، الذي أنقذ الهاجادا خلال فترة

القصف العنيف. ممتنة لكلا الرجلين لتحدثهما معي عن تجاربهما، كذلك إلى سانجا باراناك، وجاكوب فينشي، ومرسادا موسكيتش، ودنانا بوتوروفيتش، وبرنارد سيتيموس، وبزيلال ناركيس، وب. نيزروفيتش لتبصرهم ومساعدتهم.

للحصول على المساعدة في البحث والترجمة، أود أن أشكر أندرو كروكر، نيدا أليكس، حليمة كوركوت، وباميلا جيه ماتز. لتقديمي إلى فراشة بارناسيوس في متحف هارفارد للتاريخ الطبيعي، ممتنة لنعومي بيرس.

كانت باميلا سبيتزمويلر وثيا بيرنز من مكتبة كلية هارفارد سخيتين بقصصهما عن الجانب السري المتمثل في حفظ الكتب.

في ديسمبر 2001، سمحت لي أندريا باتاكي بلطف بحضور آخر، في غرفة مزدحمة للغاية، بينما كانت تعمل في سرايفو على الهاجادا الحقيقية تحت حراسة مشددة في بنك الاتحاد الأوروبي. لم أكن لأتمكن من مراقبة عملها الدقيق دون تدخل فريد إيكهارد وجاك كلاين من الأمم المتحدة. حين سمحا لي بسكب نبيذ كوشير على أجزاء من الرق القديم، لشرح النقاط الدقيقة لمقارنات الفيديو الطيفية.

لكوني أسترالية، عندما لم أكن متأكدة أن المهنة التي اخترعتها لحنًا معقولة إلى هذا الحد، فإني ممتنة لمواطنتي نارايان خانديكار في مركز شتراوس للحفظ. بينما تعلمتُ الكثير عن المهنة والجوانب التقنية الخاصة بالحفظ من قبل كل من أندريا باتاكي ونارايان خانديكار. لا تشبه الشخصيات الخيالية لحنا هيث ورازموس كاناها مطلقاً أياً من هؤلاء المهنيين في الواقع.

لم يكن بإمكاني الوصول إلى جميع ثروات المكتبات والمتاحف بجامعة هارفارد لولا الحصول على زمالة في معهد رادكليف للدراسات المتقدمة، أكن التقدير الكبير لدرو جيلبين فاوست.

قادت جودي فيشناك فريقاً داعماً مثيراً للدهشة في المعهد. الزملاء

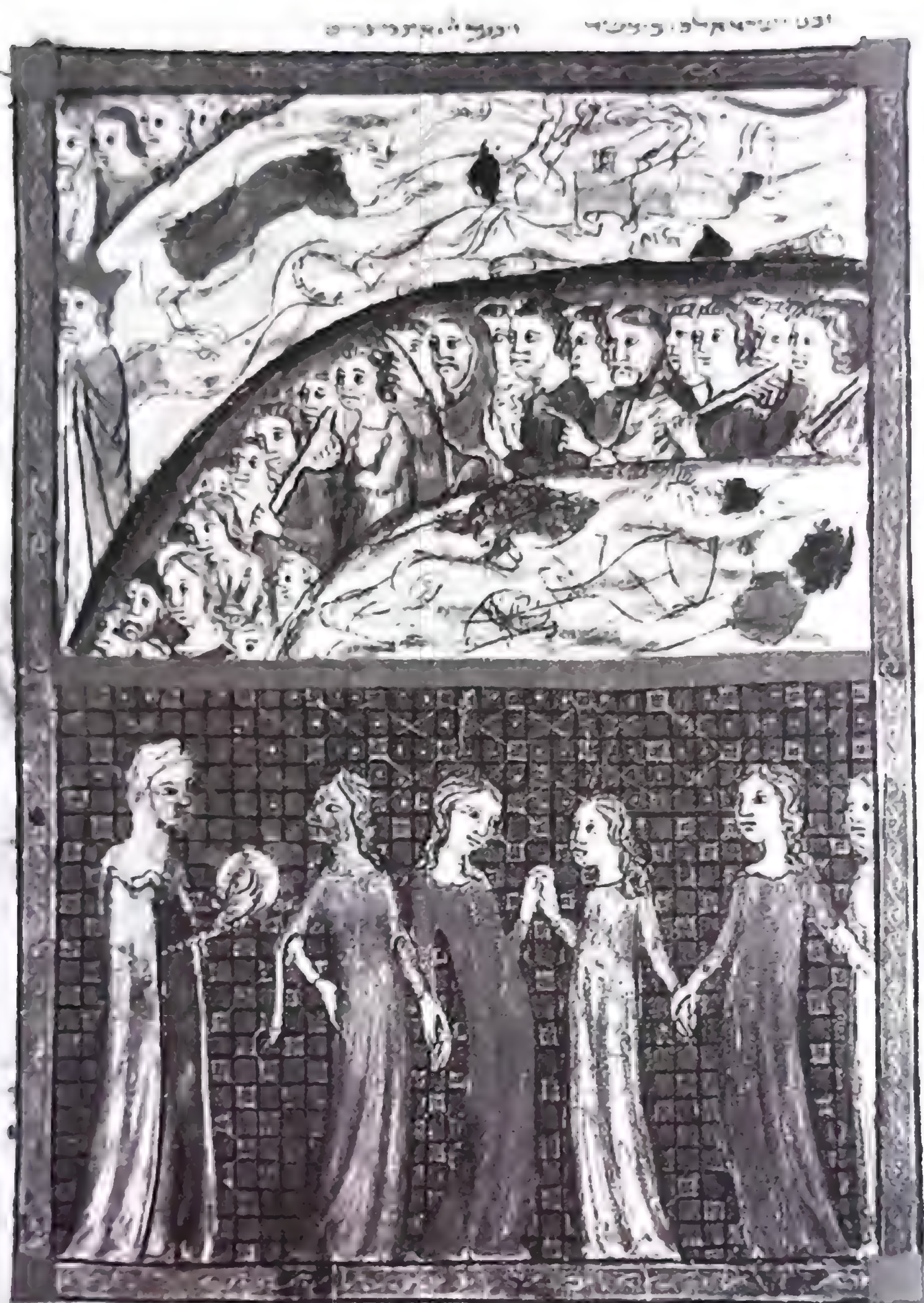
في (Radcliffe)، وخاصة الأعضاء من كُتّاب الثلاثاء، الذين ساهموا في تشكيل تفكيري وكتابتي بطرق لا تعد ولا تحصى.

اعتمدت أيضاً بشكل كبير على رؤى القراء الأوائل، خاصة جراهام ثوربورن، فريق هورويتز من جوشوا، إلينور، نورمان، وتوني، الحاخام كارين بروتمان من مركز مارثا فينيارد العبري، ليونة ستام جاي غرينسبان، كريستين فارمر، لين ستون كلير ريهيل، ماري أندرسون، وجيل مورغان.

جزيل الشكر لا يكفي للمحررة مولي ستيرن، إلى جانب نائبتي كريس دال، اللتين كانتا، كما هما دائماً، داعمتين لا غنى عنهما، واثنتين من أكثر المهنيين الهائلين في مجال النشر.

أخيراً، يجب أن أشكر كلاً من توني وناثانيل على شعلة الإلهام، الذين بدونهما لا شيء ممكن.

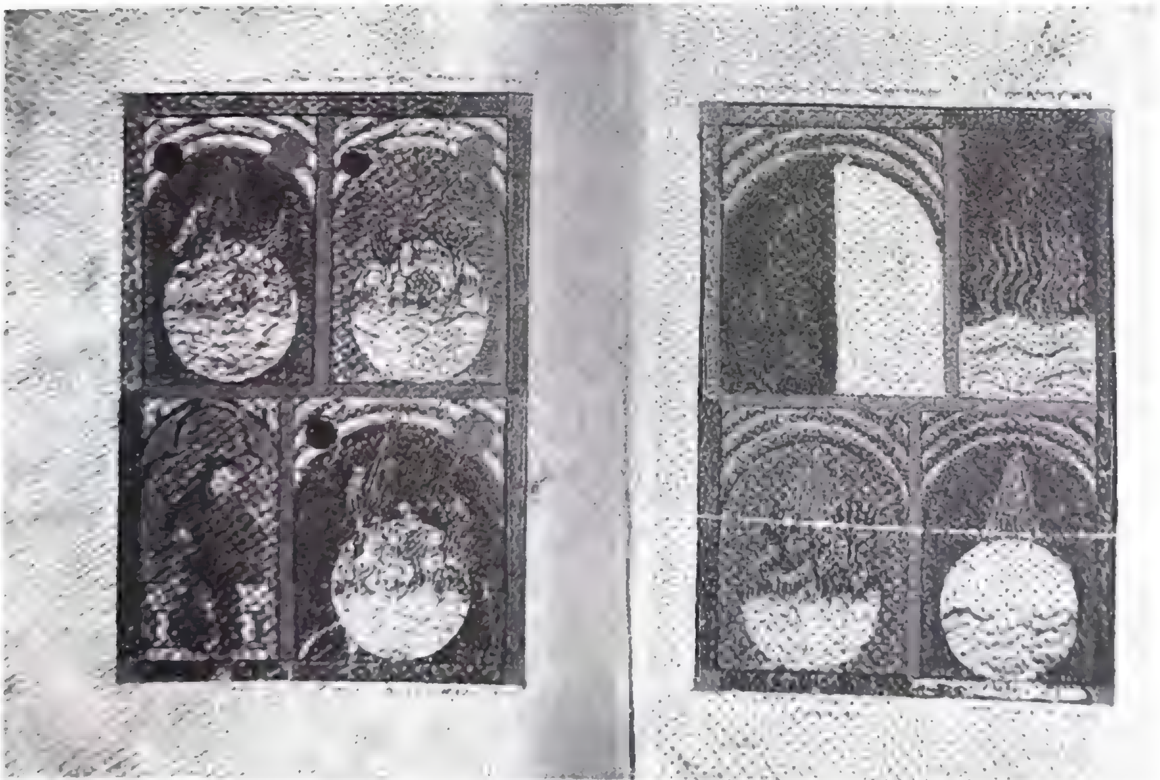
ملحق الصور



ا -عبور البحر الاحمر

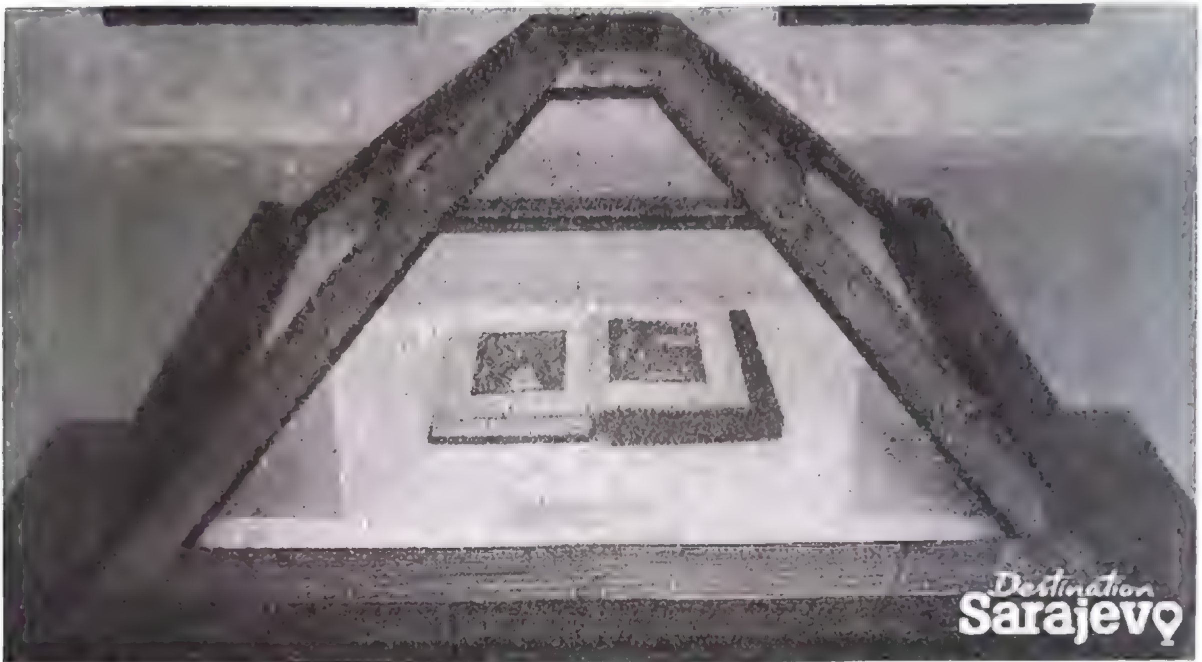


2 – عائلة تجلس إلى طاولة السيدر



3 – تصوير الافلاك و النجوم و الارض الكروية في الهاجادا







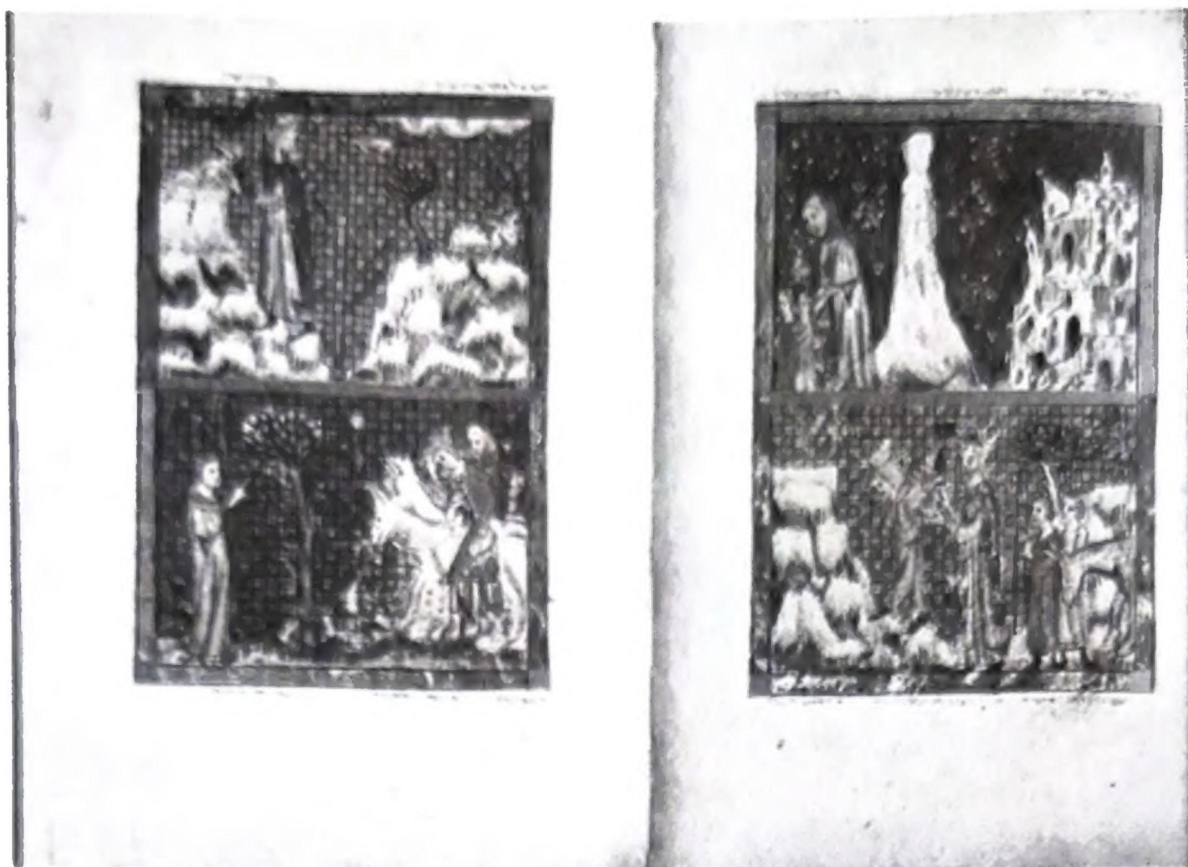
4 - صور لمكان عرض الهاجادا في المتحف الوطني في البوسنة

5 – النقش العبري في مخطوطة الهاجادا





6 – صفحات من هاجادا سرايفو





7 – صفحات من هاجادا سرايفو

«حققت رواية جيرالدين بروكس «أهل الكتاب» التوقعات الكبيرة المرجوة منها. إذ يقوم بائعو الكتب بمقارنة مبيعاتها الهائلة بمبيعات كتاب شيفرة دافنشي، إلا أنهم يعتبرونها الإنجاز الأدبي الأهم لعام ٢٠٠٨.

هل أوفت بروكس بوعدها؟ نعم، مع قدر أقل من الضوء الذي ألقي على دافنشي... لو أصبحت بروكس القديسة الجديدة لبائعي الكتب، فهي تستحق ذلك. حيث تثير قصص هاجادا سراييفو، الواقعية والخيالية، شواهد على أهل العديد من الديانات الذين خاطروا جميعاً، لإنقاذ هذه التحفة التي لا تقدر بثمن».

– الولايات المتحدة الأمريكية اليوم– USA Today

«في كتاب أهل الكتاب، قامت بروكس ببناء رواية محبوكة بشكل رائع. حيث تناغمت الخيوط المرتبطة بالعالم المعاصر مع مسارات تقودنا نحو التاريخ الأوروبي، إلى الحروب ومحاكم التفتيش والمآسي العائلية، كل هذا يشكل رواية حية، وتنقيباً عاطفياً قوياً».

– دالاس مورنينغ نيوز – The Dallas Morning News



«أنجزت بروكس رواية بارزة، حيث أبدعت قصة جذابة وممتعة، حتى مع محافظتها على مكنونات سريرتها وغرضها الجاد».

– ذا نيويورك سن– The New York Sun

«في أعماق رواية جيرالدين بروكس المبهجة – الكتاب الذي لعله يضع المعايير التي يُقاس وفقاً لها الخيال في عام ٢٠٠٨ – لا يزال الجانب المثير للاهتمام كامناً في أسرنا – سنقع في حفرة أرنب ليختفي العالم بأسره، يتعامل أهل الكتاب مع ستة قرون من الخبرة العالمية، بهذا المعنى... تدمج رواية بروكس بدقة ومحبة الغموض والتاريخ، مع القصة الشخصية لبطلتها خبيرة الكتب النادرة المختصة في حفظ الكتب حنا هيث... النابضة بالحياة.»

– هيوستن كرونيكل – Houston Chronicle

«هل سبق لك أن التقطت كتاباً من أحد متاجر الكتب المستعملة، وحصلتَ منه على إيصال ما، أو اكتشفت رقم هاتف مكتوباً على ورقة غافية بين طياته، أو قرأت نقشاً عن مشاعر دافئة لشخص لم تصله؟ هل جعلك تتساءل عن حياة أولئك الذين قلبوا تلك الصفحات قبلك؟ يعبر أهل الكتاب عن هذه الدسائس بالذات.»

– شيكاغو سن تايم– Chicago Sun-Time


ISBN 978-9933-6046-9-1
9 789933 604691